

فقه الأسرة برؤية مقاصدية

(٧)

الأبعاد الشرعية لتربية الأولاد

د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب خمسة أبعـاد مهمـة يحتـاج المـربي إلى مراعاتها في تربية الأولاد، وهي:

البعد الإيماني: وهو المعارف الإيمانية العميقة الـتي تشكل قناعات المؤمن العقلية والروحية، والتي تبرمجه بعد ذلك ليسير في الحياة وفق ما تمليه حقيقة الكون والإنسان والحياة.

البعد الروحي: وهو ما ينتجه البعد الإيمـاني من آثـار في روح المـؤمن ليصـلها باللـه عبوديـة وخشـوعا وإذعانـا وترق في مقامات السلوك إلى الله.

البعـد الأخلاقي: وهـو تهـذيب النفس وفـق الآداب الشرعية، وكسوتها بكسـوة الإنسـانية الـتي ترفـع عنهـا مـا تتطلبـه طبيعتهـا من سـلوكات قـد تخرجهـا عن الكمـال الإنساني إلى البهيمية.

البعد الاجتماعي: وهو الارتبـاط الصـحي بـالمجتمع، فيتأدب معه وفق ما تتطلبه العلاقات الاجتماعيــة من آداب، ويكون عضوا إيجابيا فيه.

البعد المعرفي: وهو التزود بكل العلـوم والمعـارف التي أتاحها اللـه للإنسـان، ليتعـرف من خلالهـا على أسـرار حقيقتـه وحقيقـة الكـون، وليسـهل مـا تتطلبـه حياتـه من مرافق.

فقه الأسرة برؤية مقاصدية

(7)

الأبعاد الشرعية

لتربية الأولاد

د. نور الدين أبو لحية

http://www.aboulahia.com/

الطبعة الثانية

1438 – 2017

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

كما أن الشرع الحكيم بين لنا السبل والوسائل والأساليب التي نمارس بواسطتها التربية بأفضل ما يمكن وأجداه، كما عرفنا ذلك في الجزء السابق من هذه السلسلة، فإنه في الركن التالي للتربية، وأهم أسسها، وهو (أبعاد التربية) لم يتركنا ـ كذلك ـ لأنفسنا، لنعجن طينة فلذات أكبادنا بما تتطلبه أهواؤنا المتباينة، بل وضع لنا ملامح الشخصية السوية المتكاملة التي تمثل الإنسان في أرقى درجات كماله الممكنة، وأمرنا أن نبني من خلالها أنفسنا، ومن ولينا أمره من أهلنا.

ولذلك لم يكن البحث في هذه الأبعاد فضولا من القول أو حشوا من الكلام، بل هو من صميم الدين، وهو في الدين من صميم الفقه، لأن الفقيه ـ كما ذكرنا في الأجزاء السابقة ـ هو من يبحث عن تنفيذ الأوامر الإلهية وفق مقاصدها الحكيمة، لا الذي ينتظر ما أحدثه الناس ليحكم فيه صحة أو بطلانا، أو إباحة أو تحريما.

وقد رأينا من خلال استقراء النصوص، ومن خلال ما نتصوره من مواصفات الشخصية المتكاملة: أن هناك خمسة أبعاد، من استكملها كملت شخصيته، وصار متحققا بمراد الله من وجوده، وهذه الأبعاد الخمسة هي:

البعد الإيماني: وهو المعارف الإيمانية العميقة التي تشكل قناعات المؤمن العقلية والروحية، والتي تبرمجه بعد ذلك ليسير في الحياة وفق ما تمليه حقيقة الكون والإنسان والحياة.

البعد الروحي: وهو ما ينتجه البعد الإيماني من آثار في روح المؤمن ليصلها بالله عبودية وخشوعا وإذعانا وترق في مقامات السلوك إلى الله.

البعد الأخلاقي: وهو تهذيب النفس وفق الآداب الشرعية، وكسوتها بكسوة الإنسانية التي ترفع عنها ما تتطلبه طبيعتها من سلوكات قد تخرجها عن الكمال الإنساني إلى البهيمية.

البعـد الاجتمـاعي: وهـو الارتبـاط الصـحي بـالمجتمع، فيتـأدب معـه وفـق مـا تتطلبـه العلاقـات الاجتماعيـة من آداب، ويكون عضوا إيجابيا فيه.

البعد المعرفي: وهو التزود بكل العلوم والمعارف الــتي أتاحهـا اللـه للإنسـان، ليتعـرف من خلالهـا على أسـرار حقيقتـه وحقيقة الكون، وليسهل ما تتطلبه حياته من مرافق.

وبهـذه الأبعـاد الخمسـة يبـنى الإنسـان، كمـا أنـه بالأركـان الخمسة يبنى الإسلام[1]، وهذه الأبعاد اقتباس من تلك الأركان:

فالشهادتان بما تحملانـه من معـارف عميقـة تشـيران إلى البعد الإيماني.

والصلاة بما تحمله من صلة بالله تشير إلى البعد الروحي.

والصيام بما يحمله من تهذيب للطبيعة الإنسانية يشير إلى البعد الأخلاقي.

والزكاة بمـا تحملـه من تكافـل اجتمـاعي وإحسـاس بـآلام الآخرين تشير إلى البعد الاجتماعي.

والحج بمــا يحملــه من ســياحة في الأرض، وتعــرف على أرض الله وخلق الله يشير إلىالبعد المعرفي.

وقد حاولنا في هذا الجزء الذي طال ـ رغما عنا ـ أن نبحث

1() نحب أن بين أن كـون هـذه الخمسـة هي أركـان الإسـلام من المتفـق عليـه بين المسلمين جميعا، خلافا لمن يزعم أن الشيعة يخالفون المسلمين في ذلك، ففي (وسائل الشيعة 1:ـ 27 حديث(33) أبواب مقدّمة العبادات، أمالي الطوسـي: 518 المجلس(10) حـديث(1134): عن الرضـا، عن آبائـه، عن رسـول اللـه ﷺ: (بـني الإسـلام على خمس خصال: على الشهادتين والقرينتين)، قيل له: أمّا الشهادتان فقد عرفناهما فما القرينتان؟ قـال: (الصـلاة، والزكـاة، فإنّـه لا تقبـل إحـداهما إلاّ بـالأُخرى، والصـيام، وحجّ الـبيت من استطاع إليه سبيلاً، وختم ذلك بالولاية)

وفي (وسائل الشيعة:1ـ: 19 حديث(15) أبواب مقدّمة العبادات، الكافي 2ـ: 31 كتاب الإيمان والكفر): عن أبي جعفر في حديث، قال: (بني الإسـلام على خمس: شـهادة أن لا إله إلى الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجّ الـبيت، وصـيام شهر رمضان)

أما اعتبار الولاية من الأركان، فالولاية عندهم تعني الحاكمية، وقد تدخل في مضـمون الشهادتين، لأن من مضامينها حاكمية الله ورسوله ﷺ، ومن ولاه الله ورسوله ﷺ.

عن الطرق العملية في تحصيل كل ما يحتاج إليه من هذه الأبعاد، وقد رجعنا في ذلك إلى المصادر المختلفة من القرآن الكريم الذي هو الأصل، والسنة المطهرة[1]، وإلى كلام العلماء والمختصين فيما يتطلبه كل محل من معارف.

ونحب أن نبين ـ هنا ـ إلى أنا في كثير من الأحيان قد نهتم بذكر الأمثلة والنماذج، وقد نطيل فيها إذا اقتضى الأمر ذلك، وذلك لأن المربي قد يحتاج هذا النوع من النماذج.

وسبب ذلك هو أن الكلام النظري الإجمالي وحده قد يساء فهمه، وقد يصعب تطبيقه، فلذلك نذكر ما يوضح إجماله، ويفسر غموضه، كما نذكر من الأدلة ما نرى أنه يوصل إلى برد اليقين، ولو طالت، لأن العبرة بالنتيجة، لا بالوسيلة.

وكمثال على ذلك ما ذكرنا في المبحث الأول من البعد الإيماني، فقد فصلنا الكلام في (ضرورة البعد الإيماني) ودوره في تكوين الشخصية، وذلك لأن هناك قناعة منشرة باعتبار هذا البعد أمرا ثانويا، أو لا علاقة له بالشخصية السوية، فلذلك أطلنا الكلام فيه، لإقناع المربي بضرورته وأهميته.

وقد حاولنا أن نبحث عن الأدلة النصية لكل ما نذكره من أحكام، ولو من باب الإشارة، فلذلك اعتبرنا موعظة لقمان عليه السلام أصلا رجعنا إليه في كل محل، باعتبارها لم تذكر في القرآن الكريم حكاية أو مجرد قضايا، تنوع طرحها فيه، وإنما باعتبارها مقصودة بحد ذاتها في تشكيل شخصية الأولاد وتربيتهم.

---

1) تساهلنا في هذا الجزء في تخريج الأحاديث، فاكتفينا بالرجوع إلى تخريجات العلماء، وخاصة (كنز العمال)، و(الجامع الصغير) دون أن نرجع إلى المصادر الأصلية.

الفصل الأول

البعد الإيماني في تربية الأولاد

أولا ـ ضرورة التربية الإيمانية لبناء الشخصية السوية

إن الهدف الأساسي الذي يسعى كل مرب لتحقيقه هو بناء شخصية سوية لمن يربيه، تجعله إنسانا سليما في نفسيته، أمينا في أخلاقه، قويا في عمله وإنتاجه.

فهذه العناصر الثلاثة هي الأركان الأساسية التي تتكون منها الشخصية[1] السوية:

لأن من فقد السلام النفسي سيسقط في كهوف الخوف المرعبة التي تلمؤه حزنا وأسفا وضيقا واكتئابا، فيغرق في أوهامها، أو يتخلص منها بالهرب من كل شيء أو الهرب لكل شيء، ولذلك كان السلام هو بشرى المؤمن في الدنيا والآخرة، بل هو مقدمة كل كمال ولذة في الدنيا والآخرة.

أما من فقد الأمانة، فهو لص أو خائن أو كاذب، قد يغفل عنه المجتمع والقانون، فيخرج بزيه ومظهره لا يستر عورته أي ساتر، وقد لا يغفلون عنه، فيتسر عورات خيانته بأثواب شفافة قد تلقي عنه في أي حين ليظهر على حقيقته.

أما من فقد القوة، فهو متواكل ضعيف عاجز لا يستطيع من أمره ولا من أمر الناس شيئا، فوجوده كعدمه وحياته

---

1) عرف بعضهم الشخصية بـ (أنها وحدة متكاملة الصفات والمميزات، الجسمية والعقلية والاجتماعية والمزاجية التي تبدو في التعامل الاجتماعي للفرد، والتي تميزه عن غيره من الأفراد تمييزًا واضحًا، فهي تشمل دوافع الفرد وعواطفه وميوله واهتماماته وسماته الخلقية وآراءه ومعتقداته، كما تشمل عاداته الاجتماعية وذكاءه ومواهبه الخاصة ومعلوماته وما يتخذه من أهداف ومثل وقيم اجتماعية) انظر: الأمراض النفسيةوالعقلية لأحمد عزت:54.

وقد عرفت مجلة علم النفس (المجلد الأول، العدد الأول) الشخصية، بأنها (نظام متكامل من مجموعة من الخصائص الجسمية والوجدانية النزوعية والإدراكية التي تعين هوية الفرد وتميزه عن غيره من الأفراد تمييزًا بينًا، نقلا عن المرجع السابق.

كموته.

فالعنصر الأول لازم لبناء (أنا) الإنسان السوي، والعنصر الثاني لازم لوقاية النفس والمجتمع من الوحش الذي قد يسكن (أنا الإنسان)، والعنصر الثالث لازم لإخراج الإنسانية من السلبية إلى الإيجابية، ومن الاستهلاك بكل أنواعه إلى الإنتاج بكل أنواعه.

انطلاقا من هذا، فإن الأدلة على ضرورة التربية الإيمانية في بناء الشخصية السوية للطفل وغيره تتكشف من خلال ضرورة الإيمان لتحقيق هذه الأركان الثلاثة، فالإيمان هو المنبع الذي تستقى منه هذه الفضائل العظيمة، ولذلك كان أول ما وعظ به لقمان ﵇ ابنه أن قال له: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: 13)

فالشرك إشارة لكل ما ينحرف بالعقيدة عن حقيقتها وأهدافها، ويدخل فيه الإلحاد والتحريف، ويدخل فيه الكثير من الضلالات التي تسربت للمؤمنين كما تسربت قبل ذلك لغيرهم، فبقدر الضلالة يكون البعد عن الله، ويقدر البعد عن الله يكون انحراف الشخصية.

ويشير إلى هذه الضرورة أيضا قوله ﷺ وهو يعظ ابن عباس :(يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، إذا سألت فسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستَعَنْ باللَّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت عَلَى أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، وإن اجتمعوا عَلَى أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[1]

وفي رواية:(احفظ اللَّه تجده أمامك، تعرف إِلَى اللَّه في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا)

---

1) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

ففي هـذه الموعظـة إشـارة للجـوانب الثلاثـة من السـلام والأمانة والقوة، وهو ما سنبين مواضع الإشارة منه في محالها.

ونحب أن نبين أن الدراسات النفسية الحديثة أكدت أهميـة هذا الجـانب وضـرورته، ولا بـأس أن نسـوق هنـا مـا قالـه بعض المختصين في هذا، وهو الدكتور (هنري لنك) الطـبيب النفسـي الأمريكي، صاحب كتاب (العودة إلى الإيمان)

فقــد قــال منكــرا على النظريــات الــتي أشــاعتها بعض المــدارس النفسـية الحديثـة، رادا بـذلك على خصـوم التربيـة الدينية:(إن تربية الأطفال لمن أشق الواجبات وأخطرها وأدقها، ومشاكلها شـديدة التعقيـد والعسـر، وهي بعـد ذلـك ذات أوجـه متناقضة عند حلها يكون معها الآباء في مسيس الحاجة إلى أيـة معونة خارجية، مهما بلغت درجة تواضعها وبساطتها.. وقد كــان طبيعيــاً: بعـد أن اسـتغنى الآبــاء المسـتنيرون عن المعتقـدات الدينية، وضـربوا بهـا عـرض الحائـط، أن يولـوا وجـوههم شـطر مصدر جديد من مصادر المعونة، فلم يجدوا أمـامهم سـوى علم النفس الخاص بالأطفال، ولكن علم نفس الأطفال لم يكن بعد، على استعداد لتقديم المعونة لهم، لأن الثقة بهـذا العلم لم تكن قد تعدت الثقة النظرية حتى ذلك الوقت. وكان البرهان العلمي حينذاك في مهده صغيراً برغم تعدد نظرياته. ومن هنا بدأ الآبـاء يعتنقون هـذه النظريـات الـتي كـان أبرزهـا أن العقوبـة البدنيـة ضارة من الوجهة النفسية. وأنه من الأفضل إقناع الطفل بعمـل شـيء مـا، لا إرغامـه بـالقوة والعنـف عليـه، وأنـه لا يجـوز كبت الطفل بل على العكس يجب منحه الفرصة كي يعبر عن ذاتـه.. وأنه يجب منح الأطفال علاوة منتظمة حتى يمكنهم إدراك قيمة المـال، وأن بعض الأطفـال يولـدون بطـبيعتهم عصـبيين أو ذوى حساسـية مرهفـة، وعليـه فلا يجـوز إرغـامهم على أن يفعلـوا، ويعملوا ما يفعله ويعمله غيرهم. وللأسف، لم يظهـر أي برهـان علمي أو نفسي يؤيد هذه النظريـات، بـل بـالعكس ثبت أن كـل هذه النظريات خاطئة)[1]

وانطلاقـا من هـذا العجـز الـذي مـني بـه علم النفس في

[1] العودة إلى الإيمان: 113.

القيام بدور البديل عن الإيمان يدعو هـذا الطـبيب النفسـي إلى ضرورة العـودة إلى الإيمـان، يقـول:(فقـد سـمعنا الكثـيرين من الآباء يرددون: انهم لا يبعثون بـأولادهم إلى الـدروس الدينيـة أو إلى محلات العبادة، حتى يصلوا إلى السن التي يـدركون عنـدها مـا يجـري. غـير أن مـا يضـايقهم، ويقض مضـجعهم هـو هـذا السؤال: تـرى هـل يكتسـب هـؤلاء الأولاد ذلـك الشـعور القـوي الذي يمكنهم به أن يميزوا بين الخطـأ والصـواب؟ هـل يؤمنـون بتلك المثل الخلقية الواضحة التي آمنا بها منـذ طفولتنـا؟.. لقـد قلنا فيما مضى أن بعض الأعمـال خطـأ والبعض الآخـر صـواب، لأن الله سبحانه وتعالى قد بين ذلك، أو لأن كتابه قـد أورد ذلـك بمعنى آخر. وقد تكون هذه الطريقة فطرية بدائية، غير أنه ممـا لا شك فيه أن تأثيرها كان طيباً فقـد عرفنـا على الأقـل الكثـير عن طيب الأفعال وخبيثها. أما الآن فإننـا لا نقـول لأولادنـا إلا أن هـذا التصـرف خطـأ، وأن ذاك صـواب، لأننـا نـرى ذلـك، أو لأن المجتمع قد اتفق على ذلك. فهل لهذا الود من القوة والبيان ما لسابقه؟ وهل له مثل أثره وهل يكتسب أطفالنـا القيم الخلقيـة الأساسية للحياة دون الحاجـة إلى ضـغط العقائـد الدينيـة، تلـك القيم الـتي نتقبلهـا ونسـلم بهـا حـتى بعـد أن أصـبحنا لا نسـلم بمصدرها الإلهي؟)(1)

ويعود إلى ذلك حين يتحدث عن مقدار ما يسديه الدين من عـون للآبـاء في تربيـة أبنـائهم وتهـذيبهم، وتكـوين شخصـياتهم الفاضلة فيقول:(وبديهي أن الأطفال يختلفون، سـواء بطـبيعتهم أم بحسب وراثتهم، ولكن مهما كـانت هـذه الطبيعـة أو الوراثـة طيبـة جيـدة، فإنـه لا يمكن غـرس العـادات الأساسـية بغـير (النظام) ولما كان استياء الطفل من النظـام واتجاهـه عكسـياً، كلما حاولت إنماء العادات الطيبة فيـه، أمـراً لا مفـر منـه، كـان من الـواجب اسـتخدام كـل وسـيلة ذات تـأثير أو ذات صـفة إرغاميـة، تسـاعد على الإسـراع في اكتسـاب هـذه العـادات. والواقع أن معظم الآباء يكونون في أشد الحاجـة إلى الاسـتعانة بنصائح غيرهم، في أثنـاء عمليـة غـرس العـادات المرغوبـة في

1) العودة إلى الإيمان:110.

أطفالهم. وإذا بحثنا من الناحيتين: العقلية والنفسية، وجدنا أن أعظم مصادر هذا العون هو الدين.. فالايمان بوجود الله ورسله وكتبه يهيئ للأبوين ملجأ أميناً موثوقاً به يلجئون إليه، ويضع بين أيديهم سلطة كبرى على أطفالهم كانوا يفتقرون إليها حتى لو لم يؤمنوا بها. فإن هؤلاء الآباء الذين كانوا يتساءلون كيف ينمون عادات أولادهم الخلقية ويشكلونها، في حين تنقصهم هم أنفسهم تلك التأثيرات الدينية التي كانت قد شكلت أخلاقهم من قبل، كانوا في الحقيقة يجابهون مشكلة لا حل لها، فلم يوجد بعد ذلك البديل الكامل الذي يحل محل تلك القوة الهائلة التي يخلقها الإيمان بالخالق وبناموسه الخلقي الإلهي في قلوب الناس.فتجد الآباء الذين تحرروا من الإيمان عن طريق ثقافتهم وأعمال فكرهم حيارى متسائلين على الدوام. إذن كيف يتسنى لأولئك الحيارى أن يكونوا أنفسهم ملجأ لأولادهم؟)(1)

وهو يذكر الدراسات المقارنة المؤكدة لذلك، فيقول، وهو يتحدث عن أثر دور العبادة في تشكيل شخصية الطفل:(ليس من المستغرب أن يدلنا الاختبار السابق الذكر على أن الطفل الذي يستمع إلى الدروس الدينية يتمتع بصفات شخصية أفضل ممن لا يحضرها، وأن الطفل الذي يذهب والداه إلى المعبد ذو شخصية أحسن من الطفل الذي لا يذهب والداه إليه. وقد اتضح لي بعد دراسة كاملة لعشرة آلاف شخص، أن أولئك الذين يواظبون على الذهاب إلى دور العبادة، كانوا ذوى صفات شخصية أفضل ممن لا يذهبون)(2)

وهو يطلب من الآباء الاهتمام بهذه الناحية منذ السنين الأولى للطفل، قبل أن يتسرب إليه الانحراف، يقول:(إن الوقت الأمثل لتعليم الطفل كيف يخضع دوافعه لقيم عليا، هو السن التي يستطيع فيها أن يتقبل ما يقال له دون أن يفهمه، فإذا استقر رأي الآباء على عدم إرسال أولادهم إلى الدروس الدينية، حتى يبلغوا السن التي يفهمون عندها ما يستمعون إليه، فهم في الحقيقة يتبعون مبدأ هاماً، لأن الوقت يكون قد فات

---

1) المرجع السابق: 119 وما بعدها.

2) العودة إلى الإيمان: 122.

لإصلاح ما فسد إذا بلغ الطفل السن التي يفهم بها كل ما حوله، فانه حينئذ يكون قد أضاع من عمره سنين ثمينة)(1)

انطلاقا من هذا الكلام الـذي سـقناه لمن يسـتهينون بهـذه الناحية المهمة من التربيـة، سـنحاول في هـذا المبحث أن نـبين أثر الإيمان في تحقيق الأركان الثلاثة التي تتكون منها الشخصية السوية للإنسان:

1 ـ السلام النفسي

ويشير إليه من موعظة رسول اللـه ﷺ لابن عبـاس قولـه: (احفظ اللَّه يحفظـك)، وقولـه ﷺ:(واعلم أن الأمـة لـو اجتمعت عَلَى أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قـد كتبـه اللَّه لـك، وإن اجتمعوا عَلَى أن يضروك بشيء لم يضـروك إلا بشـيء قـد كتبــه اللَّه عليــك، رفعت الأقلام وجفت الصــحف)، وقولــه ﷺ: (واعلم أن مــا أخطــأك لم يكن ليصــيبك، ومــا أصــابك لم يكن ليخطئك)

ففيها يخبر رسول الله ﷺ ابن عباس بأن الله هــو الحفيـظ الذي يحفظ العبد من كـل طـوارق السـوء، وأنـه ــ لـذلك ــ لـو اجتمعت كل القوى على أن تضر من حفظه الله، فلن تستطيع، ولو اجتمعت على عكس ذلك بأن تنفعه لم تستطع، لأن الله هو النافع الضار، وهذا ما يجمع شتات الإنسان وهمتـه فلا يخـاف إلا الله، ولا يرجو إلا الله.

ولهذا يخبرنا القرآن الكريم أنه لا يشعر بالأمن الحقيقي إلا المؤمن الذي شغل قلبه باللـه، ولم يشـتت قلبـه بين الشـركاء، قال تعالى:﴿ الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَـدُونَ﴾ (الأنعـام:82)، وفي ذلـك إشـارة إلى أن مصدر المخاوف هو الشرك، واشتغال القلب بغير الله.

وكلما اشتد الشرك وعظم عظمت المخاوف، وكلمـا نقص الشرك أو تلاشـى نقصـت المخـاوف أو تلاشـت، فمعرفـة اللـه والتوجه إليه هي بر الأمان، وهي سفينة نوح الـتي من ركبهـا لم

1) العودة إلى الإيمان: 130.

تغرقـه الأمـواج، وهي ظـل اللـه الـذي يحتمي بـه من أحرقتـه شموس الرعب.

وقـد أخـبر تعـالى في آيـة أخـرى أن الشـرك هـو مصـدر الرعب، وأنه عقوبة إلهية تقتضيها طبيعـة الكفـر، فقـال تعـالى: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَـزِّلْ بِـهِ سُـلْطَاناً وَمَـأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْـوَى الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران:151)، فقد أخبر تعالى أن مصـدر خـوفهم هـو شـركهم بالله.

وفي مقابـل ذلـك ذكـر اللـه تعـالى مواقـف المؤمـنين الصـادقين الـذين ملأوا قلـوبهم باللـه، فـرزقهم الأمن التـام، والسكينة المطلقـة، فهـذا إبـراهيم ﵇ وحـده في الأرض يوحـد الله، ووحده في الأرض يعبد الله، وتـدعوه غيرتـه على أن يعبـد غير الله، ورأفته على الجاهلين باللـه، فيتحـدى قومـه، ويتحـدى الأرض معهم، فيحطم الأصـنام من غـير خـوف ولا وجـل، وهـو يدرك المصير الذي يتعرض له من يحطم تلك الأوثان المقدسة.

ولكن إبـراهيم ﵇ انشـغل باللـه، وبجـوار اللـه عن كـل المخاوف التي يتذرع بها الخلق، وعندما خوفه قومـه من آلهتهم التي دعا إلى نبذها، قال متعجبا: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْـرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِـهِ عَلَيْكُمْ سُـلْطَاناً فَـأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام:81)

فـإبراهيم ﵇ في ذلـك الموقـف كـان يقـارن بين القـوة الوهمية الـتي يسـتند إليهـا قومـه، والقـوة الوهميـة الـتي كـانوا يتصورون أنهم يملكونها، وبين قوة الله تعـالى فـأخبر أن قومـه أولى بالخوف منه.

وقد عقب الله تعـالى على قـول إبـراهيم ﵇ مقـررا هـذه الحقيقة المطلقة، ومقننـا هـذه السـنة الإلهيـة الـتي لا تتخلـف، فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام:82)

وعلى خطى إبـراهيم ﵇ سـار أصـحاب محمـد ﷺ الـذين: ﴿ الَّذِينَ قَـالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَـدْ جَمَعُـوا لَكُمْ فَاخْشَـوْهُمْ

فَـزَادَهُمْ إِيمَانـاً وَقَـالُوا حَسْـبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيـلُ (آل عمـران: 173)

ولذلك فإن مصدر المخاوف التي تعـتري النفـوس فتملأهـا هما وحزنا، هـو حصـاد نبـات الغفلـة والشـرك، وهمـا مرتـع من مراتـع الشـيطان، قـال تعـالى: إِنَّمَـا ذَلِكُمُ الشَّـيْطَانُ يُخَـوِّفُ أَوْلِيَـاءَهُ فَلا تَخَـافُوهُمْ وَخَـافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (آل عمـران: 175)

وبخلاف هذا نجد الغافلين والجاحدين أكثر الناس مخـاوف، فهم يخـافون كـل شـيء، وقـد يـدركون مـا يخـافون، وقـد لا يدركون، كما عبر بعضهم عن نفسه بقولـه عن مخاوفـه الـتي لا تنتهي، والتي لا يعلم لها سببا:(إنـني أعيش في خـوف دائم، في رعب من الناس والأشياء، ورعب من نفسي، لا الثروة أعطتـني الطمأنينة، ولا المركز الممتاز أعطانيها ولا الصحة، ولا الرجولة، ولا المـرأة، ولا الحب، ولا السـهرات الحمـراء... ضـقت بكـل شيء، بعد أن جربت كل شيء)

فالمعرفة الصحيحة بالله والتي تتولد عنها جميع المعـارف، وتصحح بها جميع الفهوم، وتنشق عنها جميع المشاعر هي الـتي تقي المؤمن من الخوف الذي يستعبد الناس.

وسنحاول هنا ـ باختصار ـ تبيان دور الإيمان في الوقاية من ثلاث مخاوف كبرى، هي في أصلها أم المخاوف ومنبعها:

الموت:

فـالموت هـو الشـبح الأكـبر الـذي يملأ القلب بالمخـاوف، فيتـوزع منـه الخـوف لنفس الإنسـان وسـلوكه ومواقفـه، شـعر بذلك أو لم يشعر.

ولا يقي من أذى هذا الشبح، بـل لا يقتلـه إلا الإيمـان باللـه المحـيي المميت، وبحقـائق الآخـرة، الـتي تجعـل المـوت رحلـة سعيدة ينتقل بها الإنسان إلى عوالم أكمل وأجمل.

أمـا العلم الأول، فيخلص الإنسـان من عبوديـة المخـاوف لكل القوى التي مثلها النمروذ عندما قـال: أَنَـا أُحْيِي وَأُمِيتُ

(البقرة:258)، وحينها ينطق المؤمن بما نطق به سعيد بن جبير عنـدما هـدده الحجـاج بالقتـل فقـال لـه:(لـو علمت أن المـوت والحياة في يدك ما عبدت إلها غيرك)

فقد كان سعيد يـدرك أن مـا يتشـبث بـه الحجـاج من قـوة وهم عظيم سكن عقله، فالله تعالى هو مالك الآجال، لا الحجاج ولا أي طاغيـة غـيره، قـال تعـالى: ﴿ وَلِكُـلِّ أُمَّةٍ أَجَـلٌ فَـإِذَا جَـاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (لأعراف:34)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلَّا مَا شَـاءَ اللَّهُ لِكُـلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَـاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْـتَأْخِرُونَ سَـاعَةً وَلا يَسْـتَقْدِمُونَ﴾ (يـونس:49)، وقـال تعـالى: ﴿ فَـإِذَا جَـاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْـتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (النحل:61﴾ (الأعراف: 34)

فلـذلك لا يفـر من المـوت إلا واهم سـيطر عليـه الخـوف، فمنعه من التفكير السليم، قال تعـالى: ﴿ قُـلْ إِنَّ الْمَـوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُـرَدُّونَ إِلَى عَـالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ﴾ (الجمعـة:8)، وقـال تعـالى: ﴿ أَيْنَمَـا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَـوْ كُنْتُمْ فِي بُـرُوجٍ مُشَـيَّدَةٍ ﴾ (النسـاء: 78)، وقال تعالى: ﴿ قُـلْ لَـوْ كُنْتُمْ فِي بُيُـوتِكُمْ لَبَـرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمِ﴾ (آل عمران:154)

أمــا العلم الثــاني، فيلطــف من العلم الأول، لأنــه يحيــل الموت بابا من أبواب السعادة، أو هو ـ بتعبير النورسي ـ بمثابـة التقاعد الذي يناله الإنسان بعد أن تستنفذ جميـع قـواه العمليـة، يقول بديع الزمان: (إن الموت ليس عدماً، ولا اِعداماً، ولا فنـاءً، ولا لعبـة العبث، ولا إنقراضـاً بالـذات من غـير فاعـل، بـل هـو: تسريح من العمل، من لدن فاعـل حكيم، وهـو اسـتبدال مكـان بمكان، وتبديل جسم بجسـم، وانتهـاءٌ من وظيفـة، وانطلاق من سجن الجسم، وخلق منتظم جديد وِفقَ الحكمة الإلهية)(1)

أما ما بعد الموت، فهو المحل الذي يلقى المؤمن فيه كــل ما هفت إليه نفسه في الـدنيا وقصـرت عنـه يـداه، فهـو البـاب

---

1) المكتوبات: المكتوب العشرون، الكلمة السابعة.

الذي تنفتح من كوته الأماني، وتتحقق الرغبات، فهو قـدوم على الله، ومن لا يحب القـدوم على اللـه، وقـد قيـل لأعـرابي اشـتد مرضه: إنك ستموت، فقـال: وإلى أين يـذهب بي بعـد المـوت؟ قالوا: إلى الله، فقال: ويحكم، وكيف أخـاف الـذهاب إلى من لا أرى الخير إلا من عنده؟

ولهذا قال يحيى بن معاذ:(لا يكره لقـاء المـوت إلا مـريب، فهو الذي يقرب الحبيب من الحبيب)

ولهذا أخبر الله تعالى أن الملائكة تبشر المؤمنين، وتنهاهم عن الاستسلام لشبح الخوف والحزن، وتذكرهم بالمصـير الـذي يقــدمون عليــه، قــال تعــالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَــالُوا رَبُّنَــا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَـةُ أَلَّا تَخَـافُوا وَلا تَحْزَنُـوا وَأَبْشِـرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت:30)

وانطلاقا من هذه المعارف الإيمانية صـاح سـحرة فرعـون في وجهه بقوة الإيمان: ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَـا فَـاقْضِ مَـا أَنْتَ قَـاضٍ إِنَّمَـا تَقْضِـي هَـذِهِ الْحَيَـاةَ الدُّنْيَا ﴾ (طـه:72)

وعلى خطاهم سار الصالحون متحدين كل المشـانق الـتي نصبت لهم، وعاصفين بكل رياح الخوف التي أرادت أن تجتثهم، كعمير بن الحمام الأنصاري الذي سمع النبي ﷺ يقول في غزوة بدر لأصحابه:(والذي نفسي بيـده مـا من رجـل يقـاتلهم اليـوم - المشركين- فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخلـه اللـه الجنة) فيقول عمير متعجبا:(بخ بخ)، فقـال ﷺ:(مم تبخبخ يـا ابن الحمـام؟ فقـال:(أليس بيـني وبين الجنـة إلا أن أتقـدم فأقاتـل هؤلاء فأقتل؟ فقال ﷺ:(بلى)، وكان في يد عمـير تمـرات يأكـل منها فقال: أأعيش حتى أكل هذه التمرات؟ إنهـا لحيـاة طويلـة! وألقى التمرات من يده وأقبل يقاتل ويقول[1]:

ركضاً إلى الله بغير زاد	إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد	وكل زاد عرضة النفاد

1) تاريخ الطبري: 2/33.

ومثله أنس بن النضر الذي قاتل في أحـد قتـال من يطلب الموت، وعندما لقيه سعد بن معاذ قال له: يا سعد، الجنـة ورب النضر: أجد ريحها من وراء أحد.

الرزق:

وهو الشبح الثاني من أشباح الخوف، وهو الذي يحـول من يعبـده أو يشـرك بالله فيـه إلى عبـد لكـل من يملـك دينـارا أو درهما، فلا يهنأ له عيش، ولا يستقر لـه سكن، بـل يصير محلا لتنزلات الشياطين، يقـول الغـزالي:(وذلـك لأن الشـيطان يعـده الفقـر ويـأمره بالفحشـاء ويقـول إن لم تحـرص على الجمـع والادخار فربما تمرض وربما تعجز وتحتاج إلى احتمال الـذل في السؤال فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفـا من الفقـر ويضحك عليه في احتماله التعب نقدا مع الغفلة عن الله لتـوهم تعب في ثاني الحال وربما لا يكون وفي مثلـه قيـل: ومن ينفـق الساعات في جمع ماله مخافه فقر فالذي فعل الفقر)[1]

أما المؤمن، فقد وقي من هذا الخـوف، ووقي من نتائجـه، لأنه يعلم أن الله هـو الـرزاق ذو القـوة المـتين، فكـل رزق هـو رزقه، قـال تعـالى: ﴿ قُـلْ أَرَأَيْتُمْ مَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ (يونس:59)، وقال تعالى: ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّـمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَـا بِـهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَا ﴾ (الجاثـية:5)

بل إن الله تعالى يدعونا أن نأكـل من المائـدة الـتي ملأهـا من رزقه، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُـوا مِنْ طَيِّبَـاتِ مَـا رَزَقْنَـاكُمْ وَاشْـكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُـدُونَ﴾ (البقـرة:172)، وقـال تعـالى: ﴿ وَكُلُـوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبـاً وَاتَّقُـوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (المائدة:88)

وهـو يـذم الـذين خـافوا على أن ينقص رزقهم، فقتلـوا أولادهم حتى لا يأكلوا معهم، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا

1) إحياء علوم الدين: 3/243.

أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (الأنعام:140)، وقال تعالى: وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ (الأنعام:151)، وقال تعالى: وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (الاسراء:31)

وهذا الأمن النفسي الذي يستشعره من علم أن الرزق بيد الله هو الذي يجعل يديه لا تمتدان بالرغبة إلا إلى الله، ولذلك لم تطمح عينا رسول الله ﷺ لما أعطته قريش، بل قال:(يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمرحتى يظهره الله او أهلك فيه ما تركته)

وعلى هديه كان الصالحون أرفع الناس نفوسهم، وعندما قال هارون للفضيل بعد مواعظه الرقيقة:(عليك دين) قال:(نعم، دين لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني والويل لي إن ناقشني والويل لي إن لم ألهم حجتي) قال:(إنما أعني دين العباد)، قال:(إن ربي لم يأمرني بهذا، أمر ربي أن أوحده وأطيع أمره، فقال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (الذريات:56 ـ 57)

تقلبات المقادير:

الشبح الثالث من أشباح الخوف، هو التقلبات التي تصيب الحياة، فتملؤها زهوا وسرورا، أو كدرا وأحزانا، وهي تقلبات ينسبها أكثر الناس للزمن كما ينسبون تقلبات الشتاء والصيف للشمس والأرض والكواكب، وكما ينسبون جميع الأشياء لأربابها الوهميين، الأسماء التي لا مسميات لها.

لكن المؤمن يرى في هذه التقلبات رسائل ربانية يتعرف من خلالها على ربه، فيجعل من الكون وما يجري فيه من أنواع التدابير محرابا من محاريب الخشوع لله.

ولهذا نهى النبي ﷺ أن يسب الدهر، وأخبر بأن الله هو الدهر، ونرى القرآن الكريم ينسب الأيام لله، قال تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا

كَانُوا يَكْسِبُونَ (الجاثـية:14)

بل أمر اللـه تعـالى موسـى ﷺ بـأن يخـبر قومـه بتقلبـات مقادير الله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَـا أَنْ أَخْـرِجْ قَوْمَـكَ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَاتٍ لِكُـلِّ صَـبَّارٍ شَـكُورٍ﴾ (ابـراهيم:5) فجميـع التقلبـات الـتي مرت ببني إسرائيل مما ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَـذَابِ وَيُـذَبِّحُونَ أَبْنَـاءَكُمْ وَيَسْـتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (ابراهيم:6) تصريفات إلهية سخر لها من سخر.

ولهذه المعرفة قيمـة كبـيرة في التخفيـف من وقـع البلاء، فمن عرف أن البلايا من مـولاه وسـيده الـذي هـو أرحم بـه من والدته ووالده، كيف يستثقل البلاء أم كيف يخافه، وقد قـال ابن عطاء الله عن الفرق بين العارف المسغرق في حضرة سـيده، وبين الغافل في النظر إلى تصاريف الأقـدار فقـال:(الغافـل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به)

وقد كان عمر بن عبد العزيز يقول:(أصبحت ومالي سـرور إلا في مواقع القدر)

2 ـ الرقابة الإيمانية

ويشير إليها من موعظة رسول الله ﷺ لابن عبـاس قولـه: (احفظ اللَّه تجده تجاهـك)، فمن شـعر بمواجهـة اللـه لـه كيـف يعصيه، ولهذا كـان من وسـائل تربيـة الصـالحين تعميـق معـاني المراقبة لله وما يؤدي إليها من التعريف بالله.

والإيمان بذلك هو الحصن الوحيد الذي يقي من تحصـن بـه من ذلك الوحش الكاسر الذي يختبئ في كيانه، والذي قـد يـبرز في أي لحظة إن لم يجد من وازعا من دين أو رادعا من خلق.

وقد تنبه الإنسان ـ باعتبـار طبيعتـه المعقـدة ـ إلى حاجتـه إلى هــذه الحصــون الأخلاقيــة الــتي تضــبط سـلوكه، فقـال الفيلسوف البريطـاني المعاصـر برترانـد رسـل معـبرا عن هـذا

الاكتشاف: (الإنسان أكثر تعقيداً في نزعاته ورغباته من أي حيوان آخر، وتنشأ الصعوبات التي يواجهها من هذا التعقيد، فهو ليس اجتماعياً تماماً مثل النمل والنحل، ولا هو انفرادي تماماً مثل الأسود والنمور، إنه حيوان شبه اجتماعي، وبعض نزعاته ورغباته اجتماعي، وبعضها انفرادي ويبدو الجانب الاجتماعي في طبيعته من أن الحبس الانفرادي يعتبر عقوبة بالغة الشدة، ويبدو الجانب الآخر في حبه للاستقلال بأموره الخاصة، وعدم استعداده للتحدث فيها إلى الغرباء. ولأننا لسنا اجتماعيين تماماً فنحن في حاجة إلى أخلاق، لتوحي لنا بالأهداف، وإلى قواعد أخلاقية لتفرض علينا قواعد التصرفات، والنحل -كما يبدو- ليس في حاجة إلى شيء من هذا، فهو يتصرف بما تمليه عليه مصلحة الجماعة)(1)

وقال جمال الدين الأفغاني مشيرا إلى قصور القانون عن توفير الحصانة الأخلاقية: (ليس بخاف أن قوة الحكومة إنما تأتي على كف العدوان الظاهر، ورفع الظلم البين، أما الاختلاس والزور المموه والباطل المزين والفساد الملون بصبغ من الصلاح، ونحو ذلك مما يرتكبه أرباب الشهوات، فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه؟ وأنى يكون لها الاطلاع على خفيات الحيل، وكامنات الدسائس ومطويات الخيانة ومستورات الغدر حتى تقوم بدفع ضرره؟ على أن الحاكم وأعوانه قد يكونون، بل كثيراً ما كانوا ويكونون ممن تملكهم الشهوات، فأي وازع يأخذ على أيدي أصحاب السلطة، ويمنعهم من مطاوعة شهواتهم المتسلطة على عقولهم؟ وأي غوث ينقذ ضعفاء الرعايا وذوي المسكنة منهم من شره أولئك المتسلطين وحرصهم؟)(2)

وقال الفيلسوف الألماني (فيختة):(الأخلاق من غير دين عبث)

ونحن لا ننكر هنا أثر القانون ولا دوره، ولا ندعو إلى رفع القوانين لعدم غناها، وإنما نقول بأن القوانين تحتاج إلى وازع ذاتي يدعو إلى تطبيقها، ولا يكون هذا الوازع في غير الإيمان،

1) المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة، لبرتراندرسل:10.

2) رسالة الرد على الدهريين:72.

لأن الذي يطبق القانون تحت عصا الشرطي، سيخرقه إذا ما غاب الشرطي، يقول الدكتور محمد عبد الله دراز:(لا قيام للحياة في الجماعة إلا بالتعاون بين أعضائها، وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته. وهذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع وازع، يكفل مهابته في النفوس، ويمنع انتهاك حرماته. ونقرر أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين، أو تدانيها في كفالة احترام القانون وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه.. والسر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده ولا في عنقه. ولا يجري في دمه ولا في عضلاته ولا في أعصابه، وإنما هو معنى إنساني روحاني اسمه الفكرة والعقيدة، ولقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية بل يتأثران بها. . أجل إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل، فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية. لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.. ومن الخطأ البين أن نظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام والرخاء وعوضاً عن التربية والتهذيب الديني والخلقي، ذلك لأن العلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولابد في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض لا إلى الشر والفساد ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان)[1]

وسنكتفي هنا لتقرير هذه الحقائق بذكر مثال درج المعاصرون على ذكره لأهميته وقيمته، وهو ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن انتشرت فيها عادة السكر وشرب الخمور انتشاراً أقنع الحكومة بضرر ذلك على الإنسان الأمريكي، فلجأت للقانون كرادع عن هذا السلوك.

---

1) من كتاب (الدين) للدكتور محمد عبد الله دراز.

وقصة ذلك من البداية أنه حوالي عام 1918ثارت المشكلة في الرأي العام الأمريكي، وفي عام 1919أدخل في الدستور الأمريكي تحت عنوان (التعديل الثامن عشر)، وفي نفس السنة أيد هذا التعديل بأمر حظر، أطلق عليه التاريخ قانون (فولستد).

وقد أعدت لتنفيذ هذا التحريم داخل الأراضي الأمريكية كافة وسائل الدولة وإمكاناتها الضخمة: فجند الأسطول كله لمراقبة الشواطئ، منعاً للتهريب، وجند الطيران لمراقبة الجو، وشغلت أجهزة الحكومة واستخدمت كل وسائل الدعاية والإعلام لمحاربة الخمر، وبيان مضارها وجندت كذلك المجلات والصحف والكتب والنشرات والصور والسينما والأحاديث والمحاضرات وغيرها.

ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليوناً من الدولارات، وأن ما أصدرته من كتب ونشرات يبلغ عشرة بلايين صفحة، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم -في مدة أربعة عشر عاماً_ لا يقل عن مائتين وخمسين مليون جنيه، وقد أعدم في هذه المدة ثلاثمائة نفس، وسجن 532،335 نفس، وبلغت الغرامات ستة عشر مليون جنيه، وصادرت من الأملاك ما بلغ أربعمائة مليون وأربعة ملايين جنيه، ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا تمسكا بالخمر، وعناداً في تعاطيها، حتى اضطرت الحكومة سنة 1933الى إلغاء هذا القانون، وإباحة الخمر إباحة مطلقة(1).

وهكذا فشل القانون بكل ما وفر له من وسائل تنفيذ في حمياة الإنسان من مرض سلوكي واحد.

وفي مقابل ذلك، وفي مجتمع لم يكن يقل عن المجتمع الأمريكي حبا للخمر ولا غراما بها، استطاعت آية واحدة، أو أمر إلهي واحد أن يقضي على الخمر لا في مجتمع المدينة وحدها، بل في المجتمعات الإسلامية جميعا منذ أربعة عشر قرنا، وهي

---

1) ذكر هذه الإحصاءات الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه (تنقيحات) وعنه نقلها الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ص 177هامش.

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:90)

ويحكي الصحابة عن البداية، قال أبو سعيد : سمعت رسول الله ﷺ يقول:(يا أيها الناس إن الله يبغض الخمر، ولعل الله سينزل فيها أمراً، فمن كان عنده شيء فليبعه ولينتفع به) ـ وذلك قبل التحريم النهائي ـ قال أبو سعيد: فما لبثنا إلا يسيراً، حتى قال:(إن الله حرم الخمر، فمن أدركته هذه الآية -يعني آية المائدة السابقة- وعنده منها شيء فلا يشرب ولا يبيع)، قال أبو سعيد: فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرق المدينة فسفكوها -أي صبوها وأسالوها[1].

ولم يكن للشرطة ولا من يدعمهم حينها وجود، بل كان الإيمان وحده، عن أنس قال: كنت أسقي أبا عبيدة وأبي بن كعب فجاءهم آت فقال: إن الخمر حرمت... فقال أبو طلحة: قم يا أنس فأهرقها... فأهرقها[2].

وعن أبي موسى قال: بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة ـ أي حلالاً ـ إذ قمت حتى آتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:90)، فجئت إلى أصحابي، فقرأتها عليهم... قال: وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً وبقي بعض في الإناء... فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا... انتهينا ربنا)[3]

وقد ذكر القرآن الكريم تأثير الإيمان في الردع عن القتل في الوقت الذي لم يكن هناك شرطة ولا سجون ولا إعدام،

---

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه الطبري.

فقال تعالى ذاكرا قصة ابني آدم بالحق: ﴿ وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَـأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَـالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَـالَ إِنَّمَـا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَـطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَـكَ إِنِّي أَخَـافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة:27 ـ 28)

3 ـ القوة والإنتاج

وهي الـركن الثـالث من أركـان الشخصـية السـوية، لأن الضعيف لا يستطيع أن يفعل لنفسه شيئا، فكيف يفعل لغيره.

ولهذا ذم الله تعالى المستضعفين الذين قعـد بهم عجـزهم وكسـلهم عن الخـروج عن ضـعفهم، فقـال تعـالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَـةُ ظَـالِمِي أَنْفُسِـهِمْ قَـالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَـالُوا كُنَّا مُسْتَضْـعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَـالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِـعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَـاءَتْ مَصِـيراً﴾ (النسـاء: 97)، فسـماهم تعـالى ظـالمين مـع أنهم أقـروا بـأنهم كـانوا مستضعفين.

ولم يستثن تعالى من هؤلاء إلا من عجز عجـزا يقعـده عن أي حيلة، قال تعـالى: ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْـعَفِينَ مِنَ الرِّجَـالِ وَالنِّسَـاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْـتَطِيعُونَ حِيلَـةً وَلا يَهْتَـدُونَ سَـبِيلاً فَأُولَئِكَ عَسَـى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ (النساء: 99)

بـل إن القـرآن الكـريم ينهى هـؤلاء المستضـعفين عن أن يقعد بهم ضعفهم الحسي عن الاستعداد والهم، ولهذا يثني على الصالحين المستضـعفين بقولـه تعـالى: ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَـا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُـونَ﴾ (التوبـة:92)، ولهـذا أثـنى عليهم ﷺ بقوله:(إن بالمدينة أقواماً مـا قطعتم واديـاً ولا سـرتم سـيراً إلا وهم معكم) قـالوا: وهم بالمدينـة؟ قـال:(نعم حبسـهم العذر)[1]

بل إن الله تعالى اشترط في هـؤلاء المستضـعفين النصـح

1) رواه البخاري ومسلم.

لله ورسوله في حال قعودهم وعجزهم، فقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:91)

ولهذا، فإن دين الله تعالى لا يقوم به ولا يمثله إلا الأقوياء أصحاب الهمم العالية، أما الذين يتصورون الدين ضعفا وتماوتا وذلة، فهم لا يميتون شخصياتهم فقط، بل يميتون الدين أيضا.

وقد كان رسول الله ﷺ وهو القدوة الأول للمؤمنين إذا مشى أسرع في مشيته، كأنما ينحدر من صبب، يقول أبو هريرة :(ما رأيت أحداً أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجرى في وجهه، ولا رأيت أحداً أسرع في مشيته منه، كأنما الأرض تطوى له، وإنما لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث)[1]

ويشير إلى هذا الركن من موعظة رسول الله ﷺ لابن عباس قوله ﷺ:(واعلم أن الأمة لو اجتمعت عَلَى أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، وإن اجتمعوا عَلَى أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)، وقوله ﷺ:(إذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستَعَنْ باللَّه)، وقوله ﷺ:(واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا)

لأن أساس القوة هو شعور القوي بأن له من المدد ما يتغلب به على كل صعب، ولذلك قال ﷺ في الحديث الذي يبين مصادر قوة المؤمن:(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فان لو تفتح عمل الشيطان)[2] فجعل الاستعانة بالله منافية وصادة لأوهام العجز.

ولهذا قال تعالى يذكر موقف رسول الله ﷺ، وهو في

---

[1] رواه الترمذي، وقال: حديث غريب وأخرجه أحمد وابن حبان وابن سعد.

[2] رواه أحمد.

الغار يتحدى المشركين: ﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:40)

فشعور رسول الله ﷺ بمعية الله جعله يتحدى كل ما أعد المشركين من وسائل الرصد التي تريد أن تغتاله وتغتال دينه.

وبمثل هذا القول علم الله تعالى موسى عليه السلام مصححا تصوره لفرعون وزبانيته: ﴿ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآياتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ (الشعراء:15)، وكأنه يقول له:(كلا يا موسى فلا يساوي فرعون شيئا ما دمت معك)

ولهذا سار موسى عليه السلام رابط الجأش، شجاعا، في عزة تقصر معها عزة كل ما أحيط بفرعون من هالة وزينة، فقد كان مع موسى عليه السلام ربه تعالى، ولهذا أجاب بني إسرائيل بعد أن أدركهم فرعون وجنده بقوله الذي يستعيد فيه موسى عليه السلام ماقيل له في ذلك اليوم: ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء:62)

ولهذا الشعور تأثيره العظيم في بث العزيمة في نفس المؤمن، لأنه حينها لا ينظر إلى قوته المحدودة، وإنما ينظر إلى قوة الله التي تمده بالمدد كل حين، بل إنه ينفي قوته بجنب قوة الله، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران:160)، فاعتبر النصر من الله والخذلان من الله.

ولهذا تحدى الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أقوامهم، فلم يبهرهم ما أعد لهم من صنوف الفتن، قال تعالى ذاكرا قول هودا عليه السلام لقومه بعد تكذيبهم له: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود: 54 ـ 56)

والقوة التي نريدها هنا ليست قوة اليد والسلاح فقط، وإنما قوة الشخصية التي تجعل صاحبها جبلا من جبال الصمود والهمة والعزيمة في جميع المجالات.

ولهذا فإن القوي لا يبهره السلطان ولا الخدم ولا الحشم، لأن شعوره بمعية الله يجعل كل شيء أمامه هباء أو كالهباء إذا تأملته لم تجده شيئا، وقد طلب الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك طاووس اليماني يوماً إلى مجلسه، فلما دخل عليه، لم يسلم عليه بامرة المؤمنين، ولكن قال:(السلام عليك يا هشام) وجلس بازائه، وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام غضباً شديداً حتى هم بقتله، وقال له: يا طاووس ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: وما الذي صنعت؟ فازداد غضباً وغيظاً، وقال: خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تقبِّل يدي، ولم تسلم على بإمرة المؤمنين، ولم تكنني، وجلست بازائي بغير إذني، وقلت كيف أنت يا هشام، قال: أما ما فعلت من وضع نعلي بحاشية بساطك فإني أضعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات، وأما قولك لم تقبِّل يدي فإني سمعت علي بن أبي طالب يقول:(لا يحل لرجل أن يقبِّل يد أحد إلا امرأته من شهوة، أو ولده من رحمة) وأما قولك لم تسلم على بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك، فكرهت أن أكذب، وأما قولك جلست بازائي فإني سمعت أمير المؤمنين علياً يقول:(إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام)، فقال هشام: عظني ... فقال: سمعت من أمير المؤمنين علي أن في جهنم حيات كالقلال، وعقارب كالبغال، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته - ثم قام.

والقوي لا تغريه الأموال مهما كانت، فلذلك لا يمد يده لغير ربه، ولا يبيع دينه بأي رشوة مهما عظمت، وقد بعث النبي ﷺ عبد الله بن رواحة إلى خيبر، ليقوم بتقدير ثمر النخل فيها، إذ كان لهم نصفها، وللمسلمين نصفها، وقام عبد الله بالمهمة فقال: في هذه كذا، وفي هذه كذا، فجمع اليهود له حلياً من حلى نسائهم وقالوا له: هذا لك، وخفف عنا في القسمة وتجاوز فقال:(يا معشر اليهود.. والله والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلي، وما ذاك بحاملي أن أحيف عليكم. أما الذي عرضتم له من

الرشـوة فإنهـا سـحت، وإنـا لا نأكلهـا) فلم يملـك اليهـود إلا أن قالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

والقـوي هـو الـذي لا يمكلـه جيبـه ولا أموالـه، بـل يملكهـا ليصـرفها في مواضـع الحـق والخـير، لأن من أخطـر الضـعف البخل، ولهذا جمع ﷺ بين البخل والجبن، فقال:(اللهم إني أعـوذ بك من العجـز والكسـل والجبن والبخـل والهـرم وعـذاب القـبر وفتنة الدجال)[1]

ثانيا ـ مصادر التربية الإيمانية وضوابط استثمارها

تتحـدد آثـار التربيـة الإيمانيـة انطلاقـا من المصـادر الـتي تستقى منها، فالمصدر هو الذي يحـدد صـحة العقيـدة، كمـا أنـه المحدد لتأثيرها في النفس.

ولهذا فإن أساس كل الانحرافـات العقديـة هـو التحريفـات الـتي لحقت بكتب الـديانات المختلفـة، بحيث أصـبحت تحمـل صـورا مشـوهة عن اللـه تعـالى، لا تزيـد المتعلقين بهـا إلا جهلا بالله.

وانطلاقـا من القـرآن الكـريم، فـإن للعقيـدة مصـدرين أساسيين كبـيرين، بقـدر الاسـتفادة منهمـا تترسـخ العقيـدة في النفس، وينفعل لها السلوك والوجدان.

وقد عـبر القـرآن الكـريم عن هـذين المصـدرين بمصـطلح (الآيـات)، وهـو مصـطلح قـرآني يعـني: العلامـات الواضـحات الباهرات.

وقد أشار القرآن الكريم إلى المصـدر الأول بقولـه تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَـا إِلَيْـكَ آيَـاتٍ بَيِّنَـاتٍ وَمَـا يَكْفُـرُ بِهَـا إِلَّا الْفَاسِـقُونَ﴾ (البقرة:99)، وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْـكَ بِـالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (البقرة:252)، وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْـكَ مِنَ الْآيَـاتِ وَالـذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمـران: 58)، وقـال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَـابِ أُمَّةٌ قَائِمَـةٌ يَتْلُـونَ آيَـاتِ

1) رواه أحمد وعبد بن حميد ومسلم والنسائي.

اللّهِ آنَاءَ اللّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (آل عمران:113)

وأشار إلى المصدر الثاني بقوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (البقرة:164)، وقال تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (آل عمران:190)

وسنحاول في هذا المبحث أن نتعرف على كيفية الاستفادة من هذين المصدرين في التربية الإيمانية، والضوابط التي تحمي هذا الاستثمار من أي انحراف.

1 ـ الوحي

ونريد به القرآن الكريم، وما يفسره ويبينه ويعمق معانيه من السنة الصحيحة، فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد المعرف بالله، فلا يعرف الله إلا الله، والله هو المتكلم بالقرآن الكريم، فلذلك كان الله تعالى هو معرف نفسه بنفسه.

زيادة على ذلك، فإن في القرآن الكريم كل حقائق الوجود التي تعمق معاني الإيمان في نفس المؤمن، والتي ترفع عنه كل حيرة قد تلجئه إليها الفلسفات والترهات التي لا تعتمد على المصادر المعصومة، قال تعالى: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ (النحل:89)

ولهذا كان من أوصاف القرآن الكريم أنه َشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، وما في الصدور مصطلح قرآني يعني المعارف والوجدانات المختلفة التي تتحكم في حياة الإنسان، والصدور هي محل القلب، الذي هو محل التعقل، كما قال تعالى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج:46)

وذلك لأن الانحرافات المختلفة التي تحملها العقائد الضالة هي عبـارة عن أمـراض خطـيرة لا يكفي في علاجهـا المنطـق البرهاني وحده الذي مارسه الفلاسفة والمتكلمون، ولا المنطق الوجداني الذي مارسـه الصـوفية والإشـراقيون، لأن كـل أولئـك يتوجهون بخطابهم للطيفة من لطائف الإنسان لا يعدونها، بينمـا القـرآن الكـريم يخـاطب اللطـائف جميعـا، وبالحقـائق الـتي لا يزورها البرهان، ولا يضللها الوجدان.

وكمثـال على ذلـك يـبين يسـر أسـاليب القـرآن الكـريم وشمولها وجمالها وعمق معانيها قـراءة واعيـة لسـورة الطـور، فهي وحـدها كفيلـة بتعميـق معـاني من الإيمـان لا تسـتطيع مجلدات ضخمة من الجدل أن تغـرس مـا تغرسـه، يقـول سـيد قطب معرفا بهذه السورة العظيمة: (هذه السورة تمثـل حملـة عميقة التـأثير فى القلب البشـري، ومطـاردة عنيفـة للهـواجس والشكوك والشـبهات والأباطيـل الـتي تسـاوره وتتدسـس إليـه وتختبئ هنا وهناك في حناياه. ودحض لكل حجـة وكـل عـذر قـد يتخذه للحيدة عن الحق والزيغ عن الإيمان.. حملة لا يصـمد لهـا قلب يتلقاها، وهي تلاحقه حتى تلجئه إلى الإذعان والاستسـلام! وهي حملة يشترك فيهـا اللفـظ والعبـارة، والمعـنى والمـدلول، والصـور والظلال، والإيقاعـات الموسـيقية لمقـاطع السـورة وفواصلها على السـواء. ومن بـدء السـورة إلى ختامهـا تتـوالى آياتها كما لو كانت قـذائف، وإيقاعاتهـا كمـا لـو كـانت صـواعق، وصورها وظلالهـا كمـا لـو كـانت سـياطا لاذعـة للحس لا تمهلـه لحظة واحدة من البدء إلى الختام)[1]

والقـرآن الكـريم يقـدم لهـذه المطـاردة لأفـول الهـواجس والشكوك بمشهدين يضعان الإنسان أمام الأمر الواقع، وكأنهمـا يقولان له:(إن النتيجة التي سوف ينتهي إليها موقفك هما هاتان النتيجتان لا غير)

وهاتان النتيجتان تخاطبان النفس والأهواء الـتي قـد تتحكم في العقول، فتمنعها من التـدبر السـليم، والـوعي الحقيقي لمـا تخـاطب بـه، فتحـاول أن تلـوي الحقـائق لتنسـجم مـع الأهـواء،

---

1) في ظلال القرآن: 3391.

فلذلك تبدأ هـذه السـورة بخنـق هـذه الأهـواء أولا لتـتيح للعقـل التدبر الواعي لما يخاطب به من أدلة عقلية.

أمـا المشـهد الأول، فيخـاطب مـا في الإنسـان من خـوف على مصيره ومصير أحلامه، فينبههـا بهـذا التنبيـه الشـديد، قـال تعالى: ﴿ فوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ يَوْمَ يُـدَعُّونَ إِلَى نَـارِ جَهَنَّمَ دَعّـاً هَـذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَـا تُكَـذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَـذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِـرُونَ اصْـلَوْهَا فَاصْـبِرُوا أَوْ لَا تَصْـبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الطور:11 ـ 16)

أما المشهد الثـاني، فيخـاطب مـا في الإنسـان من حـرص على اقتناص أكبر قدر من اللذات والشهوات مع البعـد عن كـل ما ينغصها من المنغصات، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَـذَابَ الْجَحِيمِ كُلُـوا وَاشْـرَبُوا هَنِيئـاً بِمَـا كُنتُمْ تَعْمَلُـونَ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُـرُرٍ مَّصْـفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَـا أَلَتْنَـاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَـيْءٍ كُـلُّ امْـرِئٍ بِمَـا كَسَـبَ رَهِينٌ وَأَمْـدَدْنَاهُم بِفَاكِهَـةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْـتَهُونَ يَتَنَـازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَـأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾(الطور:17 ـ 24)

وبعد هذا الوصف الجميـل الـذي تـترنح النفس طربـا وهي تتطلع إليه ينقل القرآن الكـريم مشـهدا لأولئـك المتنعمين، وهم جالسون في رياض الجنة يتحدثون عن سر ذلـك التنعم العظيم، قال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُـهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَـاءلُونَ قَـالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾(الطور: 25 ـ 28)

وانطلاقا من هذا المشهد الذي تتمنى كل نفس أن تعيشه، وانطلاقا من سد كل الثغرات الـتي تحـاول ظلمـات الشـياطين والنفس ملأها بأسراب الشبهات يأتي الخطـاب القـرآني للعقـل البشري المتحرر من أسر الهوى ليرد كل الهواجس التي تمليهـا الشياطين:

ويبدأ القرآن الكـريم خطابـه بتصـحيح الرسـالة، فالرسـالة

هي الطريق المعرف بالله، ومن لم يصدق برسل الله لن يعرف الله، ولا مراد الله، قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (الطور:29 ـ 34)

ثم يبين ضرورة وجود الله ووجود كمالات الله ليستقيم الكون على ما هو عليه، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾(الطور:35 ـ 44)

وكل لفظة من هذه الألفاظ ــ بما تزرعه في العقل من تصديق ـ عالم من عوالم الأدلة مصاغ بأحسن أسلوب وأرقه وأجمله.

ولو قارنا هذا الأسلوب القرآني الشامل في خطابه، والدقيق في توجيهه مع ما حاول به المتكلمون وغيرهم من استبدال أساليب القرآن الكريم بأساليب الفلاسفة لوجدنا الفرق شاسعا.

فأساليب الفلاسفة جافة لا تزيد القلب إلا شبهات، لأنها من حبك العقل، والعقل الذي أنشأ الدليل يمكن أن ينشئ ما ينقضه أو ما يوهم أنه ينقضه، فيتيه الإنسان في الدور، أو يموت على دين العجائز.

ومن مظاهر المنهج التربوي في القرآن الكريم تكريره للمعاني الإيمانية وتقريره لها بالأساليب المختلفة المنسجمة مع كل العقول، ففي كل سورة، بل في كل آية تعرض حقائق

الإيمان لتحل كل الإشكالات، وتجيب على كل الشبهات.

ولهذا كان البناء القرآني متميزا، فالحقائق الإيمانية القرآنية موزعة في كل سورة، بل في كل آية، قال بديع الزمان:(واعلم انه لا يمكن لكلِ أحدٍ في كل وقتٍ قراءة تمام القرآن الذي هو دواء وشفاء لكل أحدٍ في كل وقت. فلهذا أدْرَجَ الحكيمُ الرحيم اكثر المقاصد القرآنية في اكثر سوره؛ لا سيما الطويلة منها، حتى صارت كلُ سورة قرآناً صغيراً، فسهّل السبيلَ لكل أحدٍ، دون أن يَحْرُمَ أحداً، فكرر التوحيد والحشر وقصة موسى ﵇)[1]

وهذا التكرار، بحسب الحاجة للدواء، وهو كتكرار الدواء المادي الذي يصفه الأطباء، و(كما أن الحاجات الجسمانية مختلفةٌ في الأوقات؛ كذلك الحاجات المعنوية الأنسانية ايضاً مختلفة الأوقات. فالى قسمٍ في كل آن كـ (هو الله) للروح - كحاجة الجسم الى الهواء - والى قسم في كل ساعة كـ (بسم الله))

فبناء القرآن الكريم على هذا بناء علاجي يستدعي اللمسات المختلفة المتكررة (فتكرار الآيات والكلمات اذن للدلالة على تكرّر الاحتياج، وللاشارة الى شدة الاحتياج اليها، ولتنبيه عرق الاحتياج وإيقاظه، وللتشويق على الاحتياج، ولتحريك اشتهاء الاحتياج الى تلك الأغذية المعنوية)[2]

انطلاقا من هذا فإن القرآن الكريم ــ ومثله السنة الصحيحة ـ لا يؤتي ثماره التربوية إلا بشروط، منها:

الحضور الواعي:

فالله تعالى شرط لمن يريد جني ثمار القرآن الكريم ثلاثة شروط، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (قّ:37)، فالله تعالى جعل كلامه ذكرى لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة:

---

1) الكلمات، الكلمة التاسعة عشرة.

2) الكلمات، الكلمة التاسعة عشرة.

1 ــ أن يكـون لـه قلب حي واع، فـإذا فقـد هـذا القلب لم ينتفع بالذكرى.

2 ـ أن يصغي بسمعه فيميله كله نحـو المخـاطب، فـإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

3 ـ أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم لـه، وهـو الشـهيد أي الحاضر غيرالغائب، فإن غاب قلبه لم ينتفع بالخطاب.

وهذه الشروط الـتي نص عليهـا القـرآن الكـريم هي نفس الشــروط الــتي يشــترط تحققهــا في أي شــيء نريــد إدراكــه والتعرف عليه، فـ (المبصر لا يدرك حقيقة المـرئي إلا إذا كـانت له قوة مبصرة، وحدق بها نحو المـرئي، ولم يكن قلبـه مشـغولا بغير ذلك، فإن فقد القوة المبصرة أو لم يحدق نحــو المــرئي أو حدق نحوه ولكن قلبه كله في موضع آخر لم يدركه، فكثـيرا مـا يمر بك إنسان أو غيره وقلبك مشغول بغيره فلا تشعر بمــروره فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره وكمال الإصغاء)[1]

ولهذا جعـل الغـزالي من الفـرق المغـرورة فرقـة (اغـتروا بقراءة القـرآن فيهذونـه هـذا وربمـا يختمونـه في اليـوم والليـل مرة، ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أوديــة الأمـاني إذ لا يتفكر في معاني القـرآن ليـنزجر بزواجـره ويتعـظ بمواعظـه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيــه إلى غــير ذلــك من مقاصــد التلاوة، فهــو مغــرور يظن أن المقصــود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه)[2]

وقد ضـرب مثلا لهـذا بعبـد كتب إليـه مـولاه ومالكـه كتابـاً وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يـوم مائـة مرة فهو مستحق للعقوبة، مهمـا ظن أن ذلـك هـو المـراد منـه فهو مغرور.

---

1) مدارج السالكين: 3/231.

2) إحياء علوم الدين: 3/401.

الحذر من التحريف:

فإن القرآن الكريم مع عمق معانيه وشمولها يسير واضح مفصل لا يحتاج إلى تلك المبالغات الكثيرة التي أرادت أن تفسره فزادته غموضا أو تحريفا، ولا يحتاج إلى ما أغرق المتكلمون فيه من الأدلة، فهو يحمل الحقائق ودلائلها، بيسر وجمال وضبط.

فمن حيث الأدلة، يحوي القرآن الكريم أصول الدلة وفروعها، بعبارات مؤثرة جميلة تحيط بجميع الإنسان، فلا يجد لنفسه معها إلا القبول والتصديق.

يقول ابن القيم:(ليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن. فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول وأفصحها بيانا. فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه. فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه، كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم بين علوم لا ثقة بها، وإنما هى آراء وتقليد. وبين ظنون كاذبة لا تغنى من الحق شيئا. وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها. وبين علوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام فى إثباتها، مع قلة نفعها)[1]

وقد ذكرنا مثالا لذلك بمجرد قراءة واعية لسورة الطور، وهي مجرد مثال على أسلوب القرآن الكريم في الاستدلال.

أما من حيث مواضيع العقيدة، فإن القرآن الكريم يقررها كذلك منسجمة مع العقل والفطرة، فيصف الله تعالى بكل صفات الكمال، وينفي عنه كل ما لا يليق به، وما لا يليق بالألوهية مما حرفته الأديان والأهواء.

---

1) إغاثة اللهفان: 1/44.

فهو أدق كتاب وأشمله في وصف الله تعالى وبيان عظمته والدعوة إلى محبته وعبادته، فلا يخرج قارئ القرآن الكـريم من قراءته الواعية له إلا محبا لربه معظمـا لـه عارفـا بـه عابـدا لـه مستشعرا حضوره في كل حركة وسكنة.

يقول الغزالي عنـد ذكـر مـا يستحضـره القـارئ من معـان أثناء قراءته:(أما صفات الله عز وجـل؛ فكقولـه تعـالى: لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شـيءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ البَصـيرُ وكقولـه تعـالى: المَلِـكُ القُـــدُّوسُ السَّـــلامُ المُـــؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العزيـــزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ فليتأمل معاني هـذه الأسـماء والصـفات لينكشـف لـه أسـرارها فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للمـوفقين، وإليـه أشـار علي بقوله:(مـا أسـر إليَّ رسـول اللـه شـيئاً كتمـه عن النـاس إلا أن يؤتي اللـه عـز وجـل عبـداً فهمـاً في كتابـه فليكن حريصـاً على طلب ذلـــك الفهم، وقـــال ابن مســـعود :(من أراد علم الأوّلين والآخرين فليثوّر القرآن) وأعظم علوم القرآن تحت أسماء اللـه عز وجل وصفاته إذ لم يدرك أكـثر الخلـق منهـا إلا أمـوراً لائقـة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها)(1)

ومثـل الأوصـاف المباشـرة للـه، الـتي امتلأ بهـا القـرآن الكريم، والتي تدل عليها أسماء اللـه الحسـنى معرفـة اللـه من خلال ما ذكره من افعاله، يقـول الغـزالي:(وأمـا أفعالـه تعـالى؛ فكذكره خلـق السـموات والأرض وغيرهـا، فليفهم التـالي منهـا صفات الله عز وجل إذ الفعل يدل على الفاعـل فتـدل عظمتـه على عظمته. فينبغي أن يشهد في الفعـل الفاعـل دون الفعـل، فمن عرف الحق رآه في كل شيء إذ كل شيء فهو منـه وإليـه وبه وله فهو الكل على التحقيق. ومن لا يـراه في كـل مـا يـراه فكأنه ما عرفـه. ومن عرفـه عـرف أن كـل شـيء مـا خلا اللـه باطل وأن كل شيء هالك إلا وجهه)(2)

ويبين منهج التدبر الصحيح المنتج لثمر الإيمان عنـد قـراءة أمثال قوله قال تعالى: أَفَـرَأَيْتُمْ مَـا تَحْرُثُـونَ (الواقعـة:63)، وغيرهـا، فيقـول:(فلا يقصـر نظـره على المـاء والنـار والحـرث

1) إحياء علوم الدين: 1/283.

2) إحياء علوم الدين: 1/283.

والمني، بل يتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الأجزاء ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (يّس:77) فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى عجب العجائب وهو الصفة التي منها صدرت هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع)(1)

هذا هو منهج التدبر الصحيح، وهو الذي يثمر المعرفة بالله، المعرفة التي تثمر التعظيم والمحبة، والتي تنتج من خلالها العبودية في أرق صورها.

أما ما يحاول البعض التركيز عليه في البحث عما في القرآن الكريم من إضافات لله، فيعتبرونها أصل العقيدة، ومنتهاها، فهو من تحريف القرآن الكريم بالهرب من الحقائق المقررة في النصوص إلى ما يكتنفها من التعبير.

فالله تعالى عندما يقول: ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:88) يدعو إلى إفراده بالعبودية، لأن كل من عداه هالك في الحال أو في المآل، لكن الانصراف عن مقصد النص ـ وهو نوع من التحريف ـ يجعل الآية وكأنها تقررا صفة ذاتية لله اسمها (الوجه) تجعل كل من لم يسلم بها مبتدعا منحرفا ضالا، ثم تأمر المؤمن بها أن يؤمن بحقيقتها وبوجودها من غير أن يعرف لها أي معنى أو أي دلالة.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طـه:39)، فالله تعالى يخبر موسى عليه السلام بأنه قد صنع على عين الله أي أن الله رباه

1) إحياء علوم الدين: 1/283.

وحفظه وكفل له عناية خاصة.

ومثل ذلك قوله تعـالى: وَاصْـنَعِ الْفُلْـكَ بِأَعْيُنِنَـا وَوَحْيِنَـا (هود:37)، فالله تعـالى يبشـرهم بعنايتـه وحضـوره من غـير أن يقصد القرآن الكريم تقرير وصف خاص للـه اسـمه (العيـون) لا يدرى معناه ولا يفقه تفسيره.

ومثل ذلك ما ورد في السـنة من قولـه ﷺ لمن شـق آذان الأنعـام محـذرا إيـاه من غضـب اللـه:(موسـى اللـه أَحَـدُّ من موساك، وساعد الله أشد من ساعدك)(1)، فراح هـؤلاء يثبتـون به صفة الساعد، لأن الساعد مضاف إلى الله.

يقول سيد قطب معلقا على أمثال هذه النصوص:(كـل مـا يرد في القرآن وفي الحديث من هذه الصور والمشاهد إنما هـو تقريب للحقائق التي لا يملك البشر إدراكها بغـير أن توضـع لهم في تعبير يدركونه، وفي صورة يتصـورونها. ومنـه هـذا التصـوير لجانب من حقيقـة القـدرة المطلقـة، الـتي لا تتقيـد بشـكل، ولا تتحيز في حيز، ولا تتحدد بحدود)(2)

ولهذا ضحك ﷺ لما جاءه حَبْر من الأحبار، فقال:(يـا محمـد إنا نجد أن اللّه عزَّ وجلَّ يجعل السماوات على إصبع، والأرضـين على إصـبع، والشـجر على إصـبع، والمـاء والـثرى على إصـبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك رسول اللّـه ﷺ حـتى بـدت نواجـذه، ثم قـرأ: وَمَـا قَـدَرُوا اللَّهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّـمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِـهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (الزمر:67)) (3)

ولو أراد القرآن الكريم اعتبار تلـك الإضـافات أو المشـاهد أوصـافا للـه لـذكرها مفـردا لـه مهتمـا بهـا داعيـا للـدعوة إليـه وتعريف الله بها، كما قال تعالى: نَبِّئْ عِبَـادِي أَنِّي أَنَـا الْغَفُـورُ الرَّحِيمُ (الحجر:49)، فلم يقل اللـه في آيـة من القـرآن:(نـبئ

1) رواه الطبراني في الكبير، وفي السنن بعضه، مجمع الزوائد: 4/32.

2) في ظلال القرآن: 3062.

3) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

عبادي ان لي عينا أو يدا أو ساقا..)

ومثل ذلـك قولـه تعـالى: ﴿ قُـلِ اللَّهُمَّ مَالِـكَ الْمُلْـكِ تُـؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِـزُّ مَنْ تَشَـاءُ وَتُـذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْـرُ إِنَّكَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ﴾ (آل عمـران: 26)، فقـد ذكـر أوصـافا وأفعـالا لكـل منهـا تـأثيره العميـق في المعرفة بالله.

ولهذا كان سيد آيات القرآن الكريم قولـه تعـالى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُـذُهُ سِـنَةٌ وَلا نَـوْمٌ لَـهُ مَـا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَـيْءٍ مِنْ عِلْمِـهِ إِلَّا بِمَـا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَـؤُودُهُ حِفْظُهُمَـا وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقــرة:255)، وكلهــا أوصــاف لتنزيــه اللــه وكماله، وليس فيها شيء مما يبالغ فيه هؤلاء، بل يعتبرونه أصل العقيدة الذي لا تكمل العقيدة إلا به.

وهذا التحريف يشبه إلى حد كبير ما وقع فيه اليهود عنــدما قال لهم موسى عليه السلام ببساطة وتلقائية وهو يبلغهم عن أمر اللــه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ (البقرة:67)، فتصوروا أنهم لن يعرفـوا البقـرة إلا بعـد أن يعرفـوا لونهـا وطولهـا وعرضـها وعملها وكسلها.

قال تعالى مبينا هذه النزعة الجدلية التي لا تهتم بالحقيقــة بقدر ما تهتم بتفاصيلها: ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِـكَ فَـافْعَلُوا مَـا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَـا لَوْنُهَـا قَـالَ إِنَّهُ يَقُـولُ إِنَّهَـا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَــا هِيَ إِنَّ الْبَقَــرَ تَشَــابَهَ عَلَيْنَــا وَإِنَّا إِنْ شَــاءَ اللَّهُ لَمُهْتَــدُونَ﴾ (البقرة:68 ـ 70) [1]

بل هـو يشـبه مـا وقـع فيـه بعض المفسـرين الـذي راحـوا

1) وقريب من هذا ما سأل بعض اليهود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كمـا قـال مجاهـد قـال: جـاء يهودي فقال: يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو؟ من نحاس هو؟ أم من لؤلؤ، أو ياقوت؟ قال، فجاءت صاعقة فأخذته، وأنزل اللّه: ﴿ وَيُرْسِـلُ الصَّـوَاعِقَ فَيُصِـيبُ بِهَـا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ (الرعد:13)

يبحثـون في دجـل أهـل الكتـاب وفي أحـاديث القصـاص عن تفاصـيل أعـرض القـرآن الكـريم عن ذكرهـا، وكـأن المعـاني القرآنية لا تفهم إلا بشرحها وتفصيلها مع أن القرآن الكريم نهى عن تـرك الأصـل والاعتبـار والانشـغال بالتفاصـيل الـتي قـد لا تسـمن ولا تغـني من جـوع، قـال تعـالى وهـو يقص قصـة أهـل الكهــف: ﴿ سَــيَقُولُونَ ثَلاثَــةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُــونَ خَمْسَــةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُـلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِـدَّتِهِمْ مَـا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيـلٌ فَلا تُمَـارِ فِيهِمْ إِلَّا مِـرَاءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ (الكهف:22)

فنهى عن أمرين كلاهما مما انحرف به هؤلاء عن المعـاني القرآنية:

الأول: هو المراء والجدل والغـوص عن التفاصـيل بمجـرد التحليل العقلي الذي لا يملك أدوات التحليل، فيغـوص في بحـر الاحتمالات التي لا تزيد المرء إلا حيرة.

والثاني: هو البحث في تـراث الأمم المحـرف عمـا يزيـد الحقائق القرآنية تفاصيل، وكأن القرآن الكـريم ــ المهيمن على كل الكتب ـ مفتقر إلى غيره في تقرير حقائقه.

2 ـ عالم النفس والكون

وهو الميـدان الثـاني المعـرف باللـه، وبالحقـائق الإيمانيـة، ولذلك تكثر الإشارات القرآنية لآيات الله في الآفاق والأنفس.

فــأولو الألبــاب، وهم (العــارفون) كمــا اصــطلح عليهم المتأخرون يجعلون من آيات الله الكونيـة رسـائل يتعرفـون من خلالها على الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:190)

بل إن الله قدم هذا النظر الواعي للكون من أولي الألباب على عبـاداتهم، وكـأن عبـاداتهم أثـر لهـذا النظـر الـواعي، قـال تعــالى: ﴿ الَّذِينَ يَــذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامــاً وَقُعُــوداً وَعَلَى جُنُــوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران:191)

ولذلك اعتبر تعالى ما في الكون من آيات مـذكرات لأولي الألباب، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْـزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَسَـلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُـهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَـرَاهُ مُصْـفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُـهُ حُطَامـاً إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَـذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَـابِ﴾ (الزمر:21)

ولهذا نجد القرآن الكريم ممتلئا بالآيـات الكونيـة المعرفـة بالله، والداعية إليه لتنزع النظرة الاعتيادية للكون، والتي تحيلـه شيئا بسـيطا مألوفـا لا قيمـة لـه إلا القيمـة الـتي يستسـخر من أجلها.

فلهـذا نجـد الخلـق قـد يسـبحون بحمـد من اكتشـف سـرا حقيرا من أسرار هذا الكون، واستخدمه لمصلحة من المصـالح، ثم لا يسبحون بحمد صاحب السر، بل صاحب الكون جميعا.

ولهذا نسب تعالى السفن إليه، فقال تعالى: ﴿ وَلَهُ الْجَـوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَـالْأَعْلامِ﴾ (الـرحمن:24)، وقـال في الآيـة الأخرى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ﴾ (الشورى:32)

ثم عقب مخاطبا الحائرين في سبب اعتبارها من آيات الله ونعمه مع أنها من صنع البشر، فقـال: ﴿ إِنْ يَشَـأْ يُسْـكِنِ الـرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (الشورى:33)

وفي مقابل ذلك لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخـذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصـرفتها ذات اليمين أو ذات الشـمال، آبقـة لا تسـير على طريـق ولا إلى جهـة مقصـد؛ قال تعالى عقب الآية السابقة: ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَـا كَسَـبُوا وَيَعْـفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى:34)

وهكذا يقال في جميع آيـات اللـه الـتي يتصـور البشـر أنهم أصحابها، المالكون الله، ثم يعزلون الله عنها.

ولهـذا يضـرب القـرآن الكـريم الأمثـال بالنحـل والـذباب والعنكبـوت حـتى صـار ذلـك موضـع اسـتهزاء من اليهـود والمشركين، فرد عليهم تعالى بقولـه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْـتَحْيِي أَنْ

يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقرة:26)

ثالثا ـ شروط المعارف الإيمانية

المعرفة المطلوبة في الإيمان بالله هي المعرفة اليقينية الجازمة الموافقة لما عرف الله به نفسه، وهي بذلك تتميز بخاصيتين اثنتين: اليقين والصدق.

1 ـ اليقين

والمراد به العلم الجازم بحقائق الإيمان، بحيث لا يتطرق إلى العارف أدنى شك في المعرف، بل تكون معرفته به أشد من معرفته بنفسه التي بين جنبيه.

وقد كان البحث في هذا الجانب هو ما دفع المتكلمين إلى البحث التفصيلي في الشبهات وأنواع الاعتراضات للرد عليها، ونصرة الحق، ولا ضرر فيها من هذا الجانب لمن احتاج إلى ذلك.

ولكن الضرر على من تصور أنه لا يعرف الله إلا بعد الخوض فيما خاض فيه المتكلمون من أدلة، لأنه سيتيه بالدليل عن المدلول، بل قد يلتزم بالدليل ما لا يصح التزامه، كما وقع في ذلك الكثير من متكلمي المسلمين.

والأخطر من ذلك كله أن يتحول الإيمان بالله جدلا لسانيا فارغا لا روحا يبعث الحياة في وجدان صاحبها وسلوكه.

ولهذا اشتد تحذير السلف من صناعة المتكلمين، واشتد فيه فقهاء الإسلام الكبار في النهي عنه لما رأوا من آثاره الاجتماعية:

فهذا الشافعي مع علمه الجليل، وعلمه بأحوال الفرق ومجادلاتها وشغبها اشتد نهيه عن صناعة المتكلمين لعقم سبلها مع العامة: قال ابن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يوم ناظر

حفصاً الفرد ــ وكـان من متكلمي المعتزلـة ــ يقـول:(لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشـيء من علم الكلام، ولقـد سـمعت من حفص كلامـاً لا أقدر أن أحكيه)، وقال:(قـد اطلعت من أهـل الكلام على شـيء ما ظننته قط ولأن يبتلى العبـد بكـل مـا نهى اللـه عنـه مـا عـدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام)

وحكى الكرابــيسي: أنّ الشــافعي سـئل عن شــيء من الكلام فغضـب وقـال: سـل عن هـذا حفصـاً الفـرد وأصـحابه، أخزاهم الله، ولما مرض الشافعي دخل عليه حفص الفرد فقال له: من أنا؟ فقال: حفص الفرد، لا حفظك اللـه ولا رعـاك حـتى تتـوب ممـا أنت فيـه. وقـال:(لـو علم النـاس مـا في الكلام من الأهواء لفرّوا منه فرارهم من الأسد)، وقال:(إذا سمعت الرجـل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى، فاشهد بأنه من أهــل الكلام ولا دين له)، وقال:(حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال: هذا جــزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام)[1]

أما أحمد بن حنبل، فقد اشتد نهيه عنه، بـل تعـرض بسـببه لمحنته المعروفة، قال:(لا يفلح صاحب الكلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل)، وقد بالغ في ذمه حتى هجر الحارث المحاسبـي مع زهده وورعه بسـبب تصـنيفه كتابـاً في الرد على المبتدعة وقال لـه:(ويحـك ألسـت تحكي بـدعتهم أوّلاً ثم ترد عليهم ألست تحمـل النـاس بتصـنيفك على مطالعـة البدعـة والتفكـر في تلـك الشـبهات فيـدعوهم ذلـك إلى الـرأي والبحث)

ومثل ذلك الإمام مالك، فقد نبه إلى خطره العظيم بقوله:(أرأيت إن جاءه من هـو أجـدل منـه أيـدع دينـه كـل يـوم لـدين جديد؟)

بـل إن المتكلمين أنفسـهم نبهـوا إلى خطـورة هـذا العلم على العامة، فألف الغزالي كتابه المعـروف (إلجـام العـوام عن علم الكلام)

---

1) إحياء علوم الدين: 1/95.

والسر في ذلك أن أكثره جدل لا يعمق في الإيمان في النفس، ولهذا قال الغزالي عن علم الكلام بعدما طلب البحث فيه عن الحقيقة:(فصادفته علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودي)(1)

فهو واف بمقصودهم من حيث حراسة الدين من الشبه، ولكنه غير واف بمقصود من طلب حقيقة الإيمان.

وهو لهذا التحديد الوظيفي لعلم الكلام يرى أن المرتبة الإيمانية للمتكلمين لا تختلف عن مراتب العوام، ولهذا ينصح المتكلم بقوله:(فليعلم المتكلم حده ممن الدين، وأن موقعه منه موقع الحارس في طريق الحج، فإذا تجرد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج، والمتكلم إذا تجرد للمناظرة والمدافعة، ولم يسلك طريق الآخرة لم يكن من جملة علماء الدين أصلا)، ثم يعقب على ذلك بقوله:(وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التي شاركه فيها سائر العوام، وإنما يتميز عن العامي بسرعة المجادلة والحراسة)(2)

ولذلك ينتقد الغزالي الطريقة التعميمية في عرض مسائل العقيدة بالمناهج الكلامية لما تثيره من شبهات وتشكيكات، ويرى أن يقتصر في البلاد التي تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب على العقائد المعروفة دون التعرض للأدلة إلى أن تقع الشبهة، وحينذاك تذكر الأدلة بقدر الحاجة، فإن كانت البدعة شائعة، وخيف على العوام أن يخدعوا بها، فلا بأس من عرض الأدلة وتعميم العلم بها بحسب الحاجة إلى ذلك(3)، أما في غير تلك المواضع فإن الغزالي يرى حرمة خوض العوام في علم الكلام وإلجامهم عنه إلا لأحد شخصين:

1 ــ رجل وقعت له شبهة لا يمكن إزالتها عنه بكلام وعظي، وعلم أن القول الكلامي المرتب يرفع شبهته ويداويها.

---

1) الغزالي، المنقذ من الضلال، ص87.

2) الغزالي، إحياء علوم الدين: 1/23.

3) الغزالي، إحياء علوم الدين: 1/98.

2 ـ شخص كامل العقل راسخ القدم في الدين ثابت الإيمان يريد تحصيله ليداوي به مريضا إذا وقعت له شبهة، أو يفحم به مبتدعا، أو يحرس معتقده إذا أراد المبتدع إغواءه(1).

ولهذا، فإن البديل الذي يرسمه الغزالي للعامة وللنشء هو ما عبر عنه بقوله ـ بعد ذكره لعقيدة مختصرة ـ:(اعلم أنّ ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أوّل نشوه ليحفظه حفظاً ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً؛ فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به، وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان)(2)

فالطريق ــ كما يرسمه الغزالي ــ هو التلقين، فالحفظ وحده كاف في تقرير كثير من الأمور من غير حاجة إلى تفاصيل الأدلة العقلية، والتي قد لا تزيد المتعلق بها غير المزيد من الشبهات.

وقد علل الغزالي هذا، فقال:(فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أوّل نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان)

ثم بين البرهان الواقعي لذلك بقوله ـ وهو ينتقد المغالين من المتكلمين الذين تصوروا أن الإيمان لا يتحقق إلا عبر صناعتهم ـ:(وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مبادئها التلقين المجرّد والتقليد المحض؟)

وبعد التلقين ــ والذي هو بمثابة البذر ــ ينصح الغزالي بتعهده بالسقي والتقوية، قال:(نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرّد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقي إليه فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي حتى يترسخ ولا يتزلزل)(3)

---

1) الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ص173، 174.

2) إحياء علوم الدين: 1/94.

3) إحياء علوم الدين: 1/94.

والطريق إلى ذلك ليس بالجدل، قال:(وليس الطريــق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام)

وإنمــا بــأنوار العبــادة، قــال:(بــل يشــتغل بتلاوة القــرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه. ويشـتغل بوظـائف العبـادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القــرآن وحججـه وبمـا يـرد عليـه من شـواهد الأحـاديث وفوائـدها وبمـا يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفهـا وبمـا يسـري إليـه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسـيماهم وسـماعهم وهيئـاتهم في الخضوع لله عز وجل والخـوف منـه والاسـتكانة لـه فيكـون أوّل التلقين كإلقــاء بــذر في الصــدر، وتكــون هــذه الأســباب كالسقي والتربـية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شـجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء)

وكما أن النبتة تحرس من كل ما قد يؤذيها، ويمنـع نموهـا، فكذلك يحرس يقين الصبي والعامي من كل ما قد يتسرب إليـه مما يدخل الشبهات والشـكوك إلى نفسـه، والطريـق إلى ذلـك هو تحصينه من الجدل، قال الغزالي:(وينبغي أن يحـرس سـمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة، فإنّ ما يشوّشـه الجـدل أكـثر مما يمهده ومـا يفسـره أكـثر ممـا يصـلحه، بـل تقويتـه بالجـدل تضاهي ضرب الشجرة بالمدقـة من الحديـد رجـاء تقويتهـا بـأن تكثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب)

ويضرب الأمثلة على ذلك بالواقع، واقع المؤمـنين الطيـبين الذي تلقوا الإيمان تلقينا، ثم قووه بأنوار الطاعة، فازدادوا إيمانا مع إيمانهم، وبين المتكلمين الذي تصوروا أنهم بإقناع العقل، أو بسلاحه يصلون إلى الحقائق، فقال:(والمشاهدة تكفيك في هذا بـياناً فناهيك بالعيان برهانـاً. فقس عقيـدة أهـل الصـلاح والتقى من عـوام النـاس بعقيـدة المتكلمين والمجـادلين فـترى اعتقـاد العامي في الثبات كالطود الشامخ لا تحرّكه الدواهي والصواعق وعقيـدة المتكلم الحـارس اعتقـاده بتقسـيمات الجـدل كخيـط مرسل في الهواء تفيئـه الريـاح مـرة هكـذا ومـرة هكـذا إلا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليداً كما تلقف نفس الاعتقاد تقليداً؛ إذ لا فرق في التقليد بـين تعلُّم الـدليل أو تعلم المـدلول

فتلقين الدليل شيء والاستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه)[1]

ولهذا نشأ ما يسمى بـ (المعرفة)، وهي مصطلح يعني العلم بالله لا عن طريق الاستدلال العقلي، وإنما عن طريق اليقين الإيماني، الذي يستشهد بالله على الله، ويبرهن بالله على الله، وهنا يتجلى الفرق العظيم بين إيمان من عاش يبحث عن البراهين على الله، وبين الذين بدأ حياته مع الله.

ولهذا (أجمع العارفون على أن الدليل على الله هو الله وحده، وسبيل العقل عندهم سليل العاقل في حاجته إلى الدليل لأنه محدث والمحدث لايدل إلا على مثله)

وقد سئل النوري:(ما الدليل على الله؟ قال:(الله)، قال فما العقل قال:(العقل عاجز والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله)

وقد وضع ابن عطاء العقل الذي يعتمد عليه العالم في محله عندما قال:(العقل آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبية)

وعبر آخر عن ذلك بقوله:(العقل يجول حول الكون فإذا نظر إلى المكون ذاب)

وعبر أبو بكر القحطبي على استحالة التعرف على الله بالعقل بقوله:(من لحقته العقول فهو مقهور إلا من جهة الإثبات، ولولا أنه تعرف إليها الألطاف لما أدركته من جهه الإثبات)

وقد قال بعض الصالحين معبرا عن عجز العقل:

من رامه بالعقل ... سرحه في حيرة
شاب بالتلبيس ... يقول من حيرته

ولكن هذه المعرفة التي تغني عن كثرة الحجج البرهانية، ولا تراود صاحبها الشبهات والشكوك تحتاج إلى مرآة صافية لا تشوه الحقائق، فعلى قدر جلاء المرآة تتجلى أنوار الحق، كما قيل:

---

1) إحياء علوم الدين: 1/94.

إذا سكن الغدير ... وجنب أن يحركه
بدت فيه السماء بلا ... كذاك الشمس تبدو
كذاك قلوب أرباب ... يرى في صفوها الله

وهذا هو الفرق الأساسي بين علم الكلام والمعرفة أو علم الإيمان، فالعلم بحث واستدلال، والمعرفة شهود وعيان، والعلم مكابدة وشك، والمعرفة راحة ويقين.

العارف يرى مـا يـؤمن بـه ويعيشـه، أمـا العـالم أو طـالب العلم فيكتفي بأن يبحث عن أدلـة مـا يسـمع عنـه، وقـد يحجب بالأدلة عن المدلول، وبالطريق عن الغاية.

وفي الوقت الذي يقلب فيه العالم صفحات الكون ليستدل به عن ربه، ينطلق العارف من ربه ليستدل به على الكون، قال ابن عطاء الله:(الكونُ كلُّه ظُلْمةٌ، وإنَّما أنارَهُ ظهورُ الحـقِّ فيـه، فمن رأى الكونَ ولم يشهدُهُ فيه أو عنده أو قَبْلَـه أو بَعْـدَه فقـد أَعْوَزَهُ وجـودُ الأنـوارِ، وحُجبَتْ عنـه شـموسُ المعـارفِ بسُـحُبِ الآثار)

2 ـ الصدق

ونريـد بـه مطابقـة العقيـدة لمـا جـاءت بـه النصـوص، لأن مصدر العقيدة الأول ـ كما ذكرنا سابقا ـ هو الوحي، أمـا العقـل فهو مدعم للوحي وأداة من أدواته.

ولهذا، فـإن كـل من يحـاول أن ينـافس الـوحي في تقريـر العقائد يرد قوله، فالغيب لا يعمله إلا من كشف الله لـه حجبـه، وليس ذلك لغير المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم.

ولهذا، فإن الكثير من العقائد ـ وفي الأبواب المختلفة منها ـ تحتـاج إلى زيـادة تمحيص لتحقيـق الحـق منهـا وتمييـزه عن الباطل.

وهذا يستدعي زيادة على ما ذكرنا من حفظ النصـوص من التحريف الذي يخرجهـا عمـا سـيقت لـه إلى التثبت في النقـول المختلفة سواء ما ورد منهـا منسـوبا إلى رسـول اللـه ﷺ أو مـا

ورد منسوبا للصحابة أو التابعين ومن بعدهم.

لأن التساهل في النقـول هـو الـذي أدى إلى إلـزام النـاس بعقائد لا دليل يؤيدها، بل إنها في أحسـن أحوالهـا أسـطورة من الأساطير أو خرافة من الخرافات يزداد معتقدها باعتقادهـا جهلا لا علما.

وقـد طـال التلفيـق النصـوص الظنيـة، فوضـعت الأحـاديث لتساهم في تأكيد ما قرره العقل أو الذوق من تحريـف لمعـاني العقيدة في الله وفي عوالم الله.

ففي كتاب [إبطال التأويلات]، والذي يعتبر نموذجا لتحريف حقيقـة (اللـه) وحقيقـة (الإيمـان باللـه) نجـد الروايـات الكثـيرة الباطلـة الـتي تؤيـد مـا اختـاره صـاحبه من التشـبيه المتسـتر بالتنزيه.

فهو ينقل مثلا ـ ليقـرر إثبـات الصـورة للـه ــ هـذه الروايـة الباطلة:(غضب موسى على قومه في بعض ما كانوا يسـألونه، فلما نزل الحَجَر قال: اشربوا يا حمير، فأوحى اللـه إليـه: تعمـد إلى عبيد من عبيدي خلقتهم على مثل صـورتي فتقـول اشـربوا يا حمير، قال: فما برح حتى أصابته عقوبة)(1)

وهو ينقل ـ لإثبات صفة للذات اسمها (الذراع) ـ روايـات لا تثبت، وليست صريحة فيما أراده(2)، منها هذا الأثـر:(خلـق اللـه الملائكة من نور الذراعين والصدر)

ويعلق عل هذا بقولـه:(الكلام في هـذا الخـبر في فصـلين: أحدهما في إثبات الذراعين والصدر، والثاني في خلـق الملائكـة من نوره) فجعل الذراعين والصدر والنور صفات.

وهو ينقـل ــ لإثبـات صـفة للـذات اسـمها (الفخـذ والأمـام والخلف) ـ بالرواية الباطلة التاليـة:(إذا كـان يـوم القيامـة يـذكر داود ذنبـه فيقـول اللـه عـز وجـل لـه: كن أمـامي، فيقـول: رب

1) إبطال التأويلات: 1/97.

2) إبطال التأويلات: 1/203.

ذنبي، فيقول الله: كن خلفي فيقـول: رب ذنـبي ذنـبي، فيقـول الله له خذ بقدمي)[1]، ثم يذكر الرواية الباطلة التالية:(إن الله عز وجل ليقرب داود حتى يضع يده على فخـذه يقـول: ادن منـا أزلفت لدينا)

ثم يعلق على هذا الهراء بقوله:(اعلم أنه غير ممتنـع حمـل هذا الخبر على ظاهره، إذ ليس فيه ما يحيل صفاته ولا يخرجهـا عما تستحقه لأنا لا نثبت قدما وفخذا جارحة ولا أبعاضا، بل نثبت ذلك صفة كما أثبتنا الذات والوجه واليدين ... ولا نثبت أيضا أماما وخلفا على وجه الحد والجهة، بل نثبت ذلك صفة غير محدودة)

وهـو ينقـل عن مقاتـل بن سـليمان ــ المعـروف بقولـه بالتجسيم ـ فينقل عن طريقه عن عبد الله بن مسعود في قوله تعـالى: ﴿ يَـوْمَ يُكْشَـفُ عَنْ سَـاقٍ وَيُـدْعَوْنَ إِلَى السُّـجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (القلم:42)قوله:(يعني سـاقه اليمين، فيضـيء من نور ساقه الأرض، فذلك قولـه تعـالى: ﴿ وَأَشْـرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُـورِ رَبِّهَا ﴾ (الزمر:69) يعني نور ساقه اليمين)

لكن المؤلف لا يبالي بهذا كله، فحسبه أن يحمـل الحـديث أي إشارة للتجسيم، فيصح الضعيف، ويقوم الموضوع.

ولم يتورع مؤلف الكتاب أن يـورد هـذه الروايـة في كتـاب يعرف باللـه: عن عبدالله بن الحسـين المِصِّيصـي قـال: دخلت طَرَسُوسَ، فقيل لي ههنا امرأة قد رأت الجن الذين وفـدوا إلى النبي ﷺ، فأتيتها، فـإذا هي امـرأة مسـتلقية على قفاهـا فقلت: رأيت أحـدا من الجن الـذين وفـدوا إلى رسـول الله ﷺ؟ قـالت: نعم، حدثني عبدالله سمحج قال: قلت: يا رسول الله، أين كـان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال:(على حوت من نـور يتلجلج في النور)

بل ينقل من الأباطيل ما يدلل به على قعود النـبي ﷺ على العرش مع الله[2]، ويفسر به المقام المحمـود الـذي وعـده بـه

---

1) إبطال التأويلات: 1/206.

2) إبطال التأويلات: 1/72 و2/476.

ربه، ثم يقول معتمدا على الروايات الموضوعة:(فلزمنا الإنكار على من رد هذه الفضيلة التي قالتها العلماء وتلقوها بالقبول، فمن ردها فهو من الفرق الهالكة)، بل وينقل عن بعضهم تكفير منكر ذلك.

ومن الجانب الآخر ــ جانب الانحراف الوجداني ــ نجد الأحاديث المدعمة للشرك بكل صوره، ومن ذلك هذا الحديث الباطل:(لو اعتقد أحدكم بحجر لنفعه)[1]

فهذا الهراء الباطل ــ المشتهر ببين العامة ــ يفتح باب الشرك على مصراعيه فيجعل ميزان الاعتقاد هو النفع، فكل من أعتقد في شيء وظنه نافعا حتى لو كان حجرا جعله الله كذلك، وكل من أتاه نفع من عقيدة ما كان هذا اعتقادا صحيحا.

وهذا ما انحرف بكثير من الطيبين البسطاء عن المعارف القرآنية الممتلئة بالعلمية والعقلانية إلى ما يسمونه دين العجائز، وينسبون في ذلك حديثا إلى رسول الله ﷺ يقول: (عليكم بدين العجائز)[2]

ويأتي أصحاب الكشف الذين أرادوا رسم صورة معينة للكون تتناسب مع مشاهداتهم، فيضعون هذا الحديث الباطل المنسوب إلى جابر بن عبد الله الأنصاري (قال قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأنبياء، قال: يا جابر أن الله تعالى خلق قبل الأنبياء نور نبيك من نوره، فجعل هذا النور يدور بالقدرة حيث يشاء الله تعالى ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار، ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر، فخلق من الجزء الأول القلم ومن الجزء الثاني اللوح ومن الثالث العرش ثم قسم

---

1) قال ابن القيم: هو من كلام عباد الأصنام الذين يحسنون ظنهم بالأحجار، وقال ابن حجر العسقلاني: لا أصل له ونحو "من بلغه عن الله شيء فيه فضيلة فأخذ به إيمانا به ورجاء ثوابه أعطاه الله ذلك وإن لم يكن كذلك" انظر تعليق ناصر الدين السلسلة الضعيفة:1/67.

2) ذكره الشيخ علي القارئ في الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة وقال بعده: قال السخاوي: لا أصل له بهذا اللفظ، وقال الزركشي: رواه الديلمي عن ابن عمر بلفظ "إذا كان آخر الزمان واختلف الأهواء فعليكم بدين البادية" "النساء" وسنده واه بل قال الصنعاني موضوع.

الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول حملة العرش، ومن الجزء الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول السموات ومن الجزء الثاني الأراضين، ومن الجزء الثالث الجنة والنار، وقسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم نظر إليه فترشح النور عرقا فتقطرت منه مائتا ألف قطرة وعشرين ألفا وأربعة الآلف قطرة فخلق الله من كل قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست روح أرواح الأنبياء فخلق الله من أنفاسهم أرواح الأولياء والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة، فالعرش من نوري والعقل والعلم والتوفيق من نوري، والكروبيون من نوري والعقل والعلم والتوفيق من نوري، وأرواح الأنبياء والرسل من نوري، والسعداء والصالحون من نائح نوري ثم خلق الله آدم من الأرض وركب فيه النور وهو الجزء الرابع ثم أنتقل منه شيث وكان ينتقل من طاهر إلى طيب إلى أن وصل إلى صلب عبد الله بن عبد المطلب ومنه إلى وجه أمي آمنة ثم أخرجني إلى الدنيا فجعلني سيد المرسلين، وخاتم النبيين وقائد الغر المحجلين)

وهذا الحديث ـ للأسف ــ يردد في بعض المجامع، وكأنه حقيقة الحقائق، وهو عمدة من يزعم أن الرسول ﷺ هو قبة الكون، وأول الوجود، وأنه جزء من نور الله ــ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ـ، وأن كل المخلوقات خلقت بأجزاء منه.

وفي مقابل هؤلاء: الوضاعون الذين أرادوا شْين النبي ﷺ، فوضعوا الأحاديث التي تحيله ﷺ طباخا أو طبيب أعشاب يصف من الدواء ما يصح وما لا يصح، ومن ذلك:(ربيع أمتي العنب والبطيخ)، ومنه (ومن أكل فوله بقشرها أخرج الله منه من الداء مثلها)، و(الباذنجان شفاء من كل داء)، و(الباذنجان لما أكل له)، و(أكل السمك يذهب الجسد)[1]

1) انظر تنزيه الشريعة 235-267.

وهذه الأحاديث هي التي يستغلها الطاعنون في رسالة رسول الله ﷺ، والكتب التبشيرية مملوءة بمثل هذه السخافات.

أما عوالم الغيب، العوالم التي يصورها القرآن الكريم، وتصورها السنة الصحيحة تصويرا جميلا يجعل القلب يهفوا متطلعا إليها، فتنحرف بها هذه النصوص الباطلة انحرافا عظيما، ففي بعضها مثلا (أن الله خلق ملائكة السماء الأولى على صورة بقرة، الثانية على صورة العقبان، والثالثة على صورة الناس والرابعة على صورة الحور العين، والخامسة على صورة الطيور، والسادسة على صورة الخيل المسومة، والسابعة حملة العرش الكروبيون)(1)

وزعموا أن هاروت وماروت كانا ملكين ألقى الله عليهما الشبق، وأن امرأة من أهل الأرض فتنتهم فوقعوا بها فمسخ الله كوكبا في السماء فهي الزهرة المعروفة وأن هذين الملكين اختارا عذاب الدنيا)(2)

أما الحقائق الفلكية والجغرافية التي لا يختلف تصوير النصوص المقدسة لها مع أحدث الحقائق العلمية، فتنص هذه النقول على خرافات عجيبة:

فتجعل المجرة لعاب حية تحت العرش، وتروي في ذلك عن الرسول ﷺ أنه قال:(يا معاذ أني مرسلك إلى قوم أهل كتاب فإذا سئلت عن المجرة التي في السماء فقل لهم هي لعاب حية تحت العرش)

وأن الشمس ترمى بالثلج حتى لا تحرق الخلائق، فنسبوا إليه ﷺ:(وكل بالشمس تسعة ملائكة يرمونها بالثلج كل يوم ولولا ذلك ما أتت على شيء إلا أحرقته)

وأن الأرض على الماء، والماء على صخرة، والصخرة على ظهر حوت يلتقي طرفاه بالعرش، والحوت على كاهل ملك

1) ذكره صاحب تنزيه الشريعة 213 وعزاه لأبي الشيخ في العظمة.

2) تنزيه الشريعة 209.

قدماه في الهواء.

وأن العنكبوت مسخ، وأن سهيل ـ النجم المعروف ـ كان عشارا يسمو الناس في الأرض بالظلم فمسخه الله.

وأن النخلة من فضل طينة آدم، وأن الله خلق جبلا يقال له (قاف) محيط بالعالم وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي القرية فيزلزلها ويحركها ثم تتحرك القرية دون القرية وأن الأرض على صخرة، والصخرة على قرن ثور فإذا حرك الثور رأسه تحركت الأرض.

ونحن لم نذكر هذه الأمثلة إلا لانتشارها وانتشار أمثالها في أوساط العامة، وكأنها حقائق لا يقل وجوب التسليم بها عن التسليم بحقائق القرآن الكريم، بل إن حقائق القرآن الكريم في تصورهم أقل قداسة لأنها مما يحتمل التأويل، أما هذه فلا تأويل فيها.

رابعا ـ أركان التربية الإيمانية

بعد معرفة المصادر الأساسية التي يتلقى منها المربي المادة التي يريد أن يثبتها في نفس من يربيه، ومعرفة الشروط التي ينبغي تحصيلها لمن يريد التحقق بحقيقة التربية الإيمانية، نتساءل الآن عن موضوع التربية الإيمانية أو المسائل التي ينبغي للمربي أن يهتم بها، أو الأركان التي تعتمد عليها التربية الإيمانية.

ونقول ـ مسبقا ـ إن كل ما ورد في النصوص من أركان الإيمان ومواضيعه هو ما ينبغي للمربي أن يعلمه ويربي النشء عليه.

وهو ما وردت الدلالة عليه في مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (البقرة:177)، وقوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ

وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (البقرة:285)، وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً (النساء:136)

أو بتخصيص بعض الأركان كما قال تعالى: إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (التوبة:18)، وقال تعالى: مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (البقرة:98)

وذكر ﷺ الأركان الأساسية للإيمان، فقال:(الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان وتؤمن بالبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره)[1]

وانطلاقا من هذا، قسم علماء التوحيد قضايا الإيمان إلى ثلاثة أركان: هي الألوهيات، والنبوات، والسمعيات، أو هي الإيمان بالله، وبالرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وبعالم الغيب.

ولهذا التقسيم أهمية كبرى بسبب اختلاف مناهج التعامل مع كل ركن من هذه الأركان.

وسنحاول في هذا المبحث تبيان أهم ما ينبغي تعليمه للنشء من هذه الأركان.

1 ـ الإيمان بالله

أول عنصر من العناصر التي تتشكل منها الشخصية السوية للطفل هو إيمانه بالله تعالى إيمانا حقيقيا يقينيا مؤثرا فاعلا، لأن هذا الإيمان هو الذي يوجه سلوكه، ويحصن اعتقاداته، ويضبط نوازع نفسه.

ولهذا قال رسول الله ﷺ معلماً لابن عباس، وقد كان حينها

---

1) رواه النسائي، والطبراني في الكبير.

لا يـزال طفلا صـغيرا:(يـا غلام إني أعلمـك كلمـات احفـظ اللـه يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسـأل اللـه، وإذا استعنت فاستعن بالله)

والقـرآن الكـريم نص على رعايـة هـذا الجـانب في تربيـة الطفل، فقال تعالى حاكيا عن التربية النموذجية للقمان ﵇ : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لاِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّـرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

والإيمان بالله هو أصل العقائد وأساسها وغايتها، فالمعرفة بالله هي الـتي تحـدد درجـات الإيمـان، وبقـدر تحقـق العبـد بهـا يكـون قربـه من اللـه أو بعـده عنـه، كمـا قـال ﷺ:(إن أتقـاكم وأعلمكم بالله أنا)[1]

والمعرفـة باللـه هي الـتي تحـدد من جهـة أخـرى جميـع سلوكيات الإنسان خيرا أو شرا، فالسلوك ثمرة المعرفة.

والتربيـة الإيمانيـة في هـذا الجـانب تركـز على أمـرين أساسيين كلاهما مما وردت النصوص بالتركيز عليـه، باعتبارهمـا أساس العقائد، هما:

التوحيد:

وهو أهم ما يهتم المربي بترسـيخه في نفس المـتربي من قضايا الإيمان، لأن أساس كل العقائد هو التوحيد، كمـا أن منبـع كل الانحرافات هو الشرك.

ولهذا كانت الدعوة للتوحيد ـ بمعناه العميق الشامل ــ هي أساس دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ كما قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رُسُـلِنَا أَجَعَلْنَـا مِنْ دُونِ الـرَّحْمَنِ آلِهَـةً يُعْبَدُونَ﴾ (الزخرف:45)، وقال تعالى: ﴿ وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الانبياء:25)

وقد ذكر الله تعالى عن كل من الرسـل ــ عليهم السـلام ـ أنهم افتتحوا دعوتهم بتوحيد الله، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً

---

1) رواه البخاري: 1/12.

إِلَى قَوْمِهِ فَقَـالَ يَـا قَـوْمِ اعْبُـدُوا اللَّهَ مَـا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرُهُ (لأعراف:59)، وقال تعالى: وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُـدُوا اللَّهَ مَـا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرُهُ أَفَلا تَتَّقُـونَ (لأعـراف:65)، وقال تعالى: وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُـدُوا اللَّهَ مَـا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرُهُ (لأعـراف:73)، وقـال تعـالى: وَإِلَى مَـدْيَنَ أَخَـاهُمْ شُـعَيْباً قَـالَ يَـا قَـوْمِ اعْبُـدُوا اللَّهَ مَـا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ (لأعراف:85)

ولهذا كان التوحيد هو أول ما يُدخل به إلى الإسـلام، وآخـر ما يخرج به من الدنيا، كما قال ﷺ:(من كان آخر كلامه لا إلـه إلا الله دخل الجنة)(1)

ولهـذا كـان من سـنة رسـول اللـه ﷺ التـأذين في أذن المولود، ليكون أول ما يسمعه توحيد الله تعالى.

وقـد كـانت أم سـليم الرميصـاء أم أنس بن مالـك خـادم الرسول ﷺ أسلمت وكـان أنس صـغيراً، لم يفطم بعـد، فجعلت تلقن أنساً قل: لا إله إلا الله، قل أشهد أن لا إله إلا الله، ففعل، فيقول لها أبوه: لا تفسدي على ابني فتقول: إني لا أفسده(2).

ولهذا ـ كذلك ـ ورد الشرع بحماية الطفـل من كـل مـا قـد يـزرع الشـرك في قلبـه، ولأجـل هـذا نهى رسـول اللـه ﷺ عن تعليق التمائم تعويداً للصغير الاعتماد على الله وحده، فقال ﷺ: (من علق تميمة، فلا أتم الله له)(3)

وعلى المربي أن يرسخ معنى التوحيـد العميـق الشـامل لا التوحيـد الـذي يصـوره البعض، فيقصـرونه على مظـاهر معينـة يحرفون بها معناه.

فالتوحيد في حقيقته يعني (تفرده تعالى بـالخلق والإيجـاد، وتفرده بالتقدير والتدبير، وتفـرده بالتشـريع والتكليـف، وتفـرده

---

1) رواه أحمد وأبو داود والحاكم.

2(1) سير أعلام النبلاء 2/305.

3) رواه أحمد والحاكم.

بالجزاء والثواب والعقاب)

وينبغي على المربي أن يبين أهمية هذا التفرد وتـأثيره في هذا البناء المبدع للكون، كما أخبر تعالى عن النتيجة التي يـؤول إليها الكون لو ترك التصرف فيـه لآلهـة متعـددة، فقـال تعـالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَـةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَـدَتَا فَسُـبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَـرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (الانبياء:22)

فلذلك كان من رحمة الله أن جعل كل شي له، ولم يجعل شيئا من أمـر الخلـق لغـيره، ولهـذا أخـبر تعـالى أنـه لـو جعلت خزائن الرحمة بيد الخلق لأمسكوا خشية الإنفاق، قال تعالى: قُـلْ لَـوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُـونَ خَـزَائِنَ رَحْمَـةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَـكْتُمْ خَشْـيَةَ الْأِنْفَاقِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ قَتُوراً (الاسراء: 100)

وبمثل ذلـك أخـبر تعـالى عن إمسـاكه لتماسـك السـموات والأرض وانتظامهمـا، كمـا قـال تعـالى: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِـكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (فاطر: 41)، ولو تـرك الأمـر لغـيره لما أطاق ذلك.

وينطلق المربي من هذ التوحيد ليربطـه بمقامـات الإيمـان جميعا كالتوكل والشكر والرجاء والخوف وغيرها، فهي كلهـا من مقتضيات التوحيد.

وينطلـق من هـذا ليربطـه بتـأثير هـذا التوحيـد في حياتـه جميعا، بأن لا يـرى حاكمـا ولا مشـرعا لسـلوكه وتصـرفاته، بـل ومواجيده وأفكاره إلا الله.

يقول سيد قطب ـ وهو يبين مقتضيات التوحيـد ــ:(كمـا أن المسلم يعتقـد أن لا إلـه إلا اللـه، وأن لا معبـود إلا اللـه، وأن لا خالق إلا الله، وأن لا رازق إلا الله، وأن لا نافع أو ضـار إلا اللـه، وأن لا متصـرف في شـأنه –وفي شـأن الكـون كلـه- إلا الله... فيتوجه لله وحده بالشعائر التعبدية، ويتوجه للـه وحـده بـالطلب والرجـاء، ويتوجـه للـه وحـده بالخشـية والتقـوى ، كـذلك يعتقـد المسلم أن لا حاكم إلا الله، وأن لا مشرع إلا الله، وأن لا منظم

لحياة البشر وعلاقاتهم وارتباطاتهم بالكون وبالأحياء وببني الإنسان من جنسه إلا الله .. فيتلقى من الله وحده التوجيه والتشريع، ومنهج الحياة، ونظام المعيشة، وقواعد الارتباطات، وميزان القيم والاعتبارات .. سواء..)[1]

وأول مصدر يعمق هذه المعاني التوحيدية في النفس هو القرآن الكريم، فبالقراءة الواعية له نجده يربط بين مقتضيات التوحيد جميعا، فلا يقصر تأثير التوحيد على بعضها، فيظل العبد موحدا لله في جانب مشركا به في جانب آخر.

وقد نقل سيد قطب بعض النماذج عن ربط القرآن الكريم بين عقيدة التوحيد وبين مقتضياتها في الحياة جميعا، ومن الأمثلة التي ذكرها ما ورد في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿ وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾(البقرة: 163)، فقد بدأ تعالى بتقرير وحدانية الله تعالى، وهي القضية التي تأتي الآيات التالية لتبين حقيقتها ومقتضياتها.

وأول مقتضيات هذه الوحدانية: وحدانية التدبير الإلهي للكون، وهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 164)

ومن مقتضيات هذه المعرفة التي تجعل الله هو المتصرف الوحيد في الكون هو وحدانية التوجه إلى الله، وأول ذلك إفراد القلب لله بالمحبة والولاء، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾(البقرة: 165-167)

[1] خصائص التصور الإسلامي.

ومن مقتضيات هذا التوجه الإيماني القلبي لله إسلام الجوارح والحياة جميعا لله، فالله هو المشرع للحياة لا العقول ولا الأهواء ولا المجتمعات، ولا الشعوب، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(البقرة: 173-168)

وهكذا تجمع هذه الآيات الكريمة في سياق واحد بين مقتضيات التوحيد جميعا، مرتبة بعضها على بعض، لأن كل واحد منها أثر من آثار ما قبله.

أسماء الله الحسنى:

وهي المعرفة الثانية بعد التوحيد، وإن كان التوحيد في حقيته جزء منها، ولكنه لأهميته، ولما تعرض له من تحريف أفرد بتلك الأهمية الخاصة.

وأسماء الله تعالى هي المعارف التي أذن الله تعالى فيها لوسائل إدراكنا البسيطة أن تتعرف بها على كمالات الألوهية، وهي لذلك من الأهمية بحيث لا يمكن مقارنتها بأي معرفة من المعارف الأخرى، لأن كل ما في الكون أثر من آثار أسماء الله.

وهي لذلك أبواب علاقتنا بالله، لأن لكل اسم من أسماء الله دلالته الخاصة التي تتطلب عبوديتها الخاصة.

ولهذا علمنا تعالى أن ندعوه بأسمائه الحسنى، مستشفعين بها إليه، ومتوسطين بها لديه، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (الأعراف:180)

وذلـك لأن الـدعاء ــ في أصـله ــ مقتضـى من مقتضـيات المعرفة بالله، فالمعرفة بأسـماء اللـه وصـفاته العليـا هي الـتي تدعو إلى الثقة فيه، وهي التي تدعو إلى سؤاله، وقد أشــار ابن عقيل إلى سر الصلة بين الدعاء وأسماء اللـه الحسـنى، فقـال: (قـد نـدب اللـه تعـالى إلى الـدعاء، وفي ذلـك معـانٍ: أحـدها: الوجود، فـإن من ليس بموجـود لا يُـدعى، الثـاني: الغـنى، فـإن الفقير لا يُدعى، الثالث: السـمع، فـإن الأصـم لا يُـدعى، الرابـع: الكرم، فإن البخيل لا يُدعى، الخامس: الرحمة، فإن القاســي لا يُدعى، السادس: القدرة، فإن العاجز لا يُدعى)

وهكذا لو ذهبنا نعد مـع ابن عقيـل لوجـدنا أن أسـماء اللـه تعـالى تقتضـي رفـع أيـدينا إليـه بالسـؤال، بـل إفـراده في هـذا الرفع.

ولهذا نرى امتزاج أدعيته ﷺ بأسماء الله، وهي كثيرة تغـني شهرتها عن التمثيل لها.

وقد كان ﷺ جالسا ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحـدك لا شـريك لـك، المنـان بـديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم أســألك الجنة وأعوذ بك من النار، فقال النبي ﷺ:(لقد دعـا اللـه باسـمه العظيم)(1)

وقـد علم ﷺ من أصـابه هم أو حـزن أن يقـول:(اللهم إني عبدك، ابن عبدك ابن أمتك في قبضتك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لـك، سـميت بـه نفســك، أو أنزلتــه في كتابــك، أو علمتــه أحــدا من خلقــك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلـبي، ونور بصـري، وجلاء حـزني، وذهـاب غمي)(2)، ثم بين أثـر ذلـك في نفسه، فقال:(فما قالها عبد قط إلا أبدله الله بحزنه فرحا)

وعلم رسـول اللـه ﷺ عائشــة أن تقـول إذا وافقت ليلـة

1) رواه أحمد وأبو داود، والترمذي، والنسائي وابن ماجة وغيرهم.

2) رواه ابن السني وابن حبان.

القدر:(قولى: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى)[1]

ولهذه الأسماء ـ زيادة على ذلك ـ تأثيرها الـتربوي العظيم، لأنها الأساس الذي تنبني عليه جميع مقامات الإيمان.

وقد اتفق على هذا كل العلماء والربـانيين، يقـول العـز بن عبد السلام:(فهم معاني أسماء الله تعالى وسـيلة إلى معاملتـه بثمراتهـا من: الخـوف، والرجـاء، والمهابـة، والمحبـة، والتوكـل، وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات)[2]

ويقـول مفصلا أسـباب ذلـك:(ذكـرُ اللـه بأوصـاف الجمـال موجب للرحمـة، وبأوصـاف الكمـال مـوجب للمهابـة، وبالتوّحـد بالأفعال موجب للتوكل، وبسعة الرحمة موجب للرجاء، وبشــدة النقمة موجب للخوف، وبالتفرّد بالإنعام موجب للشكر)

ويبين ابن القيم تأثير أسماء اللـه الحسـنى في كـل عبـادة من العبادات الظاهرة والباطنة، بل يجعل كل العبـادات أثـر من آثار المعرفة بأسماء الله الحسنى، فيقـول:(لكـل صـفة عبوديـةٌ خاصة هي من موجباتها ومقتضـياتها، أعـني: من موجبـات العلم بها والتحقيق بمعرفتها، وهـذا مطـرد في جميـع أنـواع العبوديـة التي على القلب والجوارح)[3]

ثم يذكر الأمثلة الموضحة لذلك، فيقول:(فعلم العبد بتفــرد الرب تعالى بالضـرّ والنفـع، والعطـاء والمنـع، والخلـق والـرزق، والإحياء والإماتة: يثمر لـه عبوديـة التوكـل عليـه باطنـاً، ولـوزام التوكل وثمراته ظاهراً، وعلمه بسمعه تعالى وبصره، وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة، وأنـه يعلم السـر، ويعلم خائنـة الأعين وما تُخفي الصدور: يثمر لـه حفـظ لسـانه وجوارحـه وخطـرات قلبه على كل ما لا يرضي الله، وأن يجعـل تعلـق هـذه الأعضـاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر لـه ذلـك: الحيـاء باطنـاً، ويثمـر لـه الحياء اجتناب المحرمات والقبائح، ومعرفته بغناه وجوده وكرمه

---

1) رواه ابن النجار.

2) شجرة المعارف والأحوال، ص 1.

3) مفتاح دار السعادة: 2/ 90 باختصار، وانظر: طريق الهجرتين، ص 43.

وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء... وكذلك معرفتـه بجلال اللــه وعظمتــه وعــزه، تثمــر لــه الخضــوع والاســتكانة والمحبة، وتثمـر لـه تلـك الأحـوال الباطنـة أنواعـاً من العبوديـة الظـاهرة، هي موجباتهـا.. فـرجعت العبوديـة كلهـا إلى مقتضـى الأسماء والصفات)

ويــبين أثــر التعبــد بأســماء اللــه تعــالى في الوقايــة من الأمراض القلبية، كالحسد، والكبر، اللذين هما منبع كل أمــراض القلوب، فيقول:(لو عرف ربّه بصـفات الكمـال ونعـوت الجلال، لم يتكبر ولم يحسـد أحـداً عى مـا آتـاه اللـه ؛ فـإن الحسـد في الحقيقة نوع من معاداة الله ؛ فإنه يكـره نعمـة اللـه على عبـده وقد أحبها الله، ويحب زوالها عنه والله يكـره ذلـك، فهـو مضـاد لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته)(1)

ويبين أثر التبعد بأسـماء اللـه تعـالى وصـفاته في الوقـوف الصلب أما المحن والبلايا، فيقـول:(من صـحت لـه معرفـة ربـه والفقــه في أســمائه وصــفاته علم يقينــاً أن المكروهــات الــتي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنــافع التي لا يحصيها علمـه ولا فكرتـه، بـل مصـلحة العبـد فيمـا كـره أعظم منها فيما يحب)(2)، ويقول:(فكل ما تراه في الوجود من شر وألم وعقوبة ونقص في نفسـك وفي غـيرك فهـو من قيـام الرب تعالى بالقسط، وهو عدل الله وقسـطه، وإن أجـراه على يد ظالم، فالمسـلط لـه أعـدل العـادلين، كمـا قـال تعـالى لمن أفسد في الأرض: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَـاداً لَنَـا أُولِي بَـأْسٍ شَـدِيدٍ فَجَاسُـوا خِلالَ الـدِّيَارِ وَكَـانَ وَعْـداً مَفْعُـولاً﴾ (الاسراء:5)

وقـد اهتم الغـزالي في كتابـه الجليـل (المقصـد الأسـنى) بالبعد التربوي لأسماء الله الحسنى، فكان يذكر عند نهاية شرح كل اسم حظ العبد السلوكي منـه، فهـو يعتـبر ولكـل صـفة من صفات الله تعالى أو اسم من أسمائه أثره الخاص به، والــذي لا يمكن للإنسان الحصول عليـه إذا لم يسـتولي على قلبـه معـنى

1) الفوائد، ص 150.

2) الفوائد، ص 85.

ذلك الاسم او تلك الصفة، وهو معنى الإحصاء الذي ورد في قوله ﷺ:(إن لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة)(1)

وليس الإحصاء أن يسمع لفظها أو يفهم في اللغة تفسيرها، أو يعتقد وجودها، فإن سماع اللفظ لا يستدعي إلا سلامة السمع، وأما فهم وضعها اللغوي فلا يستدعي إلا المعرفة بالعربية، وأما اعتقاد ثبوت معناها لله تعالى فلا يستدعي إلا فهم معاني هذه الألفاظ والتصديق بها، بل إن الإحصاء ــ كما يشرحه الغزالي ــ هو أن ينال المؤمن ثلاثة حظوظ من معاني أسماء الله الحسنى:

1 ـ معرفة معاني تلك الأسماء معرفة كشفية شهودية، ولفظا (المكاشفة والمشاهدة) اللذان يكثر الغزالي من استعمالهما في كتبه لا يريد بهما الرؤية البصرية والحسية، وإنما هما استعارة لغلبة اليقين على البصيرة الباطنة التي هي أقوى من البصر الحسي(2).

2 ـ استعظام ما ينكشف له من صفات الجلال على وجه يشوقه إلى الاتصاف بما يمكن من تلك الصفات، ليؤهله ذلك إلى التقرب من الله تعالى، فالمعرفة ـ كما يرى الغزالي ــ بذر الشوق(3).

3 ــ السعي إلى اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها، والتحلي بمحاسنها، وبذلك يصر العبد (ربانيا) متحققا بالقرب من ربه تعالى.

والغزالي يجعل الحظ الأكبر في الوصول إلى هذه الدرجة هو تعظيم أسماء الله، فبقدر التعظيم يكون الشوق، وبقدر الشوق يكون السلوك، يقول:(ولن يتصور أن يمتلئ القلب باستعظام صفة واستشرافها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة

---

1) رواه الترمذي وابن ماجة .

2) إحياء علوم الدين: 4/312.

3) المقصد الأسنى، ص32.

وعشـق لـذلك الكمـال والجلال وحـرص على التحلي بـذلك الوصـف إن كـان ذلـك ممكنـا للمسـتعظم بكمالـه فـإن لم يكن بكماله فينبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة)

ويرجع سـبب خلـو القلب عن الشـوق الـدافع للعمـل إلى سببين:

1 ــ ضـعف المعرفـة واليقين بكـون الوصـف المعلـوم من أوصاف الجلال والكمال.

2 ـ امتلاء القلب بشوق آخر مستغرقا به.

ويشبه ذلك بالتلميذ، فإنه إذا شاهد كمال أستاذه في العلم انبعث شوقه إلى التشبه والاقتداء به إلا إذا كان مملوءا بـالجوع مثلا، فإن استغراق باطنه بشوق القوت ربما يمنع انبعاث شـوق العلم.

ويخلص الغـزالي من هـذا إلى وجـوب تجـرد النـاظر في أسماء الله إلى الله حتى ينال حظه منها، قـال:(ولهـذا ينبغي أن يكون الناظر في صـفات اللـه تعـالى خاليـا بقلبـه عن إرادة مـا سوى الله عز وجل، فإن المعرفة بذر الشوق)

2 ـ الإيمان بالنبوات

وهو العنصر الثاني من الأركان الأساسـية للإيمـان، ولـذلك امتلأت آيـات القـرآن الكـريم بالثنـاء عليهم وذكـر قصصـهم وأحـوالهم لتملأ القلـوب محبـة لهم وإجلالا، وتشـحن الطاقـات قـدوة وسـلوكا، فيعيش المـؤمن في صـحبة النمـاذج الطـاهرة الرفيعـة، فيـترفع من خلالهـا إلى الآفـاق العليـا من الكمـال الإنساني.

وخير مصدر ـ بل يكاد يكون المصدر الوحيـد للتعـرف على حقيقـة الرسـل ــ صـلوات اللـه وسـلامه عليهم ــ هـو القـرآن الكريم، فهو الكتاب المؤرخ لحياتهم المرشد لكمـالهم المصـحح للأخطاء الكثيرة والتحريفات العظيمة التي لحقتهم.

وللقرآن الكـريم طـرق مختلفـة في إيصـالنا بالأنبيـاء، وملأ

مشاعرنا بذكرهم ومحبتهم والاهتداء بهديهم:

منها أن يأتي إلى نبي من الأنبياء، فيستوفي قصته، ويسرد تفاصيل ما حصل لـه، فتمتلئ عين القلب بشـخص ذلـك النـبي، وتصبح حياته نبراسا يضيئ حياة محبيه المؤمنين به.

ومنها أن يأتي إلى مشـهد من مشـاهد الأنبيـاء، فيسـتوفي أحداثه، ليعيش المؤمن ذلك الموقـف، ويرسـم منـه لحياتـه من المواقف ما يضاهي ذلك الموقف أو ما يجدد حياته.

ومنها أن يعدد أسماء الأنبياء ويذكرها كل حين لترتسم مـع كـل اسـم صـورة نمـوذج من نمـاذج الـبر، وعملاق من عمالقـة الصـلاح، ويكـون ذلـك الإعجـاب مقدمـة الاقتـداء، قـال تعـالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَـاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَـدَيْنَا وَنُوحـاً هَـدَيْنَا مِن قَبْـلُ وَمِن ذُرِّيَّتِـهِ دَاوُودَ وَسُـلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُـفَ وَمُوسَـى وَهَـارُونَ وَكَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْـمَاعِيلَ وَالْيَسَـعَ وَيُـونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْـوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام: 83 ـ 87)

وبعد أن ذكر تعالى هذا العدد من الأسماء عقب على ذلـك بقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعـام: 90)

والقرآن الكريم يملأ صدرا المؤمن شوقا لكثير من الأنبيـاء المنتشرين في بقـاع الأرض على أمـداد عمـر التـاريخ، فصـفوة اللـه المختـارة لم تكن مقتصـرة على أرض دون أرض أو زمن دون زمن، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِـيرًا وَنَـذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24].

ويخبر في آيـة أخـرى أن مـا ذكـر في القـرآن الكـريم من الأنبيـاء مجـرد نمـاذج ذكـرت من بـاب التمثيـل لا الحصـر، وأن قانون التدافع بين الخير والشر، والأنبياء وأقوامهم متمثـل فيهم جميعا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَـا فِي كُـلِّ أُمَّةٍ رَسُـولا أَنْ اُعْبُـدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُـوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَــدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ

عَلَيْـهِ الضَّـلالَةُ فَسِـيرُوا فِي الأَرْضِ فَـانْظُرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الْمُكَذِّبِينَ [النحل: 36].

وكان ﷺ يصف خلقة الأنبيـاء وصـورهم لتقـريب مـا يصـفه القـرآن الكـريم من أحـوالهم، قـال ﷺ:(رأيت عيسـى بن مـريم وموسى وإبراهيم فأما عيسى فابيض جعد عـريض الصـدر وأمـا موسى فآدم جسيم قالوا فابراهيم قـال انظـروا إلى صـاحبكم)(1)، وقـال ﷺ:(رأيت ليلـة أسـري بي موسـى بن عمـران رجلا طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأي)

انطلاقا من هـذا سـنذكر هنـا بعض الآثـار التربويـة للإيمـان بالرسـل، ومـا يسـتدعيه من طـرق التعريـف بهم، ومـا ينبغي احترازه من ذلك على حسب ما يقتضيه المقام:

القدوة:

ويشير إلى هذه الناحية المهمة الناتجة عن الإيمان الصحيح بالرسل ـ صلوات اللـه وسـلامه عليهم ــ قولـه تعـالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (الأنعـام:90)، فـالغرض الأول من الإيمان بالرسل إيمانا يولـد المحبـة في قلـوب أصـحابه هـو اتخاذهم نماذج يقتدى بها، وأنوارا يهتدى بهديها.

وذلـك لأن المعـارف تظـل أرواحـا مجـردة قـد لا تجـد من يلتفت إليها حتى تجد الأجساد الطاهرة التي تمثلها، فتخــرج من عالم المثال إلى عالم الواقع.

وكمثال على ذلك تمثيـل الرسـل ــ صـلوات اللـه وسـلامه عليهم ـ لدور التجرد والإخلاص في التعامـل مـع اللـه، وهـذا مـا تبرهن عليه خطبهم لأقوامهم في القرآن الكريم، والتي يحـرص القـرآن الكـريم على ذكرهـا وتكرارهـا لتصـبح في محـل نظـر المقتدي، فلا يتيه بالحوادث عن مواضع القدوة، قال تعالى على ألسنتهم: ﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْـرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (هـود:51)، وقـال تعـالى: ﴿ اتَّبِعُـوا مَنْ لا

(1) رواه البخاري:4/22.

يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (يّس:21)، وقال تعالى: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (يونس:72)

ولهذا أمر رسول الله ﷺ أن يردد أقوالهم، اقتداء بهم فقال تعالى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (الفرقان: 57)، وقال تعالى: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (الشعراء:109)، وقال تعالى: قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (سبأ: 47)، وقال تعالى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (صّ:86)

ولهذا كان ﷺ يستحضر مواقف الأنبياء ليعيد إحياءها من جديد، فكان يستحضر في المواقف المختلفة ما حصل لإخوانه من الأنبياء، عن عبد اللّه بن مسعود قال: قسم رسول اللّه ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه اللّه، قال، فقلت: يا عدو اللّه أما لأخبرن رسول اللّه ﷺ بما قلت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال:(رحمة اللّه على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر)[1]

وفي موقف آخر قال ﷺ:(أقول كما قال أخي يوسف: لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (يوسف:92))[2]

وقد استدل ابن عباس بهذا على مشروعية سجدة سورة ص، فعن العوام قال: سألت مجاهداً عن سجدة (ص) فقال: سألت ابن عباس ما من أين سجدت؟ فقال: أوما تقرأ: وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ (الأنعام:84)، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ (الأنعام:90)؟ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود عليه الصلاة

---

1) رواه البخاري ومسلم واللفظ لأحمد.

2) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب وابن السني في عمل يوم وليلة.

والسلام، فسجدها رسول اللّه ﷺ)[1]

وهكذا يصبح الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ مصابيح تضيئ للمهتدين، وتبصرهم بالطريق الصحيح، وقد قال ابن القيم، وهو يدعو إلى الاقتداء بالأنبياء في جدهم في طريق الله:(يا مخنث العزم أين أنت، والطريق طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمى في النار الخليل، وأضجع للذبح اسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ تزها أنت باللهو واللعب)[2]

وهذه الصفة تقتضي عصمة الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، وتقتضي اقتصار المربي على هذه العصمة، وذلك لأن تصوير الإثم في تصرفات الأنبياء ـ كما تفعل بعض كتب التفسير والمواعظ ـ ينزع منهم الثقة، ويجعلهم محلا للنقد، وهو ما قد يتذرع به لسلوك سبيل المعصية بحجة أن الأنبياء مع مكانتهم الرفيعة وقع منهم الخطأ.

الجذور التاريخية للإسلام والإنسان:

فالقرآن الكريم بتفصيله لقصص الأنبياء يشير إلى تاريخ يكاد يكون مهملا في دواوين تاريخ البشرية، وهو تاريخ المعرفة بالله وعبادته.

وهو تاريخ متصل من لدن آدم عليه السلام إلى رسول الله ﷺ لا يؤثر في اتصاله اختلاف الأزمنة ولا اختلاف الأمكنة، ولا اختلاف القوميات.

ولهذا آثاره الكبيرة في السلوك،لأنه يرفع الغربة عن المؤمن، ويفسر التاريخ تفسيرا إيمانيا لا تفسيرا ماديا كما يفسره الغافلون، يقول سيد قطب ــ وهو يعدد نعم الله عليه

---

1) رواه البخاري.

2) الفوائد.

بالعيش في ظلال القرآن الكريم ـ:(والمـؤمن ذو نسـب عريـق، ضارب في شعاب الزمان. إنه واحد من ذلـك المـوكب الكـريم، الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم:نـوح وإبـراهيم وإسـماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف، وموسى وعيسـى، ومحمـد.. عليهم الصـلاة والسـلام.. هـذا المـوكب الكـريم، الممتـد في شـعاب الزمــان من قــديم، يواجــه - كمــا يتجلى في ظلال القــرآن - مواقـف متشـابهة، وأزمـات متشـابهة، وتجـارب متشـابهة على تطاول العصور وكر الدهور، وتغير المكان، وتعدد الأقوام. يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى، والاضطهاد والبغي، والتهديـد والتشـريد. ولكنــه يمضــي في طريقــه ثــابت الخطــو، مطمئن الضمير، واثقا من نصر الله، متعلقا بالرجاء فيه، متوقعا في كل لحظة وعد الله الصادق الأكيـد: ﴿ وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِرُسُـلِهِمْ لَنُخْـرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِـنَا أَوْ لَتَعُـودُنَّ فِي مِلَّتِنَـا فَـأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَـافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (ابراهيم:13 ـ 14) موقـف واحـد وتجربـة واحدة. وتهديد واحد. ويقين واحد. ووعد واحد للموكب الكريم.. وعاقبــة واحــدة ينتظرهــا المؤمنــون في نهايــة المطــاف. وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد)(1)

وقد يقال هنا: فلمـاذا لم يـذكر القـرآن إلا من كـان يعرفـه النــاس، وأهــل الكتــاب من الأنبيــاء، أوليس في الغض عن ذكـر غيرهم، غضا من التاريخ، ومحوا لأجيال من الصالحين؟

والجـواب عن ذلـك: إن القـرآن الكـريم جعـل من قصـص الأنبياء حروفا تنبـني منهـا الحيـاة المثاليـة للمـؤمن، ومن شـأن الحروف أن تكون قليلة محصورة، وإلا كان تكلف حفظها مانعــا من استعمالها.

وهكذا اختار القرآن الكريم نماذج معينة تحمل مواضع عبر مختلفة لتكون أنوارا يهتدى بهـا، فـإذا مـا حصـل النـور ببعضـهم أغنى ذلك عن ذكر جميعهم.

أما غيرهم، فيكفي أن يشير بالثناء عليهم والاعــتراف بهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا

1) في ظلال القرآن: 1/12.

عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ[غافر: 78].

زيادة على ذلك، فإن سائل هذا السؤال لا يفهم أسرار مقاصد القرآن الكريم من سرد قصص الأنبياء، فالأنبياء في القرآن الكريم ـ على خلاف ما في كتب أهل الكتاب ـ يراد منها العبرة والتمثيل والتصوير ليعايشها المؤمن أفكارا وقدوة وسلوكا لا مجرد أحداث تاريخية.

فلذلك كان من الحكمة أن يذكر المعروفين من الأنبياء، لأن غير المعروفين، قد تنكرهم الجماهير، وقد تعتبرهم من أساطير الأولين، وقد حصل بعض هذا عندما أنكر البعض قصة عاد وثمود لعدم ورودها في كتب أهل الكتاب.

ثم إن من يريد أن يوضح مسألة أويقرب قضية من القضايا يحتاج إلى إيراد الأمثلة المبسطة المعروفة عند من يخاطبهم، وإلا كان توضيحه إبهاما، وشرحه تعقيدا.

تمثيل حقيقة الإسلام:

فالله تعالى يسوق القصص ليقرر حقيقة الإسلام ومتطلباته، فالرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ هم خير من يمثل الإسلام في أرقى درجاته، ولهذا يشرح الله تعالى حقيقة إسلام إبراهيم ﵇ بضرب الأمثلة عن ولائه التام لله، وإسلام وجهه كله له.

فهو يدعو أقاربه إلى الله، بكل ما أوتي من صنوف اللين، طامعا في إسلامهم، لكنه بمجرد أن تبينت له عداوتهم لله تبرأ منهم، قال تعالى: وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (التوبة:114)

وهو يشتاق إلى الولد كسائر البشر ـ بعد أن يهجره قومه ويتركوه، بل يذيقوه ما تمكنوا منه من بلاء ـ، فيقول: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ

وتأتيه البشارة بعد عمر طويل: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾

وبمجرد أن يبشر به يؤمر بأن ينقـل ابنـه الرضـيع مـع أمـه إلى بلد غير ذي زرع، كما قـال تعـالى: ﴿ رَبَّنَـا إِنِّي أَسْـكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِـوَادٍ غَيْـرِ ذِي زَرْعٍ عِنْـدَ بَيْتِـكَ الْمُحَـرَّمِ ﴾ (ابـراهيم:37)، فينقله، ويبعده عنه عمراً طويلا.

بل يتركـه في موقـف مأسـاوي أليم على قلب الأب الـذي انتظـر ابنـه طـويلا، وقـد روي عن ابن عبـاس قولـه في حـديث ذلك:(ثم جاء بهـا إبـراهيم وبإبنهـا إسـماعيل وهي ترضـعه حـتى وضعهما عند البيت، عند دوحـة فـوق زمـزم في أعلى المسـجد وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضـعهما هنالـك ووضـع عندها جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفّى إبـراهيم منطلقـاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبـراهيم أين تـذهب وتتركنـا بهـذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقـالت لـه ذلـك مـراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت: آللّه أمرك بهذاً؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْـدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْـوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (ابراهيم:37))[1]

ثم بعد رجوعه لابنه الذي أمضى كثيرا من حياته بعيدا عنه، يؤمر بذبحه بيده في الوقت الذي صار يرجوا خيره وعونه، قـال تعالى حاكيا قصة ذلك، ونتيجته: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَـالَ يَـا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَـا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَـاء اللَّهُ مِنَ الصَّـابِرِينَ فَلَمَّا أَسْـلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَـدْ صَـدَّقْتَ الرُّؤْيَـا إِنَّا كَـذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُـوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ وَفَـدَيْنَاهُ بِـذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَـا عَلَيْـهِ فِي الْآخِـرِينَ سَـلَامٌ عَلَى إِبْـرَاهِيمَ كَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَـا الْمُـؤْمِنِينَ وَبَشَّـرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّـالِحِينَ وَبَارَكْنَـا عَلَيْـهِ وَعَلَى إِسْـحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَـا مُحْسِـنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (الصافات:101 ـ 113)

1) رواه البخاري.

فهذه النماذج وغيرها توضح حقيقة إسلام الوجه لله في منتهى كمالها، ولهذا أمرنا، بل أمر قبل ذلك رسولنا ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم في مواضع متعددة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:161)، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل:123)

ويمن على المؤمنين أن هداهم إلى ملة إبراهيم فقال تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج:78)

ويعتبر كل انحراف عن ملة إبراهيم سفها من الرأي، وانحرافا عن الحق، وكأن إبراهيم ﵇ هو المقياس الذي يقاس به الإسلام، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (البقرة:130)

ورد على من دعا إلى غير ملته، وذم قوله، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة:135)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران:95)

وذلك لأن أكمل توجه لله وأحسنه هو توجه إبراهيم ﵇، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء:125)

3 ـ الإيمان بعالم الغيب

عوالم الغيب ـ في أصلها ـ هي العوالم التي خفيت على

المؤمن، أو التي لا تستطيع وسائل الإدراك العادية التعرف عليها، أوالتي جاءت النصوص المعصومة بالدلالة عليها، وهي بذلك تشمل كل قضايا الإيمان، كما قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة:3)

وأخبر أن المؤمنين الصادقين لا يحول بينهم وبين الخوف من الله أو التعامل الإيماني معه كونه غيبا عن حواسهم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة:94)، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ (الانبياء:49)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ (يّـس: 11)، وقال تعالى: ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (قّ:33)، وقال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:25)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الملك:12)

واشتد في عتاب بني إسرائيل الذين طلبوا أن يروا الله جهرة حتى يصدقوا به، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (البقرة:55)، وأخبر أن هؤلاء أنفسهم طلبوا من رسول الله ﷺ كتابا من الغيب يرونه حسا، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ (النساء: 153)

وهذا لأن أصل التكليف يقتضي الغيب، فلو أن قضايا الإيمان كان دليلها الحس ووسائل الإدراك العادية لما كان هناك أي تكليف بالإيمان بها.

ومثل ذلك: الامتحان الذي يجريه الأستاذ لتلاميذه، فلو أنه

وضع الإجابة المباشرة على السبورة، ثم طلب منهم أن يجيبوا على أسئلته لما اختلفوا في نقل الإجابة مباشرة دون عناء، ولما اختلف جهدهم في الإجابة عنها، ولما تميز المتفوق منهم والجاد من الغبي والهازل، ولهذا قال تعالى: وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (الأنعام: 8)

ولكن عالم الغيب أو السمعيات ـ كمصطلح ـ قصر على ما لا يمكن الاستدلال عليه بالعقل المجرد، وما كان في نفس الوقت في حيز الإمكان، فتخرج أبواب الألوهية والنبوات لانسجام العقل مع النصوص في الدلالة عليها.

فلذلك يكتفى في مثل هذه المسائل بالأدلة المعصومة، ويعزل العقل عن البت فيها بقول أو بدليل إلا دليل الإمكان، ولهذا قال تعالى بعد ذكر كثر من الأخبار والقصص: ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (آل عمران:44)، وقال تعالى: تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (هود: 49)، وقال تعالى: ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (يوسف:102)، وقال تعالى: قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (الكهف:26)

ولهذا الإيمان تأثيره النفسي والتربوي الكبير على الإنسان، بل إنه ينقله من عالم البهيمية الذي تلقيه فيه غرائزه وأهواؤه إلى عالم الإنسانية الرفيع، يقول سيد قطب:(والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس - أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس - وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير.

كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض ؛ فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ؛ ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود)(1)

ويرد على المفكرين المعاصرين الذين يتصورون الإيمان بعوالم الغيب نوعا من الهروب عن الواقع، فيقول:(لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة. ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان، كجماعة الماديين في كل زمان، يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقري.. إلى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس! ويسمون هذا "تقدمية " وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها، فجعل صفتهم المميزة، صفة: الذين يؤمنون بالغيب والحمد لله على نعمائه، والنكسة للمنتكسين والمرتكسين!)(2)

ولهذا الإيمان زيادة على هذا الترفع بالإنسان تأثيره الكبير في السلام النفسي الذي هو منطلق كل خير، وقد ضرب الإمام بديع الزمان لذلك مثلا فسربه قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة:3)، فقال:(ان كنت تريد ان تعرف مدى ما في الايمان من سعادة ونعمة، ومدى ما فيه من لذة وراحة، فاستمع الى هذه الحكاية القصيرة)(3)

ثم ذكر أنه خرج رجلان في سياحة ذات يوم، من أجل الاستجمام والتجارة. فمضى احدهما وكان أنانياً شقياً الى جهة، ومضى الآخر وهو رباني سعيد الى جهة ثانية.

فالاناني المغرور الذي كان متشائماً لقي بلداً في غاية السوء والشؤم في نظره، جزاءاً وفاقاً على تشاؤمه، حتى انه كان يرى - أينما اتجه - عجزةً مساكين يصرخون ويولولون من

---

1) في ظلال القرآن:1/39.

2) في ظلال القرآن:1/40.

3) الكلمات، الكلمة الثانية.

ضربات ايدي رجال طغاة قساة ومن اعمالهم المدمّرة.

فرأى هذه الحالة المؤلمة الحزينـة في كـل مـا يـزوره من اماكن، حتى اتخـذت المملكـة كلهـا في نظـره شـكل دار مـأتم عام. فلم يجد لنفسه علاجاً لحاله المـؤلم المظلم غـير السُـكر، فرمى نفسه في نشوته لكيلا يشعر بحاله، إذ صار كل واحد من اهل هذه المملكة يتراءى له عدواً يتربص به، واجنبيـاً يتنكـر لـه، فظل في عذاب وجداني مؤلم لمـا يـرى فيمـا حولـه من جنـائز مرعبة ويتامى يبكون بكاءاً يائساً مريراً.

أمّا الآخر الرجل الربّـاني العابـد للـه، والبـاحث عن الحـق، فقد كان ذا أخلاق حسنة بحيث لقي في رحلته مملكة طيّبة هي في نظره في منتهى الروعة والجمال.

فهذا الرجل الصالح يرى في المملكة التي دخلها احتفـالات رائعة ومهرجانات بارعة قائمة على قدم وساق. وفي كل طرف سـروراً، وفي كل زاويـة حبـوراً، وفي كل مكان محـاريب ذكـر. حتى لقد صـار يـرى كـل فـرد من أفـراد هـذه المملكـة صـديقاً صدوقاً وقريبـاً حبيبـاً لـه. ثم يـرى ان المملكـة كلهـا تعلن - في حفل التسريح العام - هتافات الفرح بصـيحة مصـحوبة بكلمـات الشكر والثناء. ويسـمع فيهم أيضـاً أصـوات الجوقـة الموسـيقية وهي تقــدم ألحانهــا الحماســية مقترنــة بــالتكبيرات العاليــة والتهليلات الحارة بسعادة واعتزاز للـذين يسـاقون الى الخدمـة والجندية.

فبينما كان ذلك الرجل الاول المتشائم منشغلاً بألمـه وآلام الناس كلهم.. كان الثاني السعيد المتفائـل مسـروراً مـع سـرور الناس كلهم فرحاً مع فرحهم. فضلاً عن انـه غنم لنفسـه تجـارة حسنة مباركة فشكر ربه وحمده.

ولدى عودته الى أهله، يلقى ذلك الرجل فيسأل عنه، وعن أخباره، فيعلم كل شئ عن حاله فيقول له:(يـا هـذا لقـد جننتَ! فـان مـا في باطنـك من الشـؤم انعكس على ظـاهرك بحيث أصبحتَ تتوهم أن كل ابتسامة صراخ ودمـوع، وأن كـل تسـريح واجازة نهب وسلب. عُـد الى رشـدك، وطهّـر قلبـك.. لعـل هـذا

الغشاء النكد ينزاح عن عينيك. وعسى أن تبصر الحقيقة على وجهها الأبلج. فإن صاحب هذه المملكة ومالكها وهو في منتهى درجات العدل والمرحمة والربوبية والاقتدار والتنظيم المبدع والرفق.. وان مملكة بمثل هذه الدرجة من الرقي والسمو مما تريك من آثار بأم عينيك... لا يمكن أن تكون بمثل ما تريه أوهامك من صور)

وبعد ذلك بدأ هذا الشقي يراجع نفسه ويرجع الى صوابه رويداً رويداً، ويفكر بعقله ويقول متندماً:(نعم لقد اصابني جنون لكثرة تعاطي الخمر.. ليرضَ الله عنك؛ فلقد انقذتني من جحيم الشقاء)

ثم يفسر المعاني الجليلة التي يحملها هذا المثال، فيقول: (فيا نفسي! اعلمي ان الرجل الاول هو الكافر أو الفاسق الغافل فهذه الدنيا في نظره بمثابة مأتم عام، وجميع الاحياء ايتام يبكون تألماً من ضربات الزوال وصفعات الفراق.. أما الانسان والحيوان فمخلوقات سائبة بلا راع ولا مالك، تتمزق بمخالب الأجل وتعتصر بمعصرته..وأما الموجودات الضخام ـ كالجبال والبحار ـ فهي في حكم الجنائز الهامدة والنعوش الرهيبة.. وامثال هذه الأوهام المدهشة المؤلمة الناشئة من كفر الانسان وضلالته تذيق صاحبها عذاباً معنوياً مريراً.

أما الرجل الثاني، فهو المؤمن الذي يعرف خالقه حق المعرفة ويؤمن به، فالدنيا في نظره دار ذكر رحماني، وساحة تعليم وتدريب البشر والحيوان، وميدان ابتلاء واختبار الانس والجان.. أما الوفيات كافة ـ من حيوان وانسان ـ فهي اعفاء من الوظائف، وانهاء من الخدمات، فالذين أنهوا وظائف حياتهم، يودّعون هذه الدار الفانية وهم مسرورون معنوياً، حيث انهم ينقلون الى عالم آخر غير ذي قلق، خال من اوضار المادة واوصاب الزمان والمكان وصروف الدهر وطوارق الحدثان، لينفسح المجال واسعاً لموظفين جدد يأتون للسعي في مهامهم.. اما المواليد كافة ـ من حيوان وانسان ـ فهي سَوقة تجنيد عسكرية، وتسلُّم سلاح، وتسنّم وظائف وواجبات، فكل كائن انما هو موظف وجندي مسرور، ومأمور مستقيم راضٍ

قانع...وأما الاصوات المنبعثة والاصداء المرتدة من ارجاء الــدنيا فهي إما ذكر وتسبيح لتسنم الوظائف والشـروع فيهـا، أو شـكر وتهليل ايذاناً بالانتهـاء منهـا، أو أنغـام صـادرة من شـوق العمـل وفرحته..

فالموجودات كلها ـ في نظر هذا المؤمن ـ خدام مؤنسون، وموظفون أخلاّء، وكتبٌ حلوة لسـيده الكـريم ومالكـه الـرحيم.. وهكذا يتجلى من ايمانه كثير جداً من أمثال هـذه الحقـائق الـتي هي في غاية اللطف والسمو واللذة والذوق)

بعد هذا.. فإن الآثار العظيمة للإيمـان بـالغيب لا تتحقــق إلا إذا لقيت طرحا سليما من المربي، ونرى تقيـد هـذا الطـرح بمـا يلي:

علمية الإيمان بالغيب:

نعم إن قضــايا الإيمــان بــالغيب لا يمكن إدراكهــا بــالحس المجرد، ولا بوسائل الإدراك العادية، ومع ذلك، فإن للعقل مجالا فيهـا، إمـا في التعـرف على إمكانيـة وجودهـا، أو في تصـور مـا يحمله الإيمان بالغيب من حقائق.

أمــا مجــال التعقــل، فــالقرآن الكــريم يــبرهن على الغيب بالأدلة العقلية الكثـيرة، فـيربهن على البعث والقيامـة بمـا يـرى في الإنسـان والأرض من آثـار تـدل على قـدرة اللـه المطلقـة بإعادة الحياة، فالله هو المبـدئ المعيـد، قـال تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ تُـرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَــةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَـا نَشَـاءُ إِلَى أَجَـلٍ مُسَـمّىً ثُمَّ نُخْـرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُـوا أَشُـدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَـوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُـرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُـرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْـدِ عِلْمٍ شَـيْئاً وَتَـرَى الْأَرْضَ هَامِـدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَـاءَ اهْتَـزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُـلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج:5)

فالله تعالى يستدل بقدرته المطلقة على نقل الإنسان من طور إلى طور بقدرته على البعث الذي هو في حقيقته لا يعــدوا أن يكون طورا من أطوار حياة الإنسان الممتدة.

ومثل ذلك عالم الملائكة وغيرها من العوالم الغيبية التي خلقها الله ـ كما خلق الإنسان ـ يقول سيد قطب:(ونسأل:ماذا عند أدعياء العقلية العلمية، من علمهم ذاته، يحتم عليهم نفي هذا الخلق المسمى بالملائكة، وإبعاده عن دائرة التصور والتصديق؟ ماذا لديهم من علم يوجب عليهم ذلك؟

إن علمهم لا يملك أن ينفي وجود حياة من نوع آخر غير الحياة المعروفة في الأرض في أجرام أخرى، يختلف تركيب جوها وتختلف طبيعتها وظروفها عن جو الأرض وظروفها.. فلماذا يجزمون بنفي هذه العوالم، وهم لا يملكون دليلا واحدا على نفي وجودها؟

إننا لا نحاكمهم إلى عقيدتنا، ولا إلى قول الله سبحانه! إنما نحاكمهم إلى علمهم الذي يتخذونه إلها.. فلا نجد إلا أن المكابرة وحدها - من غير أي دليل من هذا العلم - هي التي تقودهم إلى هذا الإنكار غير العلمي! المجرد أن هذه العوالم غيب؟ لقد نرى حين نناقش هذه القضية أن الغيب الذي ينكرونه هو الحقيقة الوحيدة التي يجزم هذا العلم اليوم بوجودها ؛ حتى في عالم الشهادة الذي تلمسه الأيدي وتراه العيون)(1)

ويقول النورسي مبينا علمية الإيمان بالملائكة:(ان الكرة الارضية وهي واحدة من الأجرام السماوية، على كثافتها وضآلة حجمها، قد اصبحت موطناً لما لا يحد من الاحياء وذوي المشاعر، حتى لقد اصبحت أقذر وأخسّ الأماكن فيها منابع ومواطن لكثير من الأحياء، ومحشراً ومعرضاً للكائنات الدقيقة. فالضرورة والبداهة والحدس الصادق واليقين القاطع جميعاً تدل وتشهد بل تعلن أنّ: هذا الفضاء الواسع والسموات ذات البروج والأنجم والكواكب كلها مليئة بالأحياء وبذوي الادراك والشعور)(2)

وهكذا، فإن المربي الصادق لا يكتفي بتقرير الحقائق

---

1) في ظلال القرآن: 1044.

2) الكلمات، الكلمة التاسعة والعشرون.

الغيبية مجردة، يكلف بها عقل المتلقي تكليفا، بل يحاول أن يلطفها ويقوي رسوخها بما يبثه من أدلة، فإن إبراهيم ﵇ مع علمه بقدرة الله المطلقة على الإحياء طلب من الله ما يزيد هذه الطمأنينة قوة ورسوخا، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:260)

أما مجال التصور، فإن الكثير من قضايا الإيمان الغيبي يمكن قياسه على ما خلق الله في الأرض من ظواهر، من باب تقريب عالم الغيب من عالم الحس، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:25) أي يشبه الشكل الشكل، ولكن الطعم غير الطعم، ومثل ذلك قوله ﷺ في ذكر سدرة المنتهى: (فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر)[1]

عالم الغيب لا عالم الخرافة:

عالم الغيب هو العالم الذي وردت النصوص المعصومة بالإخبار عنه، أما عالم الخرافة فهو العالم الذي دخل العقيدة الإسلامية ـ للأسف ـ تحت مظلة النقل من أهل الكتاب إحسانا للظن بهم، أو تحت مظلة الأحاديث المنكرة والمعلولة والموضوعة، أو تحت مظلة العقل الذي تعدى طوره وحقيقته ووظيفته، أو تحت مظلة الكشف الذي يختلط فيه الوهم بالحقيقة، أو تحت مظلات أخرى كثيرة ليس بينها مصدر معصوم.

فلذلك، يمكن اعتبار كل ما لحق هذا العالم الغيبي من غير أدلة معصومة ضربا من الخرافة لا يصح أن يمتلئ به عقل المؤمن ولا ضميره.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

والأمثلة على دخول الخرافـة هـذه العـوالم الغيبيـة كثـيرة، منها ـ مثلا ـ الخرافـات الـتي نسـجت حـول الملائكـة المـوكلين بـالعرش ــ عليهم السـلام ــ والـتي تلبســت بلبـاس الحـديث الشريف، فذكرت أنهم (ثمانية أملاك على صورة الأوعال)، وأن (لكل ملك منهم أربعة أوجه وجـه رجـل ووجـه أسـد ووجـه ثـور ووجه نسر وكـل وجـه منهـا يسـأل اللـه الـرزق لـذلك الجنس)، و(أن فوق السماء السابعة ثمانية أو عــال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سـماء إلى سـماء وفـوق ظهـورهن العـرش)، وأنـه أنشد بين يدي النبي ﷺ قول أمية بن أبي الصلت:

رجل وثور تحت ... والنسر للأخرى وليث

والشمس تطلع كل ... حمراء يصبح لونها

ليست بطالعة لهم ... إلا معذبة وإلا تجلد

فقال النبي ﷺ:(صدق)

وقد رويت هـذه الأسـاطير ــ للأسـف ــ في كتب التفسـير المعتمدة، وهي مما يحرص العامة على مثلـه، وهي خرافـات لا حظ لها من العلم، ولا حظ لراويها وملفقها من الـذوق، وقـد رد عليها ـ بحمد الله ـ الشيخ محمد زاهد الكوثري، برسـالة سـماها (فصل المقال في بحث الأوعال) أو (فصل المقـال في تمحيص أحدوثة الأوعال)، فذكر المصـادر الـتي أخـرجت هـذه النصـوص وتتبع أقوالهم تمحيصا وتحليلا وانتهى إلى أنّها أقاصيص دخيلـة لا أصل لها.

الفصل الثاني

البعد الروحي في تربية الأولاد

يعتبر البعد الروحي من أهم الأبعاد التربوية من ناحيتين:

الأولى: أنه مدد للبعـد الأول، إذ أن الإيمـان ــ كمـا يقـول العلمـاء ــ يزيـد وينقص، يزيـد بالطاعـات، وينقص بالمعاصـي، ولــذلك يكفي الاهتمــام بهــذا البعــد لتحقيــق معــاني الإيمــان وترسيخها عن تكلف الأدلة الكثيرة التي قد لا تفيد شيئا مـع من تلطخت روحه بالأهواء والشهوات والشبهات.

الثانية: أنه أصل غايـة وجـود الإنسـان، كمـا قـال تعـالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذريات:56)

والبعــد الــروحي يقــوم على ركــيزتين أساســيتين لا غــنى لإحداهما عن الأخرى، همـا: عبوديـة القلب، وعبوديـة الجـوارح، وسنتحدث في هذ الفصل عن كلتا العبوديـتين مـع بيـان الطـرق التربوية والأحكام الفقهية المتعلقة بهما.

أولا ـ عبادات القلب

نريد بعبادات القلب: العبادات التي ليس لها جارحــة تــؤدى بها، ولا مظهر يدل عليها، وإنما هي مجموعة مشاعر وأحاسيس يمتلئ بها القلب، وينفعل لها الوجدان، فهي عبادات الباطن كما أن الشعائر التعبدية هي عبادات الظاهر.

ولكن هذه العبادات مع بطونهـا وخفائهـا يمكنهـا أن تحــول الإنسان عالما فريدا من الكمالات والمواهب والطاقات.

وذلك لأن الوقود الذي يحرك طاقة أي إنســان ينطلــق من تلك المشاعر قبل أن ينطلق من غيرها، بــل إن العقــل نفســه ـ وهو أعظم طاقة إنسانية ـ قد يعزل عزلا تاما إذا ما تعارض مــع أي شعور من المشاعر الطاغية.

ولهذا، فإن التربية السـليمة ــ والـتي لا تهتم بطلاء النشـء

طلاء سرعان ما تغيره الأيام ــ تنطلق من هذا النوع من العبودية لتعبر إلى غيره.

وهي في تلك الممارسة تثبت في نفس النشء جميع المعاني النبيلة والخلال الطيبة التي ستنبت بعد ذلك السلوك الطيب والخلق العظيم.

وقد كان من حكمة المربي الصالح محمد بن سوار أن ربى الولي الصالح سهل بن عبد الله التستري على هذه العبادة قبل أن يربيه على العبادات الظاهرة، قال سهل: كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك فقلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرّك به لسانك، الله معي الله ناظر إليَّ الله شاهدي، فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته فقال: قل في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته فقال: قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة، فقلته فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري، ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل من كان الله معه وناظراً إليه وشاهده أيعصيه؟ إياك والمعصية)

فإن هذا النموذج التربوي يبين لنا البرنامج الذي وضعه محمد بن سوار ليغرس في قلب سهل معنى مراقبة الله والشعور بحضوره والذي تنبني عليه جميع عبادات القلوب.

ولذلك نرى أن على المربي الصالح أن يضع برنامجا يتناسب مع عمر من يربيه وقدراته بحيث يخلص من ذلك البرنامج إلى نتائج تربوية صحيحة تعمق المعاني الروحية التي هي أصل العبادات وحقيقتها.

ولا يمكننا هنا أن نضع برنامجا لذلك، وإنما سنحاول أن نبين بعض أمهات عبادات القلوب وأهميتها وأثرها السلوكي، ثم كيفية تربية النشء عليها.

وهي تحتاج إلى صبر عظيم وتدرج، لأن الخطاب الموجه

إلى القلوب يستدعي معرفة لغات القلوب.

وهذه العبادات التي سنذكرها تكاد تحصر علاقة القلب مع الله، بحيث تجعل من غيرها مما ذكره علماء السلوك فروعا دانية منها.

وهي كلها أثر من آثار المعرفة بالله والإيمان به:

1 ــ فالحب هو عبودية القلب النابعة من معرفة جميع صفات كمال الله وإحسانه وفضله.

2 ـ والشكر هو عبودية القلب النابعة من معرفة إحسان الله وكرمه وجوده.

3 ـ والصبر والرضا هما عبودية القلب النابعة من معرفة الله المبتلي الآمر الناهي.

وقيل أن نشرع في بيانها وفي كيفية تربية النشء عليها نحب أن نشير إلى مسألتين مهمتين:

الأولى: هي أن البعض يغالي في صعوبة التحقق بهذه الأنواع من العبادات، بحيث يكاد يجعل منها أمرا مستحيلا، فيشترط للتحقق بها شروطا صعبة، ويتصور أنه بدون واسطة روحي ــ مهما كانت درجته من العلم والتقوى ــ يسلم له الإنسان نفسه تسليما كليا، لا يظفر بهذه العبادات.

وهذا خطأ عظيم، لأن الله تعالى لم يكلفنا بالمستحيل، زيادة على أن تلك الشروط قد لا يظفر بها كل حين ولا لكل الناس، وما في النصوص من المعاني العظيمة كفيل بتربية النفس وتعميق هذه العبادات في القلوب خاصة إن وجدت من الصالحين من العلماء والوعاظ من يعمقها ويرسخها في نفوس العامة.

ونحن لا نعترض هنا على ضرورة وجود الواسطة الروحي المجرب، فذلك له دور كبير في اختصار السلوك، ولكنا نتصور أن هذا الواسطة الروحي لا يعني أن يكون فردا بعينه من الناس قد يرث هذه الوساطة عن أبيه أو جده، ولكنها قد تكون

فكرا اجتماعيا ينشره واعظ أو يدعو إليه عالم أو يمارسه عابد بحيث يصبح معنى من المعاني الصالحة المنتشرة في المجتمع.

وقد ذكر علماء السلوك المسلمين أن مجرد الاهتمام بهذه العبادات القلبية وحب الظفر بها، بل وتكلف حصولها كاف في تحقيق هذا المحب ولو ببعض معانيها، يقول الغزالي في بيان أقسام التواجد ـ الذي هو تكلف الأحوال لا حصولها تلقائيا ـ: (وهذا التواجد المتكلف فمنه مذموم وهو الذي يقصد به الرياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإِفلاس منها، ومنه ما هو محمود وهو التوصل إلى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة، فإن للكسب مدخلاً في جلب الأحوال الشريفة، ولذلك أمر رسول الله ﷺ من لم يحضره البكاء في قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن فإن هذه الأحوال قد تتكلف مبادئها ثم تتحقق أواخرها)[1]

واستدل لذلك بالواقع الذي يدل على أن مبادي كل شيء تنطلق من التكلف، يقول:(وكيف لا يكون التكلف سبباً في أن يصير المتكلف في الآخرة طبعاً. وكل من يتعلم القرآن أولاً يحفظه تكلفاً، ويقرؤه تكلفاً مع تمام التأمل وإحضار الذهن، ثم يصير ذلك ديدناً للسان مطرداً حتى يجري به لسانه في الصلاة وغيرها وهو غافل، فيقرأ تمام السورة وتثوب نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها ويعلم أنه قرأها في حال غفلته، وكذلك الكاتب يكتب في الابتداء بجهد شديد ثم تتمرن على الكتابة يدُه فيصير الكتب له طبعاً فيكتب أوراقاً كثيرة وهو مستغرق القلب بفكر آخر)

وانطلق من هذا الواقع الذي هو تعبير عن استعداد الفطرة البشرية بالانصباغ بصبغة ما تهتم به، إلى إمكانية السير إلى الله والتحقق بالمعاني الروحية النبيلة بمجرد تكلفها والاهتمام بها، قال:(فكذلك الأحوال الشريفة لا ينبغي أن يقع اليأس منها عند فقدها، بل ينبغي أن يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره، فلقد شوهد في العادات من اشتهى أن يعشق شخصاً ولم يكن يعشقه فلم يزل يردد ذكره على نفسه ويديم النظر إليه ويقرّر

1) إحياء علوم الدين: 2/256.

على نفسه الأوصاف المحبوبة والأخلاق المحمودة فيه حتى عشقه ورسخ ذلك في قلبه رسوخاً خرج عن حدّ اختياره، فاشتهى بعد ذلك الخلاص منه فلم يتخلص. فكذلك حب الله تعالى والشوق إلى لقائه والخوف من سخطه وغير ذلك من الأحوال الشريفة؛ إذا فقدها الإنسان فينبغي أن يتكلف اجتلابها بمجالسة الموصوفين بها ومشاهدة أحوالهم وتحسين صفاتهم في النفس وبالجلوس معهم في السماع وبالدعاء والتضرع إلى الله تعالى في أن يرزقه تلك الحلة بأن ييسر له أسبابها)

وقد استدل الغزالي لهذا من النصوص بما كان يدعو به ﷺ من طلب محبة الله، قال:(ويدل على إمكان تحصيل الحب وغيره من الأحوال بالأسباب قول رسول الله في دعائه: (اللَّهُمَّ ارْزقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُقَرِّبُنِي إِلَىٰ حُبِّكَ)، فقد فزع عليه السلام إلى الدعاء في طلب الحب)

الثانية: أن البعض قد يحتقر هذا النوع من العبادات، لتصوره أن العبادة لا تعني غير السلوكيات الظاهرة، وأن الانغماس في هذه العبادات الروحية قد يزج بصاحبه في ترهات الصوفية وشطحاتهم.

وهذا خطأ أعظم من الخطأ السابق، لأن النصوص المقدسة مليئة بالحديث عن هذه الجوانب الروحية العميقة، بل لا تعتبر التدين إلا امتلاء النفس بهذه المعاني، ولهذا قال تعالى للأعراب الذين اكتفوا برسوم الإسلام عن حقائقه، وبعباداته الظاهرة عن عباداته الباطنة: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (الحجرات:14)

والإيمان المراد هنا هو الإيمان الحقيقي الفاعل المؤثر الذين إذا استقر في قلوبهم جعلهم يشعرون بمنة الله عليهم بالإيمان لا إيمان الذين يمنون على الله بإيمانهم.

ولهذا حصر الله تعالى وصف الإيمان فيمن تحقق بهذاه العبادات القلبية، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (لأنفال:2)

وأخبر عن المؤمنين بأنهم يحبون الله، بل هم أشد حبا لله، قال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ (البقرة:165)

وعندما أخبر ﷺ عن كمال الإيمان ربطه بهذه المعاني القلبية، قال ﷺ:(ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا)(1)، والرضى عبادة من العبادات القلبية.

وأخبر ﷺ أن حلاوة الإيمان لا تتحقق إلا لمن قدم محبة الله ورسوله على من سواهما، قال ﷺ:(ثَلاثٌ مّنْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهمُا، وأن يُحبَّ المرءَ لا يُحبهُ إلا لله، وأن يَكرَهَ أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار)

بل إن العبادات الظاهرة ـ حسبما تدل النصوص ـ لا تكفي ما لم تكن مصحوبة بهذه المعاني الروحية والعبادات القلبية:

فالصلاة جسد بلا روح إن لم يصحبها الخشوع الذي هو عبادة القلب، قال تعالى في وصف المؤمنين الذين تحققوا بالفلاح: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (المؤمنون:2)، فجعل الخشوع وصفا مفرقا بين صلاة المؤنين وغيرهم.

فلذلك من الخطأ أن نعلم أبناءنا الصلاة ولا نعلمهم الخشوع، لأننا بذلك نحولهم إلى دمى متحركة لا عبادا لله.

ولن نعلمهم الخشوع إلا إذا ربيناهم على هذه العبادات الروحية، لأنها أصل الخشوع، ومادته، ومنبعه الذي منه يستقي، يقول الغزالي في بيان دور العبادات القلبية ودورها في حضور القلب وخشوعه في الصلاة:(أما التعظيم؛ فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين، إحداهما: معرفة جلال الله عز وجل وعظمته وهو من أصول الإيمان فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه. الثانية: معرفة حقارة النفس وخستها

---

1) رواه مسلم.

وكونها عبداً مسخراً مربوباً حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع، فإن المستغني عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة، ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه)[(1)]

ولهذا وصف الله تعالى عبادات الصالحين بكونها عبادات خاشعين لا عبادات متحركين، قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة:45)، وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الانبياء:90)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (الأحزاب:35)

وهذه الصلاة التي هي أم العبادات لا تؤثر في صاحبها، فتعمق في نفسه معاني الإيمان، وتجتث منه منابع الفحشاء والمنكر إلا إذا لقحها بلقاح الخشوع.

ومثل ذلك الزكاة والصدقات، فإنها وإن كانت إنفاقا ماليا محضا، والمنتفع الأول بها هم الفقراء إلا أن الله تعالى اعتبر الرياء الذي هو فقدان الإخلاص ــ واذي هو عبادة من عبادات القلوب ـ عند أدائها محبطا لها، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (البقرة:264)، ثم شبه هذا الإنفاق وعدم انتفاع صاحبه به، فقال: ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:264)

---

1) إحياء علوم الدين: 1/152.

وضـرب مثلا على ذلـك ببعض الأعـراب الـذين انتفى من أذهانهم الجانب التعبـدي في الزكـاة، فاعتبروهـا مغرمـا، فقـال تعالى: ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً ﴾ (التوبة:98)

وفي مقـابلهم الأعـراب الـذين فهمـوا حقيقتهـا، فجعلوهـا وسيلة تقرب إلى الله، قال تعـالى: ﴿ وَمِنَ الْأَعْـرَابِ مَنْ يُـؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَيَتَّخِـذُ مَـا يُنْفِـقُ قُرُبَـاتٍ عِنْـدَ اللَّهِ وَصَـلَوَاتِ الرَّسُـولِ أَلا إِنَّهَـا قُرْبَـةٌ لَهُمْ سَـيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِـهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:99)

وهكذا جميع أعمال البر لا يستقيم أمرها، ولا ينتفـع بهـا مـا لم تكن مصحوبة بعبادات قلبية تتوجه بها حقيقة إلى الله، لتنفي عنها الطقوسية الحرفية التي تحيل العبادات أجسادا بلا روح.

1 ـ عبودية الحب

أول عبوديـة يسـعى المـربي لغرسـها في قلب الولـد، هي عبودية الحب، حب الله وحب الرسول ﷺ وحب الصالحين وحب دينه، كما قال ﷺ:(كان داود يقول: اللهم إني أسألك حبـك وحب من يحبك، والعمل الـذي يبلغـني حبـك؛ اللهم اجعـل حبـك أحب إلي من نفسي وأهلي ومن الماء البارد)[1]

وهذا يستدعي تركيز المربي على عبودية المحبـة قبـل أي عبودية أخرى، لأن حقيقة الإسلام السـامية تبـدأ من الحب للـه، ومن الأنس باللـه، فلا تكمـل عبـادة ولا يطهـر سـلوك إلا إذا استقى من بحر الحب، وقد قيل لعبد الواحد بن زيد: هاهنا رجل قد تعبد خمسين سنة، فقصده فقال له: يا حبـيب أخـبرني عنـك هـل قنعت بـه؟ قـال: لا، قـال أنسـت بـه؟ قـال: لا، قـال: فهـل رضيت عنه؟ قال: لا، قال: فإنما مزيدك منـه الصـوم والصـلاة؟ قال: نعم، قال: لـولا أني أسـتحي منـك لأخبرتـك بـأن معاملتـك خمسين سنة مدخولة.

ولهـذا قـال ابن القيم:(فلـو بطلت مسـألة المحبـة لبطلت جميع مقامات الإيمـان والإحسـان، ولتعطلت منـازل السـير إلى

1) رواه أبو داود والترمذي والحاكم.

الله فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها بل هي حقيقة الإخلاص بل هي نفس الإسلام فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله فمن لا محبة له لا إسلام له البتة)(1)

فالإسلام هو دين الحب السامي الذي يملأ الروح والجسد، ويتخذ من الكون كله محرابا للحب السامي، وروضة من رياض المودة.

بل إن هذ الحب هو حقيقة (شهادة أن لا إله إلا الله)، لأن الإله هو الذي يأله العباد حبا وذلا وخوفا ورجاء وتعظيما وطاعة له.

ولا يمكن أن تستقيم أي عبودية لا تغذى بلواعج الحب، وهل تمكن الإنابة بدون المحبة والرضى والحمد والشكر والخوف والرجاء؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين فإنه إنما يتوكل على المحبوب في حصول محابه ومراضيه؟ وهكذا كل عبادات القلوب لا تستقيم ولا تكمل إلا بالحب.

زيادة على أن من امتلأ قلبه بحب الله لن تعجز في إقناعه بأي أمر من أوامر الله أو حكم من أحكامه، بل يكفي أن تخبره بأن ذلك من محاب الله أو من الأمور التي يبغضها، فيكون في ذلك أكبر داع أو صارف للطاعة، ولهذا شرط الله تعالى الطواعية المطلقة لله أثناء طاعته، وهي لا تتحقق إلا بالمحبة، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب:36)

ولهذا، فإن الكاذب يتخلى عن كذبه إن علم أن الله يحب الصدق، والعامل يبادر إلى عمله بإتقان إن علم أن الله يحب إذا عمل أحد عملا أن يتقنه، وهكذا في كل الأعمال، فـ (الرغبة في الله وإرادة وجهه والشوق إلى لقائه هي رأس مال العبد وملاك أمره وقوام حياته الطيبة وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقرة عينه ولذلك خلق وبه أمر وبذلك أرسلت الرسل وأنزلت الكتب ولا صلاح للقلب ولا نعيم إلا بأن تكون رغبته إلى الله عز

---

1) روضة المحبين: 419.

وجل وحده فيكون هو وحده مرغوبه ومطلوبه ومراده)(2)

ولهذا كانت المحبة الإلهية هي الحادي الذي حرك قلوب وجوارح الصالحين لأزكى الأعمال، يروى عن المسيح عليه السلام أنه قال:(إذا رأيت الفتى مشغوفاً بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه)، وقال أبو سليمان الداراني :(إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟)

وعندما تعجب بعض أصحاب معروف الكرخي من كثرة مجاهداته في الله سأله:(أخبرني يا أبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت فقال: ذكر الموت، فقال: وأي شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ، فقال: وأي شيء القبر؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنة، فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكاً هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا.

وقال أبو بكر الكتاني: جرت مسألة في المحبة بمكة أيام الموسم فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سنا فقالوا: (هات ما عندك يا عراقي) فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال: (عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه أحرق قلبه أنوار هويته وصفا شربه من كأس وده فإن تكلم فبالله وإن نطق فمن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكت فمع الله فهو بالله ولله ومع الله) فبكى الشيوخ وقالوا: (ما على هذا مزيد جبرك الله يا تاج العارفين)

انطلاقا من هذا، فإن المربي يمكن أن يضع برنامجا تربويا يؤسس على أساسه المحبة في قلب الولد لله تعالى، كذلك البرنامج الذي وضعه خال سهل بن عبد الله التستري.

وأول ما يبدأ به هذا البرنامج ما ذكرناه في أسلوب القدوة من أن يكون المربي ربانيا، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولولا قيام محمد بن سوار الليل لما تنبه التستري إلى حاله الإيمانية التي جعلته مطيعا مستسلما لتوجيهه.

---

2) روضة المحبين:405.

فلـذلك كـان لهج المـربي بـذكر اللـه وبـذكر محبتـه للـه وتعظيمه لله ودعائه لله أن يرزقه محبته كما كان يفعل رسـول اللـه ﷺ كفيـل بـأن يجعـل من هـذا المعـنى العظيم هـدفا نـبيلا يسعى الولد للتحقق به.

زيـادة على هـذا، فـإن هنـاك بعض الأسـاليب الـتي يمكن استخدامها لتعميق محبة الله في قلب الولد منذ نعومة أظفاره، منها:

التعريف بعظمة الله وصفات كماله:

لأن كل كمال محبوب عند الفطرة السليمة، ويتحقـق ذلـك عن طريق التعريـف بصـفات اللـه وأسـمائه الحسـنى مـع بيـان حقائقها ومظاهرها وتعميق معانيها، فمن عرف الله تعالى أحبّـه لا محالة، وهذا مشاهد في الواقع مـع الخلـق في تمـيز بعضـهم على بعض ببعض القوى التي لا تنفـع ولا تضـر، ومـع ذلـك نـرى الخلق مأسورين في هواهم لا يملكون من أمرهم شيئا.

ويذكر الغزالي مثلا معاصرا له،وهـو مـا يفعلـه المتعصـبون للمذاهب من مظاهر تدل على مدى حبهم لأئمتهم، فقال:(حـتى أنّ الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حدّ العشـق فيحملـه ذلك على أن ينفـق جميـع مالـه في نصـرة مذهبـه والـذب عنـه ويخاطر بروحـه في قتـال من يطعن في إمامـه ومتبوعـه، فكم من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب)(1)

وهـذا الحب المفـرط البـالغ درجـة العشـق لا يرتبـط بحب الصورة، وإنما بحب الكمالات التي تصورها المحب في محبوبه، يقول الغزالي:(وليت شعري من يحب الشـافعي مثلاً فلم يحبـه ولم يشاهد قط صورته؟ ولو شاهده ربما لم يستحسن صـورته، فاستحسانه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظـاهرة، فـإنّ صـورته الظـاهرة قـد انقلبت ترابـاً مـع التراب، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الـدين والتقـوى وغـزارة العلم والإحاطـة بمـدارك الـدين وانتهاضـه لإفـادة علم الشـرع ولنشره هذه الخيرات في العـالم، وهـذه أمـور جميلـة لا يـدرك

---

1) إحياء علوم الدين: 4/299.

جمالها إلا بنور البصيرة، فأما الحواس فقاصرة عنها)(1)

وهكذا، فإن التعريف بكمال الله وجماله الداعي إلى محبته يكون عن طريق التعريف به تعالى سواء عن طريق دلالة المتلقي على آيات الله في الكون، وهذا ما قد يتكفل به معلمو العلوم المحضة من بيان كمالات الصنعة الإلهية الدالة على كمال الصانع.

أو عن طريق آيات الله في القرآن الكريم، فالقرآن الكريم هو الكتاب الذي تجلى الله تعالى من خلاله لعباده ليعرفوه، ولكن بشرط التدبر والتفهم لمعانيه، قال تعالى: أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (محمد:24)، وقال تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (صّ:29)

فهذا هو المقصود الأعظم من إنزال القرآن، ولهذا كان ﷺ يتجاوب مع كل آية بمشاعره وعواطفه دعاءً واستغفاراً ورجاءً، وكأنه يحدث الله من خلال كتابه، قال حذيفة: صليت مع الرسول ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة ثم مضى، فقلت يصلي بها في ركعة فمضى فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوّذ تعوّذ)(2)

التعريف بإحسان الله:

فيفصل للولد نواحي فضله تعالى وبره به، فيقدم له كل خير وإحسان باعتباره هدية من الله لعباده، وذلك لأن مشاهدة بره تعالى وإحسانه وآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة داعية إلى محبته، والقلوب قد جبلت على محبة من أحسن إليها وبغض من أساء إليها.

ولهذا روي في الأثر أن الله أوحى إلى داود عليه السلام:(يا داود

---

1) إحياء علوم الدين: 4/299.

2) رواه مسلم.

أحببني وحبب عبادي إلي وحببني إلى عبادي) قال:(يا رب هذا أنا أحبك وأحبب عبادك إليك فكيف أحببك إلى عبادك؟) قال: (تذكرني عندهم فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن)

ولن يتكلف المربي في بيان ذلك عنتا، فإن إحسان الله على عباده ممتد في كل نفس ولحظة والعبد يتقلب في نعم الرب دائماً في كل الأحوال، وقد قال تعالى: وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (النحل:18)

زيادة على بيان حماية الله لعباده من كل ما يؤذيهم، قال تعالى: لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (الرعد:11)، وقال تعالى: قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (الانبياء:42)، فهو سبحانه المنعم بالكلاءة والحفظ والحراسة من كل المؤذين.

توثيق الصلة بالله:

وذلك بالإكثار من النوافل والذكر، كما قال ﷺ في الحديث القدسي:(من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ومايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطيينه ولأن استعاذني لأعيذنّه) [1]

ولهذا وصف الله تعالى عباده الصالحين في القرآن الكريم بدوام الطاعة واللجوء إلى الله، فمن أوصافهم أنهم تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (السجدة:16) ومن أوصافهم أنهم كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (الذريات:17)

ونحن لا ندعو هنا إلى العمل بحرفية هذه النصوص ـ خاصة مع الصغار ـ ولكنا نقول بأن مجرد انشغال الخاطر بحب عبادة الله والتفرغ لها يمكن أن يؤثر في إقرار المحبة لله في النفس

1) رواه البخاري: 8/131.

خاصة إن صاحبها العـزم الصـادق، أو صـاحبها التفـرغ في بعض الأحيان، كأن يقوم الوالد مع والده بدورة روحيـة يكـثر فيهـا من النوافل والذكر لتكون زادا إيمانيا يشحن الطاقات.

منشطات السلوك:

من حكايات الصالحين، وأشـعار المحـبين، والأناشـيد الـتي تحمل هذه المعاني الجليلة، فكلها له تأثيره التربوي العظيم في تعميق هذه المعاني في النفس.

يقـول الغـزالي عن هـذا السـبيل:(ومن أسـبابها، السـماع ومجالســة الصــالحين والخــائفين والمحســنين والمشــتاقين والخاشعين، فمن جالس شخصاً سرت إليـه صـفاته من حيث لا يدري)[1]

ولهذا كـان المجاهـدون يسـتثيرون داعيـة الغـزو بالتشـجيع وتحريــك الغيــظ والغضــب على الكفــار وتحســين الشــجاعة واستحقار النفس والمال بالإِضافة إليه بالأشعار المشجعة، كمـا قال المتنبـي:

فإنْ لا تمت تحت السيوف مكرَّماً　　تمت وتقاسِ الذلَّ غير مكرَّمِ

وقوله:

يرى الجبناءُ أنَّ الجبنَ حزمٌ　　وتلك خديعةُ الطبعِ اللئيمِ

بـل قـد كـان الصـحابة يرتجـزون في الجهـاد وغـيره لبث الحمـاس والنشـاط، ومن ذلـك مـا روي عن الـبراء قـال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الخندق ينقل التراب حتى وارى التراب شعر صدره وهو يرتجز برجز عبد الله بن رواحة يقول[2]:

اللهم لولا أنت ما　　ولا تصدقنا ولا

1) إحياء علوم الدين: 2/256.

2) رواه البخاري: 5/140.

فأنزلن سكينة وثبت الأقدام

إنَّ الألى قد بغوا وإن أرادوا فتنة

ولهذا يمكن أن يوضع لهذا الأسلوب التربوي من الأناشيد ما يثبت معاني المحبة لله في القلوب، خاصة ونحن في عصر يكاد يقصر فيه استعمال المحبة على المحبة الشهوانية التي تنحرف بالفطرة البشرية انحرافا عظيما، وتحول العبد من عبودية الله إلى عبودية الهوى.

ولهذا كان من أهم الوسائل التي يقضى بها على هذا الحب الشاذ، هو تعميق معاني الحب الإيماني البديل، لأن الحب طاقة لا يمحوه إلا مثله أو أعظم منه، كما قال الشاعر:

كانت لقلبي أهواء فاستجمعت مذ رأتك العين

فصار يحسدني من وصرت مولى الورى مذ

تركت للناس دنياهم شغلاً بذكرك يا ديني

وكما روي عن بشر بن الحارث أنه قال يحكي عن نفسه: مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس، فتبعته فقلت له: لم ضربت؟ فقال: لأني عاشق، فقلت له: ولم سكت؟ قال: لأنّ معشوقي كان بحذائي ينظر إليَّ، فقلت: فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر قال: فزعق زعقة خرّ ميتاً.

2 ـ عبودية الشكر

وهو الثناء على المحسن بما أولاه من معروف، أو هو بعبارة أشمل (ظهور أثر النعم الإلهية على العبد في قلبه إيماناً، وفي لسانه حمداً وثناءً، وفي جوارحه عبادة وطاعة)

ويشير إلى أهمية تربية الأبناء على شكر الله من القرآن الكريم من موعظة لقمان(1) ﵇ قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا

(1) اختلف المفسرون في هذه الآية والتي بعدها هي اعتراض بين أثناء وصية لقمان ﵇، أو هي مما أوصى به لقمان ﵇ ابنه؛ أخبر الله به عنه؛ أي قال لقمان لابنه:(لا تشرك بالله ولا تطع في الشرك والديك، فإن الله وصى بهما في طاعتهما مما لا يكون شركا ومعصية لله تعالى) وكلا المعنيين محتمل، وإن كان الكثير من المفسرين رجحوا

الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان:14)، فقد بدأ لقمان ﵇ بشكر الله، ثم عقب عليه شكر الوالدين، وفي ذلك إشارة تضاف إلى ما سبق ما ذكرنا من ضرورة الاهتمام بتنمية معاني العبادات القلبية في نفوس النشء.

وعلى طريقة الفقهاء في استنباط الأدلة على الأحكام الشرعية نقول: إن كل النصوص تدل على وجوب شكر الله، وهي من القطعية في الوضوح والدلالة ما لا يقل عن أدلة أركان الدين وأصوله، فلذلك نرى من المستغرب أن نهتم باعتبار الصلاة والصيام وغيرها واجبات نحرص عليها، ونتفنن في طرق تعليمها وتدريب الأبناء عليها، ثم لا نهتم بهذا الركن الركين من أركان الدين.

ولا بأس من سوق بعض الأدلة هنا على هذا:

فالله تعالى يأمر بالشكر بصيغة الجزم، قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة:152)، بل نرى أنه جعل عدم الشكر كفرا، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الزمر:7)

بل جعل الشكر من دلائل العبادة الصحيحة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة:172)، وقال تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل:114)

بل رتب العقوبة العظيمة على عدم الشكر، فقال تعالى: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾ (النساء: 147)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ

كونها من غير كلام لقمان ﵇ بناء على أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص، ولا نرى تعارضا بين نزولها في شأن سعد وبين اعتبار هذا الكلام من كلام لقمان ﵇.

شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (ابراهيم:7)

ولـذلك فـإن القـول بفرضـية عبـادة الشـكر تجعـل من الواجبات على الولي أن يربي ولـده عليـه، ومن واجبـات جميـع المؤسسـات المكلفـة برعايـة النشـء وتـربيتهم تعميـق معـاني الشكر في نفوس الأولاد.

وقبل أن نسرد بعض الطرق التي تعمق معنى هذه العبادة في النفس نحب أن نبين أن لهـذه العبـادة تأثيرهـا العظيم على السلوك الديني والأخلاقي والاجتماعي.

وقد سبق أن ذكرنا في تعريف الشكر أنه ظهور أثـر النعم الإلهية على العبد في قلبه إيماناً، وفي لسانه حمـداً وثنـاءً، وفي جوارحه عبادة وطاعة.

وهذا الركن الأخير هو الذي نقصده بالآثـار السـلوكية لهـذه العبـادة القلبيـة، قـال الغـزالي في بيـان حقيقـة هـذا الـركن والأفعال التي يمكن أن تصدر كأثر من آثار الشكر القلبي:(وهذا العمل يتعلق بـالقلب وباللسـان وبـالجوارح أمـا بـالقلب فقصـد الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما باللسان فإظهـار الشـكر للـه تعالى بالتحميدات الدالة عليـه، وأمـا بـالجوارح: فاسـتعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقي من الاستعانة بهـا على معصـيته، حتى إن شكر العينين: أن تستر كل عيب تـراه لمسـلم، وشـكر الأذنين: أن تستر كل عيب تسمعه فيـه، فيـدخل هـذا في جملـة شكر نعم الله تعالى بهـذه الأعضـاء والشـكر باللسـان: لإظهـار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به)[1]

بعد هـذا، فـإن من الأسـاليب التربويـة الـتي تعمـق معـنى الشكر في نفوس الأولاد:

التأمل في نعم الله:

لأن الله تعالى جعـل هـذه النعم أسـبابا لـدعوة العبـاد إلى شكره تعالى، ولهذا قال إبراهيم ﵇ في دعائـه: وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (ابـراهيم:37)، فـدعا اللـه تعـالى أن

---

1) إحياء علوم الدين: 4/72.

يرزقهم من الثمرات ليكون ذلك علة لشكرهم.

ولهذا يختم الله تعالى الآيات الذاكرة لفضله على عباده ومننه عليهم بهذه الفاصلة: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، كما قال تعالى في نهاية ذكر النعم المودعة في البحار: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:14)

وقال في نعمة تسخير الحيوانات للإنسان: ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الحج:36)

وقال في نعمة الليل والنهار: ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص:73)

وقال في نعمة الإدراك: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:78)

وقال في نعمة العفو عن الخطيئة: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة:52)

وقال في نعمة بعث بني إسرائيل، وفيه إشارة إلى نعمة البعث مطلقا: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة:56)

وقال في نعمة النصر: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (آل عمران:123)

وقال في نعمة التمكين في الأرض: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (لأعراف: 10)

وقال في نعمة التأييد والنصر والإيواء: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ

قَلِيــلٌ مُسْتَضْــعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَــافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْـرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَـاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ (لأنفال:26)

بل إن هذه العلة أصل في الأحكام التشريعية، لأنها أيضــا ـ بمنطق القرآن الكريم ـ من نعم اللـه على عبـاده، فلـذلك قـال تعالى بعد الأمر بصيام رمضان: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيــدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَـدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (البقرة:185)

وقال في نهاية الأمر بتشـريعات الطهـارة: مَـا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَـهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (المائدة:6)

وقال في نهاية أحكـام لغـو اليمين: ذَلِـكَ كَفَّارَةُ أَيْمَـانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُـوا أَيْمَـانَكُمْ كَـذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِـهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (المائدة:89)

عبادة إحصاء النعم:

وهي من العبـادات الـتي تنفتح نوافـذها على محبـة اللــه وشـكره، بـل التحقـق بـأكثر مقامـات الإيمـان، وبهـذه العبوديـة يحفظ الولد من بلاء عد الأموال الذي ذمه الله تعالى في قولـه: الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (الهمزة:2)

وقد أشار إلى هذه العبادة قوله تعالى: وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْأِنْسَانَ لَظَلُـومٌ كَفَّارٌ (ابـراهيم:34)، وهـذه الآيـة تشـير إلى الصـنف الغافـل عن عـد نعم اللـه، أو الغـائب بالنعم عن المنعم.

وقـال تعـالى: وَإِنْ تَعُـدُّوا نِعْمَـةَ اللَّهِ لا تُحْصُـوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ (النحـل:18)، وهي تخـاطب المـؤمن الـذي يجـد نفسه عاجزا عن عد نعم الله، فيستنجد بمغفرة الله ورحمته.

وإليها الإشـارة الصـريحة بقولـه تعـالى: وَأَمَّا بِنِعْمَـةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (الضـحى:11)،ـ أي انشـر مـا أنعم اللّـه عليـك بالشـكر والثناء، والتحدث بنعم اللّه، والاعتراف بها،

ولهذا ذم الله تعالى الغافلين عن النعم التاركين للشكر، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ (يونس:60)، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (المؤمنون:78)

وأخبر تعالى أن هذا حال الكافرين، قال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (النحل:83)

وقد كان من سنة السلف التحدث بنعم الله، ولو كانت من باب العبادات لأمنهم من الرياء من جهة، ولاعتبارها من أعظم نعم الله عليهم، وقد عبر عن هذا السلوك الإمام الحسن بقوله: (إذا أصبت خيرا، أو عملت خيرا، فحدث به الثقة من إخوانك)[1]

ومثل ذلك ظهور النعم على حال العبد، وقد روي عن مالك بن نضلة الجشمي قال: كنت عند رسول اللّه ﷺ جالسا، فرآني رث الثياب فقال:(ألك مال؟)، قلت:(نعم، يا رسول اللّه، من كل المال)، فقال ﷺ:(إذا آتاك اللّه مالا فلير أثره عليك)[2]

ولهذا كان السلف يسأل بعضهم بعضا عن حاله، يقصد من ذلك استخراج شكر الله، والتحدث بنعم الله، ومن ذلك ما يروى عن بعضهم أنه قال لأخيه:(كَيْفَ أَصْبَحْتُ؟) قال:(بخير)، فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة:(بخير أحمد الله وأشكره)، فقال: (هٰذا الّذِي أَرَدْتُ مِنْكَ)،

قال الغزالي:(وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعاً والمستنطق له به مطيعاً وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق، وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت؛ فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شيء إلى عبد ملوك لا يقدر على شيء؛ فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء

---

1) رواه ابن جرير.

2) رواه النسائي.

وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو المبلي والقادر على إزالة البلاء. وذل العبد لمولاه عز، والشكوى إلى غيره ذل؛ وإظهار الذل للعبد مع كونه عبداً مثله ذل قبيح)(1)

ونحب أن ننبه هنا إلى أن من الأخطاء التربوية ربط الحمد على النعم الحادثة دون النعم المستقرة المستمرة، لأن ذلك قد يشوه معنى الحمد في قلب المتلقي، فيتصور أن النعم محصورة فيما يراه لا أنها تشمل كل شيء.

ولهذا قال الإمام علي :(إنّ لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر؛ من علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره، ومن علاماته ـ إذا كان عقوبة ـ أن يسوء عليه خلقه ويعصي ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء)

وهذا يدل على أن شكر الله يكون في حال الفقر والغني، ولا ينحصر في حال الغنى وحده.

بل ورد ما هو أخطر من ذلك، فقد ورد الترغيب في حمد الله حتى في الحالة التي يبلغ فيها الحزن بالإنسان منتهاه، قال ﷺ:(إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد)(2)

فالحمد عبادة ذاتية لله لا تتعلق بتقلبات المقادير وتصاريف الأحوال، ولهذا كان ﷺ ـ وهو الذي كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ـ يحمد الله على نعمة طعام قد نمتلئ حزنا إذا ما قدم إلينا، ويحمد الله على نعمة العافية وهو محفوف بأنواع المخاطر التي تريد أن تجتثه من أصوله.

---

1) إحياء علوم الدين: 4/84.

2) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب.

ولهذا، فإن تعريف المتلقي أنـواع النعم ومحاولـة إحصـائها له دور كبير في تحقيقـه بهـذه العبـادة، لأن الشـكر ينطلـق من معرفة النعمة منسوبة إلى خالقها.

وقد اهتم العلماء بتعداد النعم وتصنيفها، ولهم طرق كثـيرة في ذلك:

منها: ردهـا إلى أصـولها، فـالنعم أصـول وفـروع، فالصـحة نعمة أصلية، يتفرع عنها: الحركة، والمشي، والعمل، والرياضـة، والأكـل، والشـرب، والنـوم، والسـفر، والتعلم.. ومثـل الصـحة: الوقت، والعلم، والمال.. فهي نعم أصلية تندرج تحت كل واحدة نعم لا تحصى.

وقد كتب الغـزالي فصـولا طويلـة في تصـنيف النعم، ومن التصنيفات التي ذكرها (أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امـتزج خيرهـا بشـرها، فقلمـا يصـفو خيرهـا كالمـال والأهـل والولـد والأقارب والجـاه وسـائر الأسـباب، ولكن تنقسـم إلى مـا نفعـه أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسـائر الأسـباب، وإلى ما ضره أكـثر من نفعـه في حـق أكـثر الأشـخاص كالمـال الكثير والجاه الواسع، وإلى ما يكافىء ضرور نفعه وهـذه أمـور تختلف بالأشخاص؛ فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصـالح وإن كثر فينفقه في سبـيل الله ويصرفه إلى الخيرات، فهو مـع هـذا التوفيق نعمة في حقه، ورب إنسان يستضر بالقليـل أيضـاً إذ لا يزال مستصغراً له شاكياً من ربـه طالبـاً للزيـادة عليـه، فيكـون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه)[1]

ومنها أنّ النعمة يعبر بها عن كـل لذيـذ، واللـذات بالإضـافة إلى الإنسـان من حيث اختصاصـه بهـا أو مشـاركته لغـيره ثلاثـة أنـواع: عقليـة، وبدنيـة مشـتركة مـع بعض الحيوانـات، وبدنيـة مشتركة مع جميع الحيوانات:

أما العقلية فكلذة العلم والحكمة، إذ ليس يستلذها السـمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج،

---

1) إحياء علوم الدين: 4/100.

أما الثانية: فهي لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرئاسة والغلبة والاستيلاء، وذلك موجود في الأسد والنمر وبعض الحيوانات.

وأما الثالثة: فهي ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج، وهذه أكثرها وجوداً وهي أخسها، ولذلك اشترك فيها كل ما دبّ ودرج حتى الديدان والحشرات.

ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة، وهو أشدّها التصاقاً بالمتغافلين، فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة، لا سيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله، وهذه رتبة الصدّيقين[1].

وقد كتب بعض المعاصرين مصنفا النعم التي تصيب الإنسان إلى ثلاث أصناف أساسية هي[2]:

النعم المرتبطة بالخلق: وتشمل النعم التي أنعم الله بها علينا بوصفنا مخلوقات، فهي نعم متفرعة عن نعمة الخلق والإيجاد، وهي تشمل سلسلة لا تنتهي من الترتيبات الكونية جعلت حياتنا على هذا الكوكب ممكنة، وقد عرف الإنسان اليوم ما لم يكن يعرفه أسلافه عن هذه الترتيبات، وعرف من دقتها أن أي خلل يقع في واحد منها يجعل الحياة على الأرض مستحيلة..

ومن الأمثلة على ذلك أنه لو كانت الأرض أقرب إلى الشمس مما هي عليه الآن لكانت كالكواكب القريبة منها كوكباً ملتهباً وساخناً تصل حرارته إلى بضع مئات، ولو كان القمر أقرب إلى الأرض منه الآن لارتفع المد في البحار إلى الدرجة التي تغرق فيها المناطق الساحلية المأهولة، وإذا زاد المد أزالت الأمواج أعلى قمم الجبال في أيام، ولو لم يكن للأرض غلاف هوائي لم يمكن وجود حياة، ولو لم يكن فيها ماء لم يظهر كائن حي واحد، ولو لم تكن تدور على نفسها وحول

---

1) انظر: إحياء علوم الدين: 4/89.

2) انظر: د. محمد عز الدين توفيق، فضيلة الشكر..العملة النادرة في هذا العصر، مجلة البيان: 114، ص:68.

الشمس لم يمكن بقاؤها في مـدارها، بـل إن وقوفوهـا للحظـة واحدة يعني اجتذاب الشمس لها وفناءها السـريع بالانـدماج مـع هذا النجم المشتعل الذي يزود الأرض بحاجتهـا من الضـوء وهـو على بعـد مئـة وخمسـين مليونـاً من الكيلومـترات.. والأمثلـة لا تحصى.

النعم المرتبطة بـالنوع: وهي تشـمل النعم الـتي أنعم اللــه بهــا علينــا بوصــفنا آدمــيين، فهي نعم متفرعــة عن نعمــة الآدمية والإنسانية، ومنها: أنه تعـالى خلقـه بيـده، ونفخ فيـه من روحه، وأسجد له ملائكته، وجعله عاقلاً ناطقاً، وسخر له مــا في الســموات والأرض، وأنــزل إليــه الكتب، وبعث إليــه الرســل، ووعده على الإيمان والطاعة بالجنة.

فهـذه الشـمس، وهـذا القمـر، وهـذه النجـوم، والجبـال، والبحــار، والأنهــار والأشــجار، والــدواب، والأنعــام، والأســماك، والمعادن، والثمار.. كلهـا سـخرة لـه، يأكـل، ويلبس، ويفـترش، ويدخر، ويتنزه.. فتمت نعمة الله عليه بما أعطاه من قدرة على التسخير، وبما جعل في هذا الكون من استعداد للتسخير.

النعم المرتبطة بالهداية: وتشمل النعم التي أنعم الله بها علينا بوصفنا مسلمين، فهي نعم متفرعــة عن نعمــة الهدايــة والإيمان، وأعظمها في الدنيا هي: نعمة الإيمان نفسه، وأعظمها في الآخــرة: رضــوان اللــه تعــالى ورؤيتــه، وجــواره في جنتــه، وصحبة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين من عباده، كمــا قــال تعــالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْــكَ أَنْ أَسْــلَمُوا قُــلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْــلامَكُمْ بَــلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَــدَاكُمْ لِلْإِيمَــانِ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ﴾ (الحجـرات:17)، وقـال تعـالى: ﴿ الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِــيتُ لَكُمُ الْأِسْــلامَ دِينــاً ﴾ (المائدة:3)

وتتفرع عن نعمة الهداية والإيمان نعم كثـيرة، منهـا: الأمن، والسـكينة، والمغفـرة، والرحمـة، والتيسـير، والـرزق الواسـع، والبركة في المال والعمل والأهل، وغيرها كثير.

أذكار الشكر:

لأجـل الإعانـة على إحصـاء النعم وردت الأذكـار الكثـيرة الدالة على حمـد اللـه على نعمـه المختلفـة، وهـذه الأذكـار لهـا دورهـا الـتربوي الكبـير، ذلـك لأن تحفيظهـا للصـغير من أول نشوئه، وتعليمه معانيها، والحرص على تنفيذه لها له له أثـر في تحقيقه بمعانيها، كما رأينا مثل ذلك مع سهل التستري .

وذلك لأن جـوهر قلب الصـبي لا يـزال محفوظـا من أدران الشبهات والشهوات، فلذلك سرعان ما ينصبغ بصبغة ما يلتزمـه أو يداوم عليه.

فلـذلك يمكن للوالـد الصـالح أن يجمـع أبنـاءه على هـذه الأذكار فيـدعون بهـا جماعـة في أوقاتهـا باسـتغراق واستشـعار لمعانيها، لتفعل فعلها بعد ذلك بالتدريج.

ولا بأس أن نذكر هنا بعض هـذه الأذكـار، كنمـاذج للمعـاني الروحية العميقة التي تقررها في النفس، وخاصة معنى الشـكر الذي نحن بصدده.

ففي الصباح عندما يستيقظ ينبه إلى حمـد ربـه على نعمـة استيقاظه كما يحمده على نومه، فقـد كـان رسـول اللـه ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال:(باسمك اللهم أحيا وأمـوت؛ وإذا اسـتيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور)(1)

ويعـدد ﷺ في ذكـر آخـر بعض هـذه النعم الـتي تسـتحق الحمد، فيقول ﷺ:(إذا استيقظ أحدكم فليقل: الحمـد للـه الـذي رد علي روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره)(2)

وفي ذكر آخر يقـال عنـد الاسـتيقاظ من الليـل يعـدد نعمـا أخرى، قال ﷺ:(ما من رجل ينتبه من نومه فيقـول: الحمـد للـه الذي خلق النوم واليقظة، الحمد لله الذي بعثـني سـالما سـويا، أشهد أن الله يحيي الموتى وهو على كـل شـيء قـدير. إلا قـال الله تعالى: صدق عبدي)(3)

---

1) رواه البخاري.

2) رواه ابن السني بإسناد صحيح .

فإذا طلعت شمس اليوم حمد الله على طلوعها، وعلى فضل الله باليوم الجديد، فقد كان ﷺ إذا طلعت الشمس قال: (الحمد لله الذي جللنا اليوم عافيته، وجاء بالشمس، من مطلعها، اللهم أصبحت أشهد لك بما شهدت به لنفسك، وشهدت به ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك إنك أنت الله لا إله إلا أنت القائم بالقسط، لا إله إلا أنت العزيز الحكيم، اكتب شهادتي بعد شهادة ملائكتك وأولي العلم، اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك السلام، أسألك يا ذا الجلال والإكرام أن تستجيب لنا دعوتنا، وأن تعطينا رغبتنا، وأن تغنينا عمن أغنيته عنا من خلقك، اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معيشتي، وأصلح لي آخرتي التي إليها منقلبي)(1)

وكان ﷺ يقول إذا أصبح:(أصبحنا وأصبح الملك لله عز وجل، والحمد لله، والكبرياء والعظمة لله، والخلق والأمر والليل والنهار وما سكن فيهما لله تعالى، اللهم! اجعل أول هذا النهار صلاحا، وأوسطه نجاحا وآخره فلاحا، يا أرحم الراحمين)(2)

فإذا أمسى كان أول ما يذكره هو حمد ربه تعالى، فيقول: (أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له)(3)

فإذا جاء الشهر الجديد حمد الله على نعمة الله بقدومه، فقد كان ﷺ إذا رأى الهلال قال:(هلال خير ورشد، هلال خير ورشد، هلال خير ورشد، آمنت بالله الذي خلقك، ثلاث مرات، ثم يقول: الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا)(4)

---

3) رواه ابن السني .

1) رواه ابن السني.

2) رواه ابن السني.

3) رواه مسلم.

4) رواه أبو داود.

وكان يتذكر في كل نعمة المنعم بها، بل يسبق ذكر المنعم النعمة:

فقد كان ﷺ يذكر نعمة الصورة، ويحمد الله المصور، فكان إذا نظر في المرآة قال:(الحمد لله، اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي)(1)

وكان ﷺ يأمر بحمد نعمة العافية إذا رؤي المبتلون، قال ﷺ:(من رأى مبتلى فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا، لم يصبه ذلك البلاء)(2)

فإذا حضر الطعام حمد الله على نعمة الطعام، فقد كان ﷺ إذا فرغ من طعامه قال:(اللهم أطعمت وسقيت وأغنيت وأقنيت وهديت وأحسنت، فلك الحمد على ما أعطيت)، وكان يقول:(الحمد لله الذي من علينا وهدانا، والذي أشبعنا وأروانا، وكل الإحسان آتانا)(3)

فإذا رزق الثوب الجديد حمد الله على هذا الرزق، قال ﷺ:(من لبس ثوبا جديدا فقال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الذي أخلق فتصدق به، كان في حفظ الله، وفي كنف الله عز وجل، وفي ستر الله حيا وميتا)(4)

بل كان ﷺ يتعامل مع هذا الجديد معاملة خاصة دالة على مبلغ الشعور بالنعمة، فقد كان إذا استجد ثوبا سماه باسمه عمامة أو قميصا أو رداء ثم يقول:(اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له)(5)

---

1) رواه ابن السني.

2) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

3) رواه ابن السني.

4) رواه الترمذي.

5) رواه أبو داود (4020) والترمذي (1767)

وفي حديث آخر يجمع بين الحمد والتبري من الحول والقوة ليخلص الحمد بذلك لله تعالى، قال ﷺ:(من لبس ثوبا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه)(1)

فإذا رجع إلى بيته كان أول ما يقول:(الحمد لله الذي كفاني وآواني، والحمد لله الذي أطعمني وسقاني، والحمد لله الذي من علي، أسألك أن تجيرني من النار)(2)

فإذا عبد الله حمد الله على نعمة التوفيق، فقد كان ﷺ إذا أفطر قال:(الحمد لله الذي أعانني فصمت، ورزقني فأفطرت)(3)

بل امتد حمد الله في الأذكار الشرعية حتى شمل نعمة الخلاء، فقد كان ﷺ إذا خرج من الخلاء قال:(الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في قوته، ودفع عني أذاه)، وفي ذكر آخر قال ﷺ:(غفرانك، الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني)(4)

وبما أن الأحوال لا نهاية لها، ولا يمكن إحصاؤها، فقد ورد الأمر بحمد لله في كل الأحوال، واعتبار العمل الخالي من الحمد ممحوق البركة، قال ﷺ:(كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أقطع)(5)

بالإضافة إلى كل هذا وردت الأذكار الكثيرة في حمد الله مقرونة بالنعم أو مطلقة لتشمل كل النعم، وورد الجزاء الجليل عليها، قال ﷺ:(لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس)، وأخبر ﷺ

---

1) رواه ابن السني (272)، وقال الحافظ ابن حجر: إسناد الحديث حسن.

2) رواه ابن السني.

3) رواه ابن السني.

4) رواه أبو داود (30)، والترمذي (7)، وابن ماجه (300)

5) الأربعين للحافظ عبد القادر الرهاوي.

أن:(أحب الكلام إلى الله تعالى أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت)(1)

ووردت هذه الأذكار مقرونة بالأعداد الضخمة كبديل عن الإحصاء المعجز، عن جويرية أم المؤمنين، أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة فيه، فقال:(ما زلت اليوم على الحالة التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم، فقال النبي ﷺ: لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته)(2)

وهكذا نجد الأدعية الكثيرة الواردة عن ورثة النبي ﷺ من أهل بيته الطيبين الطاهرين الذين تركوا لنا الكثير من الأدعية والمناجيات التي تساهم في تعليم الشكر، ومنها مناجاة الشاكرين المروية عن الإمام السجاد، والتي يقول فيها: (إلهي أذهلني عن إقامة شكرك تتابع طولك، وأعجزني عن إحصآء ثنآئك فيض فضلك، وشغلني عن ذكر محامدك ترادف عوآئدك، وأعياني عن نشر عوارفك توالي أيديك، وهذا مقام من اعترف بسبوغ النعمآء، وقابلها بالتقصير، وشهد على نفسه بالإهمال والتضييع، وأنت الرؤوف الرحيم البر الكريم، الذي لا يخيب قاصديه، ولا يطرد عن فنآئه آمليه، بساحتك تحط رحال الراجين، وبعرصتك تقف آمال المسترفدين، فلا تقابل آمالنا بالتخييب والإياس، ولا تلبسنا سربال القنوط والإبلاس)

ويقول فيها: (إلهي تصاغر عند تعاظم آلائك شكري، وتضاءل في جنب إكرامك إياي ثنآئي ونشري، جللتني نعمك من أنوار الإيمان حللا، وضربت علي لطآئف برك من العز كللا، وقلدتني منك قلائد لا تحل، وطوقتني أطواقا لا تفل، فآلاؤك جمة ضعف لساني عن إحصائها، ونعمآؤك كثيرة قصر فهمي عن إدراكها فضلا عن استقصآئها، فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إياك يفتقر إلى شكر، فكلما قلت: لك الحمد، وجب

1) رواه مسلم.

2) رواه مسلم.

علي لذلك أن أقول: لك الحمد)

ويقول فيها: (إلهي فكما غذيتنا بلطفك، وربيتنا بصنعك، فتمم علينا سوابغ النعم، وادفع عنا مكاره النقم، وآتنا من حظوظ الدارين أرفعها وأجلها عاجلا وآجلا، ولك الحمد على حسن بلائك وسبوغ نعمآئك حمدا يوافق رضاك، ويمتري العظيم من برك ونداك، يا عظيم يا كريم، برحمتك يا أرحم الراحمين)

3 ـ عبودية الصبر

وهي من أهم العبادات التي تتعلق التربية الصحية للأولاد بها، ولذلك ورد في موعظة لقمان ﵇ لابنه قوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان:17)

فقد ختم الله بالأمر بالصبر جملة من العبادات التي لا يستقيم دين المرء إلا بها، وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى على لسان لقمان ﵇: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (لقمان:17)، وفي ذلك دلالة على افتقار كلا العبادتين إلى الصبر.

انطلاقا من الأهمية العظمى للتربية على الصبر نحاول هنا أن نذكر أهم ما يتعلق به من أحكام وثمرات وطرق تربوية ترسخ حقيقته في نفوس الأولاد، فقد وصف الله الصابرين بأوصاف وخصّهم بخصائص لم تكن لغيرهم،وذكر الصبر في نحو تسعين موضعاً من الكتاب الكريم، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له.

وقد اتفق العلماء على أن أصل الصبر واجب، لأنه لا يستقيم التعامل التعبدي مع الله بدون الصبر، ويدل على هذا الوجوب أدلة كثيرة.

منها ورود النصوص بصيغة الأمر الجازم، وهي تفيد الوجوب، كما قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة:45)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:200)

ومنها ورود النصوص بالنهي عن ضد الصبر من الاستعجال والضجر والجزع وغيرها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (الاحقاف:35)، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ (لأنفال:15)، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد:33)، بل إن النصوص الآمرة بالالتزام بطاعة الله تعالى هي في حقيقتها آمرة بالصبر لافتقار الصبر للثبات على الالتزام.

ومنها أن الله تعالى حكم بالخسران على من لم يكن من أهل الصبر فقال تعالى أولا: ﴿ إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (العصر: 2)، ثم استثنى أصحاب الصفات التالية: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:3)، ومثل ذلك تخصيص الله تعالى أصحاب اليمين بأنهم أهل الصبر والمرحمة فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد:17)

ومنها اقتران الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان والإحسان، وهي كلها من الفرائض، وفي ذلك دليل على اقترانه معها في حكم الوجب، ومن ذلك:

1 ـ اقتران الصبر بالصلاة كما قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة:45)

2 ـ اقتران الصبر بالأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (هود:11)

3 ـ اقتران الصبر بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:90)

4 ـ اقتران الصبر بالتواصي بالحق، كما قال تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:3)

5 ـ اقتران الصبر بالرحمة، كما قال تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا

بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد:17)

6 ـ اقتران الصبر باليقين، كما قال تعـالى: ﴿ وَجَعَلْنَـا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَـا يُوقِنُـونَ﴾ (السـجدة: 24)

7 ـ اقتران الصبر بكثير من أعمال البر، كما قال تعـالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْـلِمِينَ وَالْمُسْـلِمَاتِ وَالْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ وَالْقَـانِتِينَ وَالْقَانِتَـاتِ وَالصَّـادِقِينَ وَالصَّـادِقَاتِ وَالصَّـابِرِينَ وَالصَّـابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَـدِّقِينَ وَالْمُتَصَـدِّقَاتِ وَالصَّـائِمِينَ وَالصَّـائِمَاتِ وَالْحَـافِظِينَ فُـرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَـاتِ وَالـذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (الأحـزاب: 35)، وقال تعالى: ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَـانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران:17)

ومـع هـذه الأدلـة الكثـيرة وغيرهـا، فـإن الصـبر قـد يكـون مستحبا في بعض الأحوال، وذلك فيما لـو كـان الصـبر عن أمـر مسـتحب، وممـا يـدل على ذلـك قولـه تعـالى: ﴿ وَإِنْ عَـاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِـهِ وَلَئِنْ صَـبَرْتُمْ لَهُـوَ خَيْـرٌ لِلصَّـابِرِينَ﴾ (النحـل:126)، في هـذه الآيـة تخيـير للمـؤمن بين عقوبـة من ظلمه، كما قال تعالى في الايـة الأخـرى: ﴿ فَمَنِ اعْتَـدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَـدُوا عَلَيْـهِ بِمِثْـلِ مَـا اعْتَـدَى عَلَيْكُمْ ﴾ (البقـرة:194)، وبين الصبر مع اعتباره هـو الأفضـل، ولـذلك وصـفه بالخيريـة وعقب عليها بقوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل:127)

بناء على هذا فإن تمرين الأولاد على الصبر لله وبالله، كما قال تعـالى: ﴿ وَاصْـبِرْ وَمَـا صَـبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (النحـل:127) لـه تـــأثيره الـــتربوي الكبـــير على ســـلوكه الـــروحي والأخلاقي والاجتماعي، لأن كل ذلك يفتقر إلى الصبر في تحقيقه.

ولهذا اعتـبر تعـالى الصـبر من وسـائل التزكيـة مثلـه مثـل الصلاة، فقال: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة:45)

وأخبر تعالى أن تأييده لعباده على أنفسهم أو على عدوهم

مرتبط بمـدى صـدق صـبرهم، فقـال: ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُـوا وَيَــأْتُوكُمْ مِنْ فَــوْرِهِمْ هَــذَا يُمْــدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَــةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَـةُ مُسَــوِّمِينَ﴾ (آل عمــران:125)، وقــال ﷺ:(واعلم أن النصر مع الصبر)(1)

وأخبر تعالى أن كيد أعدائهم مهما كـان نوعـه ومهمـا كـان موضوعه مرتبط بالصبر، فقال تعـالى: ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُـوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَـا يَعْمَلُـونَ مُحِيـطٌ﴾ (آل عمـران: 120)

وسـنذكر هنـا بعض ثمـرات الصـبر العمليـة في السـلوك الروحي، الذي هو أساس كـل سـلوك وروحـه ومنطلقـه، وذلـك لأن أداء جميع الطاعات، والانتهاء عن جميع المعاصي يفتقر إلى الصبر ابتداء ودواما، كما قال تعالى في أهل العلم الذين علمـوا قـومهم المفتـونين بقـارون: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَـوَابُ اللَّهِ خَيْـرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (القصص:80)، وكما قال عند الأمر بالدفع بالتي هي أحسن: ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: 35)

وهذ يشير إلى صعوبة السلوك وشدته، وذلـك ــ كمـا يعـبر الغــزالي ـــ لأن النفس بطبعهــا تنفــر عن العبوديــة وتشــتهي الربوبـــية، كمـــا قـــال بعض العـــارفين:(مـــا من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله: ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى ﴾ ولكن فرعــون وجــد لــه مجــالاً وقبــولاً فــأظهره إذ اســتخف قومــه فأطاعوه)(2)

ولــذلك فــإن العبوديــة شــاقة على النفس مطلقــاً، ســواء بسبب الكسل كالصـلاة، أو بسـبب البخـل كالزكـاة، أو بسـببهما جميعـاً كـالحج والجهـاد، ولـذلك كـان الصـبر على الالـتزام على الطاعة نوعا من أنواع الصبر على الشدائد.

فقبل الطاعة، يحتـاج المطيـع إلى تصـحيح النيـة والإخلاص

---

1) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

2) إحياء علوم الدين: 4/70.

والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات وعقد العزم على الإخلاص والوفاء. وذلك كله من الصبر الشديد لكثرة آفات الرياء وعظم مكائد النفس، ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى: إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (هود:11)

وحال الطاعة يحتاج المطيع إلى الصبر كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهو أيضاً من شدائد الصبر، وإليه الإشارة بقوله تعالى: نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (العنكبوت:58 ـ 59)

وبعد الفراغ من العمل، يحتاج المطيع إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى (البقرة:264)، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله، ولهذا قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (محمد:33)

ومثل حاجة الطاعات إلى الصبر وافتقارها إليه وكونه ركنا من أركانها، فإن المعاصي كذلك تفتقر إلى الصبر، بل إن أشد أنواع الصبر ـ كما يذكر الغزالي ـ هي الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة (فإن العادة طبيعة خامسة، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها)[1]

والصبر ــ زيادة على هذا التأثير السلوكي ــ هو العلاج الرباني لكل ما يهجم على الإنسان من صروف البلاء التي هي من ضرورات تكليفه واختباره لتمحيص معدنه:

فهو العلاج الذي يواجه به أذى الخلق، وهو ما نص عليه قوله تعالى في جواب المؤمنين لمن آذاهم: وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى

1) إحياء علوم الدين: 4/71.

مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (ابـراهيم:12)، وهـو توجيه الله لرسـول اللـه ﷺ وللثلـة المؤمنـة في الـوقت الـذي اجتمعت عليهم صـنوف الأعـداء، كمـا قـال تعـالى: ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَـافِرِينَ وَالْمُنَـافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (الأحزاب: 48)، وقال تعالى: ﴿ وَاصْـبِرْ عَلَى مَـا يَقُولُـونَ وَاهْجُـرْهُمْ هَجْـراً جَمِيلاً﴾ (المزمـل: 10)، وقـال تعـالى: ﴿ وَلَقَـدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُـونَ فَسَـبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (الحجر:97 ـ 98)، فأرشد إلى مقابلـة الأذى بعبـادة الله لا بمواجهته، وقال تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْـوَالِكُمْ وَأَنْفُسِـكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُـوا فَـإِنَّ ذَلِـكَ مِنْ عَـزْمِ الْأُمُـورِ﴾ (آل عمـران:186)، وقـال تعـالى: ﴿ وَإِنْ عَـاقَبْتُمْ فَعَـاقِبُوا بِمِثْـلِ مَـا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل:126)

وهو العلاج لحر المصائب التي تنزل على الإنسان من غـير اختياره ولا اختيار أحد من الخلق، لأنه نوع من مواجهة المقادير الإلهية من غير ضجر ولا جزع، قال الغزالي:(فـإن قلت: فبمـاذا تنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمـر إلى اختيـاره؟ فهـو مضطر شاء أم أبى، فإن كان المراد به أن لا يتكـون في نفسـه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في اختيار فاعلم أنه إنما يخرج عن مقـام الصـابرين بـالجزع وشـق الجيـوب وضـرب الخـدود والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيـير العادة في الملبس والمفرش والمطعم، وهذه الأمـور داخلـة تحت اختيـاره فينبغي أن يجتنب جميعهـا ويظهـر الرضـا بقضـاء اللـه تعـالى ويبقى مستمرّاً على عادته، ويعتقد أنّ ذلك كان وديعة فاسترجعت)[1]

فالصبر بذلك هو الحصن الذي يحتمي بـه المـؤمن من كـل الأمراض النفسية التي تسببها أنواع البلاء.

وعطاء الصبر النفسـي لا يتوقـف عنـد هـذا الحـد، بـل هـو العلاج النفسي لكل النواحي الفطريـة الـتي قـد لا تتناسـب مـع كمال الإنسان وسيره السلوكي:

فهو علاج الاستعجال الـذي هـو فطـرة بشـرية، كمـا قـال

1) إحياء علوم الدين: 4/73.

تعالى: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (الانبياء:37)، وهذا العلاج له أهميته الكبرى في جميع ميادين الحياة، فلا يمكن أن يقوم المستعجل بأي عمل كامل صحيح.

وهو علاج الغضب، ولذلك لما خرج يونس ﷺ مغاضباً قومه ابتلاه الله بالحوت، فتعلم الصبر في بطن الحوت، قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (القلم:48)

وهو علاج اليأس، لأن اليائس يستعجل حصول الثمرة، ولذلك حذر يعقوب ﷺ أولاده من اليأس، فقال: ﴿ يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف:87)

وهو مع معجون الشكر علاج عمى القلوب عن إدراك الحقائق، ولهذا ورد في أربع مواضع في القرآن الكريم الإخبار بأنه لا ينتفع بالآيات إلا أهل الصبر والشكر، لأن الإيمان نصفان: صبر وشكر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (ابراهيم:5)، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (لقمان:31)، وقال تعالى: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ:19)، وقال تعالى: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (الشورى:33)

وكل ما ذكرنا من ثمار الصبر هي غيض من فيض، فثمرات الصبر التربوية كأجره لا حساب ولا عد لها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر:10)، فهما أجران أخروي لا نعلم مقداره، ودنيوي بالثمرات التربوية الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى.

ولذلك جعل الله تعالى الصبر من صفات أئمة الهدى، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا

يُوقِنُونَ (السجدة:24)

بل هو من صفات أولي العزم من الرسل الذين هم قادة الخلق، قال تعالى: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ (الاحقاف:35)

والصبر كغيره من العبادات الروحية من الأمور الكسبية التي يمكن للمكلف أن يؤديها ويتخلق بها، لأن الله تعالى لا يكلفنا بمستحيل لا تستطيعه فطرتنا، وإلا كان ذلك التكليف عبثا، ولهذا ورد في السنة ما يفيد إمكانية التحقق بالصبر، قال ﷺ:(ومن يتصبّر يصبّره الله)(1)، وهو بذلك كسائر الأخلاق كما قال ﷺ في بقية الحديث:(ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، وما أعطي عبد عطاء هو خير وأوسع من الصبر)

وسنذكر هنا بعض المعارف التي لها تأثيرها الكبير في التحقق بهذه العبادة العظيمة:

معرفة حقيقة وظيفة الإنسان في هذه الدنيا:

وهذه هي المعرفة الأساسية التي تضع الإنسان في محله الحقيقي في هذا الكون، وبالتالي تبرر سلوكياته فيه، وهي مثل تعرف العامل في المنجم على طبيعة وظيفته التي تقتضي وجوده في ذلك الجو.

ولهذا يعرفنا القرآن الكريم دائما بحقيقة هذه الحياة الدنيا وأنواع الكبد والكدح الذي يعانيه الإنسان فيها وما جُبِلت عليه من المشقة والعناء لتكون هذه المعارف زادا لصبرنا على ما فيها من المشاق، كما قال الشاعر:

*جبلت على كدرٍ وأنت تريدها= صفو من الآلام والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها = متطلب في الماء جذوة نار*

فغاية وجود الإنسان في هذه الدنيا هي الكدح إلى أن

(1) رواه الحكيم الترمذي.

يلاقي ربه، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ (الانشقاق:6)، بل إن الله تعالى عبر عن هذا الكبد[1] بصيغة الظرفية، فقال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد:4)

وقد ذكر سيد قطب بعض مظاهر الكبد التي يعانيها الإنسان في هذه الحياة منذ مجيئه إليها إلى خروجه منها، فقال: (.. فالخلية الأولى لا تستقر في الرحم حتى تبدأ في الكبد والكدح والنصب لتوفر لنفسها الظروف الملائمة للحياة والغذاء - بإذن ربها - وما تزال كذلك حتى تنتهي إلى المخرج، فتذوق من المخاض - إلى جانب ما تذوقه الوالدة - ما تذوق، وما يكاد الجنين يرى النور حتى يكون قد ضغط ودفع حتى كاد يختنق في مخرجه من الرحم.. ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجهد الأشق والكبد الأمر. يبدأ الجنين ليتنفس هذا الهواء الذي لا عهد له به، ويفتح فمه ورئتيه لأول مرة ليشهق ويزفر في صراخ يشي بمشقة البداية! وتبدأ دورته الهضمية ودورته الدموية في العمل على غير عادة! ويعاني في إخراج الفضلات حتى يروض أمعاءه على هذا العمل الجديد! وكل خطوة بعد ذلك كبد، وكل حركة بعد ذلك كبد. والذي يلاحظ الوليد عندما يهم بالحبو وعندما يهم بالمشي يدرك كم يبذل من الجهد العنيف للقيام بهذه الحركة الساذجة.. وعند بروز الأسنان كبد. وعند انتصاب القامة كبد. وعند الخطو الثابت كبد. وعند التعلم كبد. وعند التفكر كبد. وفي كل تجربة جديدة كبد كتجربة الحبو والمشي سواء! ثم تفترق الطرق، وتتنوع المشاق ؛ هذا يكدح بعضلاته. وهذا يكدح بفكره. وهذا يكدح بروحه. وهذا يكدح للقمة العيش وخرقة الكساء. وهذا يكدح ليجعل الألف ألفين وعشرة آلاف... وهذا يكدح لملك أو جاه، وهذا يكدح في سبيل الله. وهذا يكدح لشهوة ونزوة. وهذا يكدح لعقيدة ودعوة. وهذا يكدح إلى النار. وهذا يكدح إلى الجنة.. والكل يحمل حمله ويصعد الطريق كادحا إلى ربه فيلقاه! وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء.

---

[1]) أصل الكبد من قولك: كبد الرجل كبداً فهو كبد إذا وجعت كبده وانتفخت، فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة، ومنه اشتقت المكابدة وأصله كبده إذا أصاب كبده.

وتكون الراحة الكبرى للسعداء) (1)

ثم ختم ذلك بقوله:(إنه الكبد طبيعة الحياة الدنيا تختلف أشكاله وأسبابه، ولكنه هو الكبد في النهاية. فأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشق الأمر في الأخرى. وأفلح الفالحين من يكدح في الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تنهي عنه كبد الحياة، وتنتهي به إلى الراحة الكبرى في ظلال الله)(2)

بل إن الفخر الرازي في تعليقه على هذه الآية ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد:4) ينفي وجود اللذة أصلا، لأن الدنيا طبعت على الآلام، قال:(وعندي فيه وجه آخر، وهو أنه ليس في هذه الدنيا لذة البتة، بل ذاك الذي يظن أنه لذة فهو خلاص عن الألم، فإن ما يتخيل من اللذة عند الأكل فهو خلاص عند ألم الجوع، وما يتخيل من اللذات عند اللبس فهو خلاص عن ألم الحر والبرد، فليس للإنسان، إلا ألم أو خلاص عن ألم وانتقال إلى آخر، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿: ﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد:4))(3)

بل إن الفخر الرازي عرج من هذا إلى الاستدلال على البعث، فقال:(ويظهر منه أنه لا بد للإنسان من البعث والقيامة، لأن الحكيم الذي دبر خلقة الإنسان إن كان مطلوبه منه أن يتألم، فهذا لا يليق بالرحمة، وإن كان مطلوبه أن لا يتألم ولا يلتذ، ففي تركه على العدم كفاية في هذا المطلوب، وإن كان مطلوبه أن يلتذ، فقد بينا أنه ليس في هذه الحياة لذة، وأنه خلق الإنسان في هذه الدنيا في كبد ومشقة ومحنة، فإذا لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى، لتكون تلك الدار دار السعادات واللذات والكرمات)

وهذا هو الفهم الإسلامي الأصيل لحقيقة الدنيا وحقيقة

---

1) في ظلال القرآن: 6/3910.

2) في ظلال القرآن: 6/3910.

3) التفسير الكبير: 31/167.

تعامل الإنسان معها لا الذي يعتبر الكبد مبررا لجمع أكبر قدر من اللذات الوهمية، لأن اللذات الوهمية تظل وهمية ولو جمع منها ما لا طاقة للجبال بحمله.

معرفة جزاء الصبر:

انطلاقا من المعرفة السابقة فإن اللبيب هو الذي يستثمر فيما لا بد له منه، فيغنم أكبر الغنائم من غير أن يخسر شيئا، فما دام الكبد وصفا لازما للدنيا يستوي فيه السعيد والشقي، فإنه من الشقاء استثمار هذا الكبد في غرس زرع الكبد الدائم، كما قال تعالى في وصف بعض الكادحين: ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ (الغاشية:3)، ثم عقب عليها بمصير كدحها، فقال تعالى: ﴿ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾ (الغاشية:4)

ولهذا ينهى الله تعالى المؤمنين عن التقصير في طلب العدو، ويعلل ذلك بأنهم مع عدوهم في الألم سواء، ولكنهم يمتازون عن عدوهم بما يرجون من الله من الأجر مما لا يرجوه عدوهم، قال تعالى: ﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء:104)، قال ابن كثير:(أي أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من اللّه المثوبة والنصر والتأييد كما وعدكم إياه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وهو وعد حق، وخبر صدق، وهم لا يرجون شيئاً من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم وأشد رغبة فيه، وفي إقامة كلمة اللّه وإعلائها)[1]

وبذلك تصف هذه الآية سبيلا من سبل التحقق بالصبر، بل تخفيف الصبر وتحويل ناره إلى لذة إيمانية عظيمة، يغفل صاحبها بما أعد له من أجر عما يعانيه من بلاء، كما روي عن امرأة فتح الموصلي، أنها عثرت، وانقطع ظفرها، فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه)، وقال شريح:(إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي وأحمده إذ رزقني الصبر عليها وأحمده إذ وفقني للإسترجاع لما أرجو

1) تفسير ابن كثير: 1/551.

فيه من الثواب وأحمده إذ لم يجعلها في ديني)

بل أخبر ﷺ أن أهل العافية عندما يعاينون جـزاء الصـابرين يودون لو كانت الدنيا بلاء محضا، قال ﷺ:(يود أهل العافيـة يـوم القيامـة حين يعطى أهـل البلاء الثـواب لـو أن جلـودهم كـانت قرضت في الدنيا بالمقاريض)[1]

ولا بأس أن نذكر هنا بعض أجزية الصبر مما قد يذكر للولد على سـبيل الموعظـة أو المعلومـة أو الحـوار كمـا ذكرنـا في أساليب التربية.

فالله تعالى علّق الفلاح عليه فقال تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُـوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ﴾ (آل عمران:200)، والفلاح هو الفوز الحقيقي الشامل بخيري الـدنيا والآخرة.

وأخبر تعالى أن جزاء الصبر لا حد له ولا حساب، وهو ممـا يزيد طمع المؤمنين في التخلق بـه، قـال تعـالى: ﴿ إِنَّمَـا يُـوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر:10)، أي بغير نهايـة، لأن كل شيء دخل تحت الحساب فهو متناه، فمـا لا نهايـة لـه كـان خارجاً عن الحساب.

وقد صور السلف ذلك، فقال الأوزاعي:(ليس يوزن لهم ولا يكـال، إنمـا يغـرف لهم غرفـاً)، وقـال ابن جـريج:(بلغـني أنـه لا يحسـب عليهم ثـواب عملهم قـط، ولكن يـزادون على ذلـك)، وقال سليمان بن القاسم:(كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر لأجل هذه الآية)

ومن جـزاء الصـابرين مـا ورد في قولـه تعـالى: ﴿ وَبَشِّـرِ الصَّـابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَـابَتْهُمْ مُصِـيبَةٌ قَـالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْـهِ رَاجِعُـونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَـلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة:155 ـ 157)، فقد جعـل اللـه تعـالى للصـبر في هذه الآيات ثلاثة أنواع من الجزاء كـل واحـد منهـا عـالم من عوالم الجزاء، هي الصلاة منه والرحمة والهداية.

---

[1] رواه الترمذي وقال: هذا حديث غريب.

ومن جزاء الصابرين أن ملائكته تسلّم عليهم في الجنة، قال تعالى: سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (الرعد:24)

ومن جزائهم المكانة العظيمة التي ينزلونها في الدنيا والآخرة، والتي هي أكبر من كل جاه دنيوي، قال تعالى: وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (الشورى:43)، ومما جاء في وصية لقمان الحكيم ﷷ لولده: يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (لقمان:17)

بل إن الله تعالى علّق محبته بالصبر، وجعلها لأهل الصبر، فقال تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (آل عمران:146)

وقد أخبر ﷺ عن بعض جزاء الصابرين، فبشر الذي يصبر على فقد عينيه بالجنة، فقال:(إن الله تعالى قال إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة)(1)

وبشر الصابر على فقد صفيّه من أهل الدنيا بالجنة، فقال: (ومالعبد مؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة)(2)

ولما مرضت الأمة السوداء بالصرع جاءت تشتكي للنبي ﷺ فقالت: إني أُصرع وإني أتكشف فادعُ الله لي، قال:(إن شئتِ صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيكِ)، فقالت:(أصبر ولكن ادع الله لي ألا أتكشف)، فدعا لها فكانت تصرع ولا تتكشف(3).

الثقة بحصول الفرج:

---

1) رواه البخاري.

2) رواه البخاري.

3) رواه البخاري ومسلم.

وهو من أهم الأدوية، ويدل على حسن الظن بالله، فإن الله تعالى برحمته جعل مع كل عسر يسرين، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ (الشرح: 5 ـ 6)، فعرف العسر بـ [أل] ليبقى هو نفسه، ونكر اليسر دلالة على أنه يسر ثان، لأن من عادة العرب إذا ذكروا اسما معرفا ثم كرروه، فهو هو، وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره، وهما اثنان[1].

ولهذا قال ابن عباس :(يقول اللّه تعالى خلقت عسرا واحدا، وخلقت يسرين، ولن يغلب عسر يسرين)، وقال ابن مسعود :(والذي نفسي بيده، لو كان العسر في حجر، لطلبه اليسر حتى يدخل عليه؛ ولن يغلب عسر يسرين)، بل ورد في الحديث عن النبي ﷺ في هذه السورة قوله:(لن يغلب عسر يسرين)[2]

وأساس انتظار الفرج هو الشعور بقرب الله ورحمته، والتفكر في فضله ورأفته والذي يجر إلى إحسان الظن به، كما قال الشاعر:

أحسن الظن ... حسنا أمس وسوى

إن ربا كان ... كان بالأمس

وقد اعتبر ﷺ انتظار الفرج عبادة، فقال:(أفضل العبادة انتظار الفرج)[3]

قال الحكيم الترمذي مبينا سر اعتبار انتظارالفرج عبادة: (لأن في انتظار الفرج قطع العلائق والأسباب إلى الله تعالى وتعلق القلب به وشخوص الأمل إليه والتبري من الحول والقوة فهذا خالص الإيمان)[4]

قصص الصابرين:

---

1) هذا قول ثعلب، وقد خالفه آخرون منهم الجرجاني، انظر: القرطبي: 20/108.

2) رواه الحاكم عن.

3) رواه الديلمي.

4) نوادر الأصول: 2/221.

لأن الله تعالى جعل من قصص الصالحين حاديا يسوق عباده الصالحين إلى سبيله، ولذلك كلما استكثر المربي من هذا النوع من القصص التربوي كان ينشر القيم النبيلة في نفس الولد، ويعمق فيه معاني الحقائق التي تنطوي عليها هذه العبادات العظيمة.

ولهذا يرد في القرآن الكريم ذكر نماذج الصابرين من أولي العزم من الرسل، فهذا نوح ﵇ صبر في دعوته لقومه صبراً عظيماً دام ألف سنة إلا خمسين عاماً، صبر على الجهاد والدعوة، وصبر على الإيذاء والسخرية، اتهموه بالجنون والسحر والضلال، وهو يقابل كل ذلك بالصبر.

وهذا إبراهيم ﵇ يتعرض للمحن العظيمة، فيصبر صبر الموحد الموقن بوعد الله، حتى أنه لما ألقي في النار لم يتأفف ولم يضطرب، بل صاح قائلا:(حسبي الله ونعم الوكيل)، بل إنه لما أُمِر بذبح ولده صبر وهمّ بذبح الولد، وأخذ السكين وأضجع الولد استسلاماً لأمر الله، ولهذا مدحه الله تعالى وجعله للناس إماما، فقال: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ (البقرة:124)

وهذا موسى ﵇ يواجه التهديد والإيذاء من قومه وقوم فرعون قبلهم، فيصبر على ذلك جميعا، ولهذا كان ﷺ يذكره في مواقف البلاء التي تعرض له، فيقول:(رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر)

وهذا عيسى ﵇ يعانى من بني إسرائيل ما يعاني، حتى تآمروا على قتله وصلبه وصبر حتى رفعه الله إليه.

وهذا خاتم الأنبياء ﷺ يتعرض للأذى والاضطهاد، بكل صنوفه وأنواع، فلا يضطرب ولا يتأثر، ولا تنهد عزيمته بل ينقى سائرا في طريق الله إلى أن نصره الله على أعدائه وبلغ ما كلف به من الراسلة أتم بلاغ وأحسنه.

وعلى هدي رسول الله ﷺ سار ورثة النبوة ومن بعدهم وفي قصصهم جميعا عبرة لأولي الألباب، فيستكثر منها المربي قدر ما أطاق، فهي جند الله الذي يعمل عمله في إصلاح

القلوب.

ثانيا: عبادات الجوارح

نريد بعبادات الجوارح: العبادات التي نصت عليها أحكام الشريعة، ويشير إليها قول لقمان ﷺ لابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان:17)، فقد أمر لقمان ﷺ ابنه بإقامة الصلاة، وهي من أهم عبادات الجوارح.

ولهذه العبادات تأثيرها الخطير في الحياة الروحية للصبي، بل في تكوين شخصيته بجميع جوانبها.

فحرصه على الصلاة مثلا في مواقيتها ـ زيادة على معانيها الروحية العظيمة ـ يدربه على النظام والنظافة والاستقامة، فإن صلاها في جماعة كان لذلك أبعاد اجتماعية بالإضافة إلى الأبعاد النفسية، ولهذا اعتبر القرآن الكريم الصلاة من الوسائل التي يستعان بها على التربية، فقال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة:45)، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:153)

بل نص القرآن الكريم على أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي تعبير قرآني شامل لكل الرذائل النفسية والاجتماعية، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت:45)

وهذه الآية تخبر عن هدف مهم من أهداف الصلاة، وهو نفسه هدف جميع عبادات الجوارح، وهو تزكية لنفس وتطهيرها من الرذائل التي تخرجها عن حقيقتها الإنسانية.

وقد ذكر العلماء وجوها من العلل التي تجعل الصلاة ناهية صاحبها عن الفحشاء والمنكر، ومن أجمل ما قيل في ذلك ما ذكره الفخر الرازي من وجوه تبين أهمية الصلاة ودورها النفسي والاجتماعي الدنيوي والأخروي، ومن الوجوه التي ذكرها:

1. أن من كـان يخـدم ملكـاً عظيم الشـأن كثـير الإحسـان ويكون عنده بمنزلة، ويرى عبـداً من عبـاده قـد طـرده طـرداً لا يتصور قبوله، وفاته الخبر بحيث لا يرجى حصـوله، يسـتحيل من ذلك المقرب عرفاً أن يترك خدمة الملك ويدخل في طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد إذا صلى للـه صـار عبـداً لـه، وحصـل لـه منزلة المصلي يناجي ربه، فيستحيل منـه أن يـترك عبـادة اللـه ويدخل تحت طاعة الشيطان المطـرود، لكن مـرتكب الفحشـاء والمنكــر تحت طاعــة الشــيطان فالصــلاة تنهي عن الفحشــاء والمنكر.

2. أن من يباشـر القـاذورات كالزبـال والكنـاس يكـون لـه لباس نظيف إذا لبسه لا يباشر معه القاذورات وكلما كـان ثوبـه أرفع يكون امتناعه وهـو لابسـه عن القـاذورات أكـثر فـإذا لبس واحد منهم ثوب ديباج يستحيل منه مباشرة تلك الأشـياء عرفـاً، فكذلك العبد إذا صلى لبس لباس التقـوى لأنـه واقـف بين يـدي الله واضع يمينه على شماله؛ على هيئـة من يقـف بمـرأى ملـك ذي هيبـة، ولبـاس التقـوى خـير لبـاس يكـون نسـبته إلى القلب أعلى من نسـبة الـديباج المـذهب إلى الجسـم، فـإذن من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشـرة قـاذورات الفحشـاء والمنكـر. ثم إن الصلوات متكررة واحــدة بعـد واحـدة فيـدوم هـذا اللبس فيدوم الامتناع.

3. أن من يكون أمـير نفسـه يجلس حيث يريـد فـإذا دخـل في خدمة ملك وأعطاه منصباً له مقام خـاص لا يجلس صـاحب ذلك المنصب إلا في ذلك الموضع، فلو أراد أن يجلس في صف النعال لا يترك فكذلك العبد إذا صلى دخـل في طاعـة اللـه ولم يبـق بحكم نفسـه وصـار لـه مقـام معين، إذ صـار من أصـحاب اليمين، فلو أراد أن يقف في غير موضعه وهـو موقـف أصـحاب الشمال لا يـترك، لكن مـرتكب الفحشـاء والمنكـر من أصـحاب الشمال وهـذا الوجـه إشـارة إلى عصـمة اللـه يعـني من صـلى عصمه الله عن الفحشاء والمنكر.

4. أن من يكـون بعيـداً عن الملـك لا يبـالي بمـا فعـل من الأفعال يأكل ما يشاء ويجلس أين يشاء، فـإذا صـارت لـه قربـة

يسيرة من الملك، فإنها تمنعه من تعاطي ما كان يفعله، فإذا زادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميراً حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الأكل في ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان، كذلك العبد إذا صلى وسجد صار له قربة ما لقوله تعالى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ (العلق: 19) فإذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصي والمناهي، فبتكرر الصلاة والسجود تزداد مكانته، حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر فضلاً عن الكبائر(1).

ومثل ذلك الصوم، فقد جعل الله تعالى من حكم الصوم الوصول إلى التقوى، وهي التعبير الشرعي عن كل الكمالات الخلقية والنفسية، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 183)

وهكذا جميع العبادات.

انطلاقا من هذا، سنقتصر في هذا المبحث على أهم الأحكام الفقهية التي ذكرها الفقهاء مما يرتبط بالجوانب التعبدية للأولاد.

1 ـ إسلام الصبي

يتحقق إسلام الصبي بأحد سببين، كلها مما وقع فيه خلاف الفقهاء، أحدهما: إسلامه هو لتعقله الإسلام، والثاني: تبعيته لإسلام أحد أبويه، أو تبعا لدار الإسلام، وذلك في حال موت أحد أبويه أو كليهما، وسنفصل الأحكام المرتبطة بهذين السببين فيما يلي:

التمييز:

اختلف الفقهاء في صحة إسلام الصبي إذا أسلم قبل بلوغه على قولين:

القول الأول: أن الصبي يصح إسلامه في الجملة، وهو

(1) انظر: الفخر الرازي: 25/64.

قــول أبي حنيفــة، وصــاحبيه، وإســحاق، وابن أبي شــيبة، وأبي أيوب، وقول الإمامية، ومن الأدلة على ذلك:

1. عموم قوله ﷺ:(من قـال: لا إلـه إلا اللـه دخـل الجنـة)، وقوله ﷺ:(أمرت أن أقاتل النـاس حـتى يقولـوا: لا إلـه إلا اللـه، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقهـا، وحسـابهم على الله)[1]، وهذه الأخبار يدخل في عمومها الصبي.

2. عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ:(كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فـإذا أعـرب عنـه لسـانه، فإمـا شاكرا وإما كفورا)[2]

3. مـا صـح أن رسـول اللـه ﷺ عـرض الإسـلام على ابن صـياد، وقـد كـان صـغيرا، فعن ابن عمـر : أن عمـر انطلـق مـع رسول الله ﷺ في رهط من أصحابه قبل ابن صياد حـتى وجـده يلعب مع الصبيان عنـد أطم بـني مغالـة، وقـد قـارب ابن صـياد يومئذ الحلم فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهـره بيـده، ثم قال رسول الله ﷺ لابن صياد: أتشهد أني رسول الله؟ فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهد أنك رسول الأميين، فقال ابن صـياد لرسول الله ﷺ: أتشهد أني رسول الله فرفصه رسـول اللـه ﷺ وقال:(آمنت بالله وبرسله)، وذكر الحديث[3].

4. أن عليا أسلم صبيا، وقـال:(سـبقتكم إلى الإسـلام طـرا صبيا ما بلغت أوان حلم)

5. أن الله تعالى دعا عباده إلى دار السلام، وجعل طريقها الإسلام، وجعل من لم يجب دعوته في الجحيم والعـذاب الأليم، فلا يجـوز منـع الصـبي من إجابـة دعـوة اللـه، مـع إجابتـه إليهـا، وسلوكه طريقها، ولا إلزامـه بعـذاب اللـه، والحكم عليـه بالنـار، وسد طريق النجاة عليه مع هربه منها.

---

1) رواه الشافعي والبيهقي.

2) رواه أحمد.

3) رواه البخاري ومسلم.

6. أن الإسلام عبادة محضة، فصحت من الصبي العاقل، كالصلاة والحج.

7. أن قول النبي ﷺ:(رفع القلم عن ثلاث)[1] لا حجة للمخالفين فيه، لأن هذا يقتضي أن لا يكتب عليه ذلك، والإسلام يكتب له لا عليه، ويسعد به في الدنيا والآخرة، فهو كالصلاة تصح منه وتكتب له وإن لم تجب عليه، وكذلك غيرها من العبادات المحضة.

8. أن القلم مرفوع عن الصبي في الفروع الشرعية فأما في الأصول العقلية فممنوع، ووجوب الإيمان من الأحكام العقلية، فيجب على كل عاقل.

القول الثاني: لا يصح إسلامه حتى يبلغ، وهو قول الشافعي وزفر، ومن الأدلة على ذلك:

1. قوله ﷺ:(رفع القلم عن ثلاثة) ومن بينها ذكر (الصبي حتى يبلغ)

2. أنه قول تثبت به الأحكام، فلم يصح من الصبي كالهبة.

3. أنه أحد من رفع القلم عنه، فلم يصح إسلامه، كالمجنون، والنائم.

4. أن الصبي لو صح إسلامه إما أن يصح فرضا، وإما أن يصح نفلا ومعلوم أن التنفل بالإسلام محال، والفرضية بخطاب الشرع، والقلم عنه مرفوع.

5. أن صحة الإسلام من الأحكام الضارة، فإنه سبب لحرمان الميراث والنفقة، ووقوع الفرقة بين الزوجين، والصبي ليس من أهل التصرفات الضارة، ولهذا لم يصح طلاقه وعتاقه، ولم يجب عليه الصوم والصلاة، فلا يصح إسلامه.

الترجيح:

من العجيب أن تكون هذه المسألة موضع خلاف، لأن

---

[1] رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة والحاكم.

الحق فيها ظاهر، والصبي في أصل فطرته كما ورد في الحديث مسلم، فلذلك لا يزيده إقراره إلا دخولا في زمرة المسلمين.

أما المحاذير التي جعلت الفقهاء يترددون في الحكم بإسلامه، فإنها لا تساوي شيئا أمام الإسلام، فأي غنيمة من الإسلام حتى يقارن بها الخوف على ضياع ميراثه أو وجوب الزكماة في ماله.

وقد رد ابن قدامة على هذه المحاذير المتوهمة، فقال: (فإن قيل: فإن الإسلام يوجب الزكاة عليه في ماله، ونفقة قريبه المسلم، ويحرمه ميراث قريبه الكافر، ويفسخ نكاحه. قلنا: أما الزكاة فإنها نفع ؛ لأنها سبب الزيادة والنماء، وتحصين المال والثواب، وأما الميراث والنفقة، فأمر متوهم، وهو مجبور بميراثه من أقاربه المسلمين، وسقوط نفقة أقاربه الكفار، ثم إن هذا الضرر مغمور في جنب ما يحصل له من سعادة الدنيا والآخرة، وخلاصه من شقاء الدارين والخلود في الجحيم، فينزل منزلة الضرر في أكل القوت، المتضمن قوت ما يأكله، وكلفة تحريك فيه لما كان بقاؤه به لم يعد ضررا، والضرر في مسألتنا في جنب ما يحصل من النفع، أدنى من ذلك بكثير)[1]

العقل:

اتفق الفقهاء القائلون بصحة إسلام الصبي على أن من شروط صحة إسلامه أن يعقل الإسلام، أي أن يعلم على الأقل بعض المعارف الضرورية في الإسلام ككون الله تعالى ربه لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، لأن الطفل الذي لا يعقل، لا يتحقق منه اعتقاد الإسلام، وإنما كلامه لقلقة بلسانه، ولا يدل على شيء، واختلفوا في اشتراط سن معينة لتحقق هذا الشرط على قولين:

القول الأول: أن يكون له عشر سنين، وقد ذكره الخرقي، لأن النبي ﷺ أمر بضربه على الصلاة لعشر.

القول الثاني: لا يشترط في ذلك سنا معينة، بل يكفي

---

1) المغني: 9/23.

أن يعقـل الإسـلام، قـال ابن قدامـة ردا على الخـرقي:(وأمـا اشتراط العشر، فـإن أكـثر المصـححين لإسـلامه، لم يشـترطوا ذلـك، ولم يحـدوا لـه حـدا من السـنين، وحكـاه ابن المنـذر عن أحمد)، وروى عن أحمد أنه (إذا كـان ابن سـبع سـنين فإسـلامه إسلام)، وقال ابن أبي شيبة:(إذا أسـلم وهـو ابن خمس سـنين، جعل إسلامه إسـلاما)، وقـال أبـو أيـوب:(أجـيز إسـلام ابن ثلاث سـنين، من أصـاب الحـق من صـغير أو كبـير أجزنـاه)[1]، ومن الأدلة على ذلك:

1. أن المقصود متى ما حصل، لا حاجة إلى زيادة عليه.

2. أن النبي ﷺ قال:(مروهم بالصلاة لسبع)، فـدل على أن ذلك حد لأمرهم، وصحة عباداتهم، فيكون حدا لصحة إسلامهم.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسـألة هـو القـول الثـاني بنـاء على اختلاف سن التمييز بين الأولاد، فلذلك تكـون العـبرة بـالتمييز لا بالسن.

وقد قال ابن قدامة معلقا على كلام أبي أيوب الـذي أجـاز إسلام ابن ثلاث سنين:(وهذا لا يكاد يعقل الإسلام، ولا يدري مـا يقول، ولا يثبت لقوله حكم، فـإن وجـد ذلـك منـه ودلت أحوالـه وأقواله على معرفة الإسلام، وعقله إياه، صح منه كغيره)[2]

وقد رأينا في عصرنا من يحفظ الأجزاء الكثيرة من القرآن الكريم في مثل هذه السن، فلذلك تكـون العـبرة بالقـدرة على التمييز، خاصـة إذا ضـممنا ذلـك إلى قولنـا بـأن الأصـل فطريـة إسلام الصبي.

التبعية:

وهي السـبيل الثـاني من السـبل الـتي اعتـبر بهـا الفقهـاء إسلام الصبي، ولها حالتان، هما:

---

1) المغني: 9/23.

2) المغني: 9/23.

التبعية للأبوين:

اختلف الفقهاء في اعتبار إسلام الأبوين أو أحـدهما إسـلاما للصبي على الأقوال التالية:

القــول الأول: أن إســلام أحــد الأبــوين إســلام لأولاده الصغار، وهو قول الشافعي وأحمد، ومن الأدلة على ذلك:

1. أن الولد يتبع أبويه في الدين، فإن اختلفا، وجب أن يتبع المسلم منهما، كولد المسلم من الكتابية.

2. أن الإسـلام يعلـو ولا يعلى، لأنـه دين اللـه الـذي رضـيه لعبـاده، وبعث بـه رسـله دعـاة لخلقـه إليـه، ولأنـه تحصـل بـه السعادة في الـدنيا والآخـرة، ويتخلص بـه في الـدنيا من القتـل والاسترقاق وأداء الجزية، وفي الآخرة من سخط الله وعذابه.

3. أن الــدار دار الإســلام يحكم بإســلام لقيطهــا، ومن لا يعرف حاله فيها.

4. أن الأم أحد الأبوين، فيتبعها ولدها في الإسـلام، كـالأب، بـل الأم أولى بـه، لأنهـا أخص بـه، لأنـه مخلـوق منهـا حقيقـة، وتختص بحملـه ورضـاعه، ويتبعهـا في الـرق والحريـة والتـدبير والكتابة.

5. أن تخيـير الغلام الـذي اسـتدل بـه المخـالفون وارد في الحضانة لا في الدين.

واختلف هؤلاء في إقامة الحد عليه في حال إدراكـه وإبائـه الإسلام على رأيين:

الرأي الأول: يجبر عليه إذا امتنع منه بالقتـل، وهـو قـول الحنابلة، ومن الأدلة على ذلك:

1. القياس على أولاد المسلمين.

2. أنه مسلم فإذا رجع عن إسلامه، وجب قتله.

الرأي الثاني: إذا أسـلم أبـواه أو أحـدهما، وأدرك فـأبى

الإسلام، أجبر عليه، ولم يقتل، وهو قول الحنفية.

القول الثاني: إن أسلم الأب، تبعه أولاده، وإن أسـلمت الأم لم يتبعوها، وهو قول المالكية، ومن الأدلة على ذلك:

1. أن ولد الحربيين يتبع أباه دون أمه، بـدليل المولـيين إذا كان لهما ولد، كان ولاؤه لمولى أبيه دون مولى أمـه، ولـو كـان الأب عبـدا أو الأم مـولاة، فـأعتق العبـد، لجـر ولاء ولـده إلى مواليه.

2. أن الولد يشرف بشرف أبيه، وينتسـب إلى قبيلتـه دون قبيلة أمه، فوجب أن يتبع أباه في دينه أي دين كان.

القـول الثـالث: إذا بلـغ خـير بين دين أبيـه ودين أمـه، فأيهما اختاره كان على دينه، وهو قول الثوري، ومن الأدلة على ذلك حديث الغلام الذي أسلم أبوه، وأبت أمه أن تسلم، فخـيره النبي ﷺ بين أبيه وأمه.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة القول الثالث باعتبـار الإسـلام لا يتحقق إلا بالاختيار والرغبة، كما قـال تعـالى: ﴿ لا إِكْـرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾(البقرة:256)

أما في الأحكـام المرتبطـة بالـدين كـالميراث وغـيره، فإنـا نرى تبعيته لخيرهمـا دينـا في ذلـك، مـا دام لم يمـيز ولم يحـدد اختياره، وهو ما اختاره الجصاص، قال:(أمـا إتبـاع الصـغير لأبيـه في أحكام الإسلام فلا خلاف فيه. وأما تبعيته لأمه فـاختلف فيـه العلماء واضطرب فيه قول مالك. والصحيح في الـدين أنـه يتبـع من أسلم من أحد أبويه، للحديث الصحيح عن ابن عبـاس قـال: كنت أنـا وأمي من المستضـعفين من المؤمـنين، وذلـك أن أمـه أسلمت ولم يسلم العباس فاتبع أمه في الدين، وكان لأجلها من المؤمنين)[1]

---

1) الجصاص: 4/139.

التبعية للدار:

اتفق الفقهاء على أن الصبي الذي توفي والداه أو أحدهما في دار الحرب لا يحكم بإسلامه، لأنها دار لا يحكم بإسلام أهلها.

واختلفوا فيما لو ماتا أو مات أحدهما في دار الإسلام، هل يحكم بإسلامه أم لا على قولين:

القول الأول: إذا مات أحد أبوي الولد الكافرين في دار الإسلام، صار الولد مسلما بموته، ولكنه مع ذلك يقسم له ميراث أبيه، وهو قول الحنابلة، ومن الأدلة على ذلك:

1. قوله ﷺ:(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه)(1)، فاعتبر كفره بفعل أبويه، فإذا مات أحدهما، انقطعت التبعية، فوجب إبقاؤه على الفطرة التي ولد عليها.

2. أن المسألة مفروضة فيمن مات أبوه في دار الإسلام، وقضية الدار الحكم بإسلام أهلها، ولذلك حكمنا بإسلام لقيطها، وإنما ثبت الكفر للطفل الذي له أبوان، فإذا عدما أو أحدهما، وجب إبقاؤه على حكم الدار، لانقطاع تبعيته لمن يكفر بها.

3. أنه يقسم له الميراث، لأن إسلامه إنما ثبت بموت أبيه الذي استحق به الميراث، فهو سبب لهما، فلم يتقدم الإسلام المانع من الميراث على استحقاقه، ولأن الحرية المعلقة بالموت لا توجب الميراث، فيجب أن يكون الإسلام المعلق بالموت لا يمنع الميراث.

القول الثاني: لا يحكم بإسلامه بموتهما ولا موت أحدهما، وقد نسبه ابن قدامة لأكثر الفقهاء ؛ ومن الأدلة على ذلك:

1. أنه يثبت كفره تبعا، ولم يوجد منه إسلام، ولا ممن هو تابع له فوجب إبقاؤه على ما كان عليه.

2. أنه لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من خلفائه، أنه

---

1) رواه الترمذي .

أجبر أحدا من أهل الذمة على الإسلام بموت أبيه، مع أنه لم يخل زمنهم عن موت بعض أهل الذمة عن يتيم.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة أن لها علاقة بجانبين:

1. جانب دنيوي ترتبط به الأحكام الفقهية للصبي الكافر والمسلم، ونرى في هذه الحالة أن تجرى عليه أحكام الكفرة.

2. جانب أخروي، وهو اعتباره مسلما كما نص عليه أصحاب القول الأول، وهو ما دل عليه الحديث.

ولا تناقض بين الجانبين، فلا يضر الصبي أن يدفن في مقابر الكافرين أو المسلمين إن كان مسلما، وقد ذكرنا تفاصيل المسألة، والأقوال المختلفة فيها، وما نراه من ترجيح في كتاب (أسرار الأقدار) من سلسلة (رسائل السلام)

2 ـ صلاة الصبي

من أهم ما ينبغي أن يحرص عليه الولي على تربية الأولاد أن يعلمهم الصلاة، ويمرنهم عليها، بل يحرص على أن يصلوا معه جماعة، أو يصلي بهم في المسجد، وقد وردت بكل هذا النصوص الشرعية، ومعها أحكام الفقهاء مما سنعرض لتفاصيله في هذا المطلب.

حكم أمر الصبي بالصلاة:

اتفق الفقهاء على أن من أوجب الواجبات على الولي ومن في معناه من المسؤولين على تربية الولد أن يأمروه بالصلاة، كما قال النبي ﷺ:(علموا الصبي الصلاة لسبع سنين، واضربوه عليها ابن عشر سنين)[1]

وقد اتفق الفقهاء على أنه لا فرق في ذلك بين الصبي والصبية، قال النووي:(وقد اقتصر المصنف على الصبي، ولو قال: الصبي والصبية لكان أولى، وأنه لا فرق بينهما بلا خلاف،

---

1)رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بأسانيد صحيحة.

صرح به أصحابنا لحديث عمرو بن شعيب الذي ذكرناه)[1]

وقد نص الفقهاء كذلك على أن الأمر الوارد في الحديث يشمل كل من له ولاية على الصبي، قال النووي:(وهذا الأمر والضرب واجب على الولي سواء كان أبا أو جدا أو وصيا أو قيما من جهة القاضي، صرح به أصحابنا منهم صاحبا الشامل والعدة وآخرون. ذكره صاحب العدة في آخر باب موقف الإمام والمأموم هناك، وذكره المزني عن الشافعي في المختصر)[2]

ويدل على هذا النصوص الكثيرة الواردة بأمر الأهل بالصلاة، أو نحوها من العبادات وتقوى الله، كقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ ﴾ (طه:132)، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم:6)، وقوله ﷺ:(كلكم راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته)[3]

حكم صلاة الصبي:

اختلف الفقهاء في وجوب الصلاة على الصبي ابن عشر سنين على قولين:

القول الأول: لا تجب الصلاة على الصبي حتى يبلغ، وهو قول جماهير الفقهاء، ومن الأدلة على ذلك:

1. قوله ﷺ:(رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يبلغ)

2. أنه صبي فلم يجب عليه كالصغير، ولأن الصبي ضعيف العقل والبنية، ولا بد من ضابط يضبط الحد الذي تتكامل فيه بنيته وعقله، فإنه يتزايد تزايدا خفي التدريج، فلا يعلم ذلك بنفسه، والبلوغ ضابط لذلك، ولهذا تجب به الحدود، وتؤخذ به الجزية من الذمي إذا بلغه، ويتعلق به أكثر أحكام التكليف،

---

1) المجموع: 3/11.

2) المجموع: 3/11.

3) رواه البخاري ومسلم.

فكذلك الصلاة.

3. أن التـأديب المشـروع في حقـه للتمـرين والتعويـد، كالضـرب على تعلم الخـط والقـرآن والصـناعة وأشـباهها، ولا خلاف في أنها تصح من الصبي العاقل.

القول الثاني: تجب الصلاة على الصبي قبل بلوغه، وهو قول لبعض الحنابلة[1]؛ ومن الأدلة على ذلك:

1. أن العقوبة لا تشرع إلا لترك واجب.

2. أن حد الواجب: ما عوقب على تركه.

الترجيح:

نـرى أن الأرجح في المسـألة هـو وجـوب الصـلاة على الصبي قبل البلوغ، مع كون العقوبة مسلطة على المتولي أمره في حال تقصيره.

ويدل على هذا ما ورد به النص من ضـربه على الصـلاة إذا بلغ عشرا، ولا يضرب إلا على واجب.

ويدل عليه من الناحيـة المقاصـدية أن تهـاون الآبـاء سـببه عادة تصورهم أن الصبي قد رفـع عنـه القلم، فلا يحاسـب على تصرفاته، فلذلك يتركون له حريته في هذا المجال، مع أن حياته جميعا مرتبطة بالتربية التي يتلقاها في فترة صباه.

شروط صحة صلاة الصبي:

نص الفقهاء على أنه يعتبر لصلاة الصبي من الشـروط مـا يعتـبر في صـلاة البـالغ من الطهـارة وسـتر العـورة واسـتقبال القبلة ونحوها.

ونرى أنه مع هذا يمكن التساهل في بعض الشروط أحيانا، لأن المقصـد من أمـر الصـبي بالصـلاة هـو التمـرين والتـأديب، فلذلك يهتم الاهتمام الأول بـالحرص على الصـلاة في مواقيتهـا،

1) ذكر ابن قدامة أن الدافع إليه ما روي أن أحمد قد نقل عنه في ابن أربـع عشـرة: إذا ترك الصلاة يعيد، وقد أول ابن قدامة هذه الرواية على أن أحمد، رحمه الله أمر بذلك على طريق الاحتياط. المغني: 1/357.

ثم يدرب بعد ذلك تدريجيا على شروطها.

وربما يستدل لهذا بقوله ﷺ:(لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار)[1]، فهو يدل على صحة صلاة غير الحائض بغير الخمار، أي أن الصبية الصغيرة ـ وهي ممن يؤمر بالصلاة باتفاق الفقهاء ـ لا يشترط في ستر عورتها ما يشترط في ستر عورة المرأة.

وربما يستدل لهذا كذلك بحديث عمرو بن مسلمة ـ والذي سنذكره في محله من هذا المطلب ـ، وفيه:(فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآناً مني لما كنت أتلقى من الركبان فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين وكانت عليَّ بردة كنت إذا سجدت تقلصت عني فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنا إست قارئكم فاشتروا فقطعوا لي قميصاً فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص)[2]

الذهاب بالأولاد إلى المساجد:

وهي من المسائل الواقعية المهمة التي تحتاج إلى فهم وتوعية صحيحة للتعامل معها تعاملا شرعيا يصب في تنمية البعد الروحي للولد، وذلك لأن الواقع يعج بأحد نوعين، كلاهما من السلوك المتطرف:

الأول: هو التشدد في منع الأولاد من الذهاب إلى المساجد، بل وإخراجهم منها حال دخولهم، وأحيانا بتشدد قد يسبب لهم عقدة من المساجد وأهلها، ويستدلون لهذا بما يروونه عنه ﷺ أنه قال:(جنبوا مساجدكم صبيانكم وخصوماتكم وحدودكم وشراءكم وبيعكم وجمروها يوم جمعكم واجعلوا على أبوابها مطاهركم)[3]، وفي رواية (جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر

1) رواه ابن حبان، والحاكم، والبيهقي.

2) رواه البخاري والنسائي بنحوه.

3) رواه الطبراني.

وجمروها في الجمع)(1)

ويستدلون لذلك بما كان يفعله عمر من أنه كان إذا رأى صبيانا يلعبون في المسجد ضربهم بالمخفقة وهي الدرة وكان يعس المسجد بعد العشاء، فلا يترك فيه أحدا(2).

الثاني: هو التساهل مع الأولاد في المساجد، تساهلا أدى في كثير من الأحيان إلى جعل المساجد محال للعب واللهو، بحيث تشوش على المصلين ما هم فيه من عبادة الله.

ويستدل هؤلاء بالنصوص الدالة على عدم منع الأولاد من المساجد، وهي أقوى مما استدل به المخالفون، ومن تلك النصوص:

1. ما روي عن أبي هريرة قال: كنا نصلي مع النبي ﷺ العشاء، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا رفع رأسه أخذهما من خلفه أخذاً رفيقاً ويضعهما على الأرض فإذا عاد عادا حتى قضى صلاته ثم أقعد أحدهما على فخذيه قال: فقمت إليه فقلت:(يا رسول اللَّه أردهما) فبرقت برقة فقال لهما:(الحقا بأمكما فمكث ضؤوها حتى دخلا)(3)

2. حديث أمامة المتفق عليه.

3. عن أنس أن النبي ﷺ قال:(إني لأسمع بكاء الصبي وأنا في الصلاة فأخفف مخافة أن تفتتن أمه)(4)

وانطلاقا من هذا الخلاف الواقعي نرى أن النصوص الصحيحة تنص على جواز إدخال الأولاد المساجد، والمصلحة الشرعية تقتضي إدخالهم المساجد، لأن المسجد من أهم

---

1) رواه ابن ماجه، وقال بن الجوزي إنه حديث لا يصح ورواه البزار من حديث بن مسعود وقال ليس له أصل من حديثه وله طريق أخرى واهية، انظر: تلخيص الحبير: 4/188.

2) ابن كثير:3/294.

3) رواه أحمد، وابن عساكر، وفي إسناد أحمد كامل بن العلاء وفيه مقال معروف.

4) رواه البخاري ومسلم.

المؤسسات التربوية التي ينمو الولد في أحضانها ويستمد من بركاتها.

ولكن المسجد ينبغي أن يظل في ذهن الولد مرتبطا بالقداسة والحرمة، فلذلك لو تركت له حرية العبث فيه واللعب لذهبت عنه حرمته، زيادة على تأثيره على المصلين بتشويشهم وشغلهم عما هم فيه من عبادة.

فلذلك كان القول الوسط هو أن يذهب الولي أو المربي مع الأولاد إلى المسجد، بل يجعلهم أمامه وبجنبه، ويعمق فيهم قبل ذلك حرمة المسجد باعتباره بيت الله، وبيتا للعبادة، فذلك كفيل بأن يستفيدوا من المسجد تربويا من جهة، وتحفظ للمسجد هيبته وقدسيته من جهة أخرى.

صلاة الجماعة بالصبيان:

اختلف الفقهاء في انعقاد الجماعة بالصبيان على الأقوال التالية:

القول الأول: صحة انعقاد الجماعة باثنين أحدهما صبي من غير فرق بين الفرض والنفل، وهو قول الشافعية، ومن الأدلة على ذلك:

1. عن ابن عباس قال: بت عند خالتي ميمونة فقام النبي ﷺ يصلي من الليل، فقمت أصلي معه فقمت عن يساره فأخذ برأسي وأقامني عن يمينه(1)، وفي لفظ: صليت مع النبي ﷺ وأنا يومئذ ابن عشر وقمت إلى جنبه عن يساره فأقامني عن يمينه قال وأنا يومئذ ابن عشر سنين(2)

2. أن رفع القلم الذي استدل به المخالفون لا يدل على عدم صحة صلاته وانعقاد الجماعة به ولو سلم لكان مخصصاً بحديث ابن عباس ونحوه.

القول الثاني: لا تنعقد إمامة من معه صبي فقط، قال

---

1) رواه الجماعة.

2) رواه أحمد.

الشوكاني:(وقد ذهب إلى أن الجماعة لا تنعقد بصبي الهادي والناصر والمؤيد باللَّه وأبو حنيفة وأصحابه)، ومن الأدلة على ذلك: قوله ﷺ:(رفع القلم عن ثلاث)، فذكر الصبي حتى يبلغ.

القول الثالث: التفريق بين الفرض والنفل**،** فتصح في النافلة، ولا تصح في الفريضة، وهو قول مالك ورواية عن أبي حنيفة.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو القول الأول بناء على ما ذكرنا سابقا من أن الصبي مكلف بالصلاة، زيادة على ما في ذلك من المصالح الشرعية، ومن أهمها إقامة الوالد الصلاة جماعة في بيته مع أولاده ليمرنهم على الصلاة ويعودهم عليها.

إمامة الصبي:

اختلف الفقهاء في جواز إمامة الصبي على الأقوال التالية:

القول الأول: جواز إمامة الصبي، وهو قول الحسن وإسحاق والشافعي، ومن الأدلة على ذلك:

1. عن عمرو بن مسلمة قال: لما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبادر أبي قومي بإسلامهم فلما قدم قال: جئتكم من عند النبي ﷺ حقاً فقال: صلوا صلاة كذا في حين كذا وصلاة كذا في حين كذا فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآناً فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآناً مني لما كنت أتلقى من الركبان فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين وكانت عليَّ بردة كنت إذا سجدت تقلصت عني فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنا إست قارئكم فاشتروا فقطعوا لي قميصاً فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص)[1]، ورواه أبو داود وقال فيه: (وأنا ابن سبع سنين أو ثمان سنين)

2. أن قوله:(صلوا صلاة كذا في حين كذا وصلاة كذا في حين كذا) يدل على أن ذلك كان في فريضة.

---

1) رواه البخاري والنسائي بنحوه.

3. قوله:(فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم) لا يحتمل غير الفريضة لأن النافلة لا يشرع لها الأذان.

القول الثاني: عدم جواز إمامة الصبي، وقد نسبه الشوكاني للهادي والناصر والمؤيد باللَّه من أهل البيت، ومن الأدلة على ذلك:

1. عن ابن مسعود قال:(لا يؤم الغلام حتى تجب عليه الحدود)

2. عن ابن عباس قال:(لا يؤم الغلام حتى يحتلم)[1]

3. أن صلاته غير صحيحة لأن الصحة معناها موافقة الأمر والصبي غير مأمور.

4. أن العدالة شرط للإمامة والصبي غير عدل[2].

القول الثالث: كراهة إمامة الصبي، وهو قول الشعبي والأوزاعي والثوري ومالك.

القول الرابع: الإجزاء في النوافل دون الفرائض، وهو المشهور عن أحمد وأبي حنيفة، ومن الأدلة على ذلك:

1. أن حديث عمرو المذكور كان في نافلة لا فريضة.

2. ما روي عن أحمد بن حنبل أنه كان يضعف أمر عمرو بن سلمة وروى عن ذلك عنه الخطابي في المعالم[3].

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو التشدد في شروط الإمامة، ولذلك نرى أن إمامة الصلاة تقتضي البلوغ والعقل

---

1) رواهما الأثرم في سننه.

2) وقد رد على هذا بأن العدالة نقيض الفسق وهو غير فاسق لأن الفسق فرع تعلق الطلب ولا تعلق وانتفاء كون صلاته واجبة عليه لا يستلزم عدم صحة إمامته.

3) وقد رد على هذا بأن عمرو بن سلمة صحابي مشهور، قال في التقريب: صحابي صغير نزل بالبصرة وقد روى ما يدل على أنه وفد على النبي ﷺ كما تقدم.

والعدالة والعلم ونحو ذلك.

موقف الصبي في الصف:

وهي من المسائل المهمة والواقعية، ومما يتعلق به استفادة الأولاد من دخولهم المساجد وصلاتهم فيها، وقد وردت النصوص بتقدم صفوف الرجال على الغلمان، وتقدم صفوف الغلمان على النساء، ومن تلك النصوص:

1. عن أبي مالك الأشعري : عن رسول اللَّه ﷺ أنه كان يسوي بين الأربع ركعات في القراءة والقيام ويجعل الركعة الأولى هي أطولهن لكي يثوب الناس، ويجعل الرجال قدام الغلمان، والغلمان خلفهم والنساء خلف الغلمان(1).

2. عن أبي مالك الأشعري قال:(ألا أحدثكم بصلاة النبي ﷺ قال: فأقام الصلاة وصف خلفهم الغلمان ثم صلى بهم فذكر صلاته)(2)

3. عن أنس أن جدته مليكة دعت رسول اللَّه ﷺ لطعام صنعته فأكل ثم قال:(قوموا فلأصلي لكم)، فقمت إلى حصير لنا قد سود من طول ما لبس، فنضحته بماء، فقام عليه رسول اللَّه ﷺ وقمت أنا واليتيم وراءه وقامت العجوز من ورائنا فصلى لنا ركعتين ثم انصرف(3).

4. عن أنس قال: صليت أنا واليتيم في بيتنا خلف النبي ﷺ وأمي خلفنا أم سليم(4).

وقد قيد العلماء هذه النصوص فيما لو كان الأولاد اثنين فصاعداً، فإن كان صبي واحد دخل مع الرجال ولا ينفرد خلف الصف، ويدل على ذلك ما روي عن أنس قال: صليت أنا واليتيم

---

1) رواه أحمد.

2) رواه أبو داود.

3) رواه الجماعة إلا ابن ماجه.

4) رواه البخاري.

في بيتنا خلف النبي ﷺ وأمي خلفنا أم سليم(1)، فـإن اليـتيم لم يقف منفرداً بل صف مع أنس.

ونرى أن يخصـص للأولاد في حـال كـثرتهم والخشـية على نظافة المسجد، أو الخشية من تشويشهم على المصلين مكـان خاص يصلون فيه، كما خصص للنسـاء هـذا المكـان، بشـرط أن يكون معهم من الكبار من يوجههم ويعلمهم، فيسـتفيدون بـذلك من كلا الجهتين: الدخول للمسجد والصلاة فيه، والتـأدب بـآداب المسجد.

3 ـ صيام الصبي

وهو من العبادت المهمة الـتي لهـا تأثيرهـا الـتربوي الكبـير في صقل شخصية الولد، وتمرينه على الرجولـة والإرادة والبعـد عن مظاهر الترف من صغره.

وسـنكتفي هنـا بالحـديث عمـا ذكـره الفقهـاء من مسـائل تخص صيام الصبي محاولين تبيان ما يحقق المقاصـد الشـرعية من هذه العبادة.

العمر الذي يؤمر فيه الصبي بالصيام:

اختلف الفقهاء في العمر الـذي يـؤمر في الصـبي بالصـيام على الأقوال التالية(2):

القول الأول: إذا بلغ عشر سنين يلزم بالصـيام، بشـرط أن يطيـق الصـوم، وهـو قـول عطـاء، والحسـن، وابن سـيرين، والزهري وقتادة، والشافعي، وقد نصوا على أنه يلـزم بالصـيام، ويضرب على تركه، ليتمـرن عليـه، ويتعـوده، كمـا يلـزم الصـلاة ويؤمر بها.

القول الثاني: إذا أطاق صوم ثلاثـة أيـام تباعـا، لا يخـور فيهن ولا يضعف، حمل صوم شهر رمضان، وهو قول الأوزاعي، ومن الأدلة على ذلك: قوله ﷺ (إذا أطاق الغلام صيام ثلاثة أيـام

---

1) رواه البخاري.

2) المجموع:6/254.

وجب عليه صيام الشهر كله) وفي رواية:(تجب الصلاة على الغلام إذا عقل والصوم إذا أطاق والحدود والشهادة إذا احتلم) (1)

القول الثالث: إذا بلغ ثنتي عشرة سنة يكلف الصوم للعادة، وهو قول إسحاق.

القول الرابع: أن الصوم لا يشرع في حق الصبيان، وهو المشهور عن المالكية.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو ارتباط صوم الصبي بقدرته وطاقته، وهي تختلف باختلاف السن، والفصل الذي يصام فيه، واختلاف قدرة الصبي الجسمية.

ولا يمكن قياس الصوم على الصلاة هنا، لأنه لو كان الأمر كذلك، لنص عليه ﷺ كما نص على الصلاة.

ونرى قبل أن يؤمر الصبي على الصوم أن يمرن على الجوع والعطش أحيانا، كتدريب له لا على الصوم فقط، وإنما على ما تقتضيه الحياة من متاعب، كما سنرى في البعد الاجتماعي.

وقت وجوب الصوم على الصبي:

اختلف الفقهاء في العمر الذي يجب فيه الصوم على الصبي على قولين:

القول الأول: لا يجب عليه الصوم حتى يبلغ، قال ابن قدامة:(وهذا قول أكثر أهل العلم)، ومن الأدلة على ذلك:

1. قول النبي ﷺ:(رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ)

2. أنه عبادة بدنية، فلم تجب على الصبي، كالحج.

---

1) قال الشوكاني:(هذا الحديث ذكره السيوطي في الجامع الصغير وقال أخرجه المرهبي عن ابن عباس)

3. أن حديث المخالفين مرسل، مع أنه يمكن حمله على الاستحباب، وسماه واجبا، تأكيدا لاستحبابه، كقوله ﷺ:(غسل الجمعة واجب على كل محتلم)[1]

القول الثاني: أنه يجب على الغلام المطيق له إذا بلغ عشرا، وهو قول بعض الحنابلة[2]، ومن الأدلة على ذلك:

1. عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ:(إذا أطاق الغلام صيام ثلاثة أيام، وجب عليه صيام شهر رمضان)[3]

2. أنه عبادة بدنية، فأشبه الصلاة، وقد أمر النبي ﷺ بأن يضرب على الصلاة من بلغ عشرا.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو ارتباط وجوب الصوم بالبلوغ، مع أنه يشدد عليه قبل ذلك، حرصا على تمرنه على الصوم قبل البلوغ.

ولو صح الحديث الذي ذكره أصحاب القول الثاني لكان نصا في المسألة، ومخالفة جماهير العلماء له من أدلة عدم صحته.

بلوغ الصبي أثناء الصوم:

اختلف الفقهاء فيما لو بلغ الصبي أثناء صومه رمضان، هل يجب عليه قضاء ذلك اليوم أم لا على قولين:

القول الأول: إذا نوى الصبي الصوم من الليل، فبلغ في أثناء النهار بالاحتلام أو السن، يتم صومه، ولا قضاء عليه، وهو قول للحنابلة، ومن الأدلة على ذلك:

---

1) رواه البخاري:2/3، وأبو داود رقم (337)

2) قال القاضي:(المذهب عندي، رواية واحدة: أن الصلاة والصوم لا تجب حتى يبلغ، وما قاله أحمد في من ترك الصلاة يقضيها. نحمله على الاستحباب)

3) رواه أبو نعيم في المعرفة والديلمي.

1. أن نية صوم رمضان حصلت ليلا فيجزئه كالبالغ.

2. أنه لا يمتنع أن يكون أول الصوم نفلا وباقيه فرضا، كما لو شرع في صوم يوم تطوعا، ثم نذر إتمامه.

القول الثاني: أنه يلزمه القضاء، وهو قول للحنابلة، واختاره أبو الخطاب، ومن الأدلة على ذلك:

1. أنه عبادة بدنية بلغ في أثنائها بعد مضي بعض أركانها، فلزمته إعادتها، كالصلاة، والحج إذا بلغ بعد الوقوف.

2. أنه ببلوغه يلزمه صوم جميعه، والماضي قبل بلوغه نفل، فلم يجز عن الفرض.

3. أنه لو نذر صوم يوم يقدم فلان فقدم والناذر صائم ؛ لزمه القضاء.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو القول الأول بناء على توفر جميع شرائط صحة الصوم من النية والامتناع عن المفطرات، زيادة على أنه لا يمكن اعتبار صومه لغوا، فنوجب عليه قضاءه.

قضاء ما مضى من الشهر قبل بلوغه:

اختلف الفقهاء في وجوب قضاء ما مضى من شهر رمضان إذا بلغ الصبي أثناء الشهر على قولين:

القول الأول: أن ما مضى من الشهر قبل بلوغ الصبي لا يجب قضاؤه، قال ابن قدامة:(هذا قول عامة أهل العلم)، لأنه زمن مضى في حال صباه، فلم يلزمه قضاء الصوم فيه، كما لو بلغ بعد انسلاخ رمضان.

القول الثاني: يقضيه إن كان أفطره وهو مطيق لصيامه، وهو قول الأوزاعي.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة ما ذكرناه سابقا من عدم

القضاء مطلقا، لأن الشرع خص القضاء بأحوال معينة محدودة، زيادة على ما في ذلك من المفاسد من تصور الصبي أنه بإمكانه التفريط في الواجبات، ثم الاكتفاء بعد ذلك بقضائها، وهو ما قد يربيه على خلق الإهمال في حياته جميعا.

4 ـ حج الصبي

اتفق الفقهاء على جواز حج الصبي، بل استحبابه، وقد نقل ابن عبد البر من نصوا على هذا، فقال:(أجازه مالك والشافعي وسائر فقهاء الحجاز من أصحابهما وغيرهم، وأجازه الثوري وأبو حنيفة وسائر فقهاء الكوفيين، وأجازه الأوزاعي والليث بن سعد، فيمن سلك سبيلهما من أهل الشام ومصر، وكل من ذكرناه يستحب الحج بالصبيان، ويأمر به ويستحسنه، وعلى ذلك جمهور العلماء من كل قرن)[1]

بل نقل الإجماع على ذلك، قال الطحاوي:(وهذا مما قد أجمع الناس جميعا عليه، ولم يختلفوا أن للصبي حجا، كما أن له صلاة)[2]

ولكن مع هذا، قد ذكر ابن عبد البر خلافا في المسألة لم يذكر قائله، قال:(وقالت طائفة: لا يحج بالصبيان، وهو قول لا يشتغل به، ولا يعرج عليه، لأن النبي ﷺ حج بأغيلمة بني عبد المطلب وحج السلف بصبيانهم، وقال في الصبي له حج، وللذي يحجه أجر، يعني بمعونته له وقيامه في ذلك به، فسقط كل ما خالف هذا من القول)[3]

واتفقوا على أن الصبي يثاب على ذلك الحج، وإن لم يكن مفروضا عليه، قال الشافعي مبينا أدلة هذا ــ وإن كانت من المعلوم من الدين بالضرورة ــ:(إن الله (جل ثناؤه) بفضل نعمته، أثاب الناس على الأعمال أضعافها ومن على المؤمنين بأن ألحق بهم ذرياتهم، ووفر عليهم أعمالهم. فقال: ﴿ أَلْحَقْنَا

1) التمهيد: 1/101.

2) شرح معاني الآثار: 2/257.

3) التمهيد: 1/101.

بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ (الطور:21)، فكما من على الذراري بإدخالهم جنته بلا عمل كان أن من عليهم بأن يكتب عليهم عمل البر في الحج: وإن لم يجب عليهم من ذلك المعنى)

وقد أجاب ابن عبد البر على الاعتراض الذي طرحه، وهو (ما معنى الحج بالصغير، وهو عندكم غير مجزىء عنه من حجة الإسلام إذا بلغ، وليس ممن تجري له وعليه؟)، فقال: (أما جري القلم له بالعمل الصالح فغير مستنكر أن يكتب للصبي درجة وحسنة في الآخرة بصلاته وزكاته وحجه وسائر أعمال البر التي يعملها على سنتها، تفضلا من الله عز وجل عليه، كما تفضل على الميت بأن يؤجر بصدقة الحي عنه، ويلحقه ثواب ما لم يقصده، ولم يعمله، مثل الدعاء له، والصلاة عليه، ونحو ذلك. ألا ترى أنهم أجمعوا على أن أمروا الصبي إذا عقل الصلاة بأن يصلي، وقد صلى رسول الله بأنس واليتيم معه، والعجوز من ورائهما. وأكثر السلف على ايجاب الزكاة في أموال اليتامى، ويستحيل أن لا يؤجروا على ذلك، وكذلك وصاياهم إذا عقلوا. وللذي يقوم بذلك عنهم أجر، كما للذي يحجبهم أجر، فضلا من الله ونعمة، فلأي شيء يحرم الصغير التعرض لفضل الله؟)[1]

وقد اختلف الفقهاء في بعض المسائل المتعلقة بحج الصبي، والتي سنعرض لها في هذا المطلب[2]:

إجزاء حج الصبي عن حجة الإسلام:

اختلف الفقهاء في إجزاء حج الصبي عن حجة الإسلام على قولين:

القول الأول: أن الصبي إذا حج قبل بلوغه، أجزأه ذلك من حجة الإسلام، ولم يكن عليه أن يحج بعد ذلك بعد بلوغه، وقد ذكره أبو جعفر الطحاوي في (شرح معاني الآثار) من غير

---

1) التمهيد: 1/103.

2) من مراجع هذا المطلب: التمهيد: 1/101، المجموع: 7/30، شرح الزرقاني: 2/523، مواهب الجليل: 2/478، شرح النووي على مسلم: 9/99.

أن يسميه، قال:(ذهب قوم إلى أن الصبي إذ حج قبل بلوغه أجزأه من حجة الإسلام، ولم يكن عليه أن يحج بعد بلوغه)، ومن الأدلة على ذلك:

1. عن ابن عباس أن امرأة سألت النبي ﷺ عن صبي: هل لهذا من حج؟ قال: نعم، ولك أجر[1].

2. أنه لا يصح قياس الحج على الصلاة في الإجزاء ــ كما فعل المخالفون ـ لأن الله تعالى إنما أوجب الحج على من وجد إليه سبيلا، ولم يوجبه على غيره، فكان من لم يجد سبيلا إلى الحج، فلا حج عليه، كالصبي الذي لم يبلغ.

3. أن الفقهاء قد أجمعوا أن من لم يجد سبيلا إلى الحج، فحمل على نفسه ومشى حتى حج، أن ذلك يجزيه، وإن وجد إليه سبيلا بعد ذلك، لم يجب عليه أن يحج ثانية، للحجة التي قد كان حجها قبل وجوده السبيل. فكان النظر - على ذلك - أن يكون كذلك الصبي إذا حج قبل البلوغ، ففعل ما لم يجب عليه، أجزاه ذلك، ولم يجب عليه أن يحج ثانية بعد البلوغ.

القول الثاني: لا يجزيه من حجة الإسلام، وعليه بعد بلوغه حجة أخرى، وهو قول جماهير الفقهاء، بل حكي الإجماع على ذلك، قال ابن المنذر:(أجمع أهل العلم، إلا من شذ عنهم ممن لا يعتد بقوله خلافا على أن الصبي إذا حج في حال صغره، والعبد إذا حج في حال رقه، ثم بلغ الصبي وعتق العبد، أن عليهما حجة الإسلام، إذا وجدا إليهما سبيلا)، ثم ذكر من القائلين بهذا:(كذلك قال ابن عباس، وعطاء، والحسن، والنخعي، والثوري، ومالك، والشافعي، وإسحاق، وأبو ثور، وأصحاب الرأي. قال الترمذي: وقد أجمع أهل العلم عليه)، ومن الأدلة على ذلك:

1. قوله ﷺ:(إني أريد أن أجدد في صدور المؤمنين عهدا، أيما صبي حج به أهله فمات أجزأت عنه، فإن أدرك فعليه الحج، وأيما مملوك حج به أهله، فمات، أجزأت عنه، فإن أعتق، فعليه

1) رواه مسلم، ابن خزيمة، البيهقي، وغيرهم.

الحج)[2]

2. أن الحج عبادة بدنية، فعلها قبل وقت وجوبها، فلم يمنع ذلك وجوبها عليه في وقتها، كما لو صلى قبل الوقت، وكما لو صلى، ثم بلغ في الوقت.

3. أن الحديث الذي استدل به المخالفون إنما فيه أن رسول الله ﷺ أخبر أن للصبي حجا، كما أن له صلاة، وليست تلك الصلاة بفريضة عليه. فكذلك أيضا قد يجوز أن يكون له حج، وليس ذلك الحج بفريضة عليه.

4. أن هذا الحديث إنما هو حجة على من زعم أنه لا حج للصبي، فأما من يقول: إن له حجا، وإنه غير فريضة، فلم يخالف شيئا من هذا الحديث، وإنما خالف تأويل مخالفة خاصة.

5. أن ابن عباس الذي روى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، قال بأنه لا يجزيه بعد بلوغه من حجة الإسلام، والأصل أن من روى حديثا فهو أعلم بتأويله، فعن أبي السفر، قال: سمعت ابن عباس يقول:(يا أيها الناس، أسمعوني ما تقولون، ولا تخرجوا، تقولون قال ابن عباس أيما غلام حج به أهله، فمات، فقد قضى حجة الإسلام، فإن أدرك فعليه الحج، وأيما عبد حج به أهله فمات، فقد قضى حجة الإسلام، فإن أعتق فعليه الحج)، وعن يونس بن عبيد صاحب الحلي، قال: سألت ابن عباس عن المملوك إذا حج ثم عتق بعد ذلك؟ قال: عليه الحج أيضا، وعن الصبي يحج ثم يحتلم، قال: يحج أيضا.

6. قول رسول الله ﷺ:(رفع القلم عن ثلاثة، عن الصغير حتى يكبر)، فثبت أن القلم عن الصبي مرفوع، ثبت أن الحج عليه غير مكتوب.

7. أن الإجماع منعقد على أن الصبي لو دخل في وقت صلاة فصلاها، ثم بلغ بعد ذلك في وقتها أن عليه أن يعيدها، وهو في حكم من لم يصلها، فلما ثبت ذلك من اتفاقهم، ثبت أن الحج كذلك، وأنه إذا بلغ وقد حج قبل ذلك، أنه في حكم من لم

---

2) ذكره ابن قدامة، وقال:(رواه سعيد، في (سننه)، والشافعي، في (مسنده)، عن ابن عباس من قوله) انظر: المغني: 3/104.

يحج، وعليه أن يحج بعد ذلك.

8. أن ما استدل به المخالفون من الذي لا يجد السبيل، إنما سقط الفرض عنه لعدم الوصول إلى البيت، فإذا مشى فصار إلى البيت، فقد بلغ البيت، وصار من الواجدين للسبيل، فوجب الحج عليه لذلك، فلذلك قلنا إنه أجزأه حجة، ولأنه صار بعد بلوغه البيت، كمن كان منزله هنالك، فعليه الحج. وأما الصبي ففرض الحج غير واجب عليه، قبل وصوله إلى البيت، وبعد وصوله إليه، لرفع القلم عنه فإذا بلغ بعد ذلك، فحينئذ وجب عليه فرض الحج. فلذلك قلنا: إن ما قد كان حجه قبل بلوغه، لا يجزيه، وأن عليه أن يستأنف الحج بعد بلوغه، كمن لم يكن حج قبل ذلك.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو القول الثاني، بناء على أن الحج يختلف عن الصلاة والصوم، فأسرار مقاصده لا يفقهها إلا من من بلغ عمرا يسمح له بذلك.

زيادة على أنه فرض مرة واحدة في العمر، بخلاف العبادات الأخرى التي تتكرر بدورات منتظمة.

البلوغ حال الإحرام:

اتفق الفقهاء على أنه إذا بلغ الصبي فأحرم ووقف بعرفة، وأتم المناسك، أجزأه عن حجة الإسلام، قال ابن قدامة:(لا نعلم فيه خلافا) والدليل على ذلك أنه لم يفته شيء من أركان الحج، ولا فعل شيئا منه قبل وجوبه.

أما إن بلغ وهو محرم، فقد اختلف الفقهاء في إجزاء حجه عن حجة الإسلام على الأقوال التالية:

القول الأول: أجزأه عن حجة الإسلام، وهو قول ابن عباس، والشافعي، وإسحاق، ومن الأدلة على ذلك:

1. أنه أدرك الوقوف حرا بالغا فأجزأه، كما لو أحرم تلك الساعة.

2. أنه جائز لكل من نوى باهلاله الإحرام، أن يصرفه إلى ما شاء من حج أو عمرة، وذلك لحديث علي، إذ قال له رسول الله ﷺ حين أقبل من اليمن، مهلا بالحج (بم أهللت)؟ قال: قلت لبيك اللهم، باهلال كاهلال النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ، فإني أهللت بالحج، وسقت الهدي ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ مقالته، ولا أمره بتجديد نية لافراد أو قران، أو متعة.

القول الثاني: لا يجزئه ذلك عن حجة الإسلام، وهو قول مالك، واختاره ابن المنذر، ومن الأدلة على ذلك: أن الله تعالى أمر كل من دخل في حج أو عمرة بإتمام ما دخل فيه، لقوله: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ (البقرة:196)، ومن رفض إحرامه، لم يتم حجه، ولا عمرته.

القول الثالث: أن الصبي إن جدد إحراما بعد أن احتلم قبل الوقوف، أجزأه، وإلا فلا، وهو قول الحنفية، ومن الأدلة على ذلك:

1. أن إحرامه لم ينعقد واجبا، فلا يجزئ عن الواجب، كما لو بقي على حاله.

2. أن الحج الذي كان فيه لمَّا لم يكن يجزي عنه، ولم يكن الفرض لازمًا له حين أحرم به، ثم لزمه حين بلغ، استحال أن يشتغل عن فرض قد تعين عليه بنافلة، ويعطل فرضه، كمن دخل في نافلة واقيمت عليه المكتوبة، وخشي فوتها، قطع النافلة ودخل المكتوبة.

3. أنه احتاج إلى الإحرام، لأن الحج مفتقر إلى النية، لأن النية والإحرام من فرائضه.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو القول الأول بناء على كونه كان بالغا أثناء الوقوف بعرفة، ولم يكن اعتبا ر إحرامه لغوا، زيادة على أن التكاليف الكثيرة للحج، وكثرة الحجيج يستدعي التيسير في هذا الجانب.

إحرام الصبي:

اتفق الفقهاء على أن الصبي إن كان مميزا أحرم بإذن وليه، واختلفوا فيما لو كان غير مميز على قولين:

القول الأول: أحرم عنه وليه؛ فيصير محرما بذلك، وقد روي عن عطاء، والنخعي، وهو قول مالك، والشافعي، ومن الأدلة على ذلك:

1. ما روى ابن عباس قال: رفعت امرأة صبيا، فقالت: يا رسول الله، ألهذا حج؟ قال: نعم، ولك أجر)

2. عن السائب بن يزيد، قال: حج بي مع النبي ﷺ وأنا ابن سبع سنين.

3. أن أبا حنيفة قال: يجتنب ما يجتنبه المحرم. ومن اجتنب ما يجتنبه المحرم كان إحرامه صحيحا.

4. أن النذر لا يجب به شيء، بخلاف هذه المسألة.

القول الثاني: لا ينعقد إحرام الصبي، ولا يصير محرما بإحرام وليه، وهو قول أبي حنيفة، ومن الأدلة على ذلك: أن الإحرام سبب يلزم به حكم، فلم يصح من الصبي، كالنذر.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة من باب التيسير ورفع الحرج، وهو ناحية ملحوظة في فقه العبادات القول الأول.

أفعال الحج:

تنقسم أفعال الصبي في الحج إلى قسمين[1]:

ما يمكنه أن يفعله بنفسه: وذلك كالوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة، ونحوهما، وقد اتفق الفقهاء على أنه يلزمه فعله، ولا ينوب غيره عنه فيه.

ويدخل في هذا النوع الإحرام، فإن الصبي يجرد كما يجرد الكبير، وقد روي عن عائشة ا أنها كانت تجرد الصبيان إذا دنوا

---

1) المغني:3/108.

من الحرم.

ما لا يمكنه أن يفعله بنفسه: وذلك لعجزه عنـه، وقـد اتفق الفقهـاء على أن الـولي يقـوم بـذلك نيابـة عنـه، قـال ابن المنـذر:(كـل من حفظت عنـه من أهـل العلم يـرى الـرمي عن الصبي الذي لا يقدر على الرمي، كان ابن عمر يفعل ذلـك. وبـه قال عطاء، والزهري، ومالك، والشافعي، وإسحاق)

وقد روي عن ابن عمر : أنه كـان يحج صـبيانه وهم صـغار، فمن استطاع منهم أن يـرمي رمى، ومن لم يسـتطع أن يـرمي رمى عنه.

وروى عن أبي إسحاق، أن أبا بكر طـاف بـابن الزبـير في خرقة.

وقال جابر : خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجا، ومعنا النساء والصبيان، فأحرمنا عن الصبيان)[1]، فقال:(فلبينا عن الصــبيان، ورمينا عنهم)، وفي رواية الترمذي، قال:(فكنا نلبي عن النسـاء، ونرمي عن الصبيان)

وقد نص بعض الفقهاء على أنـه يسـتحب إشـراك الصـبي في هذا النوع من الأفعـال، قـال القاضـي:(إن أمكنـه أن ينـاول النائب الحصى ناوله، وإن لم يمكنه اسـتحب أن يوضـع الحصـى في يده فـيرمي عنـه، وإن وضـعها في يـد الصـغير، ورمى بهـا، فجعل يده كالآلة، فحسـن. ولا يجـوز أن يـرمي عنـه إلا من قـد رمى عن نفسه ؛ لأنه لا يجوز أن ينوب عن الغـير وعليـه فـرض نفسه)

ومثل ذلك في الطواف، فإنه إن أمكنه المشي مشى، وإلا طيف به محمولا أو راكبا، ومن الأدلة على ذلك:

1. أن أبا بكر طاف بابن الزبير في خرقة.

2. أن الطواف بالكبير محمولا لعذر يجوز، فالصغير أولى.

وقد نص الفقهاء هنـا على عـدم اشـتراط إحـرام الحامـل،

---

1) رواه سعيد، في سننه وابن ماجه.

وعدم اشتراط إسقاط الفرض عن نفسه، أو عدم إسقاطه، لأن الطواف للمحمول لا للحامل، ولذلك أجازوا أن يطوف راكبا.

واشـترطوا فيمن يطـوف بالصـبي أن ينـوي الطـواف عن الصبي، فإن لم ينو لم يجزئه ؛ لأنه لما لم تعتبر النية من الصبي اعتبرت من غيره، كما في الإحرام.

نفقة الحج:

اختلف الفقهاء في المال الذي تجب فيه نفقة، هل هو مال الصبي أو مال وليه على قولين:

القول الأول: ما زاد على نفقة الحضـر، فيجب في مـال الولي ؛ وهو قول القاضـي، واختـاره أبـو الخطـاب، ومن الأدلـة على ذلك: أنه كلفه ذلك، ولا حاجة به إليه.

القول الثاني: أن النفقـة كلهـا على الصـبي، وهـو قـول ثان للحنابلة، لأن الحج له، فنفقته عليه، ومن الأدلة على ذلك:

1. قياسا له على البالغ.

2. أن فيه مصلحة له بتحصيل الثـواب لـه، ويتمـرن عليـه، فصار كأجر المعلم والطبيب.

الترجيح:

نـرى أن الأرجح في المسـألة هـو القـول الأول، بنـاء على الحرص على مال الصبي، خاصة مع اتفاق أكثر الفقهاء على أنه لا يغنيه عن حجة الإسلام، وقد اختار هذا القول ابن ابن قدامـة، قـال مسـتدلا لـذلك:(فـإن الحج لا يجب في العمـر إلا مـرة. ويحتمل أن لا يجب، فلا يجوز تكليفـه بـذل مالـه من غـير حاجـة إليه للتمرن عليه)(1)

لزوم الفدية:

اختلـف الفقهـاء فيمـا لـو وقـع الصـبي في محظـور من محظورات الإحـرام، هـل تجب عليـه الفديـة أم لا على الأقـوال

---

1) المغني:3/108.

التالية:

القول الأول: ما أصاب الصبي من صيد أو لباس أو طيب فدي عنه، وهو قول مالك والشافعي.

القول الثاني: لا جزاء عليه ولا فدية، وهو قول أبي حنيفة.

القول الثالث: وهي التفريق بين ما يعتبر فيه السهو، وما لا يعتبر، وهو قول الحنابلة، وذلك كما يلي:

ما يعتبر فيه السهو: وذلك مثل اللباس والطيب، فقد نصوا على أنه لا فدية على الصبي فيه؛ لأن عمده خطأ.

ما لا يعتبر فيه السهو: وذلك مثل الصيد، وحلق الشعر، وتقليم الأظفار، وقد نصوا على أن عليه فيه الفدية.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة أن حج الصبي يكاد يكون من باب التمرين على الحج، وليس حجا كاملا، فلذلك يتساهل فيه، وأسهل الأقوال هنا هو القول الثاني.

ما يلزمه من الفدية:

اختلف الفقهاء في المال الذي تلزم منه الفدية، هل هو مال الصبي أو مال وليه على قولين:

القول الأول: في ماله ؛ لأنها وجبت بجنايته، أشبهت الجناية على الآدمي. قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن جنايات الصبيان لازمة لهم في أموالهم.

القول الثاني: على الولي، وهو قول مالك ؛ لأنه حصل بعقده أو إذنه، فكان عليه، كنفقة حجه.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة ما ذكرناه سابقا من أنه لا يكلف الصبي في الحج بأي نفقة، باعتبار حجه لا يغنيه عن حجة

الإسلام، زيادة على ما ذكرنا في الترجيح السابق من أنه لا يجب عليه شيء من الفدية على حسب ما ذهب إليه الحنفية.

لزوم القضاء:

اختلف الفقهاء فيما لو وقع الصبي فيما يفسد حجه، هل يجب عليه قضاؤه أم لا على قولين كلاهما مما ذهب إليه الحنابلة:

القول الأول: لا يجب عليه قضاؤه، لئلا تجب عبادة بدنية على من ليس من أهل التكليف.

القول الثاني: يجب عليه قضاؤه، لأنه إفساد غير موجب للفدية، فأوجب القضاء.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو القول الأول بناء على أن الحج ليس واجبا عليه، فهو كحج التطوع، والمتطوع أمير نفسه.

زيادة على ما يؤدي إليه القول بلزوم القضاء من التكاليف الشاقة التي لم يفرضها الشرع، خاصة وأن بناء الحج على التيسير لربطه بالاستطاعة.

الفصل الثالث

البعد الأخلاقي في تربية الأولاد

وهو من أهم الأبعاد، وأكثرها تأثيرا في الحياة، وإنما جعلناه البعـد الثـالث من أبعـاد التربيـة، لكونـه نتيجـة وثمـرة للبعـدين السابقين، فالأخلاق تنبني على العقائد، وعلى مدى الإذعان لها.

ويعني هذا البعد ـ باختصار ـ الحفاظ على سـلامة الفطـرة الإنسانية من كل ما قد يؤثر فيهـا من انحرافـات نتيجـة ملابسـة البيئة والاختلاط بالناس والتعرض للمؤثرات المختلفة.

ولهذا اعتبرنا ركن الصوم من الأركان الـتي ترمـز إلى هـذا البعد، باعتبار رياضة الصوم أو تمـرين الصـوم جـزءا من الجهـد الذي يحد به من تأثيرات ملابسة الإنسان للشهوات.

وفي هذا الفصـل نحـاول البحث في القواعـد والتطبيقـات والأصول التي تحدد لنا كيفية تحقيق هذا البعد في حيــاة الأولاد، فهو لا يبحث في تفاصيل الأخلاق، بـل يختص ببيـان أصـول هـذا البعد وأسسه ومنابعه.

وقد قسمناه إلى ثلاثة مباحث، تكاد تحصر كل ما يتعلق به، وهي:

1. وقايــة الأولاد من أســباب الانحــراف، وهي أول عمليـة يقوم بها المربي، وهو كالأرضية لما بعده.

2. مظاهر الانحراف ومنابعها وكيفية علاجها، وهي العمليـة التالية لما قبلها، فالوقاية تسبق العلاج.

3. الفضائل الخلقية، وكيفية تنميتها وتحصيلها، وهي الهدف الأسمى من هذا البعد، وقد أخرناها، باعتبارهـا لا يمكن تحقيقهـا بدون تحقيق المرتبتين السابقتين.

ونحب أن ننبه هنا إلى أنـا أكثرنـا من النمـاذج والأمثلـة في هذا الباب، لأهميتهـا من جهـة، ولتكـون نمـاذج لغيرهـا من جهـة

أخرى.

أولا ـ الوقاية من أسباب الانحراف

وهو أول ما ينبغي أن يهتم المربي به، كما يهتم في بداية عمر الصغير بتلقيحه من كل الأوبئة التي قد تصيبه، لأنه لا يمكنه أن يبني بناء أخلاقيا رفيعا ما دام هناك من يحمل المعاول لهدم ذلك البناء.

ويشير إلى هذه الناحية المهمة في التربية الأخلاقية خصوصا، بل في سائر النواحي التربوية قوله ﷺ:(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرِّقوا بينهم في المضاجع)(1) فقرن الاهتمام بالتفريق بينهم في المضاجع بالاهتمام بالصلاة نفسها، لأن الصلاة إنشاء وبناء، والتفريق وقاية من الهدم، والعاقل من يبني، ويقوي البناء، ثم هو يصوب نظره في كل ناحية مخافة الهدم.

انطلاقا من هذا سنتحدث في هذا المبحث عن أهم أسباب الانحراف وكيفية الوقاية منها، وقد رأينا من خلال استقراء الواقع أنها تعود إلى سببين كبيرين:

1. البيئة والمحيط بتياراته المختلفة، والأنماط الجديدة للحياة، والتي عزل على أساسها الوالدان من أن يكون لهما الحظ الأكبر في التربية.

2. وسائل الإعلام المختلفة، والتي صار لها تأثيرها الكبير في التربية سلبا أو إيجابا.

1 ـ البيئة والمحيط التربوي

لا خلاف في مدى ما للبيئة من تأثير عظيم في التربية ـ سلبا كان ذلك التأثير أو إيجابا ـ ويشير إلى هذا من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ

(1) رواه أحمد وأبو داود.

مَصِيراً (النساء: 97)

فهـؤلاء المستضـعفين لم يعـذروا مـع استضـعافهم، بـل اعتـبروا من الظـالمين لأنفسـهم، بسـبب أن استضـعفاهم كـان بسـبب كسـلهم وتثـاقلهم إلى الأرض، فقـد كـان بإمكـانهم أن يهاجروا، ولكنهم لم يفعلوا.

ولهذا، ورد في القـرآن الكـريم ربـط الأمـر بالعبـادة ببيـان سـعة الأرض، قـال تعـالى: يَـا عِبَـادِيَ الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّ أَرْضِـي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (العنكبوت:56)، وقال تعالى: قُلْ يَـا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُـوَفَّى الصَّـابِرُونَ أَجْـرَهُمْ بِغَيْـرِ حِسَـابٍ (الزمر:10)

وسر ذلك أن البيئة التي تحيط بالإنسان والتي تبدأ بالأسرة لتتعداها إلى كل ما يحيط به لها تأثيرها الخطير في استقامته أو استقامة من يربيه.

انطلاقا من هذا نحاول أن نـذكر هنـا بعض المسـؤولين في هذه البيئة التربوية، والسلبيات التي قد تقـع منهم، فيقـع الأولاد بسببها في الانحراف.

الأسرة

وهي أول مـا يتعـرض لـه الطفـل من المـؤثرات البيئيـة، فلذلك كان لاستقرارها واضطرابها التأثير الكبير على سلوكه.

وقد بحثَت مؤسسـة (اليونسـكو) في هيئـة الأمم المتحـدة عن المـؤثرات الخارجـة عن الطبيعـة في نفس الطفـل، وبعـد دراسةٍ مستفيضةٍ قام بها الاختِصَاصِيّون قَدَّموا هذا التقرير:(مِمَّا لا شكَّ فيه أن البيئة المستقرة سـيكولوجياً، والأسـرة الموحـدة الـتي يعيش أعضـاؤها في جـو من العطـف المتبـادل هي أول أساس يرتكز عليه تَكيّـف الطفـل من الناحيـة العاطفيـة، وعلى هـذا الأسـاس يسـتند الطفـل فيمـا بعـد في تركـيز علاقاتـه الاجتماعيـة بصـورة مُرضِـية، أمـا إذا شُـوِّهَت شخصـية الطفـل بسوء معاملة الوالدين فقد يعجز عن الاندماج في المجتمع)

وقد ذهب علماء النفس إلى أن اضطراب البيئة، وما تحويه من تعقيدات، وما تشتمل عليه من أنواع الحرمان، كل هذا يجعل الطفل يشعر بأنه يعيش في عالم متناقض، مليء بالغش والخداع، والخيانة والحسد، وأنه مخلوقٌ ضعيف لا حَولَ له ولا قُوَّة تجاه هذا العالم العنيف.

ولهذا قال ﷺ في الحديث الذي يبين عظم مسؤولية الوالدين في عجن طينة الصبي:(ما من مولود إلا ولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)[1]

ولهذا نجد خطاب المربين في العادة موجها للآباء باعتبارهم المسؤول الأعظم عن التربية، كما قال الغزالي: (والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذَجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابلٌ لكل ما يُنقش، ومائلٌ لكل ما يُمال إليه، فإن عُوِّد الخير وعُلِّمَه نشأ عليه وسُعِدَ في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه كل مُعلمٍ له ومؤدب)[2]

انطلاقا من هذا، فإن الأسرة يمكن أن تكون محلا صالحا للتربية، بحيث ينشأ الولد في ظلها مستقيما معتدلا مسلما، ويمكن أن تتحول إلى مستنقع آسن يخرج الأجيال المنحرفة الضالة عن سواء السبيل.

وهذا يستدعي البحث عن الشروط التي يمكن تحقيقها في الأسرة لينجح مسعاها التربوي، ولن نفصل الكلام في هذه المسألة هنا، فكل هذه السلسلة تبحث عن السبيل لتحقيق هذه الغاية المثلى، ولكنا سنقتصر هنا على بيان شرط أساسي في نجاح التربية، وهو حسن الاختيار.

ونريد به ما سبق أن ذكرناه في المجموعة الأولى من هذه السلسلة من حسن اختيار الرجل لزوجته، وعدم قبول المرأة بغير الكفء لها في دينها.

---

1) رواه أبو داود.

2) إحياء علوم الدين: 3/72.

ويدخل في هذا الباب ما سبق ذكره في محله من هذه السلسلة من التشديد في الزواج بالكافرات، لخطرهن على تربية الأبناء، وقد قال سيد قطب في تعليل قوله بالحرمة: (ونحن نرى اليوم أن هذه الزيجات شر على البيت المسلم، فالذي لا يمكن إنكاره واقعيا أن الزوجة اليهودية أو المسيحية أو اللادينية تصبغ بيتها وأطفالها بصبغتها، وتخرج جيلا أبعد ما يكون عن الإسلام، وبخاصة في هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه، والذي لا يطلق عليه الإسلام إلا تجوزا في حقيقة الأمر، والذي لا يمسك من الإسلام إلا بخيوط واهية شكلية تقضي عليها القضاء الأخير زوجة تجيء من هناك)[1]

وسر هذا التشديد على ضرورة اختيار الزوجة هو ما للأم من تأثير خطير على تربية ابنها، فالصبي في مراحله الأولى ـ والتي تبدأ من خلالها تربيته ــ يأخذ من أمه أكثر من أبيه، بل يمتد هذا التأثير فيما لو كان الأب مشغولا خارج البيت، وهو الأعم الأغلب، بحيث تنفرد الأم عادة بالتربية في أكثر الأوقات.

ولهذا جعل الشرع الحضانة لها في حال الافتراق، وقد روي في النصوص ما يدل على تعليل ذلك، وهو يدل على المسؤولية العظمى المناطة بالأم، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحجري له حواء، وإن أباه طلقني، وأراد أن ينزعه مني فقال رسول الله ﷺ:(أنت أحق به ما لم تنكحي)[2]

قال الصنعاني تعليقا على هذا الحديث:(الحديث دليل على أن الأم أحق بحضانة ولدها إذا أراد الأب انتزاعه منها، وقد ذكرت هذه المرأة صفات اختصت بها تقتضي استحقاقها وأولويتها بحضانة ولدها، وأقرها ﷺ على ذلك، وحكم لها، ففيه تنبيه على المعنى المقتضي للحكم، وأن العلل والمعاني

---

1) في ظلال القرآن: 1/241.

2) رواه الحاكم: 2/225، البيهقي: 8/4، الدارقطني: 3/304 أبو داود: 2/283، أحمد: 2/182.

المعتبرة في إثبات الأحكام مستقرة في الفطر السليمة)(1)

ولهــذا اعتبرهــا ﷺ مســؤولة عن بيت الزوجيــة، فقــال: (والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها)

ووردت النصوص الكثيرة الآمرة بحسن الصحابة لهـا، ففي الحديث أن رجلا قال: يـا رسـول اللـه من أحـق النـاس بحسـن صحابتي؟ قال: أمـك، قـال: ثم من؟ قـال: أمـك، قـال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك)(2)

وقـد أثـنى ﷺ على المـرأة الـتي تتفـرغ لأبنائهـا، وتنشـغل بمصالحهن عن مصالحها، فقد روي أن رسول اللـه ﷺ قـال:(إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ؛ أحناه على ولدٍ في صــغره، وأرعاه على بعلٍ في ذات يده)(3)

ومثل هذا مـا يـروى عن أم سُـليم، وهي إحـدى السـابقات إلى الإسلام، أنه لما قتل زوجها وكانت شـابة حدثـة، فقـالت: لا أفطم أنسًا حتى يد الثدي، ولا أتزوج حتى يجلس في المجــالس ويأمرني، فوفت بعهدها وبرت بولـدها، ثم لمـا قـدم ﷺ المدينـة وكبر أنس أرسـلت بـه إلى رسـول اللـه ﷺ ليخدمـه ويتعلم من أدب النبوة ويعلمها.

قال أنس يذكر مظهرا من مظـاهر تربيـة أمـه لـه: مـرَّ بي رسول الله ﷺ وأنا ألعب مـع الصـبيان فسـلم علينـا، ثم دعـاني فبعثني إلى حاجة لـه فجئت وقـد أبطـأت عن أمي، فقـالت: مـا حبسـك؟ أين كنت؟ فقلت: بعثــني رســول اللــه ﷺ إلى حاجــة فقالت: وما هي؟ فقلت: إنهـا سـر، فقـالت:(أي بـني، لا تحـدث بسر رسول الله ﷺ)

وكان أنس يعرف لهـا تلـك المنـة ويقـول:(جـزى اللـه أمي عني خيرًا، لقد أحسنت ولايتي)

---

1) سبل السلام: 3/227.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه البخاري:7/7.

وقد ضرب القرآن الكريم المثل بـدور الأم الخطـير بقصـة موسى ﷺ، فقد كـان في أول طفولتـه تحب رعايـة أم وصـلت من الشفافية الروحية إلى درجة أن أوحى الله تعالى إليها، قـال تعـالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَـا إِلَى أُمِّ مُوسَـى أَنْ أَرْضِـعِيهِ فَـإِذَا خِفْتِ عَلَيْـهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَـافِي وَلا تَحْـزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْـكِ وَجَـاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (القصص:7)

ثم تلقفته يد أخرى لها من الإيمان العظيم ما جعلها تقـول: ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْـدَكَ بَيْتـاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَـوْنَ وَعَمَلِـهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحريم:11)

وأصبحت بذلك مثلاً ضربه الله للرجال والنسـاء المؤمـنين، قال تعـالى: ﴿ وَضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُـوا امْـرَأَتَ فِرْعَـوْنَ ﴾ (التحريم:11)

ومن نماذج الأمهات الصالحات في القرآن الكريم أم مريم التي نذرت ما في بطنها محـررا للـه، خالصـا من كـل شـرك أو عبودية لغيره، داعية الله أن يتقبل منها نذرها، قال تعـالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْـرَانَ رَبِّ إِنِّي نَـذَرْتُ لَـكَ مَـا فِي بَطْنِي مُحَـرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (آل عمران:35)

بـل نـرى توجههـا الـدائم للـه، تخاطبـه بحضـور في أدق الشـؤون، قـال تعـالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَـعَتْهَا قَـالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَـعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الـذَّكَرُ كَـالْأُنْثَى وَإِنِّي سَـمَّيْتُهَا مَـرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيـذُهَا بِـكَ وَذُرِّيَّتَهَـا مِنَ الشَّـيْطَانِ الـرَّجِيمِ﴾ (آل عمران:36)

ومنهن مـريم ابنـة عمـران أم المسـيح ﷺ، فقـد جعلهـا القرآن الكريم آية في الطهر والقنوت لله، والتصـديق بكلماتـه، قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَـنَتْ فَرْجَهَـا فَنَفَخْنَـا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَـانِتِينَ﴾ (التحريم:12)

وهـذا الـدور الخطـير للأم يسـتدعي تربيـة خاصـة وتعليمـا خاصا يؤهلها للقيام بهذا الدور الخطير، كما قال الشاعر:

الأم مدرسةٌ إذا   أعدت شعبًا طيب

وقال الآخر:

وإذا النساء نشأن   رضع الرجال جهالة

ليس اليتيم من   هم الحياة وخلفاه

إن اليتيم هو الذي   أمًّا تخلت او أبًا

وقد كتبت بعضهن بعض المقترجات في هذا لا بأس من سوقها هنا، فهي من فقه البدائل والحلول الشرعية، فمما اقترحته(1):

غربلة المناهج الدراسية: بحيث يكون الغرض الأساسي من تلك الغربلة وإعادة الصياغة إعانة (المرأة الأم) في وظيفتها داخل منزلها الذي يُعد المقر الوظيفي الرئيسي لها ؛ لا أن يكون دور المناهج الدراسية تهيئة المرأة لتمارس وظيفة خارج المنزل، وفي حالة إعادة التكوين والصياغة هذه ؛ فإن المناهج ستساهم في دعم دور الأبوين في إعداد الفتيات للاقتناع أولاً بمهمتهن الأولى، ثم في التعرف على صور وأنماط عديدة لأصول التربية السليمة وطرقها، والتي من الممكن الانتقاء منها حسب عدد من المعطيات ووفقاً للظروف المواتية، وبهذا ستؤدي المناهج الدراسية دورين أساسين:

1. دوراً إعدادياً للمرأة للقيام بوظيفتها التربوية.

2. دوراً مسانداً ؛ حيث ستشكل المناهج معيناً نافعاً تستمد منه المرأة سبلاً وطرقاً تربوية ناجحة ونافعة.

الإعلام: نظراً لأن إعداد المرأة لممارسة وظيفتها التربوية يشكل ثقلاً عظيماً في النظرة الشاملة لمصلحة الأمة عموماً ؛ فإن إعادة اهتمامات الإعلام بتلك المسألة من الأهمية بمكان؛ وهو أمر يستلزم قيام جميع القنوات الإعلامية بإبراز ذلك الدور والتركيز على ممارسة المرأة دورها بنفسها ؛ فهي وظيفة لا يجوز فيها التوكيل، بل إن تصدي المرأة لدورها

---

1) دور المرأة التربوي المأمول والمعوقات، د. أفراح بنت علي الحميضي، مجلة البيان: العدد: 161،ص:134.

بنفسها بوصفها أيضاً مربية يعد مسـلكاً عظيمـاً في رقي الأمـة، بل هو الطريق الأساسي لتحقيق آمال الأمة ثم إعـادة صـياغتها فعليـاً عـبر التربيـة إلى نـواتج قيِّمـة تضـاف إلى رصـيد الأمـة الحضـاري، ولأجـل ذلـك فـإن من الضـروري أن تضـع وسـائل الإعلام ضمن أهدافها تبني المفهـوم القـائم على أن رقي الأمـة مطلب إسـلامي حضـاري لن يتـأتى إلا من خلال إعـادة تكـوين النظريات التربوية وتأسيسها بمـا يتفـق مـع الأصـول والمصـادر السليمة التربوية المعتمدة على المصادر الإسـلامية، وأيضـاً من خلال إعداد الكـوادر الـتي تسـتطيع ترجمـة تلـك النظريـات إلى واقـع ؛ أي العنايـة والتشـجيع لإعـداد المـرأة الأم المربيـة الـتي تمتص ما يجب أن تفعله لتعيد تكوينه رحيقاً تربوياً يـداوي جـراح الأمة.

تبـني مسـؤولية التربية: لا تسـتطيع المـرأة أن تـؤدي دورها التربوي ما لم تتبنَّ تلك القضية وجـدانياً من خلال حملهـا لهمّ التربية، ويقينها التام بدورها في إعداد الفرد، وانعكاس ذلك على صـلاحه وصـلاح الأمـة، ثم سـعيها الـدؤوب نحـو تزويـد من تعول تربوياً بما صح وتأكد من مغانم تربوية كسبتها من خلال ما نالته في رقيها التربوي الإسلامي، ويتأتى ذلـك عن طريـق دعم حصـيلتها العلميـة الشـرعية ؛ إذ إن جـزءاً من مهامهـا التربويـة يعنى بتشكيل عقيدة الأبنـاء ومراقبتهـا، وتعـديل أي خلـل يطـرأ عليها.

الخادم

سـبق أن ذكرنـا في (الحقـوق الماديـة للزوجـة) أن أكـثر الفقهاء نصوا على اعتبار الخـادم حقـا من حقـوق الزوجـة على زوجها، وقد رجحنا ـ هناك ـ عدم اعتبار الخـادم حقـا من حقـوق الزوجة لـ (عدم ورود أي دليل صريح في وجوب إخـدام الرجـل لزوجته، ولا دليل يدل عليه من المصالح الشـرعية، بـل هـو من الرفاهية التي قد يحسن بها الرجل إلى زوجته، وتكون مسـتحبة بذلك، وقد يكون من الترف الذي تضـيع بموجبـه الحقـوق وتقـع الحرمات فيحرم بسبب ذلك)

وقد رجحنا ـ من الوجهة الواقعية ـ أن (ما نراه ربمـا يوجـه

القول إلى الحرمة أكثر من توجيهه للاستحباب، فالخـادم تهـان، وقد يستعلى عليها، وقـد تتهم في عرضـها، والزوجـة تـتربع في بيتهـا، كسـلطانة على عرشـها، تـأمر وتنهى، ولا تنشـغل بغـير زينتها، وبغير أخلاق الترف التي زاد فيها استخدامها للخدم، فهي رعناء كسول مستعلية متكبرة.. وقد ترمي بأولادهـا إلى الخـادم تطعمهم، وتسقيهم، وتربيهم كما تشاء، فلا يعرفون إذا شبوا أما لهم غير الخادم، أما أمهم فهي منشغلة عنهم بنفسها أو ترفها)

ونحن لا نتراجع عن ذلك الـترجيح هنـا، وإنمـا نريـد تأكيـده بالأخطـار الكبـيرة الـتي يجرهـا الخـدم على أولاد المسـلمين، وسنفسح المجال للدراسات والإحصائيات لتثبت ذلك وتؤكـد مـا رأيناه من ترجيح.

وسـنذكر هنـا آثـار الخـدم سـواء على مـا ذكرنـا من أبعـاد التربية أو أساليبها أو على الحقوق النفسية للطفل:

فللخدم ـ على حسب ما نرى في الواقع، وعلى حسب مـا تـدل الإحصـائيات ــ تـأثير كبـير على الأبعـاد الـتي جـاء الشـرع لترسيخها في نفس النشء المؤمن الصالح، وكأمثلة على ذلك:

على التربيـــة الإيمانيـــة: أفـــادت إحـــدى الدراســـات الميدانيـة في إحـدى الـدول الخليجيـة أن (60 -ـ 75%) غـير مسـلمات، وأن (97.5%) منهن يمارسـن طقوسـهن الدينيـة، ونســبة كبــيرة منهن وثنيــات، كمــا أن (50%) منهن يقمن بالإشــراف الكامــل على الأطفــال وأن (25%) منهن يكلمن الأولاد في قضايا الدين والعقيدة.

فكيف يتسنى للطفل أن يتربى تربية إيمانية سليمة وقوية، وهو يتعرض لهذه الزوابع العظيمة من دواعي الانحراف؟

على التربية الأخلاقية: أثبتت الدراسات الميدانية أن (58.6%) من الخادمـات (المربيـات) جئن من مجتمعـات تحبـذ إقامة العلاقات الجنسية قبـل الـزواج، فلا يتـورعن عن الاختلاط بالرجال، ولا مانع لديهن من تناول الخمـر والسـجائر، والأغـرب من ذلك أن (68.3%) منهن لا تزيد أعمارهن عن العشـرين، و(42.4%) منهن لم يسبق له الزواج.

وفي دراسة أخرى دلّت على أن (58.6%) منهن يحبذن ممارسة الجنس قبل الزواج، و(36.2%) منهن جئن من مجتمعات تتناول أطعمة محرمة، و(43%) منهن جئن من مجتمعات تتناول الخمور بصورة عادية، و(14%) منهن يستقبلن أصدقائهن (الرجال) في البيوت التي يعملن بها و(51.18%) منهن يشرحن لأطفالهن عن حياة الأطفال في مجتمعاتهن.

على البعد المعرفي: فالمربية أتت من مجتمعات مختلفة في ثقافتها ولغتها، وهي نفسها قد تكون ضائعة بين ثقافتين، حائرة بين نظامين، فلا هي تجيد اللغة العربية حتى تنقل ثقافتنا العربية الإسلامية للطفل، ولا هي تستطيع نقل ثقافتها الأجنبية والنتيجة عزلة عن ثقافته.

ولا شك أن الخادمات والمربيات يحاولن تنشئة الأبناء حسب قناعاتهم، فهي إن كانت مثقفة - كما هو الحال في الأسر الغنية - فإنها تؤثر في الأطفال أكثر من والديهم لإنشغال الوالدين وتخليهما عن مهمة التربية للخادمة (المربية)، بدعوى أنها مثقفة ومتخصصة في التربية، كما أن لهؤلاء المربيات - في تلك الأسر - مقدرة على الإقناع والتأثير على الوالدين، فضلاً عن الأبناء.

وبالتالي تنقل عدوى المفاهيم غير الإسلامية إلى البيوت المسلمة، فالمربية هي التي تختار ملابس الأطفال وبخاصة البنات، وهي التي تؤثر عليهن في نظرتهن إلى الحجاب والأزياء، وغير ذلك من الآداب والأخلاق.

زيادة على هذا، فإن لها تأثيرها الخطير على اللغة، فمن المعلوم أن المربية تلازم الطفل في مرحلة نموه الأولى والتي يكتسب فيها اللغة، ومن البديهي أن الطفل يلتقط منها ما يسمعه من ألفاظ، فيها من العربية الركيكة، والإنجليزية الركيكة، والأوردو وغير ذلك، مما يعتبر حاجزًا يعوّق نمو الطفل اللغوي، إذ يضطر إلى محاكاتها.

وقد دلّت الدراسات على أن (8%) من مجموعة المربيات في بعض دول الخليج لهن إلمام باللغة العربية، وفي بعض

الدول الأخرى (6.2%) فقط، وأن (25%) من أطفال الأسر الغنية يقلدون المربيات في اللهجة، وأكثر من (40%) منهم تشوب لغتهم لغة أجنبية، ويتعرضون لمضايقات من أقرانهم بسبب ذلك.

على أساليب التربية الشرعية: ذكرنا في الجزء السابق أهمية الأساليب التربوية الصحيحة في التنشئة السليمة للأولاد، فهي ركن من أركان التربية لا يستغنى عنه، وقد ذكرنا الكثير من الأمور التي قد تسيء إلى تربية الطفل، والتي نرى الخدم منبعا من منابعها، وكأمثلة على ذلك مما تدل عليه الدراسات:

القدوة السيئة: فالطفل مولع بتقليد من يراه - مع ضعفه واعتماده على من حوله - من الكبار، ومع ما ذكرناه من أحوال هؤلاء الخدم، هل ستناط بهم مسؤولية تربية وإعداد جيل المستقبل؟ ومن يكون القدوة لهم في البيوت، للتفريق بين الحلال والحرام عند غياب الوالدين ووجود الخادمة؟!

الجزاء: ذلك لأن القيم تُصاغ في نفس الطفل منذ طفولته المبكرة، من خلال تفاعله مع ما حوله ويتشرب موازين الحكم على الأشياء والأفعال، والخير والشر، ومع ما هو معروف من أحوال الخدم والمربيات، هل نتوقع قيمًا سوية؟ فإن الخادمة قد تكافىء الطفل على أفعاله القبيحة وتعاقبه على أفعاله الحسنة، وإذا وجدت مؤثرات تربوية إيجابية سوية كالمدرسة والوالدين والمسجد وغير ذلك، فإنها معرضة للتشويش والنقض في نفس الطفل بتلك الأخرى السلبية.

افتقاد القوامة التربوية: فالمربية (الخادمة) التي تقوم عن الطفل بجميع المهام، وهي مطالبة بأن تبادر إلى خدمته وطاعته في كل ما يريد ويرغب، فهي تريد إرضاء الطفل، ولا تفكر في لومه أو عقابه لأنها (خادمة) وحينئذٍ لا يستطيع الطفل أن يفرق بين الخير والشر، وبالتالي لا ينمو ضميره بل إن ذلك ينسحب في نفس الطفل وفي سنواته الأولى - خاصة - على مدرسيه - فقد لاحظنا بعض الأطفال - وبسذاجة وعفوية وبراءة - يتوقع من أُستاذه ما يراه من

الخادمة.

التدليل السلبي: والـذي يـؤدي إلى الاتكاليـة الـتي تنتج الإخفاق والفشل، حيث لا يعتمد الطفل على نفسه، وإنما تقـوم عنه الخادمة بجميع المهام فينشأ بعيـدًا عن النشـاط، قريبًـا من الكسل، ومن وجد كل أمر يُهيأ له دون عنـاء أنّى لـه أن يسـعى وأن يحاول، وبالتالي يتعرض للإخفاق في أول احتمال له.

كما يؤثر ذلك على تفاعله وانسجامه مع المجتمع، حيث لم يتدرب على تحمل المسؤولية، لذا نجـده عنـدما يخـرج من بيتـه ويتعامل مع قوانين المدرسة والمجتمع، سرعان ما يضيق ذرعًـا بما يواجهه من مواقف، أو ما يطلب منه من تكليفات.

على الحقوق النفسية: فالمربية (الخادمة) غير مؤهلـة لإشباع عاطفة الأمومة عند الأطفال، فالعواطف لا تدخل ضـمن وظيفـة المربيـة، وإنمـا تفيض تلقائيًـا من قلب الأم إلى أبنائهـا، والنتجية أن ينشأ الطفل في حياة ينقصها الحب والعطف فتتولد عنده الميول العدوانية.

كما أن وجود المربية يُضعف علاقـة الطفـل بوالديـه، فـإن عاطفة الطفل توزع على من يرعاه ويُحسن إليه.

وللطفــل حاجــات في أن يكــون موضــع تقــدير ومحبــة الآخرين، وأن يبادلهم نفس المشاعر والانفعالات، والخادمة غير مؤهلة لـذلك. فمن يسـتطيع أن يجبرهـا على أن تكـون سـعيدة ومبتسمة دائمًا في وجهـه، كمـا هـو شـأن الأم مـع أبنائهـا، ومن الذي يطالبها أن تتكلف ما لا تستطيع، وهي البعيدة عن أســرتها وموطنها، تفتقر إلى الأمن النفسي، وفاقد الشيء لا يعطيه.

وبسبب هذه الآثار السلبية السيئة التي يفرزها هذا المرض الداخلي العُضال على المجتمـع الخليجي، خاصـة، سـارع مكتب التربية العربي لدول الخليج إلى توجيه كتــاب إلى مجلس وزراء العمـل والشـؤون الاجتماعيـة في الـدول العربيـة الخليجيـة في دورته الرابعة بالرياض (يناير 1982م) والذي نظم بـدوره نـدوة علمية حول أثر المربيات الأجنبيات على تقاليد الأسرة المسلمة في منطقـــة الخليج، ناقشـــت المخـــاطر الناجمـــة عن الآثـــار

الاجتماعية والدينية والثقافية والتربوية للمربيات الأجنبيات على المجتمع الإسلامي.

المحيط التربوي

ونريد به المحيط الذي يتلقى فيه الولد تعليمه، وبالتالي يتلقى تربيته، فلكل طرف من الأطراف المكونة لذلك المحيط تأثيره التربوي الخطير، ولن نتحدث هنا ـ كما سلف الذكر ــ عن إيجابيات هذا المحيط أو ما ينبغي حوله، فقد خصصنا لذلك فصلا خاصا، وإنما نريد أن نتحدث عما يمكن أن يتعرض له الولد في هذا المحيط من مؤثرات سلبية يتحتم على القائمين المصلحين أن يقوموها، وأول التقويم الوقاية.

فمع أن المناهج الحديثة لا تخلو من الإيجابيات إلا أن هناك سلبيات كثيرة يتعين على المربي أن يتعرف عليها ليقي من يربيه من نتائجها، ونحن من خلال استعراض هذه الآثار والنتائج ـ كما ينص عليها المختصون ـ لا نقول بمقاطعة هذه المناهج ولا ننصح به، ولا نرى صحة فتوى من يفتي بذلك، بل نرى أمرين:

الأول: السعي الدؤوب لتغيير هذه المناهج لتتوافق مع الشريعة الإسلامية، وذلك بالتخطيط طويل المدى، لنواجه تخطيط غيرنا، وهذا التخطيط يستدعي حضورنا في هذه المناهج، بل تفوقنا فيها، لا غيابنا، بل إن الآثار الخطيرة لغيابنا هي التي أفرزت هذا الواقع.

الثاني: هو وضع المناهج البديلة لمقاومة سلبيات هذه المناهج، والتي سنوضح تصرورنا لها في محلها الخاص من الفصل الخاص بالبعد التعليمي.

2 ـ وسائل الإعلام

وهي من الأهمية والتغلغل في المجتمع والتأثير بحيث يمكن اعتبارها موازية لما سبق من مؤثرات، فلذلك خصصناها بمطلب خاص، والذي من خلاله نحاول أن نبين كيفية الوقاية من آثار وسائل الإعلام[1]، وكيفية الإفادة منها من جهة أخرى

1) عرف الإعلام بأنه عملية نقل المعلومات من المرسل صاحب الرسالة إلى

باعتبـار الإعلام في العصـر الحـالي أصـبح من أخطـر الأدوات ـ سلبا أو إيجابا ـ فقد تطـورت وسـائل الإعلام ومضـامينه تطـورا كبيرا مستغلة التطورات التقنية المتسارعة حتى وصلت إلى مـا نعرفه من التلفاز والإذاعة والصحافة والإنترنت وغيرها.

فالإعلام ـ في هذه الوسائل جميعا ـ يخاطب كافـة شـرائح المجتمـع، ومنهم الأطفـال، والطفـل - وهـو المسـتقبل لوسـيلة الإعلام- عنصـر غض طـري سـهل التشـرب لمـا ينقـل إليـه، فصفحته البيضاء قابلة للإشباع بأي شيء يقدم له.

وتأثر الطفل بالوسـيلة الإعلاميـة أعظم وأشـد من الكبـير، فالكبير يفكر ويدرك ويميز ويختـار ويـرفض، أمـا الصـغيرفيفتقد الكثير من القدرة على الرفض بل حتى عندما يـربى على رفض بعض المواد الإعلامية فإنه سـرعان مـا يعـود إليهـا عنـدما يغيب الموجه والمسؤول عنه، وليس الأمر عنادا إلا أنـه يحسـن الظن بكل ما يعرض عليه من الجانب الآخـر كمـا يفتقـد القـدرة على الرفض المطلق ويضعف عن الاختيار والتمييز.

لـذلك كـان الطفـل هـدفا رئيسـا لكثـير من الأنظمـة حيث يـربى الطفـل ويوجـه لأهـداف سـيئة بجهـود إعلاميـة وتوجيهيـة متأنية وتكبر معه هذه الوسائل الإعلامية لدرجة أنها تصبح جـزءا من شخصيته عندما ينضج[1].

انطلاقا من هذا سـنذكر هنـا أهم هـذه الوسـائل الإعلاميـة، مركزين على ما فيهـا من سـلبيات بغيـة التنبيـه إلى مخاطرهـا، معتقـــدين في نفس الـــوقت أنهـــا من الوســـائل الـــتي يمكن الاستفادة منها إن أحسـن المـربي كيـف يسـتثمرها، خاصـة مـع دخول الإعلام الإسلامي هذه الوسائل.

فمن الإيجابيـات المتعلقـة بالطفـل على سـبيل المثـال لا الحصر[2]:

المستقبل المعني بها متضمنة الوسيلة المستخدمة والمضمون داخلها والإعلام.

1) انظر: مشروع مجلة رائدة للطفل، للدكتور مالك إبراهيم الأحمد.

2) انظر: مشروع مجلة رائدة للطفل، للدكتور مالك إبراهيم الأحمد.

تنمية الجانب المعرفي للطفل: حيث تقوم وسائل الإعلام بمهمة التعليم سواء أكان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر وتكون مرتبطة بما يقدم خلال المدرسة وأحيانا تقدم مواد تعليمية لطفل ما قبل المدرسة.

تنمية وصقل مهارات الطفل: حيث تعنى الكثير من هذه الوسائل بتنمية المهارات سواء ما تعلق منها بالعمل اليدوي، أو ما تعلق بالقدرات الذهنية والعقلية، ومع ذلك فقد تكون هذه المهارات إيجابية ضمن أهدافها مثل التجارب العلمية، وقد تكون سلبية مثل سلوكيات المجرمين وحيلهم التي تعرض في القصص على سبيل المثال.

الارتباط بالمجتمع: حيث يربط الإعلام الطفل بمحيطه وبيئته وييسر له سبل التواصل معه بشكل سهل وفعال ويحبب له الجماعية في العمل ويؤكد له ارتباطه بقيم المجتمع وأخلاقه وسلوكه وقبل ذلك دينه وشريعته إذا كانت الوسيلة الإعلامية تعتني بهذه المواضيع وتجعلها ضمن أهدافها وقد يكون الأثر عكس ذلك تماما إذا كانت الوسائل الإعلامية لا تقيم اعتبارا للقيم والأخلاق والدين.

الترويح: وهذا الأمر ليس ترفا أو رفاهية بل واقع ويسد حاجة لدى الطفل لكن لابد أن يتناسب مع سن الطفل وقدراته وبيئته ولا يتعارض مع واجباته الأخرى ومسؤولياته.

بعد هذه الأمثلة عن بعض منافع وسائل الإعلام نعرج إلى بعض السلبيات لتوقيها، وقد اخترنا لذلك ثلاث وسائل إعلامية، هي أهم الوسائل وأكثرها انتشارا، وهي التلفزيون، والمجلة، والإنترنت.

التلفزيون

وهو من أهم وسائل الإعلام وأكثرها انتشارا، بحيث لا يكاد يخلو بيت منه، بل من كل الأجهزة المرتبطة به، والتي تتيح استقبال قنوات العالم أجمع، وقبل أن تحدث عن السلبيات التي ينبغي على المربي حماية من يربيه عنها، نذكر ـ للذين يتصورون أن مجرد رمي هذه الوسيلة بالسلبية تحجر ممقوت ـ

بعض أقوال عقلاء الغرب، ممن رأى خطورة هـذه الجهـزة على إنسانية الإنسان(1).

يقول يوري ديـو زيكـوف وهـو أخصـائي اجتمـاعي:(إدمـان مشاهدة التلفاز وباء سيكولوجي جديد يعم كوكبنا ؛ إنه إذ يسلِّينا يلوث طبيعتنا السيكولوجية والحِسِّية)(2)

وذهب الكـاتب الأمـريكي (جـيري مانـدر) في كتابـه (أربـع مناقشات لإلغاء التلفزيون) الذي أودعه خلاصة تجربته في حقل الإعلام إلى القـول:(ربمـا لا نسـتطيع أن نفعـل أي شـيء ضـد الهندسة الوراثية والقنابل النيوترونية، ولكننا نسـتطيع أن نقـول (لا) للتلفزيون ونسـتطيع أن نلقي بأجهزتنـا في مقلب الزبالـة ؛ حيث يجب أن تكـون، ولا يسـتطيع خـبراء التلفزيـون تغيـير مـا يمكن أن يخلفــه الجهــاز من تــأثيرات على مشــاهديه، هــذه التـأثيرات الواقعـة على الجسـد والعقـل لا تنفصـل عن تجربـة المشاهدة)(3)

وأضـاف:(إنـني لا أتخيـل إلا عَالَمـاً مليئـاً بالفائـدة عنـدما أتخيل عَالَماً بدون تلفزيـون، إن مـا نفقـده سـيعوض عنـه أكـثر بواسـطة احتكـاك بشـري أكـبر، وبعث جديـد للبحث والنشـاط الذاتي)(4)

أما السياسـيون، فقـد ناشـد (هيلمـوت شـميت) مستشـار ألمانيـا الغربيـة السـابق (الآبـاء والأمهـات أن يغلقـوا أجهـزة

---

1) انظر: الأسرة المسلمة أمام الفيديو والتلفزيون، بصـمات على ولـدي، التلفزيـون بين الهدم والبنـاء، سـموم على الهـواء، فريـد التـوني ؛ الإنسـان حيـوان تلفزيـوني، البث المباشر حقائق وأرقام، د ناصر العمر ؛ التلفزيون وحكمه في الشريعة الإسلامية، الشـيخ عبد الله بن حميد.

وانظر: محمد بن أحمد إسماعيل، ماذا تعرف عن: العجل الفضي، أعدها للنشر:إسلام دعدوشة، مجلة البيان: 143، ص:70.

2) بصمات على ولدي، ص6 نقلا عن جريـدة الأنبـاء الكويتيـة، بتـاريخ13 /7/198م، مقال حول تأثير التلفزيون على الأسرة.

3) الأسرة المسلمة، ص 252.

4) أربع مناقشات لإلغاء التلفزيون ص 346 بتصرف.

التلفزيـون على الأقـل يومـاً واحـداً خلال الأسـبوع)، وقـد رفض رئيس جمهورية فنزويلا أن يسمح بإدخال التلفزيون الملون إلى بلاده، زاعماً أنه سيكون دافعاً جديداً لزيـادة الـروح الاسـتهلاكية المحقونة)[1]

وحكى الأسـتاذ مـروان كجـك أن صـديقاً لـه زار أسـتاذه الجامعي في بيته وكـان هـذا الأسـتاذ نصـرانياً، فلاحـظ الأخ أنـه ليس لدى أستاذه تلفزيون فسأله عن سـبب ذلـك فأجـاب:(أأنـا مجنون حتى آتي إلى بيتي بمن يشاركني في تربية أبنائي؟)[2]

بعـد هـذه الشـهادات، فـإن من أهم الآثـار الخطـيرة لهـذا الجهاز:

التغريب: وهو من أعظم الأخطار، لأنه لا يتعلق بالسـلوك وحده، وإنما يتعلق بالحياة جميعا، حيث أنه يشـيع نمطيـة معينـة من الحيـاة بفكرهـا وسـلوكها هي نمطيـة الإنسـان الغـربي، باعتباره المصدر الأول للمواد الإعلامية.

وفي دراسـة أجراهـا اليونسـكو تـذكر:(إن إدخـال وسـائل إعلام جديدة وخاصـة التلفزيـون في المجتمعـات التقليديـة أدى إلى زعزعــة عــادات ترجــع إلى مئـات السـنين، وممارسـات حضارية كرسها الزمن)[3]

وفي تعليقـه على دخـول البث المباشـر إلى تـونس قـال الأستاذ فهمي هويدي:(خرج الاستعمار من شـوارع تـونس عـام 1956م ولكنه رجـع إليهـا عـام 1989م لم يرجـع إلى الأسـواق فقـط، ولكنـه رجـع ليشـاركنا السـكن في بيوتنـا، والخلـوة في غرفنا، والمبيت في أسِرَّة نومنا. رجع ليقضي على الدين واللغة والأخلاق، كان يقيم بيننا بالكره، ولكنـه رجـع لنسـتقبله بـالحب والترحـاب، نتلـذذ بمشـاهدته، والجلـوس معـه، إنـه الاسـتعمار الجديد لا كاستعمار الأرض وإنما استعمار القلـوب، إنـه الخطـر

---

1) انظر الإعلام الإذاعي والتلفزيوني ص 238.

2) أربع مناقشات لإلغاء التلفزيون، ص348، بتصرف.

3) البث المباشر، ص73 نقلا عن أصوات متعددة، ص 338.

الذي يهدد الأجيال الحاضرة والقادمة، يهـدد الشـباب والشـابات والكهول والعفيفات، والآباء والأمهات)[1]

وفي بحث كتبـه جـون كونـدري حـول التلفزيـون والطفـل الأمريكي أكد أن البيئة القيمية للتلفزيون يشـوبها الخلـل بنفس القـدر الـذي يشـوب البيئـة الفكريـة، ومن خلال مـا تطرحـه الإعلانـات التلفزيونيـة كـانت قيم السـيطرة والنفعيـة والأناقـة والتمـيز الاجتمـاعي من أكثرهـا ورودًا، وكـانت قيم الشـجاعة والتسامح من أقلها ورودًا ؛ هذا بالإضـافة إلى تحريـف الحقـائق والقيم حول الجريمة والعقاب.

وفي نهايـة البحث يقـول جـون كونـدري: إن التلفزيـون لا يمكن أن يكـون مفيـدًا كمصـدر للمعلومـات للأطفـال ؛ بـل إنـه يمكن أن يمثل مصـدرًا خطـرًا للمعلومـات ؛ فهـو يقـدم أفكـارًا تتسـم بـالزيف والبعـد عن الواقعيـة، وهـو لا يملـك نسـق قيم متماسكًا، بخلاف تعميقه للنزعة الاستهلاكية. وهو لا يقدم سـوى قدر محـدود من المعلومـات عن الـذات، وذلـك كلـه يجعـل من التلفزيون أداة رديئة للتكيف الاجتماعي)

وهـــذه النمطيـــة هي الـــتي حطمت، ولا زالت تحطم قيم مجتمعاتنا المحافظة، فتنشر الرذيلة، وتقتل الغيرة، فلا ريب أن توالي هذه المشـاهد المسـموعة وتكرارهـا يجعلهـا مـع الـوقت شيئاً عادياً، فـيروِّض المشـاهِد على غض الطـرف عن الفضـائل وقبول الخيانة الزوجية، إلى غير ذلك من الأحوال.

فلهذا صـرنا نـرى البسـطاء من النـاس صـاروا يقبلـون أن يحتضـن رجـل بنتـاً شـابة؛ لأنـه يمثـل دور أبيهـا! فلم يعـودوا يستنكرونه، وتعجب أن تـرى الـزوج المسـلم يجلس مـع زوجـه وبناته وأبنائه أمام التلفزيون، وهم يرون ما يعرضـه من مشـاهد إباحية، وتسكر أهله تلك المشاهد، ويلـذ لزوجتـه وبناتـه وأبنائـه هـذه المنـاظر وهـو قريـر العين، يضـحك ملء فيـه، وينـام ملء جفنـه، وهكـذا تتعـود القلـوب رؤيـة منـاظر احتسـاء الخمـور والتدخين، وإتيان الفواحش، والتبرج والاختلاط، وتألف النفوس

---

1) نقلا عن الأهرام، 27/6/1989م.

هذه الأحوال ويكون التطبيع مع المعاصي والكبائر والدياثة(1).

أمــا على مســتوى العقيــدة والفكــر، فمن خلال ســيطرة السوق الأمريكية واليابانية على مسلسلات وأفلام الصـغار نـرى انعكاس الاعتقاد في قوة الشمس والطبيعة والصليب وغيرهـا ؛ بل إن المسلسل يتضمن أحيانًا أكثر من رب، هذا بالإضــافة إلى تشويه مسيرة الإسلام وقيمه من خلال المواد المعروضة.

أما على مستوى المثـل العليـا للإنسـان، فـإن هـذه المثـل أصــبحت لا تعــدوا الإنســان الغــربي او من يلهث خلفــه، يقــول الكاتب محمـد عبـد اللـه السـمان مشـيراً إلى حلقـة تلفزيونيـة استضيف فيهـا بعض طلبـة مدرسـة معروفـة للمتفـوقين يقـول الكاتب:(كان المتوقع أن تكون الحلقة إلى آخر دقيقــة فيهــا من الحلقــات الجــادة الــتي يتلقى منهــا ســائر الطلبــة دروســاً في التفوق. وسأل مقـدم البرنـامج الطلبـة واحـداً واحـداً عن مثلـه الأعلى في الحياة، وكانت الإجابات مذهلة ؛ فالمثل الأعلى لـدى الطلبـة المتفـوقين هم على الـترتيب ولسـت أدري أهـو تـرتيب تصــاعدي أم تنــازلي؟: عبــد الحليم حافــظ، بليــغ حمــدي، نــزار قباني، محمد عبد الوهاب، أنيس منصور. قلت تعقيباً على هــذه الإجابــات: لم أكن أنتظــر من هــؤلاء المتفــوقين أن يقولــوا: إن مثلنا الأعلى هو أبو بكر أو عمر أو علي أو خالــد بن الوليــد، بــل كنت أتوقع أن يقول واحد منهم: إن مثلي الأعلى هو: أبي)(2)

الانحراف الخلقي: وقد رأينــا أن الشــريعة حــرمت كــل الوســـائل المفضـــية إلى الانحـــراف مهمـــا اختلفت ألوانـــه، والتلفزيون من أعظم وسائل الانحراف بمختلف أنواعه.

كـــالانحراف **الإجـــرامي** مثلا حيث توصـــلت الدراســـات التحليلية إلى (أن التلفاز بما يعرضه من أفلام ومنـاظر إجراميـة أو انحلالية(3) قد يؤدي إلى انحراف كثير من النشء عن طريــق

1) بصمات على ولدي، ص11.

2) الأسرة المسلمة أمام الفيديو والتلفزيون ص 271 ـ 272.

3) راجع كتاب: الأسرة المسلمة أمام الفيديو والتلفزيون، ص 134 لبيان أثر مشـاهد العنف والجريمة التي يعرضها التلفاز على الشباب.

ما تخلفه من خيالات يعيشها، كما تبين من مجموعة ذكور منحرفين قد تناولتهم تلك الدراسة أن أحد الأفلام أثارت فيهم الرغبة في حمل السلاح، وعلمتهم كيفية ارتكاب السرقات وتضليل البوليس، وشجعتهم على المخاطرة بارتكاب الجرائم) (1)

وفي ولاية ميامي هاجم اثنان من الفتيان الصغار امرأة فضرباها على رأسها بمؤخرة المسدس، وما إن أغمي عليها حتى قاما بركلها بأرجلهما تماماً مثلما شاهدا في الأفلام البوليسية(2)

وفي واشنطن قام أحد الصغار بسحب وقود سيارة جارهم وصبه عليه وهو نائم، ثم أشعل الثقاب ورماه على الجار الذي أخذ يركض والنار تلتهمه، وكان عمر هذا الصغير ست سنوات(3).

وكيف لا يحصل هذا، وقد أحصت إحدى المجلات الفرنسية مشاهد العنف التي رآها المشاهدون خلال أسبوع واحد من شهر أكتوبر 1988، فكانت كالتالي:670 جريمة قتل، 15 حالة اغتصاب، 848 مشاجرة، 419 حالة تراشق بالرصاص أو انفجار، 14 حالة خطف أو سرقة، 32 حالة احتجاز رهائن، 27 مشهد تعذيب، علمًا أنه لم يؤخذ بالحسبان مشاهد العنف النفسي أو اللفظي أو الإيجابي.

والدراسات الغربية كافة تؤكد أن الذين يقومون بالأعمال العدوانية هم من المدمنين على مشاهدة برامج التلفزيون العنيفة ؛ وقد أثبت باحثان أمريكيان أن معدل انتحار المراهقين ازداد بنسبة 13.5% لدى الفتيات و5.2% لدى الصبيان خلال الأيام التي تعقب الإشارة أو الإعلان عن وقوع حالة انتحار في

---

1) راجع: الإعلام الإذاعي والتلفزيوني، ص32 حيث يقول د ستيفن بانا حبيب بجامعة كولومبيا: إذاكان السجن هو جامعة الجريمة، فإن التلفزيون هو المدرسة الإعدادية لانحراف الأحداث.

2) الإسلام في مواجهة الجاهلية، ص189 190.

3) الإسلام في مواجهة الجاهلية، ص185.

الأخبار المصورة أو في أحد الأفلام.

أمـا الانحـراف **الجنسي**، فحـدث ولا حـرج، فكثـير من الأطفـال في بدايـة سـن المراهقـة أو قبلهـا بقليـل يشـاهدون التلفزيون على أنه مصدر للمعلومات حول السـلوك الجنسـي ؛ وهو يصور الجنس على نحو زائف ومحرف، وعلى وجه حيـواني لا يراعي قيمًا ولا مُثلاً ولا آدابًا.

وهو لذلك أعظم وسيلة لقتل الحياء الذي قال فيـه ﷺ:(إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع مـا شئت)(1)، فمن أخطر مفاسد التلفزيون هـو القضـاء على ذلـك الخلق الفطري الأصيل.

أخطاره على الصحة النفسية: تكاد الدراسات العلمية التي أجريت لدراسـة آثـار التلفـاز على الصـحة النفسـية تجمـع على ما يلي:

1. أنه يدرب مشاهديه على الكسل الـذهني، ويشـيع فيهم روح السـلبية، ويجعلهم إمَّعـات يميلـون مـع الـريح حيث مـالت، وأنــه ينفث في روعهم روح (عــدم المســؤولية) والاستســلام، والانهزامية، ويصرفهم عن معالي الأمور، ويشغلهم عن الأهداف السامية، ويزيد رقعة الخواء الفكري في نفوسهم(2).

2. أنه يولد الغلظة في المشاعر، والبلادة في الحس، كمـا تؤثر المسلسلات البوليسية ومشاهد العنف والقتل على نفسـية الأطفال(3).

3. أنه يظهر للصغار أن الكبار يحيون حياة حافلـة بالصـراع والتنافس فيشوه مفاهيمهم مبكراً.

4. التعود على الضجيج والصخب الذي يضر بحاسة السـمع فيسبب كثيراً من حالات الصداع والاضطرابات العصبية والتوتر.

---

1) رواه أحمد والبخاري وأبو داود.

2) انظر الأسرة المسلمة، ص113ـ 114.

3) انظر بصمات على ولدي ص 23ـ 24.

5. تعلق قلب الشباب المراهقين بمذيعة أو ممثلة أو مغنية حسـناء، وابتلاؤه بمعصـية العشـق الـذي يتلـف الـدنيا والـدين، والأخطار نفسـها يخشـى منهـا على الفتيـات اللائي هن أضـعف قلوباً وأسرع استجابة لداعية الهوى.

المجلات

وهي من وســائل الإعلام الــتي لهــا أهميتهــا الكــبرى في التثقيف والتوعية، ولها خطورتها كـذلك على السـلوك الأخلاقي، أو القيم التي لها أثرها الخطـير في التربيـة، وسـنركز هنـا على المجلات المختصة بالأطفال(1)، ونكتفي منهـا بـذكر نمـوذج من

---

1) بـرزت مجلات الأطفـال بشـكل ملمـوس في الغـرب في بدايـة القـرن العشـرين مواكبة انتشار الصحافة وتطورهـا وكـانت في بـداياتها محـدودة الانتشـار تعـنى بالرسـوم الهزلية بشكل كبيركـذلك صـدرت ملاحـق للأطفـال في الصـحف الرئيسـة كعامـل جـذب للأسرة لاقتناء الصحيفة.

وغلب على هذه المجلات جانب التسلية والفكاهة ثم تطورت بشكل كبير متوافقة مع تطور الطباعة وانتشار أدواتها فضلا عن تيسر سبل المواصلات وقدرات الناس الشرائية.

ومع تقدم العلم والمعرفة أخذت القصص المصورة جانبا واسـعا من مجلات الأطفـال وحتى الكبار وانتشرت بشكل كبير.

كذلك تنوعت المجلات بحسب سن المخاطب وغطت مراحل عمرية مبكرة جدا حـتى إن هنـاك مجلات للأطفـال في السـنة الأولى من أعمـارهم كمـا تصـدر مجلات للأطفـال خاصة بالذكور وأخـرى بالإنـاث وهنـاك مجلات متخصصـة بـالتعليم وأخـرى علميـة وثالثـة منوعة ونالت فترة ما قبل المدرسة نصيبا هاما من سوق المجلات.

ففي اليابان -على سبيل المثال- هناك مجلة للأطفال الذين تتراوح أعمـارهم بين 3-5 سنوات توزع 300 ألف نسخة أسبوعيا وفي فرنسا هناك مجلة بوبي تصـدر للأطفـال في سن 15 شهرا وتعتمد على الرسوم التوضيحية للأشياء القريبة من الطفـل ويطلـع عليهـا الطفل بمساعدة والديه وفي اليابان كذلك مؤسسة تجاريـة واحـدة تعـنى بلعب الأطفـال تصدر 54 مجلة للأطفال شهريا أما في أمريكـا فتصـدر 338 مجلـة 1988م تغطي كافـة أعمار الأطفال وكافة اهتماماتهم توزع أكثر من 53 مليون نسخة.

وتصدر عن بعض المؤسسات الكنسية والأحزاب الدينية الغربية مجلات للأطفـال تهتم ببث القيم النصرانية لدى الأطفال ولا تخلو من مواد أدبية أو فكاهيـة تسـاعد على تـرويج المجلة وهي توزع في كثير من الأحيان مجانا أو بسعر تشجيعي للأطفال وهي غالبا لا تعبأ بالتكاليف المالية نظرا لأهدافها الدينية ووجود مصادر مالية قوية وثابتة تدعمها.

إضافة للنصـارى يحـرص اليهـود -بمؤسسـاتهم الدينيـة- على إصـدار مجلات للأطفـال لتحقق ارتباط أبناء اليهود بالتوراة والمجتمع اليهودي.

ويحرص الغرب -كجزء من اهتمامه الواسع بالإنسـان الغـربي - على المعـاقين بكافـة فئاتهم وبالأخص الأطفال فيقـدم لهم خـدمات إعلاميـة خاصـة حيث تصـدر بعض المجلات

تأثير هذه المجلات على غرس العنف في نفوس الصغار.

ولن نذكر هنا آثار المجلات الغربيـة، فـإن سـمومها تتعـدى العنف إلى غيره من جميع مظاهر الانحـراف، بـل سـنذكر بعض المجلات العربية، وذلك على ضوء دراسة حول (صحافة الطفـل في العالم العربي وتأثيرها على شخصـيته واتجاهـه نحـو العنـف والعدوانيـة)، وهـو موضـوع رسـالة دكتـوراه الـتي تقـدمت بهـا الباحثـــة (ســحر فــاروق الصــادق) إلى كليـــة الإعلام جامعـــة القاهرة(1).

فقد تناولت الدراسة أربعـة عناصـر أساسـية هي مضـمون العنـف ووسـيلته مجلات الأطفـال، وجمهـوره وهم قُـرّاء هـذه المجلات، ثم كُتّاب السيناريو والرسامون القائمون بالعمل.

ورصدت الدراسة مظاهر العنف المقـدم للطفـل من خلال مجلاته، وتحليل ملامح هذا العنف، ومعدلاته المنشورة في قالب قصصي فقـدمت دراسـة تحليليـة لتسـع مجلات للأطفـال تمثـل سـت مجلات مصـرية هي علاء الـدين، وميكي، وسـوبر ميكي، وسمير، وكـابتن سـمير، وقطـر النـدى، إلى جـانب ثلاث مجلات عربيـة هي العـربي الصـغير، وماجـد، وباسـم، بمجمـوع (104) أعداد منها في الفترة من يناير حتى ديسمبر 1997م. ثم قامت بدراسة جمهور الأطفال القـارئ لهـذه المجلات وقوامـه (400) طفل تتراوح أعمارهم مـا بين (11 و16) عامًـا وينتمـون جميعًـا لمرحلـة التعليم الإعـدادي وتم أخـذ العينـة من أحيـاء شـعبية وصناعية وراقية (الدقي - بولاق الدكرور - حلوان - مدينة نصر)، ومن مـدارس مختلفـة (حكوميـة - تجريبيـة – خاصـة)، ومن الصفوف الدراسـية الثلاثـة (الأول والثـاني والثـالث الإعـدادي)، ومن الـذكور والإنـاث، وداخـل كـل حي من الأحيـاء الأربعـة تم اختيار أربع مدارس بشكل عشوائي بمعرفـة الإدارات التعليميـة التابعة لها هذه الأحياء بحيث تتمثـل بهـا أنـواع المـدارس الثلاث

في أوروبا وأمريكا طبعة خاصة بالعميـان لغـة برايـل وهـذا خلاف المجلات الخاصـة أصلا بالمعوقين مثل العميان والصم وغيرهم.

1) انظر: صحافة الأطفال تعلّم أولادنا العنف، كريمة حسن، جريدة القاهرة، دراسات إعلامية.

المذكورة، وداخل كل مدرسة من خلال قوائم الفصول لسنوات الدراسة تم تحديد فصل في كل سنة دراسية تبعًا لعدد فصولها بالمدرسة، وتم اختيار الأطفال من داخل الفصول مع مراعاة العدد الكلي داخل كل فصل والتمثيل النسبي للإناث والذكور وأجاب (99%) من أطفال العينة بأنهم يقرأون مجلة للطفل أما من يتابع مجلتين أو أكثر فكانت النسبة (54.1%).

وكشفت نتائج الدراسة عن ارتفاع معدلات العنف المنشور في صحف الأطفال المصرية والعربية بشكل يدعو إلى القلق، حيث بلغت نسبة القصص التي تحمل عنفًا (40.4%) من إجمالي القصص موضوع الدراسة.

وبدت مجلات سوبر ميكي، وميكي، وباسم، على رأس قائمة صحف الأطفال من حيث كم العنف المنشور على صفحاتها، بينما بدت مجلات علاء الدين، وقطر الندى،والعربي الصغير، أقل صحف الدراسة من حيث العنف المقدم بها، واتسم العنف المنشور بمجلات الأطفال بسمات تمثل في مجملها عوامل جذب للطفل نحوه، كما بدت النسبة الكبرى من مظاهر العنف المنشور نابعة من دوافع اجتماعية مألوفة للطفل يمكنه فهمها والتفاعل معها، كما ظهرت أماكن العنف قريبة من واقع الطفل يمكنه تقليدها، الأمر الذي يقرّب العنف من عقله ويمكّنه من اختزان صوره وأحيانًا تقليده.

وكانت مظاهر العنف عنفًا بدنيًا مثل:(الضرب - مطاردات - تكسير أشياء - تلويح أو ضرب بالسلاح - دفع الآخرين بعنف - قتل - اغتيال - سرقة – اختطاف)، أو عنفًا لفظيًا مثل:(السب والقذف والتشبيهات الجارحة وكلمات التهديد بأعمال انتقامية، أو سخرية من الآخرين باللفظ أو بالضحك، أو الصراخ أو حتى كلمات التحريض والتهديد بالعنف)، ويتم تقديم هذه المادة في سياق يخلو من أي أشكال للعقاب، بل قدم البعض منها في شكل ينصف القائم به.

وأوضحت الدراسة الارتفاع الواضح في نسبة الميول العنيفة لدى أطفال العينة، وكشفت النتائج عن زيادة هذه الميول بين من يتعرضون لوسائل الإعلام، مما يؤكد دعم

وسائل الإعلام لتلك الميول لـدى الأطفـال، وتـبين أن اتجاهـات الأطفال الذين يتخذون قدوتهم من النمـاذج الإعلاميـة (الأبطـال والشخصيات الكرتونية والدرامية وغيرها)، قد بدت مرتفعة نحو العنف بينما كانت منخفضة لدى من يتخذون قدوتهم من نمــاذج الاتصال الشخصي (الأب - العم - المدرس) وأوضحت الدراســة كـذلك أن هنـاك دوراً إيجابيًـا للتنشـئة الأسـرية يتعلـق بمعاملـة الأبناء ومشاركتهم بالمناقشة لما يقـرأون، أو هـذا الـدور يكـون إيجابيًا مع الأبناء إذا بـدأ في سـن مبكـرة، تكـون فيـه اتجاهـات الأطفال نحو العنف منخفضة، بينما يتضاءل هذا الدور إذا بدأ مع الأبناء في سن متقدمة يكون الأبناء قد كوّنوا اتجاهـاتهم العنيفـة بالفعل.

وأظهـرت الدراســة أيضًـا أن الطفـل إذا تعـرض أو لاحـظ بشكل دوري مجموعة من الأبطال يمارسون العنف فإنــه يمكن أن يتعلّم العنف منهم، وأحيانًـا يمكنـه تقليـدهم، خاصـة إذا كـان سياق العمل يبرز العنف في صورة حسنة يحقق لصاحبه مزايـا، كذلك عدم وجود أي شكل من أشكال العقاب، كذلك كلما تزايد معدل قراءة الأطفال لمضـامين عنيفـة زادت لـديهم الاتجاهـات المرتفعـة نحـو العنـف، وتمثلت هـذه النتيجـة بشـكل كبـير لمن ينتمون لبيئة عمالية وفي مراحل عمرية متوسطة (13-14سنة) وينتمون للتعليم التجريبي.

وإذا تعـرض الطفـل لظـروف تنشـئة أسـرية سـلبية تـزداد اتجاهاته نحو العنف ويتضح هـذا الأمـر بين أبنـاء التعليم الخـاص والمنتمين لبيئات عمالية.

وقدمت الدراسة حصرًا لحجم العنف، فتم رصده تبعًا لعدد القصص العنيفة حيث بلغت نسـبة القصـص العنيفـة (40.4%)، وجاء حجم العنـف تبعًـا لعـدد صـفحاته (الصـفحات الكاملـة من العنـف) نسـبتها (26.8%)، وتبعًـا لعـدد الـبراويز العنيفـة الـتي تضمنتها قصـص الرسـوم المتتابعـة المصـورة (33.5%)، وعلى نطاق القصص الأدبية التي تقدم للطفل في شكل أسـطر بلغت نسـبة الأسـطر العنيفـة بهـا 12.3% وهي أقـل نسـب العنـف المنشور. كذلك أوضحت الدراسة أنه كلما كان مضمون القصــة

مترجمًا كانت نسبة العنف مرتفعة بعكس لو كان كـاتب القصـة عربيًا.

كذلك قامت الباحثة بدراسة ثمانيـة عشـر مبـدعًا وهم من المنتجين والمنتظمين في نشـر أعمـالهم الخاصـة بالطفـل في المجلات المذكورة، وأوضحت الدراسـة أن هنـاك اتجاهًـا سـائدًا بين العـاملين في حقـل الطفـل يقـر تقـديم العنـف ونشـره للأطفـال من منطلـق ضـوابط لا تحـد من تـأثيره السـلبي على الطفـل، كـذلك تسـاعد الأوضـاع الصـحفية والماديـة لصـحف الأطفال على دعم تقديم العنف عبر صفحاتها وذلك لعدم تحقق الـدور الـتربوي والاجتمـاعي لهـذه الصـحف، إضـافة إلى اتجـاه القـائمين على هـذه الصـحف لتعـويض انصـراف الأطفـال عن صحافتهم بتقـديم العنـف، لهم في محاولـة منهم لإعـادة جـذب الطفل لمطبوعاتهم. كذلك تسـاعد الأوضـاع المهنيـة على نشـر العنــف، فالقــائمون على سياســات التحريــر لا يمــانعون في تقديمـه، والمنـاخ المجتمعي أصـبح العنـف أحـد مظـاهره حيث يتفاعل المبدعون معه فتولد أفكارهم مشبعة به.

وتوصـي الباحثـة في نهايـة دراسـتها بأنـه إذا كـان هنـاك ضرورة لتقديم مادة صحفية عنيفة للأطفال وحتى هـذه النسـبة القليلـة لا بـد أن تحتـوي على ضـوابط للحـد من تـأثير العنـف المقروء على الطفل، بحيث ترتكز على زيادة ووضـوح العقـاب داخل القصة، ولا تتضمن أية نتائج لصالح مقترفي العنف.

وهذا ما يدعو إلى الاهتمام بالبـديل الـذي يقي النشـء من أمثـال هـذه الانحرافـات، وقـد كتب بعض البـاحثين المعاصـرين مشروعا لمجلـة إسـلامية خاصـة بالأطفـال[1]، تكـون بـديلا عن الكم الضخم من المجلات التي تمتلئ بهـا الأسـواق، وقـد خلص في الأخير إلى بعض الخصائص التي تتصف بها هـذه المجلـة، لا بأس من سوقها هنا لأهميتها:

1. الاسـتفادة من التوجيهـات التربويـة المعاصـرة بحيث تكون المجلة رافدا تربويا هاما للأطفال.

---

1) مشروع مجلـة رائـدة للطفـل، من سلسـلة كتـاب الأمـة، للـدكتور مالـك إبـراهيم الأحمد.

2. إدراك أهداف المجلة بشكل كامل وإنزال مواد المجلـة على هذه الأهداف.

3. وجود متخصصين في أدب الأطفـال وعلم التربيـة وعلم النفس إضافة إلى متخصصين في الشؤون الفنيـة قـادرين على تحويـل الفكـرة إلى واقـع عملي ملمـوس جـذاب ومقبـول للأطفال.

4. الوعي بخصائص الطفولة وحاجتها وميولها.

5. تحديـد شخصـيات المجلـة بشـكل دقيـق بحيث تحقـق أغـراض المجلـة من خلالهـا التنـوع بين الأسـاليب الصـحفية المستخدمة.

6. التنويع في المواد بمـا يشـوق الأطفـال ويحفـزهم على القراءة.

7. الكتابة باللغة العربيـة البسـيطة وبأسـلوب سـهل قـادر على إيصال الرسالة المطلوبة للمرحلة العمرية المقصودة.

8. التـوازن بين القصـص المصـورة وبـاقي مـواد المجلـة بحيث لا تطغى الأولى على صفحاتها.

9. الاستفادة من الفنون المعاصرة في الإخراج والتصـميم والطباعة.

10. إشراك الطفل في تحرير أجزاء من المجلة.

لذلك لابد من مراعاة ما يلي في مجلات الأطفال:

1. أن يكـون الكـاتب -مـا أمكن- من المختصـين بـأدب الأطفال.

2. عدم تكثيف المادة والموضوعات.

3. مراعاة السن.

4. التنوع في المواد.

5. البعد عن التكرار المتماثل.

6. التجديد والتنوع في القالب الفني والأساليب المستخدمة بين فترة وأخرى.

7. استخدام الصور والرسوم بشكل جيد يغري بالاطلاع.

8. الاستفادة من الإمكانات الحديثة في التصميم والإخراج والطباعة فالطفل يميز بين هذه الأمور والألوان عنصر أساس في تذوق الطفل للمادة.

9. التشويق في المحتوى.

10. التواصل مع الطفل من خلال مساهماته ونشرها.

11. البساطة وسهولة الفهم بالنسبة للمادة المطروحة.

12. الحركة والحيوية في الجانب الفني والموضوعي.

13. الأسلوب السلس الخفيف المناسب.

14. عدم إغفال جانب المرح والفكاهة المحبب للطفل.

الإنترنت

وهي من الوسائل المعاصرة، بل من أخطرها وأنفعها في نفس الوقت، ولذلك تحتاج مراقبة خاصة، لأن ما فيها من الخير لا يمكن أن يترك لأجل ما فيها من الشر، وما فيها من الشر يستدعي مراقبة مستمرة، ويستدعي مع ذلك جهودا جبارة من المخلصين ليضعوا من بدائل الخير، ومن قوامع الشر ما يضاعف خيرها، ويقمع شرها.

وبما أن غرضنا في هذا المبحث ذكر ذرائع الفساد في هذه الوسائل لتجتنب، لا ذكر نواحي الخير، فسننقل هنا من المختصين ما يبين خطورة هذه الوسيلة[1]، وهي خطورة لا تستدعي إيقافها أو منعها أو القول بتحريمها، وإنما تستدعي التوجيه والمراقبة المستمرة.

[1] انظر: دراسات تربوية، الإنترنت وتربية الأولاد، عبد الرحمن بن عبد الله المطرودي.

وقد كتبت إحدى المجلات بالشبكة تحت عنوان (أطفالك والإنترنت آمنون وسعداء دائماً):(الإنترنت مصدر إمتاع للأطفال سواء استخدمت للعب أو لأداء الواجبات ببرامجها المفيدة وصورها الجميلة وألعابها، ومع ذلك فهي لا تخلو من الخطر عليهم)

ثم تفصل بعض نواحي الخطر، فتقول:(رغم روعة الإنترنت إلا أنه لا يخلو من الأخطار خصوصاً على الأطفال ؛ وذلك بسبب العدد الضخم من المواقع غير اللائقة الموجودة في مواقع الويب ؛ لذلك فإن شبكة الإنترنت لا تعد المكان المناسب ليبحث الأطفال فيها ويجولون دون رقابة ؛ فهي تمتلئ بطوفان من المواقع التي تحض على العنصرية والضغينة، وتشجع على تعاطي المخدرات وصنع القنابل وكل الطرق الأخرى التي من الممكن جداً أن تؤثر سلباً على سلوك أطفالنا)(1)

وقد أخرجت دار الشبكة العربية عدداً بعنوان (الإسلام والإنترنت) وكان أحد المواضيع بعنوان (الطفل المسلم مظلوم)، ومما جاء فيه:(الطفل المسلم مظلوم على الإنترنت ؛ فلا يكاد يجد في المواقع الإسلامية ركناً يأوي إليه ويجد فيه ما يشد انتباهه ويشبع نفسيته ويراعي عقله... وإنما نشير إلى حقيقة أن هذه المواد جميعاً ليس فيها ما هو مصاغ خصيصاً للطفل يناسب عقله وتفكيره)(2)

وكتب آخر في مجلة (مفتاح الإنترنت) يقول:(للأسف لم نجد مواقع عربية للأطفال تهتم كما تهتم المواقع الأجنبية وتقدم لأطفالنا ما يقدمون سواء في المعلومات وروعة في التصميم، وكلنا أمل في رؤية شيء عربي ملفت وقيم)(3)

وكتب آخر في مجلة (عصر الحاسب) يقول:(دعا عدد من الخبراء المتخصصين في مجال الأمن على شبكة الإنترنت إلى

---

1) مجلة مفتاح الإنترنت العدد الثالث، ص 14.

2) مجلة مفتاح الإنترنت العدد الثالث، ص 26.

3) مجلة مفتاح الإنترنت العدد الثالث، ص 16.

وضع معايير فنية تحدد طبيعة المواقع التي يتعامل معها الأطفال وتحديد الفئات السنية المناسبة) إلى أن يقول:(وكان مسح أجراه مركز أن برج للسياسات في واشنطن الأمريكية قد أكد أن أطفالاً تتراوح أعمارهم بين 8 ـ 17 سنة قد أبدوا رغبتهم في كشف أسرارهم على الإنترنت والأوضاع المالية لآبائهم مما يعتبر مؤشراً لنشر خلافات أسرية يتسبب فيها الأطفال عبر الإنترنت)(1)

وكتب آخر في مجلة (مفتاح الإنترنت) تحت عنوان (نصائح في التصفح الآمن) قال فيه كاتبه لأحد الأبوين:(نقول أخبر أطفالك ألا يعطوا أية معلومات عن مكان سكنهم أو عن أنفسهم. أخبرهم ألا يردوا على أية رسائل إلكترونية عن مصادر غير معروفة. أخبرهم أن يعلموك إذا استلموا أية رسائل إلكترونية غريبة. راقب أطفالك عندما يتحدثون عبر الإنترنت واعرف مع من كانوا يتخاطبون. أخبر أطفالك ألا يقابلوا أشخاصاً تعرفوا عليهم عبر الإنترنت مقابلة شخصية)(2)

وكتبت مجلة (آفاق الإنترنت)(3) في زاوية (آباء وأبناء) بعنوان (لا تتكلم مع الغرباء) وبجانبه عنوان كبير هو (راقب أولادك) ذكر فيه المؤلف وأطال عن الأضرار والطريقة لحماية الأطفال، وبعض المواقع السيئة التي حصلت عليها لبعض الأطفال من جراء الاتصال بالإنترنت.

فهذه التحذيرات جميعا تدل على مبلغ خطورة استعمال هذه الوسيلة وخاصة مع النقص الشديد للمواقع الإسلامية الخاصة بهذا المجال.

فلهذا نجد في هذه الوسيلة كل أسباب الانحراف ووسائله، وقد كتبت إحدى المجلات(4)عنواناً باسم: (عالم الإنترنت

---

1) مجلة مفتاح الإنترنت، العدد الأول، ص 28.

2) مجلة مفتاح الإنترنت العدد الثالث، ص 16.

3) مجلة آفاق الإنترنت، العدد الثاني، ص 69.

4) إنترنت العالم العربي، في عددها الثاني للسنة الثالثة.

السفلي... قرصنة برامج... إباحيـة... مافيـا... غسـيل أمـوال... مخـدرات... قمـار... عنصـرية... منظمـات الهـاكر... إرهـاب... متفجرات...)، ثم عنونت داخل المجلـة (عـالم إنـترنت السـفلي يناديك، يبسط لك ذراعيه، يلوح لك بكافة المغريات القذرة التي ابتكرها الإنسان عـبر التـاريخ... بـرامج كاملـة بالمجـان... صـور وأفلام إباحيــة... مخــدرات... قمــار... أمــوال قــذرة... فهــل تستجيب؟) وهكذا كان العنوان، واسـتمر العـرض اثنـتي عشـرة صفحة في نفس العدد.

قـال المؤلـف في نفس الموضـوع:(ربمـا يقـول البعض إن العديد من البلدان العربية حجبت هـذه المواقـع عن مسـتخدمي إنترنت فيها فلا توجد ضرورة لفتح هـذا الملـف. ونقـول لهـؤلاء: إن الواقع يؤكد استحالة الحجب الكامل لأسباب عديدة أهمها:

1. تظهـر على شـبكة ويب يوميـاً آلاف المواقـع الجديـدة ومن المستحيل حجبها مباشرة وفق التقنيات المستخدمة حالياً في عملية الفلترة.

2. يمكن اســتخدام خــدمات إنــترنت مثــل التخــاطب والدردشة والبريد الإلكـتروني للاتصـال مـع المشـبوهين وتبـادل معلومات ممنوعة أو صور فاضحة.

3. توفر تقنيات لتجاوز البروكسي وإلغاء الفلترة المرتبطة به.

4. تتـوفر حاليـاً إمكانيـة اسـتقبال إنـترنت عـبر الأقمـار الصناعية.

ويستمر المؤلـف في دراسـة عـالم الشـبكة السـفلي في أعداد من المجلة منهـا لعـدد الثـاني، وفي العـدد الثـامن لـذات المجلة من نفس العام جاء غلاف المجلـة يحمـل العنـوان الآتي (أول جريمة قتل بسبب منتديات ويب العربية)

وكتبت مجلـة الإسـلام والإنـترنت تقـول (كيـف نحتمي من شرور الإنترنت - كفر وجنس وعنف و..؟)

وكان هذا هـو عنـوان المقـال، وبـدأ كـاتب المقـال بقولـه:

(اكتسب الإنترنت سمعة سيئة بسبب انفتاحها غير المحكوم أخلاقياً ولا سياسياً ولا ثقافياً، وبسبب استغلالها البشع من قبل عصابات الجريمة المنظمة وتجار الأعراض والداعين إلى كل رذيلة وفاحشة وفوضى تمردية... ففرغت كثير من فوائدها العظيمة وإنجازاتها الضخمة في بحر آسن كريه من الرائحة والمنظر...) إلى أن يقول:(هذه مشكلة لا نعاني منها في الشرق فحسب كما يظن البعض... بل إن العائلات الغربية تشكو مر الشكوى ما يغزو عقر بيوتهم وعقول أولادهم وحواسبهم عبر أجهزة الكمبيوتر المنزلية الموصولة بالإنترنت. كما أن عدداً من الدول تشكو من الغزو الثقافي الغربي الذي يتدفق عليها من كل مكان عبر الأرض والفضاء وعبر خطوط الهاتف وأسلاك الكهرباء)(1)

وكتبت مجلة (سعودي شوبر) تكتب في العدد العاشر للسنة الثانية مقالاً بعنوان (إغلاق (ياهو) لماذا؟) وقد نقلت المجلة تفسيرات على لسان المتحدث باسم مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية يقول فيها (إن حجب أندية (ياهو) جاء بدعوى إلحاق الضرر بالأخلاق والقيم والآداب الشرعية... إلخ)(2)

وفي حوار من خلال مجلة (الجندي المسلم) حول الإباحية في الإنترنت مع مشعل بن عبد الله القرحي الأستاذ المساعد في معهد بحوث الحاسب الآلي في مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية قال:(قامت بعض الشركات بدراسة عدد زوار صفحات الدعارة والإباحية في الإنترنت فوجدت إحدى الشركات أن بعض هذه الصفحات يزورها عشرون ألف زائر يومياً، وأكثر من 200 صفحة مشابهة تستقبل 1400 زائر يومياً ؛ ولذلك صرحت وزارة العدل الأمريكية قائلة: لم يسبق في فترة من تاريخ وسائل الإعلام بأمريكا أن تفشى مثل هذا العدد الهائل من مواد الدعارة أمام هذه الكثرة من الأطفال في هذه الكثرة من البيوت، كما تفيد الإحصائيات بأن 63% من

1) إنترنت العالم العربي، العدد الأول السنة الرابعة، ص 36.

2) إنترنت العالم العربي، العدد الأول السنة الرابعة، ص 16.

المراهقين الذين يرتادون صفحات وصور الدعارة لا يدري أولياء أمـورهم بطبيعـة مـا يتصـفحونه على الإنـترنت. علمـاً بـأن الدراسـات تفيـد أن أكـثر مسـتخدمي المـواد الإباحيـة تـتراوح أعمارهم ما بين 12 - 17 سنة)(1)

زيادة على هذا، فإن أكثر ما في شبكة الإنترنت مما يتعلق بتربية الأولاد سلبي جداً، فلا توجد مواقع مجدية في تربية الأولاد عـدا العنايـة ببعض الجـوانب الجزئيـة وخصوصـاً في المواقـع الغربية مثل العناية بالجسم والصحة والرياضة والفن فقط.

ثانيا ـ علاج مظاهر الانحراف

وهو من العلوم المهمة التي يسـعى المـربي لتعلمهـا، كمـا يسعى لتعلم أعراض الأمراض الحسية، ليتقيها أو يعالجها.

ولا نستطيع في هذا المحل أن نفصل كـل مـا يتعلـق بهـذا الجـانب، فمظـاهر الانحـراف أكـثر من أن يحيـط بهـا كتـاب، والمربي لا يحتاج إلى التفاصيل الكثيرة التي قـد لا يـرى نفسـه بحاجة إليها.

ولذلك اكتفينـا هنـا بإعطـاء القواعـد الكـبرى الـتي وضـعها علماء الإسلام لتحقيق هذا النوع من التطبيب.

وقد ذكرنا من النماذج والأمثلة التطبيبية في بعض المحـال ما يستدل به على غيره، فهي ليست مقصودة بـذاتها، بقـدر مـا هي أمثلة لغيرها.

وقد رأينا أن الكلام المنهجي في هذا يستدعي الحديث عن عنصرين:

1. التعرف على منابع الانحراف وأصولها، والمظـاهر الـتي تبدو من خلالها.

2. التعـرف على الأسـاليب المختلفـة لعلاج مـا يبـدو من مظاهر الانحراف، أو ما ينبع منها.

---

1) إنترنت العالم العربي، العدد الأول السنة الرابعة، ص 107.

1 ـ منابع الانحراف ومظاهره

أول ما ينبغي على المربي البدء بـه لعلاج الانحـراف الـذي قد يقع فيه من تكفل بتربيته هو التعرف على الانحراف ونوعـه، لأنه بدون معرفة المرض لا يمكن العلاج.

وما سنذكره في هذا المطلب موجه خصوصا للمربي، لأنـه قد لا يفطن إلى مواضع الانحـراف، بـل قـد يلتبس عليـه الأمـر، فيتصور المرض صحة والمعصية طاعة والانحراف استقامة، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَـا أَتَـوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَـدُوا بِمَـا لَمْ يَفْعَلُـوا فَلا تَحْسَـبَنَّهُمْ بِمَفَـازَةٍ مِنَ الْعَـذَابِ وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمـران:188)، فهـؤلاء لجهلم معصيتهم تصوروها طاعة، وطمعوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

ولهذا كان تعلم هذا النوع من العلم فرضا على كل مـرب، كمـا يتعلم مظـاهر الأمـراض الحسـية ليتسـنى لـه علاجهـا أو الذهاب إلى من يعالجها.

وانطلاقـا من هـذا سـنتحدث في هـذا المطلب عن منـابع الانحراف، ثم عن مظاهر الانحراف:

منابع الانحراف

وهـو أهم مـا ينبغي على المـربي التعـرف عليـه، لأن لكـل انحـراف منبعـه الخـاص في النفس الإنسـانية، وذلـك يسـتدعي التعرف على حقيقة الإنسان ومكوناتها ومـا ينتج عن تكونهـا من تفاعلات، وقد ضرب الغزالي لذلك مثلا، فقال:(وذلك لأن طينـة الإنسـان عجنت من أخلاط مختلفـة، فاقتضـى كـل واحـد من الأخلاط في المعجون منـه أثـراً من الآثـار كمـا يقتضـي السـكر والخل والزعفران في السكنجبـين آثاراً مختلفة)[1]

وقد اختلف المصنفون في هـذه المنـابع، وهـو ليس خلافـا فقهيا لـه أدلتـه النابعـة من الاجتهـاد، وإنمـا هـو اختلاف تحليلي، يكاد يكون من اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد.

---

1) إحياء علوم الدين: 4/16.

وسنكتفي هنا بذكر تصنيفين لهذه المنابع، تصنيف ابن القيم، وتصنيف الغزالي.

فقد ذكر ابن القيم أن (منشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل والظلم والشهوة والغضب)[1] ويبين وجه هذا التقسيم ما يلي:

1. أن الجهل يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصا، والنقص كمالا.

2. أن الظلم يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

3. أن الشهوة تحمله على الحرص والشح والبخل وعدم العفة والنهمة والجشع والذل والدناءات كلها.

4. أن الغضب يحمله على الكبر والحقد والحسد والعدوان والسفه.

ثم ذكر أن منبع هذه الصفات الأربعة أصلان، هما نبع المنابع، وهما: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة.

فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل والخسة واللؤم والذل والحرص والشح وسفساف الأمور والأخلاق.

ويتولد من إفراطها في القوة الظلم والغضب والحدة والفحش والطيش.

ويتولد من تزاوج أحد الخلقين بالآخر: أولاد غية كثيرون، (فإن النفس قد تجمع قوة وضعفا، فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر، وأذلهم إذا قهر، ظالم عنوف جبار، فإذا قهر صار أذل

---

1) مدارج السالكين: 2/308.

من امرأة، جبان عن القوي، جريء على الضعيف)[1]

وقد قسم الغزالي منابع الانحراف في النفس الإنسانية إلى إلى أربع منابع، فقال:(اعلم أنّ للإنسان أوصافاً وأخلاقاً كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله، ولكن تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات: صفات ربوبية، وصفات شيطانية، وصفات بهيمية، وصفات سبعية)[2]

ويختلف المحل الذي تنبع منه الذنوب التي تنبع من هذه المنابع، فمنها ما ينبع على القلب، ومنها ما ينبع على الجوارح، يقول الغزالي:(ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح، فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس، وبعضها على العين والسمع، وبعضها على اللسان، وبعضها على البطن والفرج، وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن)[3]

ويختلف الخلق ــ كذلك ــ في غلبة بعض الصفات على بعض، فمنهم من تغلب عليه البهيمية، ومنهم تغلب عليهم السبعية، وهكذا.

وتختلف كذلك غلبة بعض الصفات بحسب عمر الإنسان،يقول الغزالي:(وهذه الصفات لها تدريج في الفطرة، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أوّلاً ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق)

وسنذكر هنا باختصار ما قد ينبع من هذه المنابع من أنواع الانحراف:

---

1) مدارج السالكين: 2/309.

2) إحياء علوم الدين: 4/16.

3) إحياء علوم الدين: 4/16.

الصـفات الربوبـــية: وهي مــا أودع في الإنســان من شعور بأنانيته وحقيقته العظيمـة ومـا سـخر لهـا من مخلوقـات، فيعتقـد بربوبيتـه على الأشـياء، سـواء صـرح بـذلك كمـا صـرح فرعون، عندما صرخ قائلا: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعـات:24)، أو لم يصرح.

وهـذه الصـفة بهـذا الفهم السـيئ، ينتج عنهـا الكثـير من الانحرافات منها ـ كما يذكر الغـزالي ــ الكـبر والفخـر والجبريـة وحب المـدح والثنـاء والعـز والغـنى وحب دوام البقـاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى، (وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوباً: وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكـثر المعاصي)(1)

الصـفة الشـيطانية: وهي الصـفات الـتي ابتـدأت بهـا شـيطانية الشـيطان، ومنهـا انطلقت، ولـذلك أطلـق اللـه هـذا اللقب على الإنس كما أطلقه على شياطين الجن، فقال تعـالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَـا نَحْنُ مُسْـتَهْزِئُونَ﴾ (البقـرة:14)،ـ وقـال تعـالى: ﴿ وَكَـذَلِكَ جَعَلْنَـا لِكُـلِّ نَبِيٍّ عَـدُوّاً شَـيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ يُـوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ (الأنعـام: 112)،ـ وقـال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَـانُوا إِخْـوَانَ الشَّـيَاطِينِ وَكَـانَ الشَّـيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ (الاسراء: 27)

بـل أمـر بالاسـتعاذة من شـياطين الإنسـان، كالاسـتعاذة بشياطين الجن سواء بسواء، قال تعالى: ﴿ مِنْ شَـرِّ الْوَسْـوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْــوِسُ فِي صُــدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (الناس:4 ـ 6)

وينبع من هـذه الصـفات ــ كمـا يـذكر الغـزالي ــ (الحسـد والبغي والحيلة والخـداع والأمـر بالفسـاد والمنكـر وفيـه يـدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال) وغيرها.

وكل هذه الصفات أشـار إليـه القـرآن الكـريم في مواضـع

---

1) إحياء علوم الدين: 4/16.

مختلفة عند تعريفه لكيد الشيطان وكيفية مواجهته.

الصفة البهيمية: وهي الانحرافات التي تنبع من بهيمية الإنسان، وذلك لأن الله تعالى أودع الإنسان من الشهوة ما يحفظ به وجوده على هذه الأرض، فلولا شهوة الأكل لفني جسده، ولم يستطع أداء ما كلف به من وظيفة، ولولا شوهة الفرج ما استمر نوعه.

ولكن الانحراف هو استعمال هذه الشهوة في غير ما خلقت له، كما عبر تعالى عن انحراف قوم لوط ﵇ حين خرجوا بالشهوة عن محلها الذي خلقت له، فقال تعالى: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (الشعراء:166)

وقال عن انحراف الزنا الذي يضع الشهوة في غير محلها: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الاسراء: 32)

وينبع من هذه الصفات ــ كما يذكر الغزالي ــ الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنه يتشعب الزنى واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات.

الصفة السبعية: وهي الانحرافات التي تنبع من سبعية الإنسان، وذلك لأن الله تعالى أودع الإنسان من الغضب والحمية ما يدافع به عن وجوده على هذه الأرض، لأنه لولا هذه الحمية لافترسته السباع، ولما استطاع حفظ وجوده الذي تتعلق به وظيفته.

يقول الغزالي في بيان الحاجة إلى هذه الغرائز:(فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين: باطن، وهو الشهوة. وظاهر، وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء، فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج إليه، وخلقت الأعضاء التي هي آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين: باطن، وهو الغضب الذي به يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء. وظاهر، وهو اليد والرجل اللتين بهما يعمل بمقتضى الغضب، وكل ذلك بأمور خارجة؛

فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها)[1]

وينبـع من هـذه الصـفات ــ كمـا يـذكر الغـزالي ــ الغضـب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والقتل واستهلاك الأموال، ويتفرّع عنها جمل من الذنوب.

مظاهر الانحراف

أشـار القـرآن الكـريم إلى تصـنيفات مختلفـة للـذنوب[2]، ورتب على كل تصنيف منها ما يتعلق به من آثار:

ومن ذلك تصنيف الذنوب إلى ذنوب ظاهرة وذنوب باطنة، كما قال تعالى: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَـهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِـبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُـونَ﴾ (الأنعـام:120)، فقـد قسـم الذنوب في هذه الآية إلى ذنـوب ظـاهرة وذنـوب باطنـة، وأمـر بترك جميعها، ومثله في هذا التصنيف قولـه تعـالى: ﴿ قُـلْ إِنَّمَـا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَـا وَمَـا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْـرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُـوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (لأعراف:33)

ومنها تصنيف الذنوب إلى صنفي الإثم والعدوان، وقـد ورد ذلك في خمس مواضـع من القـرآن الكـريم، قـال تعـالى: ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَـكُمْ وَتُخْرِجُـونَ فَرِيقـاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَـارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (البقرة:85)، وقال تعالى: ﴿ وَتَعَـاوَنُوا عَلَى الْبِـرِّ وَالتَّقْـوَى وَلا تَعَـاوَنُوا عَلَى الْأِثْمِ وَالْعُـدْوَانِ ﴾ (المائدة:2)، وقال تعـالى: ﴿ وَتَـرَى كَثِـيراً مِنْهُمْ يُسَـارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة:62)، وقال تعالى: ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ بِـالْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ (المجادلة:8)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِـيَتِ الرَّسُولِ﴾ (المجادلة:9)

والإثم: الفعل الذي يستحق عليه صـاحبه الـذم. والعـدوان:

---

1) إحياء علوم الدين: 3/6.

2) لهـذه التصـنيفات أهميـة كبـيرة في اسـتعمال العلاج المناسـب لكـل ذنب، وهـو كتصنيف الأطباء للأمراض ليسهل عليهم التعامل مع كل نوع بما يناسبه من أدوية.

الإفـراط في الظلم والتجـاوز فيـه. وقـد قـال ابن جريـر: الإثم: ترك ما أمر اللّه بفعله، والعدوان مجاوزة ما حد اللّــه في دينكم ومجاوزة ما فرض اللّه عليكم في أنفسكم وفي غيركم.

ومنها تصنيف الـذنوب إلى كبـائر وصـغائر، كمـا أشـار إلى ذلك قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَـوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (الشورى:37)

ومنها تصـنيف الـذنوب إلى إثم وفـواحش، ثم كبـائر ولمم، كما في قوله تعالى: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِــعُ الْمَغْفِــرَةِ هُــوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَــأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَـاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَـكُمْ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (لنجم:32)

وقد اهتم علماء السلوك المسلمين ــ انطلاقـا من القـرآن الكريم، وانطلاقـا من تحليـل الـذنوب وآثارهـا وكيفيـة علاجهـا ـ بتصنيف أنواع الانحراف، ليذكروا بعدها ما يرونـه من علاج لكـل صنف.

وقد اتفق العلماء عل التقسيمين التاليين:

مظاهر الانحراف بحسب متعلقها: وربمـا يشـير إلى هذا النوع من الذنوب ما قسـم اللـه تعـالى بـه الـذنوب إلى إثم وعـدوان، وذلـك لأن الإثم مـا كـان بين العبـد وربـه تعـالى أمـا العدوان، فهـو مـا كـان من التعـدي على مصـالح الخلـق، يقـول الغزالي:(اعلم أنّ الذنوب تقسم إلى ما بــين العبـد وبــين اللـه تعالى وإلى ما يتعلق بحقـوق العبـاد. فمـا يتعلـق بالعبـد خاصـة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به ومـا يتعلـق بحقـوق العبــاد كتركــه الزكــاة وقتلــه النفس وغصــبه الأمــوال وشــتمه الأعراض وكل متنـاول من حـق الغـير، فإمـا نفس أو طـرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه، وتناول الدين بالإغواء والـدعاء إلى البدعة والترغيب في المعاصي وتهيـيج أسباب الجرأة على اللـه تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جــانب الخوف)[1]

---

1) إحياء علوم الدين: 4/36.

ولهذا التقسيم أهميته الكبرى من جهات مختلفة:

فمن جهة المغفرة، فإن (ما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ، وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركاً فالعفو فيه أرجى وأقرب، وقد جاء في الخبر، الدواوين ثلاثة: ديوان يغفر، وديوان لا يغفر، وديوان لا يترك: فالديوان الذي يغفر: ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى، وأما الديوان الذي لا يغفر: فالشرك بالله تعالى. وأما الديوان الذي لا يترك. فمظالم العباد أي لا بد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها)

ومن جهة تشديد المربي على من يربيه، فإنه لا ينبغي للمربي، وخاصة الوالد أن يتساهل مع ابنه في مصالح الناس، فإن لذلك خطورته الكبيرة على مستقبل ابنه، كما سنوضح ذلك في الفصل الخاص بالبعد الاجتماعي.

مظاهر الانحراف بحسب صغرها وكبرها: نعم، إن كل معصية لله كبيرة[1]، والمربي الصالح هو الذي يحمي من يربيه عن كل المعاصي، ولكن مع ذلك، فإن الإنسان غير معصوم، ومن الخطا أن نتعامل مع أخطائه معاملة واحدة، فلا نفرق بين من ما كبر منها وعظم، وبين ما صغر منها.

ولهذا ورد القرآن الكريم بهذا التقسيم، فقال تعالى: ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ (النساء: 31)، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْأِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى:37)، وقال

---

1) أنكر بعض العلماء هذا التقسيم، وذهبوا إلى أن كل المعاصي كبائر، منهم الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، والقاضي أبو بكر الباقلاني، وإمام الحرمين في " الإرشاد "، وابن القشيري في " المرشد " بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة واختاره في تفسيره فقال:(معاصي الله تعالى عندنا كلها كبائر، وإنما يقال لبعضها صغيرة وكبيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها)، ثم أول الآية الآتية: ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ (النساء: 31) بما لا يدل عليه ظاهرها.

وما ذهب إليه هؤلاء العلماء صحيح من جهة أن كل المعاصي خطيرة سواء كانت صغيرة أو كبيرة، بل من الحرج تلقيب المعصية بكونها صغيرة، قال القاضي عبد الوهاب: لا يمكن أن يقال في معصية: إنها صغيرة، إلا على معنى أنها تصغر باجتناب الكبائر.

ويشير إلى هذا الجمع ما رواه الطبراني عن ابن عباس، أنه ذكر عنده الكبائر فقال: (كل ما نهي عنه فهو كبيرة)، وفي رواية عنه:(كل شيء عصي الله فيه فهو كبيرة)

تعــالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُــونَ كَبَــائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَــوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ (لنجم:32)

وقـد وردت النصـوص الكثـيرة بعـد بعض الـذنوب الكبـائر، وهي ـ كما يذكر ابن حجر ـ نوعان:

النصــوص الصــريحة باعتبــار الــذنب كبــيرة: وهي الأصل الـذي يعتمـد عليـه في عـد الكبـائر، ومن تلـك النصـوص قوله ﷺ:(ألا أنبئكم بأكبر الكبـائر ثلاثـا: الإشـراك باللـه، وعقـوق الوالدين، وشهادة الزور وقـول الـزور وكـان متكئـا فجلس فمـا زال يكررهـا حـتى قلنـا ليتـه سـكت)(1)، وسـئل ﷺ:(أي الـذنب أعظم؟ قـال: أن تجعـل للـه نـدا وهـو خلقـك، قلت: إن ذلـك لعظيم، ثم أي؟ قال: وأن تقتـل ولـدك مخافـة أن يطعم معـك، قلت: ثم أي؟ قـال: أن تـزاني حليلـة جـارك)(2)، وقـال ﷺ:(من الكبائر شتم الرجل والديـه، قيـل: وهـل يشـتم الرجـل والديـه؟ قال: نعم، يسب الرجل أبا الرجل وأمه، فيسـب أبـاه وأمـه)(3)، وفي رواية للبخاري أن هذه الأخيرة من أكبر الكبائر، وفي رواية له أيضا عـد الشـرك، والعقـوق، والقتـل، واليمين الغمـوس من الكبائر، وعد في أخرى الشـرك، والقتـل إلا بـالحق، وأكـل مـال اليتيم، والربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات موبقات، وفي رواية صحيحة عـد هـذه السـبع وعقـوق الوالدين المسلمين واستحلال البيت الحرام كبائر.

النصــوص المخــبرة بــاللعن أو الغضــب أو الوعيــد شديد: فهي تشير إلى كـون الـذنب كبـيرا، وإلا لمـا رتب عليـه ذلك العقاب الشديد، ومن ذلك قوله ﷺ:(ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظـر إليهم ولا يـزكيهم ولهم عـذاب أليم. قـال أبـو ذر: فقرأهـا رسول اللـه ﷺ ثلاث مـرات، فقلت: خـابوا وخسـروا من هم يـا رسول الله؟ قـال: المسـبل إزاره: - أي خيلاء كمـا في روايـات أخـر - والمنـان: الـذي لا يعطي شـيئا إلا منـة، والمنفـق سـلعته

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه البخاري ومسلم.

بالحلف الكاذب)[1]، وفي رواية أنهم:(شيخ زان، وملـك كـذاب، وعائل مستكبر)[2]، وفي رواية أنهم (رجل على فضل ماء بفلاة يمنعه ابن السبيل، ورجـل بـايع رجلا سـلعة بعـد العصـر فحلـف بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو على غـير ذلـك، ورجـل بـايع إماما لا يبايعه إلا للدنيا فإن أعطاه منها ما يريد وفى لـه وإن لم يعطه لم يف له)[3]

ومنها قوله ﷺ:(إن لله تعالى عبـادا لا يكلمهم يـوم القيامـة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم)، قيـل:(ومن أولئـك يـا رسـول اللـه؟ قال: متبرئ من والديه راغب عنهما أو متبرئ من ولده، ورجــل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم)[4]، وقال ﷺ:(لا يـدخل الجنة قتات)[5]أي نمام، وقال ﷺ:(ثلاث لا يدخلون الجنة: مدمن خمـر، وقـاطع رحم، ومصـدق بالسـحر)[6]، وقـال ﷺ:(ثلاث أنـا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجـل بـاع حـرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه العمل ولم يوفـه أجره)[7]، وقال ﷺ:(لا يـدخل الجنـة عـاق، ولا مـدمن خمـر، ولا نمـام)[8]، وقـال ﷺ:(لا يـدخل الجنـة عـاق ولا مـدمن خمـر ولا مكذب بقدر)[9]، وقال ﷺ:(لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثا، لعن الله من غير منار

1) رواه مسلم وغيره.

2) رواه مسلم.

3) رواه البخاري ومسلم.

4) رواه أحمد.

5) رواه البخاري ومسلم.

6) رواه أحمد.

7) رواه أحمد والبخاري.

8) رواه أحمد والنسائي.

9) رواه أحمد وابن ماجه.

الأرض أي طرقها)(1)، وقال ﷺ:(ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء)(2)

وقد اختلف العلماء ـ انطلاقا من أمثال هذه النصوص ـ في عد الكبائر، بل بدأ الخلاف من لدن الصحابة، فقال ابن مسعود : هن أربع. وقال ابن عمر : هن سبع. وقال عبد الله بن عمرو : هن تسع. وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر : الكبائر سبع، يقول: هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع.

وللغزالي تقرير جيد في هذه المسألة يمكن الاستفادة منه في تحديد الكبائر التي لم ترد بها النصوص، انطلق فيه من النظرة المقاصدية لأحكام الشريعة، قال:(نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله.. ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بدّ أن يعرف نفسه وربه، فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء، ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا.. فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين لأنه وسيلة إليه. والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان: النفوس والأموال، فكل ما يسدّ باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ويليه ما يسدّ باب حياة النفوس ويليه باب ما يسدّ المعايش التي بها حياة الناس)(3)

فهذه هي النواحي الثلاثة التي جاءت الشريعة لحفظها، قال الغزالي:(فهذه ثلاث مراتب، فحفظ المعرفة على القلوب، والحياة على الأبدان، والأموال على الأشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها، وهذه ثلاثة أمور لا يتصوّر أن تختلف فيها الملل، فلا يجوز أنّ الله تعالى يبعث نبياً يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله؛ أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك لأموال)

---

1) رواه مسلم وغيره.

2) رواه الحاكم وصححه.

3) إحياء علوم الدين: 4/19.

انطلاقا من هذا صنف الكبائر إلى ثلاثة أقسام:

ما يمنـع من معرفـة اللـه تعـالى ومعرفـة رسـله: كالكفر، فلا كبـيرة فوق الكفر، إذ الحجاب بـين الله وبـين العبـد هو الجهل، والوسيلة المقرّبة له إليه هو العلم والمعرفة، وقربـه بقدر معرفته، وبعده بقدر جهله.

ويتلوه الجهل الذي لا يسـمى كفـراً، وذلـك مثـل الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته، فإن هذا أيضـاً عين الجهـل، فمن عرف الله لم يتصوّر أن يكون آمناً ولا أن يكون آيساً.

ويتلـوه كـل البـدع المتعلقـة بـذات اللـه وصـفاته وأفعالـه وبعضها أشدّ من بعض، وتفاوتها على حسب تفـاوت الجهـل بهـا وعلى حسـب تعلقهـا بـذات اللـه سـبحانه بأفعالـه وشـرائعه وبأوامره ونواهيه.

ما يمنع من حفظ النفوس: لأنه ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله، فقتل النفس لا محالة من الكبـائر وإن كان دون الكفر، لأن ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصـدم وسيلة المقصود، إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصـل إليهـا بمعرفة الله تعالى.

ويتلـو هـذه الكبـيرة قطـع الأطـراف وكـل مـا يفضـي إلى الهلاك حـتى الضـرب وبعضـها أكـبر من بعض، ويقـع في هـذه الرتبة تحريم الزنى واللواط، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفـاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود.

ويتلـوه الـزنى، فإنـه ـ مـع كونـه لا يفـوت أصـل الوجـود ـ يشوّش الأنساب ويبطـل التـوارث والتناصـر وجملـة من الأمـور التي لا ينتظم العيش إلا بها[1].

ما يمنع من حفظ الأمـوال: لأنهـا معـايش الخلـق فلا يجوز تسـلط النـاس على تناولهـا كيـف شـاءوا حـتى بالاسـتيلاء

---

1) ما ذكره الغزالي هنا في حفظ النفوس خصه آخرون بقسم خاص، سموه (حفـظ النسل)، ويدخل فيه (حفظ العرض)

والسرقة وغيرهما، بل ينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس، إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الأمر فيها، نعم إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر.

بالإضافة إلى هذا، فإن ما دلت الأدلة على كونه من الصغائر قد يصير من الكبائر إذا اتصف بالصفتين التاليتين:

الإصرار والمواظبة: وإليه الإشارة بقوله تعالى: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ (لنجم:32)، فمن الأقوال في تفسيرها ما قاله مجاهد والحسن:(هو الذي يأتي الذنب ثم لا يعاوده)، وقال الزهري:(اللمم أن يزني ثم يتوب فلا يعود، وأن يسرق أويشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود)

ويدل على هذا قوله تعالى: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (آل عمران:135)، فقد ضمن لهم المغفرة بقوله تعالى عقبها: أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (آل عمران:136)، ومثل ذلك قوله عقيب اللمم: إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ (لنجم:32)

ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصوّر ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها.

وقد شبه الغزالي ذلك بقطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر.

احتقار الذنب: ويشير إلى هذا قوله تعالى: إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (النور:15)، وبقول بعض الصحابة م: (إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات)

ويعلق الغزالي على هذا بقوله:(إذ كـانت معرفـة الصـحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضـافة إلى جلال اللـه تعالى من الكبائر، وبهـذا السـبب يعظم من العـالم مـا لا يعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجـاوز في أمثالهـا عن العارف، لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفـة المخـالف) (1)

وقد روي أنه أوحى الله تعـالى إلى بعض أنبـيائه:(لا تنظـر إلى قلـة الهديـة وانظـر إلى عظم مهـديها، ولا تنظـر إلى صـغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها)

ولهذا قال من قال من العلماء بأن الذنوب كلها كبائر، كمـا ذكرنا ذلك سابقا.

والسر في هذا ـ كما يـذكر الغـزالي ــ أن اسـتعظام العبـد للذنب ـ مهما كان صغيرا ـ يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيتـه له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به، أما استصغاره، فيصدر عن الألف بـه وذلـك يـوجب شـدّة الأثـر في القلب، والقلب هـو المطلـوب تنـويره بالطاعـات، والمحـذور تسـويده بالسـيئات، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليـه في الغفلـة فـإن القلب لا يتـأثر بما يجري في الغفلة.

ويدخل في هذا النوع ـ وإن كان الغـزالي قـد ذكـره قسـما مستقلا ـ السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتــداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة.

وهو يدخل في مـا سـبق ذكـره، بـل هـو مرتبـة أعظم من المرتبة السابقة، لأن هذا لم يحتقـر المعصـية فقـط، بـل وتبجح بها أيضا.

ويذكر الغزالي الأمثلة الواقعية لذلك، فيقول:(حـتى إن من المذنبـين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدّة فرحه بمقارفته إياه، كما يقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضـه، ويقـول المنـاظر في مناظرته: أما رأيتني كيف فضحته وكيـف ذكـرت مسـاوئه حـتى

---

1) إحياء علوم الدين: 4/32.

أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه؟ ويقول المعامل في التجارة: أما رأيت كيف روّجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته؟)(1)

ويعلق على هذه الأمثلة بقوله:(فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدوّ عليه وبسبب بعده من الله تعالى، فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواءه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه)

ويدخل في هذا النوع ـ وإن كان الغزالي قد ذكره قسما مستقلا ـ أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر.

ولهذا قال ﷺ:(كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه فيصبح يكشف ستر الله عز وجل عنه)(2)

ويدخل في المجاهرة أن يقع الذنب من شخص يكون قدوة لغيره، لأنه بفعله المعصية يضل خلقا كثيرا ممن يقتدي به فيها، يقول الغزالي بعد عده لبعض الذنوب التي يقع فيها بعض العلماء بلا شعور أو اكتراث:(فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيراً في العالم آماداً متطاولة، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه)(3)

---

1) إحياء علوم الدين: 4/32.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) إحياء علوم الدين: 4/32.

ويشير إلى هذا النوع من الذنوب قوله ﷺ:(من سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً)(4)، وقال ابن عباس :(ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق)

وشبه بعضهم زلة العالم، فقال:(مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها)

ويذكر الغزالي أن عالماً ـ من الأمم السالفة ـ كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهراً، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم:(قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك، ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار)

2 ـ أساليب علاج الانحراف

انطلاقا مما سبق فإن المربي الناصح إذا ما رأى منبعا من منابع الانحراف، أو مظهرا من مظاهره يتسرب لمن يربيه ليدنسه بأوحاله، فإنه يسارع لتطهيره ووقايته بكل ما أمكنه من السبل والوسائل.

وهذا يستدعي علما خاصا، لا يمكننا ذكر تفاصيله هنا، ولكنا نحاول انطلاقا مما ذكره المربون وعلماء السلوك من المسلمين أن نلم بجمله وقواعده ليتخذها المربي قوانين يسير على ضوئها في إصلاح من تكفل بتربيته.

وقبل أن نذكر هذه الأساليب المقاومة للانحراف أو المعالجة له، نحب أن نرد على من يتصور الأخلاق صفات راسخة يستحيل تحويلها أو تغييرها، لينطلق من ذلك إلى استحالة تأثير التربية في الإصلاح، وتنتشر الأمثال المثبطة في المجتمع عن هذه الفكرة، وهي خطيرة جدا لا بما تحمله من يأس فقط، وإنما لأنها تضاد دعوة الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ الذين كان من أهم وظائفهم التزكية التي تعني تطهير عباد الله من رذائل الأخلاق، وتحليتهم بمحاسنها، كما ذكر تعالى ذلك في مواضع من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ

---

4) رواه ابن ماجه، رقم 23.

فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (البقرة:129)، وقال تعالى: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (آل عمران:164)، وقال تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (الجمعة:2)

ومن الأدلة التي ذكرها الغزالي للقائلين بأن الأخلاق لا تتغير بطريق الرياضة:

1 ـ أن الخُلُق هو صورة الباطن كما أن الخَلْق هو صورة الظاهر، فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيراً، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته، فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى.

2 ـ أن حسن الخلق لا يكون إلا بقمع الشهوة والغضب، والتجربة تدل على استحالة هذا، لأنهما من مقتضيات المزاج والطبع.

والرد على هذا من النصوص لا يمكن استيفاؤه ـ هنا ـ لأن كل النصوص الحاضة على التخلق بالأخلاق الحسنة أو الناهية عن الأخلاق السيئة ترد على هذا، لأن الشرع لا يأمر بالمستحيل، وقد قال تعالى: لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا (البقرة:233)، وقال تعالى: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (البقرة:286)، وقال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا (لأعراف:42)، وقال تعالى: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا (الطلاق:7)

ومن النصوص الصرريحة الدالة على هذا قوله ﷺ لأشج عبد القيس :(إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم والأناة[1]،

1) التثبت وترك العجلة.

فقال:(أخلقين تخلقت بهما، أم جبلني الله عليهما؟) فقال:(بل جبلك الله عليهما) فقال:(الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله)(1)

وقد كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح:(اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت)(2)

أما من حيث الواقع، وهو ما تتذرع به أمثال هذه الأقوال المثبطة، فننقل ما قال الغزالي، وفيه أبلغ الرد:(وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق)(3)

انطلاقا من هذا، فإن هناك أسلوبين أساسيين لعلاج الانحراف، يحتاج المربي إلى استعمالهما جميعا ـ على ضوء ما ذكرنا في الجزء الخاص بأساليب التربية ـ هما: العلم والعمل.

الأساليب العلمية

وينطلق هذا الأسلوب من المقولة المعروفة المشهورة (حياتك من صنع أفكارك)، فالأفكار التي ينصبغ بها العقل هي التي ينصبغ لها بعده الوجدان والسلوك والحياة جميعا.

فلذلك كان أول ما ينبغي أن يهتم به المربي هو حفظ عقل المتلقي من كل شبهة أو أفكار منحرفة قد تجرفه إلى الانحراف من حيث يشعر أو لا يشعر.

والأساس لذلك هو ما ذكرنا في التربية الإيمانية من الاجتهاد في تقوية إيمان المتلقي، فالإيمان الصحيح القوي المؤثر هو الكفيل بتحويل أبخس المعادن ذهبا خالصا.

---

1) رواه مسلم والترمذي.

2) رواه البيهقي.

3) إحياء علوم الدين: 3/56.

ولهـذا يقـرن اللـه تعـالى الإيمـان بالعمـل الصـالح، ويقـدم الإيمان عليه، وكأنـه يشـير إلى أن العمـل الصـالح أثـر من آثـار الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (البقرة:25)

وقـــد تكـــررت هـــذه اللازمـــة ﴿ الَّذِينَ آمَنُـــوا وَعَمِلُـــوا الصَّالِحَاتِ ﴾ في خمسين موضعا من القرآن الكريم، وكل ذلـك لأهمية اقتران الإيمان بالعمل الصالح.

ويشير إلى هذا المعنى بصـراحة قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَـةُ أَلَّا تَخَـافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت:30)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْـتَقَامُوا فَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـونَ﴾ (الاحقـاف:13)، فقـد عطـف اللـه تعـالى الاستقامة، التي تضاد الانحراف على الإيمان بحـرف (ثم) الـذي يفيد الترتيب، وكأنـه يقـول:(إن الاسـتقامة أثـر من آثـار قـولهم (ربنا الله)

ويشير إلى هذا في التربية النبوية، قول الصحابة :(الإيمـان قبل القرآن)

ولهذا، فإن أكثر الذنوب تحوي شركا شعر به صـاحبه أو لم يشعر، وكمثال على ذلك ارتبـاط الطغيـان بالاسـتغناء عن اللـه، كمـا يشـير إليـه قولـه تعـالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَـانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق:6 ـ 7)، فقد رتب الله تعالى الطغيان الذي هو منتهى أنانية الإنسان وكبريائه على شعوره بالاستغناء عن اللـه، وكأنه عالم قـائم بذاتـه، فلـذلك يطلب من غـيره أن يتوجـه لـه بالعبودية كما يتوجه لله.

وكمثال على ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْـتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآياتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (فصلت: 15)، فإن انبهار عاد بما أعطيت من قوة جعلها تغفـل عن قـوة الله، وهو ما جعلها تستكبر في الأرض بغير حق.

ومثلما يؤدي الشرك والكفر إلى الانحراف، فإن الانحــراف

يؤدي كذلك إلى الشرك والكفر، وهذا من أخطر آثاره، ولهذا يقال (المعاصي بريد الكفر)، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:34)، فقد رتب تعالى كفره على معصيتين خطيرتين هما الإباء الذي هو الاعتراض على الله، والكبر.

ولهذا أخبر تعالى أن كل من رد الحق الذي جاء به الأنبياء رده بسبب كبره، الذي هو أثر من آثار كفره، كما أن الكفر ثمرة من ثمار تكبره، قال تعالى: ﴿ِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة: 87)، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأعراف:36)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف:40)، وقال تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الأعراف:76)، وقال تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (الأعراف:88)

وانطلاقا من هذا، فإن التوجهات بمختلف أنواعها سياسية أو اقتصادية أو نفسية أو اجتماعية لها التأثير الكبير في صناعة الأخلاق منحرفة كانت أو مستقيمة، لأن لكل معرفة تأثيرها المباشر في حقيقة الإنسان الكلية، والتي تبرزها في سلوكها الظاهري إن وجدت الفرصة لإبرازها، أو تخبئها متى وجدت لذلك محلا.

وكمثال على ذلك ما يمكن تسميته بالأخلاق الرأسمالية[1]، وهي أكثر أخلاق العصر، فهي ثمرة طبيعية للواقع العقدي المنحرف، وهي أخلاق تنمحي في ظلها كل المبادئ الإنسانية، لأن كل المبادئ لا تساوي شيئا أمام رنين الدنانير والدراهم،

---

1) انظر: الصلة بين الأخلاق والعقيدة، د. جلال الدين محمد صالح، مجلة البيان: العدد85، ص22.

يروي الأستاذ محمد قطب عن شقيقه سيد أنه أثناء زيارته لأمريكا كان ذات مرة جالساً في حديقة فاقترب منه رجل أبيض، وسأله: من أين أنت؟ فأجاب سيد: من مصر، فرد عليه قائلاً: إذن أنت مسلم، قال: نعم، قال: إذن حدثني عن الإسلام، فأخذ سيد يحدثه عن الإسلام، والرجل منصت باهتمام حتى أنهى سيد حديثه، عندها قال الرجل: جميل ما قُلته، ولكن الدولار هو الإله الوحيد الذي أعرفه.

فالرأسمالية حولت الإنسان إلى عبد ذليل أمام المال، يقدم له كل عرابين الذل، بل يحرق في محرقته كل القيم والأخلاق، كما قال ﷺ:(تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي، وإن لم يعط تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش طوبي لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن في الساقة كان في الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع)(1).

فقد ذكر ﷺ في هذا الحديث نموذج العبد المقهور التعيس أمام الثروة والمظاهر، وذكر في مقابله المؤمن المتحرر الأشعث الأغبر المتخلص من كل عبودية عدا عبوديته لربه، ثم ذكر أن هذا العبد هو وحده الذي يستطيع الضرب في الأرض في سبيل الله.

ومن نتائج هذه الأخلاق الرأسمالية على المستوى الأممي ما نراه من جشع وحرص قد تباد لإروائه شعوب بأكملها، كما فعل بالهنود الحمر بحثاً عن الذهب الأصفر، وكما فعل مع سكان مستعمراته في إفريقيا حيث اقتيد منهم الألوف - بعد أن نهب خيرات أوطانهم - مكبلين بالأغلال في الأعناق والأيدي والأقدام استغلالاً لسواعدهم وقوة أجسامهم في استثمار اقتصادي لا يعود نفعه إلا إلى الرأسمالي ذاته.

ثم من وحي أخلاقه الرأسمالية اعتمد معيار اللون والثراء في التفاضل ؛ فالنازية في ألمانيا، جعلت العرق الآري أفضل من وجد على الأرض، والرجل الأبيض عموماً في أوروبا وأمريكا

---

1) رواه البخاري .

وأفريقيا مـارس أخلاقيـات التفريـق العنصـري، واصـطفى ذاتـه لتكـون في القمـة، واضـطهد السـود - لمجـرد أنهم سـود - في أمريكا، وحتى وقت قريب في جنـوب إفريقيـا، ولم تنعتـق هـذه الشـعوب من قبضــته واضــطهاداته إلا عــبر تضــحيات باهظــة التكاليف ونضالات عنيدة ومتواصلة حتى انـتزعت من بين فكيـه شيئاً من حقوقها، ثم في تناقض صارخ كثيراً ما نسـمع ضـجيجه عن حقــوق الإنســان، مصــاغة وفــق اختياراتــه واستحســاناته، منطلقة من جـذور عقائـد محرفـة، وأهـواء قاصـرة، وأخلاقيـات نفعية، تساير الظلم وتسانده إذا ما رأت فيه مبتغاها.

ومـــا يقـــال في الأخلاق الرأســـمالية يقـــال في الأخلاق الاشتراكية والشيوعية، وهي أخلاق ظن البعض أنها تنقـذهم من وحش الرأسمالية الكاسر، لكنها أوقعتهم في وحش آخر، لا يقل فتكه عن فتك الوحش الرأسمالي.

فهي أخلاق تنطلــق من أصــوله الإلحاديــة، كمــا تنطلــق الأخلاق الرأسـمالية من أصـول شـركية، وهي تقـرر أن سـعادة الإنسـان تكمن في أخلاقيـات الصـراع الطبقي الـتي تـدفع بـه - حسب زعمهم - إلى حيـاة الرفـاه والرغـد في مجتمـع شـيوعي تغيب عنه الدولة وتختفي فيه شارات الشـرطة ويحكمـه قـانون (من كل حسب طاقته ولكـل حسـب حاجتـه)، وهـو نهج يـرفض في نظمه الأخلاقية كـل سـلوك يعيـق تقدمـه أيـاً كـان مصـدره وينعته بالأخلاق البرجوازية، وقبح الشـيء وحسـنه يتحـدد فقـط بالنظر إلى مردوده على طبقة البروليتاريا على حد تعبيرهم.

وانطلاقاً من هذه النظرة انحرف المؤمنـون بهـذه العقائـد في كـل شـعاب السـلوكيات المترديـة، فأشـاعوا حالـة الخـوف الدائم، وأفسدوا بالمرتبـات الكبـيرة والامتيـازات رجـال الجيش والبوليس والأجهـزة السياسـية والأفـراد المطيعـيين من طبقـة المثقفين، وأسكتوا قمعاً كل صوت مقاوم.

وفي كتاب مدرسي عن الأخلاق الماركسية معد للمـدارس الثانوية في المجر سنة 1978 م، يقول:(إن الطفل ابنـاً كـان أو بنتاً لا يصح بحال أن يُقدم على قتـل أمـه إلا إذا أصـبحت خائنـة

للطبقة العاملة..)[1]

وخيانة الطبقة العاملة ـ في تصور هذه العقيدة ـ هي إبـداء النقد لسلوكيات الفكر الاشتراكي وأئمته أو التعامل معه بشيء من الحـذر والحيطـة، والأمانـة الأخلاقيـة في زعمهم هي الفنـاء في شخصية القيادة الماركسية، والدينونـة لمقولاتهـا، وتكـريس عبادتها، ولعلنا لاحظنا جميعاً كيف أن الشعب الكوري الشـمالي أحتشد حول صنم الزعيم الكوري غداة هلاكه ساجداً راكعـاً، بـل إن من الحجارة من اكتسب شيئاً من القداسة في كوريا لكونـه حظى بجلسة من رائد الفكر الاشـتراكي الكـوري ؛ ففي تـابوت زجاجي بسـاحات أحـد المصـانع بكوريـا الشـمالية عـرض حجـر بداخله، ومكتوب عليـه هـذه العبـارة:(الحجـر الـذي جلس عليـه الرفيق الحبيب المبجل عندما كان يتحدث)[2]

انطلاقـا من هـذا نحـاول أن نـذكر هنـا بعض النمـاذج عن كيفية استعمال هـذا الأسـلوب في علاج الانحرافـات الخلقيـة أو في الوقايـة منهـا، مـع التنبيـه إلى الرجـوع إلى الجـزء الخـاص بأساليب التربية لصياغة هذه الأساليب وفق الضـوابط المقـررة هناك.

وسنذكر هنا بعض النمـاذج عن الانحرافـات والعلاج العملي لها، ثم نذكر نفس هذه الانحرافات عند ذكـر الأسـاليب العمليـة للجمع بين الأسلوب العلمي والعملي في علاج الانحرافات.

الانحراف الجنسي

وهو من أخطر الانحرافات التي قد يتعـرض لهـا الأولاد في المراحل الأولى لتربيتهم، ولهذا قرن ﷺ بين الأمر بالصلاة، وبين التفريـق بينهم في المضـاجع، فقـال ﷺ:(مـروا أولادكم بالصـلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبنـاء عشـر وفرِّقـوا بينهم في المضـاجع)، وهـو كالحمايـة لهم من أي انحـراف قـد يتعرضون له.

---

1) انظر علي عزت بيكفوتش: الإسلام بين الشرق والغرب / 206 بتصرف.

2) انظر علي عزت بيكفوتش: الإسلام بين الشرق والغرب / 207.

وقد أشار الأخصائي النفسي بديع القشاعلة في مقال له بعنوان (نظريات في علم النفس والحديث الشريف) إلى الأسرار المودعة في هذا الحديث، فقال:(يحدد محمد ﷺ في هذا الحديث فترات زمنية للتعامل مع الطفل.... أما الجزء الأخير من الحديث وهو (فرقوا بينهم في المضاجع) فنابعٌ من تطور النمو الجنسي في هذه المرحلة والتي تعد نقطة تحول من الكمون الجنسي إلى حالة النشاط الجنسي والذي يبدأ مع مرحلة البلوغ، حيث نجد أن الأطفال حينما يصلون إلى سن العاشرة يكثر لديهم حب الاستطلاع عن النواحي الجنسية والفسيولوجية كما وأن الانتباه في هذه المرحلة يزداد وتزداد دقته الأمر الذي يساعده على إدراك الاختلاف بين الأشياء وإدراك الشبه أيضاً بينها. نتيجة لهذا فإنه يستطيع أن يقدم تفسيراً بسيطاً للأمور، وهذه صورة راقية من التفكير لم نكن نلحظها في المراحل السابقة من النمو.

إن هذه الفترة هي فترة ميل إلى الأمور الجنسية والتعرف عليها والعبث بها وهذا جعله الله تعالى ليكون تمهيداً لمرحلة البلوغ والتي يمكن أن تحدث فيها عملية الزواج)

وانطلاقا من هذا، فإن أهم ما يحمي الولد من الانحراف الجنسي هو توعيته بأحكامه الشرعية وآثارها النفسية والاجتماعية والصحية، وآاثرها في علاقته مع ربه.

وقد رأينا في الجزء الخاص بأساليب التربية كيف عالج ﷺ الشاب الذي أراد أن يؤذن له في هذا النوع من الانحراف، فقال ﷺ:(أترضاه لأمك؟!)، قال: لا، قال رسول الله ﷺ:(فإن الناس لا يرضونه لأمهاتهم)، قال:(أترضاه لأختك؟!)، قال: لا، قال:(فإن الناس لا يرضونه لأخواتهم)[1]، وهكذا صار الزنى أبغض شيء إلى ذلك الشاب فيما بعد، بسبب هذا الإقناع العقلي.

فلذلك يمكن أن يعرف الولد في مراحل تميزه عن مخاطر الزنى، بحيث يقبح في نفسه قبحا شديدا، لا يمكن للمغريات ولا للوسائل الحديثة مهما بلغ تفننها أن تؤثر فيه.

1) رواه أحمد بإسناد جيد، المسند [5/256].

وقد شهد أساتذة الصحة النفسية على مدى تأثير الوعي الإيماني في الحماية من هذا الانحراف، يقول د. حامد زهران أستاذ الصحة النفسية:(إن علينا كمربين أن نعرف أن الأطفال يصلهم معلومات من زملائهم في المدرسة والشارع.. وقد يقرأون كتبا بها أفكار مشوهة، وقد يطلعون في عصرنا الحالي علي مصادر سيئة في الإنترنت، وهناك ايضا القنوات الفضائية، علينا أن نعلم أطفالنا آداب السلوك الجنسي. إن أقرب العلوم للتربية الجنسية هي التربية الدينية، لأن الدين يعترف تماما بالغريزة الجنسية وينظم السلوك الجنسي تماما من الناحية الدينية قبل أي شيء آخر، ولهذا فالمفروض أن نهتم بتعليم أحكام الدين.. وحدود الله فيما يتعلق بالسلوك الجنسي والحلال والحرام فيه.. ومن هنا سنجد أن الإطار الذي نتحدث عنه سوف يؤدي إلي نتائج أفضل من إهماله)

الكبر

وهو من أخطر الانحرافات التي تحول بين من وقع فيها وبين كل مصلحة يحققها لنفسه أو يحققها لغيره، ولا نستغرب أن يبدأ هذا الانحراف للصبية من صغرهم، فإن كل الرذائل منشأها من الصغر، ثم تزيد الأيام والتربية الفاسدة بعدها رسوخها.

وعلاج هذا الانحراف بحسب ما تدل النصوص، وبحسب ما يذكر علماء السلوك نوعان: إجمالي، وتفصيلي:

العلاج الإجمالي: ونريد به العلاج الذي يصلح لكل مظهر من مظاهر المرض، فلا يختص بمرض من الأمراض، ولا بسبب من الأسباب، وهو في حقيقته علاج وقائي، فإذا ما دب الداء، فلا يكتفى به، بل ينظر إل أسبابه ليعالج من خلالها، كما سنرى في العلاج التفصيلي.

وقد نص القرآن الكريم علىأن العلاج العلمي لهذا الانحراف يشمل نوعين من المعارف:

معرفة ضعف النفس: فيعرف قصورها وضعفها، وأنها أقل من أن تترفع أو تتعدى طورها، وهذه المعرفة تجعل

صاحبها يطأطئ رأسه تواضعا وخجلا من أن يتعدى طوره أو يدعي ما ليس له.

ويشير إلى هذه المعرفة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (غافر:56)، لأن هؤلاء قوم رأوا أنهم أن اتبعوا النبي ﷺ قل ارتفاعهم، ونقصت أحوالهم، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تبعا، فأعلم الله عز وجل أنهم لا يبلغون الارتفاع الذي أملوه بالتكذيب.

ولهذا يرد القرآن الكريم المتكبرين إلى نشأتهم الأولى ليعرفوا حقيقتهم، قال تعالى: ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾(عبس: 17 ـ 20)

يقول الغزالي معلقا على هذه الآية الكريمة:(فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية. أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً وقد كان في حيز العدم دهوراً بل لم يكن لعدمه أول وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم؟ وقد كان كذلك في القدم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذرها إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظماً، ثم كسا العظم لحماً، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئاً مذكوراً، فما صار شيئاً مذكوراً إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرّك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوّته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وببكمه قبل نطقه وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته)[1]

وإلى هذا العلاج يشير قوله تعالى:﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يّس:78)، يقول سيد معلقا على الآية:(فما النطفة التي لا يشك الإنسان

1) إحياء علوم الدين: 3/358.

في أنها أصله القريب؟ إنها نقطة من ماء مهين، لا قوام ولا قيمة! نقطة من ماء تحوي ألوف الخلايا.. خلية واحدة من هذه الألوف هي التي تصير جنينا. ثم تصير هذا الإنسان الذي يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل، والقدرة الخالقة هي التي تجعل من هذه النطفة ذلك الخصيم المبين. وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير! أفهذه القدرة يستعظم الإنسان عليها أن تعيده وتنشره بعد البلى والدثور؟)[1]

معرفة عظمة الله: وهي العلاج العلمي الثاني، لأن كل متكبر لا يتكبر ــ في الحقيقة ــ على الخلق، وإنما يتكبر على الله، ولهذا كان الصالحون يرددون:(لا تحقر أحداً من خلق اللّه فإنه تعالى ما احتقره حين خلقه)، ويقولون:(فلا يكون اللّه يظهر العناية بإيجاد من أوجده من عدم وتأتي أنت تحتقره فإن ذلك احتقار بمن أوجده)

ويدل على هذه المعرفة النصوص القرآنية الكثيرة،كقوله تعالى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (الأنعام:91)، وقال تعالى: مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحج:74)، وقال تعالى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (الزمر:67)

فقد جعل الله تعالى عدم تقدير الله ومعرفة عظمته سببا في كل تلك الانحرافات الخلقية التي تنبع من منبع الكبر.

ولهذا كان جهل النمروذ بالله هو الذي يجعل يدعي الألوهية، كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (البقرة:258)

[1] في ظلال القرآن: 2977.

وجهل فرعون بالله هو الذي جعله يدعي الألوهية، ويستعلي في الأرض بغير حق، قال تعالى: ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت:39)، بل هو الذي جعله يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص:38)

العلاج التفصيلي: ونريد به العلاج الذي ينظر إلى الأسباب الداعية لهذا النوع من الانحراف، وهي في عادتها شبه ناتجة عن أخطاء فكرية ابتدعتها النفس أو انتشرت في المجتمع، فتلقاها من تلقاها تليقنا وتقليدا، بل قد يظن الكمال في اعتقادها.

وقد ذكر الغزالي انطلاقا من استقراء الأسباب الداعية لهذا النوع من الانحراف في عصره إلى سبعة أسباب، تكاد تكون حاصرة لأسباب الكبر، ولا يكاد يخرج عنها في عصرنا أي سبب من الأسباب، فلذلك نكتفي هنا بذكر هذه الأسباب التي ذكرها الغزالي، وكيفية علاجها، لتكون أنموذجا لغيرها من أنواع الانحراف:

النسب: وهو تعاظم الإنسان بنسب يدلي به لمن يتصور فيهم الشرف أو الرفعة، وقد ذكر الغزالي علاجين معرفيين لهذا السبب[1]:

الأولى: أن المتكبر بالنسب إن كان خسيساً في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره؟ بل لو كان الذي ينسب إليه حياً لكان له أن يقول: الفضل لي: ومن أنت؟، وهذا كما قيل:

لئن فخرت بآباءٍ ذوي شرفٍ لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

الثانية: أن يعرف نسبه الحقيقي، فيعرف أباه وجده فإن

1) إحياء علوم الدين:3/361.

أباه القريب نطفة قذرة وجـدّه البعيـد تـراب ذليـل، فمن أصلـه التراب المهين الذي يداس بالأقدام ثم خمر طينة حتى صار حمأً مسنوناً كيف يتكبر؟ وأخس الأشياء ما إليه انتسـابه إذ يقـال:(يـا أذل من التراب ويا أنتن من الحمأة ويا أقذر من المضغة)

فـإن كـان كونـه من أبـــيه أقــرب من كونـه من الـتراب فنقول: افتخر بـالقريب دون البعيـد، فالنطفـة والمضـغة أقـرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك، ثم إن كان ذلك يوجب رفعــة لقربه فـالأب الأعلى من الـتراب فمن أين رفعتـه؟ وإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده؟

الجمال: والعلاج الذي ذكره الغزالي لهذا السبب الذي قد يدفع صاحبه للكبر أن لا يقتصر نظر هذ المتكبر إلى ظاهره كما تقتصر البهائم، بل ينظر إلى باطنه نظر العقلاء، فإنه مهما نظـر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكـدر عليـه تعـززه بالجمـال فإنـه وكل به الأقذار في جميع أجزائه: الرجيع في أمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فيه، والوسـخ في أذنيـه، والدم في عروقه، والصديد تحت بشرته، والصـنان تحت إبطــه، يغسل الغائط بـيده كل يوم دفعـة أو دفعـتين، ويـتردد كـل يـوم إلى الخلاء مـرة أو مـرتين ليخـرج من باطنـه مـا لـو رآه بعينـه لاستقذره فضلاً عن أن يمسه أو يشمه، كل ذلك ليعرف قذارتـه وذله هذا في حال توسطه.

ولـو تـرك نفسـه في حياتـه يومـاً لم يتعهـدها بـالتنظيف والغسـل لثـارت منـه الأنتـان والأقـذار، وصـار أنتن وأقــذر من الدواب المهملة التي لا تتعهد نفسها قط. فإذا نظر إنه خلق من أقذار وأسكن في أقذار، وسيموت فيصير جيفة أقـذر من سـائر الأقذار لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن وكلون الأزهار في البوادي، فبـينما هو كذلك إذ صار هشيماً تذروه الرياح، كيف ولو كان جماله باقيـاً وعن هـذه القبـائح خاليـاً لكـان يجب أن لا يتكبر بـه على القبــيح، إذ لم يكن قبح القبــيح إليـه فينفيـه، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه؟ كيف ولا بقاء له بل هو في كل حين يتصوّر أن يزول بمرض أو جدري أو قرحة أو سبب من الأسباب؟ فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب؟

فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها.

وفي أول أمـره خلـق من الأقـذار الشـنيعة الصـور، من النطفة، وأخرج من مجرى الأقذار. إذ خـرج من الصـلب، ثم من الذكر مجرى البـول، ثم من الـرحم مفيض دم الحيض، ثم خـرج من مجرى القذر.

القـوّة: وهي من أسـباب الكـبر الـتي كـثر ورودهـا في القرآن الكريم، لأنها أهم الأسـباب الـتي حـالت بين المسـتبدين والتسليم لرسل الله، قال تعالى ضاربا المثـل بعـاد: ﴿ فَأَمَّا عَـادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَـدُّ مِنَّا قُـوَّةً أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُـوَ أَشَـدُّ مِنْهُمْ قُـوَّةً وَكَـانُوا بِآيَاتِنَـا يَجْحَدُونَ﴾(فصلت:15)

وهو الذي حال بين أكثر القرى وبين طاعة أنبيائها والإسلام لله، فكان فرحهم حائلا بينهم وبين كل خير،قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْـوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْـتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْـــتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَـــا اسْـــتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الـدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾(التوبة:69)

بل إن القرآن الكريم يخبر بأن هذا الترفع بـالقوة والقـدرة هو السبب المباشـر في هلاك القـرى وتـدمير الحضـارات، قـال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَـارًا فَجَعَلْنَاهَـا حَصِـيدًا كَـأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(يونس:24)

وهذا النوع من الكبر قد لا يقتصر على فرد بعينـه، بـل يعم شعوبا بأكملها تظن نفسها أرفع من شعوب أخرى، لفضـل قـوة رزقتها جعلتها تملأ الأرض كبرا واستعلاء.

والعلاج الذي ذكره الغزالي لهذا السبب هو نظر العقل لما يمكن أن يسلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجـع عـرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل، وأنه لو سلبه الذباب شـيئاً لم يسـتنقذه منـه وأن بقـة لـو دخلت في

أنفه أو نملة دخلت في أذنه لقتلته، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وأن حمى يوم تحلل من قوّته ما لا ينجبر في مدّة.

فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة ولا يقدر على أنّ يدفع عن نفسه ذبابة لا ينبغي أن يفتخر بقوّته، ثم إن قوي الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل، وأي افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم[1]؟

المال والجاه: وهما ـ كما ينص القرآن الكريم ـ من أكبر أسباب الكبر الحائلة بين الأقوام وأنبيائهم:

أما المال، فقد ذكر تعالى أن المترفين، وهم عبيد الأموال، هم أول من يقف في وجه الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ قال تعالى معبرا عن هذه السنة الاجتماعية: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(سبأ:34،35) قال قتادة:مترفوها: أي أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها.

أما الجاه، فقد أخبر تعالى أنه الحائل بين قريش، واتباع رسول الله ﷺ، بحجة أن محمدا ﷺ لم يكن له من الجاه ما كان لوجهاء القريتين، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: 31)

والعلاج الذي ذكره الغزالي لهذا السبب من أسباب الكبر هو النظر في مآل ذلك المال والجاه الذي يتعزز به، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره، ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلاً، والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه بنى أمره على قلب هو أشدّ غلياناً من القدر، فإن تغير عليه كان أذل الخلق، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل، كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل؟ فأف لشرف يسبقك به اليهودي وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً؟ فهذه أسباب ليست في ذاته،

---

1) إحياء علوم الدين: 3/362.

وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال، فالتفاخر به غاية الجهل، وكل ما ليس إليك فليس لك، وشيء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاه لك وإن استرجعه زال عنك، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء. ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره.

وقد مثل الغزالي لهذ المصير بمثال قد يستبعد في الواقع، ولكنه عين حق اليقين الذي يحيق بكل متكبر، وهو أن هذا الذي يفتخر الغافل بقوّته وجماله وماله وحرّيته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وأنّ أبويه كانا مملوكين له، فعلم ذلك وحكم به الحاكم، فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما في يده، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكه ليعرف أنّ له مالكاً، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوساً في منزل قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها، وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقاً في الخلاص ألبتة، أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوّته وكماله أم يذل نفسه ويخضع؟ وهذا حال كل عاقل بصير فإنه يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته وبدنه وأعضائه وماله، وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك. فمن هذا حاله لا يتكبر بقوّته وقدرته إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة(1).

العلم: وهو من أسباب الكبر الخطرة، لأن (قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما، بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل)(2)

وقد أخبر تعالى أن هذا النوع من الكبر كان من أسباب ابتعاد الجهال المتسترين بحجاب العلم عن الحق وعن متابعة الأنبياء، فقال تعالى: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا

1) إحياء علوم الدين: 3/362.

2) إحياء علوم الدين: 3/363.

عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(غافر:83)

وقد ذكر القرآن الكريم نموذج المتكبر بعلمه في شخص قارون عندما قال معبرا عن حقيقته: إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي (القصص:78)، فرد عليه تعالى قائلا: أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ (القصص:78)

وقد ذكر الغزالي لعلاج هذا السبب من أسباب الكبر معرفتين:

الأولى: يشير إليها قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الجمعة:5)، وقوله تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (لأعراف: 175)، وقال تعالى: وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (لأعراف:176)

فقد مثل الله تعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب، وهو دليل على خسة قدر من يترفع بعلم لم ينفعه، فهو أشبه فيه بما يستقذره من الحمار والكلب.

ولهذا وردت النصوص الكثيرة تحذر من المخاطر التي يتعرض لها من يكون علمه حجة عليه يوم القيامة، قال الغزالي:(فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره كما أنّ قدره أعظم من قدر غيره، فهذا بذاك. وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيراً، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال؟ والعياذ بالله منه. فهذا الخطر يمنع من التكبر، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه، فكيف يتكبر من هذا حاله؟ فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه

أكبر من الصحابة، وقد كان بعضـهم يقـول: يـا ليتـني لم تلـدني أمي ويأخـذ الآخـر تبنـة من الأرض ويقـول: يـا ليتـني كنت هـذه التبنة ويقول الآخر: ليتني كنت طيراً أؤكل ويقـول الآخـر: ليتـني لم أك شيئاً مـذكوراً كـل ذلـك خوفـاً من خطـر العاقبـة، فكـانوا يرون أنفسهم أسوأ حـالاً من الطـير ومن الـتراب. وممـا أطـال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره، ورأى نفسه كأنه شر الخلق)(1)

وضرب الغزالي مثالا مشخصا لهـذه المعرفـة، بعبـد أمـره سيده بـأمور فشـرع فيهـا، فـترك بعضـها وأدخـل النقصـان في بعضها وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضـيه سـيده أم لا؟ فأخبره مخبر أنّ سيده أرسل إليه رسولاً يخرجه من كل مـا هو فيه عرياناً ذليلاً ويلقيه على بابـه في الحـرّ والشـمس زمانـاً طويلاً، حتى إذا ضـاق الأمـر عليـه وبلـغ بـه المجهـود أمـر برفـع حسابه وفتش عن جميع أعماله قليلهـا وكثيرهـا ثم أمـر بـه إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة، وقد علم أنّ سيده قد فعـل بطوائـف عبـيده مثـل ذلـك وعفـا عن بعضـهم وهـو لا يـدري من أي الفـريقين يكـون؟ فـإذا تفكـر في ذلـك انكسـرت نفسه وذل وبطل عـزه وكـبره وظهـر حزنـه وخوفـه ولم يتكـبر على أحد من الخلق، بل تواضع رجاء أن يكون هـو من شـفعائه عند نزول العذاب.

قال الغزالي معقبا على هذا المثل:(فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامـر ربـه بجنايـات على جوارحـه وبـذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره، وعلم بما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة)(2)

الثانية: معرفة محبة الله للتواضـع، وأن الكـبر لا يليـق إلا بالله تعالى وحده، وأنه إذا تكبر صـار ممقوتـاً عنـد اللـه بغيضـاً، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له: إن لك عندي قدراً ما لم تر لنفسك قدراً فإن رأيت لنفسك قدراً فلا قـدر لـك عنـدي، فلا بدّ وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه.

1) إحياء علوم الدين: 3/363.

2) إحياء علوم الدين: 3/363.

الدين: وهو من الأسباب التي قد تكون داعية للكبر، خاصة لمن اقتصر من الدين على ظواهره الحرفية، وغفل عن مقاصده، وحقائقه الباطنية.

ولعلاج الكبر بالدين أدوية كثيرة، كلها مما وردت النصوص بالدلالة عليه، أهمها التأمل فيما حجب عن الإنسان من خاتمته، كما قال ﷺ:(.. فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة)(1)

يقول الغزالي:(اعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه، إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر، والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك، فكم من مسلم نظر إلى عمر قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين؟ إلا أبا بكر وحده، فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة، وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة)(2)

وقد ذكر الغزالي أدب المتواضعين والمعارف التي ينطلقون منها، فقال:(فإذن من حق العبد أن لا يتكبر على أحد. بل إن نظر إلى الجاهل قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني. وإن نظر إلى عالم قال: هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سناً قال: هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى صغير قال: إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعله يختم له بالإسلام ويختم لي بما هو عليه الآن، فليس دوام الهداية إليَّ، كما لم يكن

1) رواه البيهقي.

2) إحياء علوم الدين: 3/364.

ابتداؤها إليَّ؟ فبملاحظة الخاتمة يقـدر على أن ينفي الكـبر عن نفسه)[1]

الغضب

وهو من أخطر الانحرافات وأعقدها، وذلك لكونـه من حيث أصله شيئا فطريا طبيعيا، لا ينفـك عنـه أحـد، بـل هـو ــ أحيانـا ـ يظهر في الصغير أكثر من ظهوره في الكبير.

ولذلك يتطلب معالجة حاذقة لا تزيله من أصـله، فهـو كمـا ذكرنا فطري لا يمكن انفكاك الطبع عنه، وإنما تحد من آثـاره أو توجهه الوجهة السليمة.

وقبل أن نذكر ما يمكن استثماره من المعـارف لعلاج هـذا الانحراف، نحب أن نذكر بعض الطرق الخاطئة التي يواجه بها ـ عادة ـ غضب الصغير، وأهمها وأخطرها الاستسلام أمام غضــبه، بحيث تنفذ طلباتـه مهمـا اشـتدت حرصـا على كفـه عن غضـبه، وهـذا أسـلوب خـاطئ يجعلـه يعمـد إلى الغضـب كأسـلوب من أساليب الحصول على ما يريد.

ومنهـا الصــرامة الشــديدة في معاملتـه، لأنّ الطفــل في مرحلته الاولى تأبى شخصيته النامية ان توجه اليه الأوامر بحـدة وتهكم.. لان عدم احترام شخصيته يعتبر احد انواع الاعتداء التي تثير غضب الطفل، بل كل إنسان.

انطلاقـا من هـذا، فـإن المعـارف الـتي يعـالج بهـا الغضـب نوعان، كما سبق ذكره في العلاج العلمي للكبر:

العلاج الإجمالي: ونريد به ـ مـا ذكرنـا سـابقا ــ من أنـه العلاج الذي يصلح لكـل مظهـر من مظـاهر المـرض، فلا يختص بمرض من الأمراض، ولا بسبب من الأسباب، وهـو في حقيقتـه علاج وقـائي، فـإذا مـا دب الـداء، فلا يكتفى بـه، بـل ينظـر إل أسبابه ليعالج من خلالها، كما سنرى في العلاج التفصيلي.

ومن المعارف التي يمكن استخدامها، بل يبذل المربي كل

---

1) إحياء علوم الدين: 3/364.

وسعه لملء عقل ووجدان من يربيه بمعانيها:

الثواب: فيتفكر في النصوص التي وردت في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب في ثوابه، فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفي والانتقام وينطفيء عنه غيظه.

ويدل على هذا من فعل السلف ما روي أن عمر بن عبد العزيز أمر بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى: والكَاظِمينَ الغَيظَ ، فقال لغلامه: خل عنه.

العقاب: فيتفكر في العقاب الذي أعده الله تعالى لمن نفذ ما يتطلبه غضبه من غير حق، ويشير إليه ما روي عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ في بيتي وكان بيده سواك فدعا وصيفة له أو لها حتى استبان الغضب في وجهه وخرجت أم سلمة إلى الحجرات فوجدت الوصيفة وهي تلعب ببهيمة، فقالت أراك تلعبين بهذه البهيمة ورسول الله ﷺ يدعوك فقالت:(لا والذي بعثك بالحق ما سمعتك)، فقال رسول الله ﷺ: (لولا خشية القود لأوجعتك بهذا السواك)(1)، وفي رواية: (لضربتك بهذا السواك)، فقد جعل ﷺ مخافة القصاص يوم القيامة سببا يمنعه من إيلام هذه الخادم.

ولهذا كان ﷺ يعلاج ما ستعرض له الخدم والمستضعفون من سوء المعاملة بتذكير أهليهم وسادتهم بالقصاص يوم القيامة، عن أبي مسعود البدري قال: كنت أضرب غلاما لي بالسوط فسمعت صوتا من خلفي: اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: اعلم أبا مسعود أن الله تعالى أقدر عليك منك على هذا الغلام، فقلت لا أضرب مملوكا بعده أبدا)(2)، وفي رواية: فقلت:(يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى) فقال:(أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار)

---

1) رواه أبو يعلى.

2) رواه مسلم وغيره.

وعن عائشة أن رجلا قعد بين يدي رسول الله ﷺ فقال: إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم، فقال رسول الله ﷺ:(إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل)، فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبكي، فقال له رسول الله ﷺ:(أما تقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الانبياء:47)، فقال الرجل:(يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء خيرا من مفارقتهم أشهدك أنهم كلهم أحرار)(1)

وقال ﷺ:(من ضرب سوطا ظلما اقتص منه يوم القيامة)(2)

وقد روى الغزالي عن بعض الكتب القديمة:(يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق)، وروى أنه ما كان في بني إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة فيها (ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة)، فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه.

وقد ذكر الغزالي القناعات التي يقنع الصالح بها نفسه إن ألم به الغضب، فقال:(أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الإنتقام ويمنعه من كظم الغيظ، ولا بد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له: إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيراً في أعين الناس فيقول لنفسه: ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك؟ وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والنبيين؟ فمهما كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه لله، وذلك يعظمه عند الله، فما له وللناس؟ وذلك من ظلمه يوم

1) رواه أحمد بسند صحيح.

2) رواه الطبراني بسند حسن.

القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن، أفلا يحب أن يكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة: ليقم من أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفـا؟ فهـذا وأمثالـه من معـارف الإيمـان ينبغي أن يكـرره على قلبه)[1]

العواقب: فيتفكر في النتائج التي يؤول إليهـا غضـبه، من الانتقام والحقد والعداوة والشماتة وغير ذلك مما قد يقابـل بـه، بخلاف ما لو أمسك غضبه وتعامل تعاملا عقلانيا مع ما استدعاه غضبه.

يقول الغزالي:(وهذا يرجع إلى تسليط شـهوة على غضـب وليس هذا من أعمال الآخـرة ولا ثـواب عليـه، لأنـه مـتردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض، إلا أن يكـون محـذوره أن تتشوش عليه في الدنيا فراغته للعلم والعمل وما يعينه على الآخرة فيكون مثاباً عليه)[2]

ومـا ذكـره الغـزالي ــ هنـا ــ مهم في علاج الانحـراف بمـا يقتضيه ضده، فتعالج حـدة الغضـب بالشـهوة الـتي تقلـل أثـره، وتحـد من خطـره، كمـا تقلـل الشـهوة الجارفـة بالغضـب الـذي يستدعي النخوة وحماية العرض.

حاله عند الغضـب: فيتفكـر في حالـه عنـد الغضـب من ذهاب وقاره واحترامه وصيرورته محلا للسخرية والاستهزاء، بل يتحول في حال غضبه من الإنسان اهادئ الوقـور إلى صـورة لا تختلف كثيرا عن صـورة الكلب العقـور، قـال الغـزالي:(ويتفكـر في قبح الغضـب في نفسـه ومشـابهة صـاحبه للكلب الضـاري والسبع العادي، ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للأنبـياء والأوليـاء والعلمـاء والحكمـاء، ويخـير نفسـه بـين أن يتشـبه بـالكلاب والسـباع وأراذل النـاس وبـين أن يتشـبه بالعلمـاء والأنبـياء في عادتهم لتميـل نفسـه إلى حب الاقتـداء بهـؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل)[3]

---

1) إحياء علوم الدين:3/173.

2) إحياء علوم الدين:3/173.

العلاج التفصيلي: ونريد به ـ ما ذكرنا سابقا ـ من أنه العلاج الذي ينظر إلى الأسباب الداعية لهذا النوع من الانحراف، وهي في عادتها شبه ناتجة عن أخطاء فكرية ابتدعتها النفس أو انتشرت في المجتمع، فتلقاها من تلقاها تليقنا وتقليدا، بل قد يظن الكمال في اعتقادها.

وقد روي أن يحيى قال لعيسى ـ عليهما السلام ـ: أي شيء أشد؟ قال: غضب الله، فما يقرب من غضب الله، قال أن تغضب، قال: فما يبدي الغضب وما ينبته؟ قال عيسى: الكبر والفخر والتعزز والحمية.

وقد ذكر الغزالي الأسباب المهيجة للغضب، أو المنابع النفسية الدافعة له، فذكر: الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادّة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه.

ثم بين طريق العلاج في مواجهة الغضب من خلالها، فقال:(وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها. فينبغي أن تميت الزهو بالتواضع. وتميت العجب بمعرفتك بنفسك، وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك إذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد؛ وإنما اختلفوا في الفضل أشتاتاً فبنو آدم جنس واحد وإنما الفخر بالفضائل؛ والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهي أصلها ورأسها، فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك، فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة؟ وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك. وأما الهزل فتزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الآخرة. وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك. وأما التعبير فالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مر الجواب. وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلباً

3) إحياء علوم الدين:3/173.

لعز الاستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة)[1]

ومن أهم أسباب الغضب وأخطرها تعظيم الغضب واعتقاد أنـه نـوع من الشـجاعة والرجوليـة وعـزة النفس وكـبر الهمـة، (وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلاً حتى تميل النفس إليـه وتستحسنه. وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكـابر في معرض المدح بالشجاعة، والنفـوس مائلـة إلى التشـبه بالأكـابر فيهيج الغضب إلى القلب بسببه)[2]

ولهـذا عـالج ﷺ هـذا السـبب بـأن اعتـبر الشـديد القـوي المتمكن من الرجولة من يمسك نفسه عند الغضـب، فقـال ﷺ: (ليس الشديد بالصـرعة، إنمـا الشـديد الـذي يملـك نفسـه عنـد الغضب)[3]، وفي رواية أخرى:(أتحسـبون أن الشـدة في حمـل الحجارة؟ إنما الشدة في أن يمتلئ أحدكم غيظـا ثم يغلبـه)[4]، وفي روايـــة:(ألا أدلكم على أشـــدكم؟ أملككم لنفســـه عنـــد الغضب)[5]

وتأمل الواقع وحده يدل على أن الغضـب المـذموم لا يقـع في العــادة إلا من الضــعفاء الــذين يستســلمون لأهــوائهم أو تصرعهم أهواؤهم لا من الأقوياء المتمكـنين من أنفسـهم، قـال الغزالي:(وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهـل بـل هـو مـرض قلب ونقصـان عقـل وهـو لضـعف النفس ونقصـانها، وآيـة أنـه لضعف النفس أن المريض أسـرع غضـباً من الصـحيح، والمـرأة أسـرع غضـباً من الرجـل، والصبـــي أسـرع غضـباً من الرجـل الكبـير، والشيخ الضـعيف أسـرع غضـباً من الكهـل، وذو الخلـق السيـىء والرذائل القبـيحة أسـرع غضـباً من صـاحب الفضـائل. فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة، ولبخله إذا فاتته الحبـة،

---

1) إحياء علوم الدين:3/172.

2) إحياء علوم الدين:3/172.

3) رواه أحمد والبيهقي .

4) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب.

5) رواه الطبراني في الكبير.

حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه. بل القوي من يملك نفسه عند الغضب)(1)

الأساليب العملية

وهي الأساليب التي تستدعي مواجهة حاسمة وعملية للانحراف الذي قد يقع فيه الإنسان، وهي تكملة للأساليب العلمية التي سبق ذكرها، فلا يفيد العمل دون العلم، كما لا يغني العلم الخالي عن العمل، فكلاهما جندان أساسيان لمواجهة الانحراف والقضاء على آثاره.

وقد دلت النصوص الكثيرة على إمكانية تغيير أخلاق النفس بالمجاهدة والرياضة الروحية، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:16)، فإن الولاء التام لله والتبرؤ التام من غيره يستدعي مواجهة عملية حاسمة، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:69)، فقد اعتبر ما تبذله النفس من عناء في سبيل الاستقامة على منهج الله نوعا من أنواع الجهاد.

وورد في الحديث قوله ﷺ:(إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه)(2)، وهو يدل على أن رياضة النفس للحصول على الحلم ممكنة.

والأساس الذي ينطلق منه ما سنذكره من الأساليب العملية هو الإرادة الجازمة القوية التي تقرر مواجهة الخطيئة وقمعها للحصول على الاستقامة، وهذه الإرادة تستدعي ما ذكرنا سابقا من تقوية الإيمان، وتقوية الصلة الروحية بالله بالعبادة، فالعبادة الصادقة هي أساس الفضائل ومنبعها، وقد قال تعالى في الصلاة: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت:45)، وقال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ

1) إحياء علوم الدين:3/172.

2) رواه ابن عساكر .

وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (البقرة:45)، وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (البقرة:153)

والقاعدة التي يتفق عليها كل ما سنذكره من أدوية، وما لم نذكره هو ما يمكن التعبير عنه بمضادة الصفات.

فالأخلاق الإنسانية كالجسد، تداوى علله بما يداوى به الجسد، وكما أن أدواء الجسد تداوى بما يناقضها، فكذلك أدوية الأخلاق، قال الغزالي مفسرا هذا المثال ومبينا وجه التشابه بين الجسد والنفس التي هي محل الخلق:(مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه. وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ــ أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل ـ وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء؛ فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال؛ وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم. وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه؛ فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة، فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوّة إليها واكتساب زيادة صفائها، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها)[1]

وانطلاقا من هذه القواسم المشتركة بين الجسد والنفس، يذكر الغزالي كيفية علاج النفس متخذا من الجسد معبرا لذلك، قال:(وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها. فيعالج مرض الجهل بالتعلم، ومرض البخل بالتسخي،

1) إحياء علوم الدين:3/60.

ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفاً. وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى. فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد)

وهذا التداوي الروحي يستدعي ضوابط ومعايير كما يستدعيه علاج الجسد سواء بسواء، يقول الغزالي:(وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ـ ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة، ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد ـ فكذلك النقائض التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار. وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهي ضعيفة أم قوية؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها)(1)

وهذا يستدعي في نظر الغزالي قائمين على العلاج الروحي كما أن للجسد من يقوم على علاجه، وهذا المعالج الروحي هو الشيخ المتبوع، يقول الغزالي مبينا دور هذا الشيخ: (فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطبب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم. وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم)(2)

ويذكر الغزالي الأمثلة عن كيفية تطبيب الشيخ للمريدين، فيقول:(ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه

1) إحياء علوم الدين:3/60.

2) إحياء علوم الدين:3/61.

ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبني على ذلك رياضته. فإن كان المريد مبتدئاً جاهلاً بحدود الشرع فيعلمه أولاً الطهارة والصلاة وظواهر العبادات، وإن كان مشغولاً بمال حرام أو مقارفاً لمعصية فيأمره أولاً بتركها، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه، فإن رأى معه مالاً فاضلاً عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه، وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للكدية والسؤال، فإن عزة النفس والرئاسة لا تنكسر إلا بالذل ولا ذلّ أعظم من ذلك السؤال فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه، فإن الكبر من الأمراض المهلكة وكذلك الرعونة، وإن رأىالغالب عليه النظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلاً إلى ذلك فرحاً به ملتفتاً إليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته في النظافة. فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون المرقعات النظيفة والسجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار، فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنماً فمهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله، ومن راعى في ثوبه شيئاً سوى كونه حلالاً وطاهراً مراعاة يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه)[1]

وهذا الشيخ المربي يحتال على النفس بما يعيدها إلى صوابها، فـ (من لطائف الرياضة إذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة؛ فينبغي أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه، كالذي يغسل الدم بالبول، ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم. كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياسة وطلب الجاه، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة، فكذلك من لم

1) إحياء علوم الدين:3/61.

تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فلينقل إلى جاه أخف منه، وكذلك سائر الصفات)(1)

ومثل ذلك ما لو رأى شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام، ثم يكلفه أن يهيىء الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوي بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه.

ومثل ذلك ما لو رآه شاباً متشوقاً إلى النكاح وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم، وربما لا تسكن شهوته بذلك فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء. ويمنعه اللحم والأدم رأساً حتى تذل نفسه وتنكسر شهوته... فلا علاج في مبدإ الإرادة أنفع من الجوع.

ومثل ذلك ما لو رأى الغضب غالباً عليه فإنه يلزمه الحلم والسكوت وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق، ويلزمه خدمة من ساء خلقه حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه.

وقد حكى الغزالي عن بعضهم أنه كان يعوّد نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب، فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ويكلف نفسه الصبر، ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل.

وذكر عن بعضهم أنه كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب، فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج.

وذكر عن عباد الهند أنهم يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة.

انطلاقا من هذا، نحاول في هذا المطلب أن نذكر بعض النماذج عن كيفية ممارسة الأساليب العملية مع الانحرافات الثلاث السابقة:

الانحراف الجنسي

---

1) إحياء علوم الدين:3/62.

وهو أخطر أنواع الانحراف، وذلك يحتاج إلى مجاهدة كبيرة في الوقاية منه، وخاصة عند ظهور مباديه، كمان به إلى ذلك قوله ﷺ:(وفرقوا بينهم في المضاجع)

وذلك لأن معالجة الأمر من بدايته تمكن من مواجهته، بخلاف ما لو ترك يعلم في النفس عمله، فإنه من الصعوبة الشديدة مقاومته، وقد ضرب الغزالي لذلك مثلا قريبا يتعلق بنوع من أنواع الانحراف الجنسي، وهو العشق، فقال:(مثال من يكسر سورة العشق في أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب لتدخله، وما أهون منعها بصرف عنانها. ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها إلى ورائها. وما أعظم التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسر، فليكن الاحتياط في بدايات الأمور فأما في أواخرها فلا تقبل العلاج إلا بجهد جهيد يكاد يؤدي إلى نزع الروح)[1]

انطلاقا من هذا، فإن أهم الأساليب العملية لعلاج الانحراف الجنسي هو الابتعاد عن الاختلاط المسبب للفتنة، وهو ما أشار إليه الحديث السابق.

فلذلك كان من الأخطاء الكبيرة التي وقعت فيها أكثر المجتمعات الإسلامية هو إشاعة الاختلاط في التعليم، بحيث أصبح من الصعوبة الشديدة وقاية كل جنس من إغراءات الجنس الآخر.

ومن العلاج العملي لهذا الانحراف هو شغل وقت من خيف عليه الوقوع في هذا الانحراف بكل شغل يلفت نظره عن هذا الباب.

وذلك لأن الخواطر الشهوانية التي تعمر قلب الإنسان بسبب غفلته وفراغه هي التي تحرضه على المعصية وتحمله عليها.

وقد ضرب الغزالي مثال النفس الإنسانية في ذلك بقبة

1) إحياء علوم الدين:3/101.

مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب، أو هـو مثـل هـدف تنصـب إليـه السـهام من الجـوانب، أو هـو مثـال مـرآة منصـوبة تجتـاز عليهـا أصـناف الصـور المختلفـة فتـتراءى فيهـا صورة بعد صورة، ولا تخلو عنها، أو هو مثل حـوض تنصـب فيـه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه(1).

ومداخل هذه الآثار المتجددة في القلب ظاهرة وباطنة:

أما الظاهرة فالحواس الخمس، وأخطرها بالنسبة لما نحن فيـه حاسـة البصـر، وأمـا الباطنـة فالخيـال والشـهوة والغضـب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان، فـإذا أدرك بـالحواس شـيئا حصل منه أثـر في القلب، فـإن كـف عن الإحسـاس فالخيـالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شـيء إلى شـيء، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر.

فالقلب في تغير وتأثر دائم نتيجـة هـذه الخيـالات والأفكـار الحاصلة فيه، وأخص هذه الآثـار مـا يطلـق عليـه بـالخواطر(2)، وهي (مـا يحصـل في القلب الأفكـار والأذكـار إمـا على سـبيل التجدد وإما على سبيل التذكر)

وهذه الخـواطر هي المحـرك الـذي ينشـر الرغبـة والإرادة (فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنـوى بالبـال لا محالـة فمبـدأ الأفعـال الخـواطر ثم الخـاطر يحـرك الرغبـة والرغبة تحرك العزم والعزم يحرك النية والنية تحرك الأعضاء)

فلذلك كانت الخواطر هي الأساس الذي تنشـر منـه العفـة أو الرذيلة، وكـانت هي المحـل الـذي يبـدأ بـه العلاج، وتتأسـس الوقاية.

فالقدرة على صرف الخواطر وتوجيهها وجهة صحيحة يقي القلب من السهام التي يوجهها هذا الحب الآثم إلى القلب، كمـا قال الشافعي :(صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين أحدهما قولهم الوقت سيف فإن لم تقطعه قطعك وذكر الكلمة

---

1) إحياء علوم الدين:3/26.

2) وتسمى بالخواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها.

الآخرى ونفسك إن أشغلتها بالحق وإلا اشتغلتك بالباطل)

والطريق إلى ذلك هو توجيه القلب إلى الخواطر الصالحة، (وهي على أربعة أصول: خطرات يستجلب بها العبد منافع دنياه، وخطرات يستدفع بها مضار دنياه، وخطرات يسجلب بها مصالح آخرته، وخطرات يستدفع بها مضار آخرته)(1)

فإذا تمكن العبد من حصر فكره في جلب هذه المصالح ودفع تلك المفاسد نجا من هذا النوع من الانحراف، وكسب من المصالح ما يعوض تلك اللذة الوهمية التي تجلبها له خواطره، قال ابن القيم:(فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه فى هذه الاقسام الأربعة، فإذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره وإذا تزاحمت عليه الخطرات كتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالاهم الذي يحشى فوته وأخر الذي ليس باهم ولا يخاف فوته)(2)

الكبر

بعد امتلاء الوجدان بالمواعظ الناهية عن هذا الانحراف، والتي سبق ذكر جملها في العلاج العلمي، فإن العلاج العملي ينطلق من مضادة المجتهد ما يتطلبه كبره من سلوك، فإن طلب كبره الوقوف جلس، وإن طلب الجلوس وقف، وإن طلب أرفه الثياب لبس أزهدها، وإن طلب عدم المرور بطريق مر بها، وإن طلب عدم التحرك بحركة تحركها، وهكذا إلى أن يتم علاجه.

ومن الأمور العملية التي ذكرها الغزالي (أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل عليه فهو كبر، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من

1) الجواب الكافي:108.

2) الجواب الكافي:108.

المعارف التي تزيل داء الكبر)[1]

ومنها (أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلوّ الطريق فهو كبر، وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء، وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك)

ويروى في ذلك عن عبد الله بن سلام أنه حمل حزمة حطب فقيل له يا أبا يوسف: قد كان في غلمانك وبنتك ما يكفيك قال: أجل ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جرّبها أهي صادقة أم كاذبة؟

ويعينه على ذلك مطالعة أخلاق المتواضعين، فقد كان ﷺ يأكل على الأرض ويقول:(إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ)[2]، وقيل لسلمان. لم لا تلبس ثوباً جديداً؟ فقال:(إنما أنا عبد فإذا أعتقت يوماً لبست جديداً)

وأكبر ما يفيد في هذا هو التذلل لله والخشوع بين يديه، والذي لا يكمل إلا في الصلاة الحقيقية، فكل أقوالها وحركاتها تربي معاني التواضع في نفس القائم بها، قال الغزالي:(وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائماً وبالركوع والسجود، وقد كانت العرب قديماً يأنفون من الإنحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه.. فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم، وبه أمر سائر الخلق، فإن الركوع والسجود والمثول قائماً هو العمل الذي يقتضيه التواضع)[3]

---

1) إحياء علوم الدين: 3/368.

2) رواه ابن عدي في الكامل.

3) إحياء علوم الدين: 3/360.

ومن مظاهر الصدق في معالجة هذا النـوع من الانحـراف، أن يمتحن الإنسان نفسه أو يمتحنـه من يربيـه، ليقمـع الأسـباب الخفية لهذا الانحراف.

ومن صـور الامتحـان الـتي ذكرهـا الغـزالي أن ينـاظر في مسألة مع واحـد من أقرانـه، فـإن ظهـر شـيء من الحـق على لسـان صـاحبه فثقـل عليـه قبولـه والانقيـاد لـه والاعـتراف بـه والشكر له على تنبـيهه وتعريفه وإخراجه الحق، فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً، فيعالجه بالعلم ـ كما ذكرنا سابقا ـ بـأن يـذكر نفسه خسـة نفسـه وخطـر عاقبتـه وأن الكـبر لا يليـق إلا باللـه تعالى.

وبالعمل بأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلـق اللسـان بالحمـد والثنـاء، ويقـر على نفسـه بـالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول: مـا أحسـن مـا فطنت لـه وقـد كنت غافلاً عنه فجزاك الله خيراً كما نبهتني لـه فالحكمـة ضـالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها.

ويشترط الغزالي لهذا السلوك المواظبة عليه مدة إلى أن يـؤتي ثمـاره في النفس، قـال:(فـإذا واظب على ذلـك مـرات متوالية صار ذلك له طبعاً، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله، ومهما ثقل عليه الثنـاء على أقرانـه مـا فيهم ففيـه كـبر، فإن كان ذلـك لا يثقـل عليـه في الخلـوة ويثقـل عليـه في الملأ فليس فيه كبر وإنما فيه رياء)(1)

وفي هذه الحالة يحتـاج إلى علاج الريـاء بأسـاليبه العلميـة والعملية الخاصة، والمذكورة في محالها من كتب السلوك.

ومن صوره ـ كما يـذكر الغـزالي ــ أن يجتمـع مـع الأقـران والأمثـال في المحافـل ويقـدمهم على نفسـه ويمشـي خلفهم ويجلس في الصـدور تحتهم، فـإن ثقـل عليـه ذلـك فهـو متكـبر، فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله، فبذلك يزايله الكبر.

وقـد نبـه الغـزالي ــ هنـا ــ إلى حيلـة شـيطانية يتلبس بهـا

---

1) إحياء علوم الدين: 3/367.

المتكبر الذي يرى في صورة المتواضع، فقال:(وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر، فإن ذلك يخفّ على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل، فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضاً، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن)(1)

الغضب

ينطلق العلاج العملي لانحراف الغضب من مواجهة أسباب الغضب بما يضادها، كما ذكرنا في الكبر ــ قال الغزالي:(وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس، فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل)(2)

وهذا يستدعي في كثير من الأحيان أعوانا يستعان بهم على دفع هذا الانحراف، ويروي المعتمر بن سليمان من ذلك أنه كان رجل من الأمم السالفة يغضب فيشتدّ غضبه فكتب ثلاث صحائف وأعطى كل صحيفة رجلاً وقال للأول: إذا غضبت فأعطني هذه، وقال الثاني: إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه، وقال الثالث إذا ذهب غضبي فأعطني هذه، فاشتد غضبه يوماً فأعطي الصحيفة الأولى فإذا فيها (ما أنت وهذا الغضب إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً)، فسكن بعض غضبه، فأعطي الثانية فإذا فيها (ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء)، فأعطي الثالثة فإذا فيها (خذ الناس بحق الله فإنه لا يصلحهم إلا ذلك)

---

1) إحياء علوم الدين: 3/367.

2) إحياء علوم الدين: 3/172.

ويـروى أن المهـدي غضـب على رجـل فقـال شبـيب:(لا تغضب لله بأشد من غضبه لنفسه)، فقال: خلوا سبـيله.

ومما يعين على هذا انشغال القلب بالمهمات التي تصـرفه عن غضبه، وعما يستدعيه غضبه من سلوك، لأن انشغال القلب دواء لأكثر العلل.

ومن أعظم الأشغال اشتغال الإنسان بمصيره، ويـروى في هذا أن سلمان شتمه بعضهم، فقال له:(إن خفت موازيـني فأنـا شر مما تقول وإن ثقلت موازيـني لم يضـرني مـا تقـول)، فقـد كان همه مصروفاً إلى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم.

ومثل ذلك ما يروى أنه شتم رجل الربـيع بن خـثيم فقـال:(يا هذا قد سمع الله كلامك وإن دون الجنة عقبة إن قطعتهـا لم يضرني ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول)

أو ينشغل بحقوق ربه وعيـوب نفسـه، ويـروى في هـذا أن رجلا سب أبا بكر فقال:(ما ستر الله عنـك أكـثر) قـال الغـزالي معلقا على قوله:(فكأنه كان مشغولاً بـالنظر في تقصـير نفسـه عن أن يتقي الله حق تقاتـه ويعرفـه حـق معرفتـه، فلم يغضـبه نسـبة غـيره إيـاه إلى نقصـان، إذ كـان ينظـر إلى نفسـه بعين النقصان، وذلك لجلالة قدره)

ومثل ذلك ما يروى أن امرأة مالك بن دينـار قـالت لـه: يـا مرائي، فقال:(ما عرفني غيرك)

وسب رجل الشعبـي فقال:(إن كنت صادقاً فغفر اللـه لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك)

أمـا حـال الغضـب، فيعـالج بمـا ورد في السـنة من أنـواع العلاج، ومنها:

الاستعاذة: كمـا ورد في الحـديث عَنْ سـليمان بن صـرد قال: كنت جالسـا مـع النـبي ﷺ ورجلان يسـتبان، وأحـدهما قـد احمر وجهـه وانتفخت أوداجـه فقـال رَسُـول اللَّهِ ﷺ:(إني لأعلم كلمـة لـو قالهـا لـذهب عَنْـه مـا يجـد، لـو قـال أعـوذ باللَّه مِنْ الشيطان الرجيم ذهب عَنْه ما يجد)، فقالوا له إن النبي ﷺ قال:

(تعوذ باللّه مِنْ الشيطان الرجيم)(1)

تغيير الحركة: وذلك بالجلوس في حال كونه قائماً، والاضطجاع إن كان جالساً لأن (سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة) فقد قال رسول الله:(ألا إن الغضب جمرة توقد في جوف ابن آدم، ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، فإذا وجد أحدكم شيئا من ذلك فالأرض الأرض)(2)، وقال ﷺ:(إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع)(3)

الوضوء: فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل، فإن النار لا يطفئها إلا الماء، قال ﷺ:(الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من النار، والماء يطفئ النار، فإذا غضب أحدكم فليغتسل)(4)، وقال ﷺ:(إنما الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ)(5)

ثالثا ـ الفضائل الخلقية وكيفية تنميتها

بعد تهيئة تربة نفس المتلقي بوقايته من كل أسباب الانحراف، ثم علاج ما يظهر من مظاهره، أو ما يختفي من منابعه، فإن العمل الأضخم الذي يقوم به المربي هو تكميل نفس المتلقي، وغرس الفضائل الخلقية التي تهيئها للمقامات الرفيعة، وتحققها بالكمال الإنساني.

وذلك لأن درجة التحقق بالفضائل هي التي تحدد درجة كمال الإنسان، ولهذا أثنى الله تعالى على نبيه ﷺ فقال:

1) البخاري ومسلم.

2) رواه الترمذي:رقم 2192 وقال: حسن صحيح.

3) رواه أحمد وأبو داود والبيهقي.

4) رواه ابن عساكر.

5) رواه أحمد وأبو داود.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4)

ولهذا وردت النصوص الكثيرة تخبر بأن أرفع المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، قال ﷺ:(خياركم أحاسنكم أخلاقا)(1)، وقال ﷺ:(إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم)(2)

بل ورد ما هو أعظم من ذلك، وهو أن درجة القرب من رسول الله ﷺ بقدر حسن الخلق، قال ﷺ:(إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون) قالوا:(يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون) قال:(المتكبرون)(3)

ولذلك، فإن الدرجات العليا والأجور العظيمة لا يحوزها إلا من حسن خلقه، فقال ﷺ:(ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء)(4)، وقال ﷺ:(أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه)(5)، فجعل البيت العلوي جزاء لأعلى المقامات الثلاثة، وهي حسن الخلق والأوسط لأوسطها وهو ترك الكذب، والأدنى لأدناها وهو ترك المماراة وإن كان معه حق ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله.

وسئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال:(تقوى الله وحسن الخلق)، وسئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال:

---

1) رواه أحمد .

2) رواه الترمذي، وقال: حديث صحيح.

3) رواه الترمذي.

4) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

5) رواه الطبراني، وإسناده صحيح.

(الفم والفرج)(1)

بل أخبر ﷺ أن (المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)(2)

انطلاقا من هذه المنزلة الرفيعة لهذه الفضائل الخلقية سنتحدث في هذا المبحث عن أمرين مهمين، كلاهما من قواعد هذا الباب وأصوله:

الأول: هو التعرف على حقيقة الخلق وضوابطه، والتي من خلالها يمكن التعرف على منابعه ومظاهره.

الثاني: هو التعرف على الطرق التي تنال بها الفضائل الخلقية، والتي من خلال ممارستها يمكن للمربي أن يغرس هذه الفضائل في النفس.

1 ـ حقيقة الخلق وضوابطه

حقيقة الخلق

لعل أشهر تعريف للخلق هو أنه (هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر)(3)، ولعل أول من أطلق هذا التعريف بهذه الألفاظ هو أبو حامد الغزالي(4)، وقد دعاه إلى هذا التعريف، هو تحليله للمكونات التي يصدر منها أي سلوك أخلاقي، وهي ـ بحسب النظر العقلي ـ أربعة أمور:

الفعل: وهو السلوك الظاهر سواء كان جميلا أو قبيحا، وهذا لا يعتبر بحد ذاته خلقا، يقول الغزالي:(ليس الخلق عبارة

---

1) رواه الترمذي، وقال: حديث صحيح.

2) رواه أبو داود.

3) إحياء علوم الدين: 3/52.

4) ويدل على هذا قوله في إحياء علوم الدين:(اعلم أن الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ما هو، وما تعرضوا لحقيقته وإنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضراً في ذهنه ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب) انظر: إحياء علوم الدين: 3/52.

عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المـال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء)

القدرة: وهو المصدر الذي انطلق منه الفعل، والغزالي لا يعتبرها أيضا خلقا، ولا محلا للخلق، وذلك (لأن نسـبة القـوة إلى الإمساك والإعطـاء بـل إلى الضـدّين واحـد. وكـل إنسـان خلـق بالفطرة قـادر على الإعطـاء والإمسـاك، وذلـك لا يـوجب خلـق البخل ولا خلق السخاء)

المعرفـة: لأنـه من المكونـات الأساسـية لأي سـلوك أخلاقي، وهـو كـذلك ليس خلقـا، ولا من الخلـق، لأن (المعرفـة تتعلق بالجميل والقبـيح جميعاً على وجه واحد)[1]

الهيئـة النفسـية: الـتي يتمكن بهـا صـاحب الخلـق من الميل إلى أحد الجانبين، ويتيسر عليه أحد الأمرين؛ إمـا الحسـن وإمـا القبـيح، والغـزالي يقصـر الخلـق عليهـا، لأنهـا هي موضـع الاختيار الـذي يحـدد الجهـة الـتي يميـل إليهـا الإنسـان حسـنا أو قبحا.

أصول الأخلاق:

انطلاقا من معرفة حقيقة الخلق، وأنه الهيئة الراسخة التي تنطلـق منهـا الأفعـال الحسـنة أو القبيحـة، فقـد تحـدث علمـاء الأخلاق من المسـلمين ــ كمـا تحـدث من قبلهم ــ عن الأصـول التي تنطلق منها الأخلاق، منطلقين في ذلـك من قيـاس الخلـق الظاهر على الخلق الباطن، فالخلق هو الصورة الظـاهرة، كمـا أن الهيئة التي تصدر منهـا الأخلاق هي الصـورة الباطنـة، يقـول الغزالي:(كما أن حسـن الصـورة الظـاهر مطلقـاً لا يتم بحسـن العينين دون الأنف والفم والخد بل لا بد من حسـن الجميـع ليتم حسن الظاهر؛ فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق. فإذا استوت الأركان الأربعـة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق)

وهذه الأركان الأربعة، كمـا يـرى الغـزالي هي (قـوّة العلم،

1) إحياء علوم الدين: 3/52.

وقوة الغضب، وقـوّة الشـهوة، وقـوّة العـدل بـين هـذه القـوى الثلاث)

وقبل أن نـذكر رأي الغـزالي في أصـول الأخلاق ومنابعهـا، نحب أن ننبه إلى أن النصوص القرآنية، ومثلها النصوص النبويـة قـد ذكـرت أنواعـا من أصـول الأخلاق بحسـب التقسـيمات المختلفة، بل إن الغزالي نفسـه ــ كمـا سـنرى ــ ينص على أن الأصول التي اعتمدها وردت الإشارة إليها من القرآن الكريم.

وأول ما يفاجئنا في القـرآن الكـريم من هـذه الأصـول هـو قوله تعالى وهو يجمع مكارم الأخلاق: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (لأعراف:199)

فقـد نص السـلف على أن هـذه الآيـة من أجمـع الآيـات لمكارم الأخلاق، قال الإمام جعفر الصادق:(أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وليس في القـرآن آيـة أجمـع لمكـارم الأخلاق من هـذه الآية) (1)

بل قد وردت النصوص النبوية الدالة على احتواء هذه الآيـة على أصول الأخلاق، مفسـرة لهـا بمـا يقتضـي انحصـار الأخلاق فيها، فعن جابر قال: لمـا نـزلت هـذه الآيـة ﴿ خُـذِ الْعَفْـوَ وَأْمُـرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (لأعراف:199) قـال النـبي ﷺ: (يا جبريل ما تأويل هذه الآية؟ قال: حتى أسأل، فصـعد ثم نـزل فقال: يا محمد إن الله يـأمرك أن تصـفح عمن ظلمـك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعـك. فقـال النـبي ﷺ:(ألا أدلكم على أشرف أخلاق الدنيا والآخرة؟ قـالوا: ومـا ذاك يـا رسـول اللـه؟ قال: تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك) (2)

وهذا يد على انحصار الخلاق في هذه الأصول، وقد نظمهـا بعض الشعراء فقال:

---

1) رواه البخاري وأبو داود والنسائي.

2) رواه ابن مردويه.

مكارم الأخلاق في	ممن كملت فيه
إعطاء من تحرمه	تقطعه والعفو عمن

ويـدل على هـذا مـا ورد في نصـوص أخـرى من أن هـذه الأخلاق المذكورة في الآية هي من أمهات الأخلاق وخيرها، كمـا روي ذلك في أحدايث مختلفة، فعن علي قال: قال رسول اللــه ﷺ:(ألا أدلـك على خـير أخلاق الأولين والآخـرين؟ قـال: قلت يـا رسول الله، نعم. قال: تعطي من حرمك، وتعفـو عمن ظلمـك، وتصل من قطعك)[1]، وعن عقبة بن عامر قال: قال لي رسول الله ﷺ:(ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخـرة، تصـل من قطعــك، وتعطي من حرمــك، وتعفــو عمن ظلمــك)[2]، وعن عائشة أن النـبي ﷺ قـال:(ألا أدلكم على كـرائم الأخلاق للـدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتجاوز عمن ظلمك)[3]

ولهذا كانت هذه الآيـة الكريمـة ــ بمـا تحملـه من المعـاني الجليلة ـ شعارا للصالحين، وضياء يهتـدون بـه في تعـاملهم مـع الخلق.

وقد حاول العلماء انطلاقا من هـذا أن يـبينوا وجـه انحصـار الأخلاق في هذه الأصول، فقال القرطـبي:(هـذه الآيـة من ثلاث كلمـات، تضـمنت قواعـد الشـريعة في المـأمورات والمنهيـات. فقوله: ﴿ خُـذِ الْعَفْـوَ ﴾ دخـل فيـه صـلة القـاطعين، والعفـو عن المذنبين، والرفق بـالمؤمنين، وغـير ذلـك من أخلاق المطيعين. ودخل في قوله: ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ صـلة الأرحـام، وتقـوى اللـه في الحلال والحـرام، وغض الأبصـار، والاسـتعداد لـدار القـرار. وفي قولــه: ﴿ وَأَعْــرِضْ عَنِ الْجَــاهِلِينَ ﴾ الحض على التعلــق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومسـاواة الجهلـة الأغبيـاء، وغـير ذلـك من الأخلاق الحميـدة

---

1) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

2) رواه البيهقي.

3) رواه البيهقي.

والأفعال الرشيدة)[1]

وقـال ابن القيم، وهـو يـبين وجـه انحصـار الأخلاق في هـذ الآية:(لا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال:

1. أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

2. أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة.

3. أن النـاس معـه قسـمان: موافـق لـه مـوال ومعـاد لـه معارض.

وعليه في كـل واحـد من هـذه واجب، فواجبـه في أمـرهم ونهيهم أن يـأمر بـالمعروف وهـو المعـروف الـذي بـه صـلاحهم وصلاح شأنهم، وينهاهم عن ضده، وواجبه فيمـا يبذلونـه لـه من الطاعة أن يأخذ منهم ما سهل عليهم وطـوعت لـه بـه أنفسـهم سماحة واختيـارا، ولا يحملهم على العنت والمشـقة فيفسـدهم، وواجبه عند جهل الجاهلين عليه الإعراض عنهم وعدم مقـابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه)[2]

فهذه الآية الكريمة هي أول ما نسترشد به في بيان أصول الأخلاق وأركانها، وعلى هديها تحـدث السـلف ومن بعـدهم على أصول أخرى للأخلاق بحسب التقسيمات المختلفة.

ومن الأقوال في ذلك، وهي تحتاج إلى تحليل لا نــرى محلا لتفصيله هنا قـول الإمـام علي:(حسـن الخلـق في ثلاث خصـال اجتناب المحـارم وطلب الحلال والتوسـعة على العيـال)، وقـال الحسن :(حسن الخلق بسط الوجه وبـذل النـدى وكـف الأذى)، وقال الواسطي:(هو أن لا يخاصِم ولا يخاصَم من شـدّة معرفتـه باللـه تعـالى)، وقـال شـاه الكرمـاني:(هـو كـف الأذى واحتمـال المؤن)، وقـال بعضـهم:(هـو أن يكـون من النـاس قريبـاً وفيمـا بـينهم غريباً)، وقال الواسـطي:(هـو إرضـاء الخلـق في السـراء والضراء)، وقال أبو عثمان:(هو الرضا عن اللـه تعـالى)، وسـئل

---

1) القرطبي: 7/344.

2) مدارج السالكين:2/305.

سهل التستري عن حسن الخلق فقال:(أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه)، وقال مرة:(أن لا يتهم الحق في الرزق ويثق به ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس)

ومن الأقوال في ذلك قول الشيخ عبدالقادر الكيلاني:(كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس)، وقد ذكر ابن القيم هذا القول معظما له، وقال:(مدار حسن الخلق مع الحق ومع الخلق على حرفين ذكرهما الشيخ عبدالقادر الكيلاني)(1)

ثم ذكر وجه انحصار الخلق، بل السلوك فيهما جميعا، فقال:(فتأمل ما أجل هاتين الكلمتين مع اختصارهما وما أجمعهما لقواعد السلوك ولكل خلق جميل، وفساد الخلق إنما ينشأ من توسط الخلق بينك وبين الله تعالى وتوسط النفس بينك وبين خلقه، فمتى عزلت الخلق حال كونك مع الله تعالى، وعزلت النفس حال كونك مع الخلق فقد فزت بكل ما أشار إليه القوم وشمروا إليه وحاموا حوله)(2)

ومن أصول الأخلاق ما نص عليه ابن القيم من اجتماع الأخلاق في ثلاثة أشياء في (العلم والجود والصبر)(3)، ووجه انحصار الأخلاق في هذه الأصول هو أن:

1. العلم يرشد إلى مواقع بذل المعروف، والفرق بينه وبين المنكر، وترتيبه في وضعه مواضعه فلا يضع الغضب موضع الحلم ولا بالعكس ولا الإمساك موضع البذل ولا بالعكس، بل يعرف مواقع الخير والشر ومراتبها وموضع كل خلق أين يضعه وأين يحسن استعماله.

2. الجود يبعثه على المسامحة بحقوق نفسه والاستقصاء منها بحقوق غيره، فالجود هو قائد جيوش الخير.

---

1) مدارج السالكين:2/326.

2) مدارج السالكين:2/326.

3) مدارج السالكين:2/317.

3. الصبر يحفظ عليه استدامة ذلك، ويحمله على الاحتمال وكظلم الغيظ وكف الأذى وعدم المقابلة، وهو أكبر العـون على نيل كل مطلوب من خير الـدنيا والآخـرة كمـا قـال اللـه تعـالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّـلاةِ وَإِنَّهَـا لَكَبِـيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِـعِينَ﴾ (البقرة:45)

ومن أصول الأخلاق ما نص عليـه ابن القيم ــ كـذلك ــ من قيام الأخلاق على أربعة أركان (لا يتصور قيـام سـاقه إلا عليهـا: الصبر والعفة والشجاعة والعدل)(1)، ووجه انحصـار الأخلاق في هذه الأصول هو أن:

1 ـ الصبر، وهو يحمله على الاحتمـال وكظم الغيـظ وكـف الأذى والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش والعجلة.

2 ـ العفة، وهي تحمله على اجتنـاب الرذائـل والقبـائح من القول والفعل وتحمله على الحيـاء وهـو رأس كـل خـير وتمنعـه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة.

3 ـ الشجاعة، وهي تحمله على عزة النفس وإيثـار معـالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى الـذي هـو شـجاعة النفس وقوتهـا على إخـراج المحبـوب ومفارقتـه، وتحملـه على كظم الغيظ والحلم فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنائها ويكبحهـا بلجامها عن النزغ والبطش كما قال ﷺ:(ليس الشديد بالصـرعة إنمـا الشـديد الـذي يملـك نفسـه عنـد الغضـب) وهوحقيقـة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه)

4 ـ العدل، وهو يحمله على اعتدال أخلاقـه وتوسـطه فيهـا بين طـرفي الإفـراط والتفريـط، فيحملـه على خلـق الجـود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور وعلى خلـق الحلم الـذي هـو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

ومن أصـول الأخلاق مـا سـبقت إليـه الإشـارة من محاولـة الغزالي حصـر أمهـات الأخلاق في اربعـة أصـول هي (الحكمـة،

---

1) مدارج السالكين:2/308.

والشجاعة، والعفة، والعدل)، واعتبار باقي الأخلاق فروعا لها، قال الغزالي:(ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله ﷺ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه، فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله ﷺ، وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال، ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد، فينبغي أن يبعد، كما أن الأوّل قريب من الملك المقرّب فينبغي أن يقتدي به ويتقرّب إليه فإن رسول الله ﷺ لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق)[1]

وقد استتدل الغزالي لهذه الأصول بقوله تعالى في أوصاف المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات:15)

وبين وجه الإشارة في الآية، فقال:(فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوّة اليقين، وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة، والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوّة الغضب على شرط العقل وحدّ الاعتدال)

وقد انطلق الغزالي لوضع هذا التصنيف الحاصر من القوى الموهوبة للإنسان، لأن الهيئة الراسخة التي تصدر عنها الأخلاق تتعامل مع تلك القوى وتوجهها.

وهذا تعريفه لهذه الأصول، ومنابعها، والثمرات الأخلاقية التي تصدر منها:

الحكمة: وهي حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية.. من اعتدالها يحصل: حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس.. ومن إفراطها: يصدر

---

[1]) إحياء علوم الدين: 3/55.

المكر والخداع والدهاء. . ومن تفريطها: يصدر البله والحمق والجنون وقلة التجربة في الأمور.

والفرق بين الحمق والجنون: أن الأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له رؤية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض، وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسداً.

العدل: وهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع، أو هي حالة للنفس وقوّة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها.

وقد فسر هذه التعريف بقوله:(فالعقل مثاله مثال الناصح المشير. وقوة العدل هي القدرة، ومثالها مثال المنفذ الممضي لإشارة العقل. والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة، ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس. والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة يكون مروّضاً مؤدّباً وتارة يكون جموحاً، فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً. ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض)[1]

ولذلك، فإن هذا الأصل هو الضابط لسائر الأوصاف والقوى الإنسانية، بل هو الأصل في اعتبارها أخلاقا، فـ (حسن القوّة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة، وحسن قوّة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة، فإن مالت قوّة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهوّراً، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبناً وخوراً. وإن مالت قوّة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرهاً، وإن مالت إلى النقصان تسمى جموداً، والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان، والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضدّ واحد ومقابل وهو الجور، وأما الحكمة

[1] إحياء علوم الدين:3/58.

فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثاً وجربزة، ويسمى تفريطها بلهاً، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة).

وسنرى في المطلب التالي أن ما سماه الغزالي (العدل) هنا هو نفس (الاستقامة) كما اصطلح عليها الشرع، فهي ضابط الأخلاق ومقوم اعوجاجها.

الشجاعة: وهي كون قوّة الغضب منقادة للعقل في إقدامها واحجامها، ويصدر منها الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها وهي أخلاق محمودة. وأما إفراطها وهو التهوّر. فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب. وأما تفريطها: فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب.

العفة: وهي تأدّب قوّة الشهوة بتأديب العقل والشرع، ويصدر منها السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع.

وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط: فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك.

ضوابط التخلق

كما أن جمال الأشياء وحسنها يتجلى أكثر ما يتجلى في تناسقها، وانتظامها مع بعضها انتظاما ينفي طغيان بعضها على بعض، فكذلك الأخلاق ــ التي هي صورة الباطن ــ تستدعي تناسقا بين أصولها، يجعل منها مظهرا من مظاهر الجمال، ومجلى من مجالي الحسن.

وكمثال قرآني على ذلك موقفه من أكل الشهوات أو استعمالها، والذي تنشأ عنه الأخلاق الخاصة بهذه القوة من قوى الإنسان، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم مقيدا بما

يمنعه من الطغيان، قال تعالى، وكأنه يعرض مائدة نعمه على خلقه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام:141)

ففي الآية الكرية دعوة للأكل تنافي ما يدعو إليه الرهبان من الجوع، ولكنها لا تنسجم كذلك مع ما يدعوا إليه أهل الشهوات من الاقتصار على الأكل المجرد، بل تضم إليه أمرين:

1. عدم الإسراف، حتى لا ينمي هذا الأكل في الإنسان أخلاق اليهيمية التي لا تبالي ما تأكل، ولا كيف تأكل، وهذا ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (لأعراف: 31)

2. البذل، وعدم نسيان المحتاجين، لأن الشهوة قد تولد الحرص المولد للبخل، فلذلك تعارض الشهوة بالبذل.

ومن الأمثلة ـ كذلك ــ قوله تعالى، وهو يحض في وقت واحد على الإنفاق والتقتير: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ (الاسراء:29)، فغل اليد إلى العنق يولد صفة البخل، وهي من شر الصفات، وبسط اليد كل البسط، قد يولد الفاقة والفقر، وهو كذلك منبع من منابع الانحراف، كما قال ﷺ:(كاد الفقر أن يكون كفرا)[1]

وهكذا نجد كل سلوك محمود مكتنف بخلقين ذميمين وهو وسط بينهما، وطرفاه خلقان ذميمان، ومن الأمثلة التي ذكرها ابن القيم لذلك: أن الجود يكتنفه خلقا البخل والتبذير، والتواضع يكتنفه خلقا الذل والمهانة والكبر والعلو (فإن النفس متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين ولابد، فإذا انحرفت عن خلق التواضع انحرفت إما إلى كبر وعلو وإما إلى ذل ومهانة وحقارة، وإذا انحرفت عن خلق الحياء انحرفت إما إلى قحة وجرأة وإما إلى عجز وخور ومهانة بحيث يطمع

1) رواه أبو نعيم في الحلية، ورواه الطبراني.

في نفسه عدوه، ويفوته كثير من مصالحه، ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء وإنما هو المهانة والعجز وموت النفس)[1]

ومنها أن الهيئة النفسية إن انحرفت عن خلق الصبر المحمود انحرفت إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط وإما إلى غلظة كبد وقسوة قلب وتحجر طبع كما قال بعضهم:

تبكي علينا ولا نبكي على أحد   فنحن أغلظ أكبادا من الإبل

ومنها أن الهيئة النفسية إذا انحرفت عن خلق الحلم انحرفت إما إلى الطيش والترف والحدة والخفة، وإما إلى الذل والمهانة والحقارة، ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف كما قيل:

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجىء إليها اللئام

ومنها أن الهيئة النفسية إذا انحرفت عن خلق الأناة والرفق انحرفت إما إلى عجلة وطيش وعنف، وإما إلى تفريط وإضاعة، والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق العزة التي وهبها الله للمؤمنين انحرفت إما إلى كبر، وإما إلى ذل، والعزة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق الشجاعة انحرفت إما إلى تهور وإقدام غير محمود، وإما إلى جبن وتأخر مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق المنافسة في المراتب العالية والغبطة انحرفت إما إلى حسد، وإما إلى مهانة وعجز وذل ورضى بالدون.

وإذا انحرفت عن القناعة انحرفت إما إلى حرص وكلب، وإما إلى خسة ومهانة وإضاعة.

وإذا انحرفت عن خلق الرحمة انحرفت إما إلى قسوة، وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس، (كمن لا يقدم على ذبح شاة

---

1) مدارج السالكين: 2/309.

ولا إقامة حد وتأديب ولد، ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك، وقد ذبح أرحم الخلق بيده في موضع واحد ثلاثا وستين بدنة، وقطع الأيدي من الرجال والنساء، وضرب الأعناق، وأقام الحدود، ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم، وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم)[1]

ومثل ذلك طلاقة الوجه والبشر المحمود، فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد وطي البشر عن البشر، وبين الاسترسال مع كل أحد بحيث يذهب الهيبة ويزيل الوقار ويطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة والنفرة في قلوب الخلق، وصاحب الخلق الوسط مهيب محبوب عزيز جانبه حبيب لقاؤه وفي صفة نبينا ﷺ (من رآه بديهة هابه ومن خالطه عشرة أحبه)

وانطلاقا من هذا، فإن الأخلاق تحتاج إلى ضوابط تحميها من من طرفي الإفراط والتفريط، وتجعلها متناسقة مع بعضها البعض، فلا يطغى فيها جانب على جانب بحيث يؤثر ذلك في جماله وكماله.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الضوابط التي تحمي الأخلاق بمصطلح (الاستقامة)، الذي ورد في مواضع متعددة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت:30)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الاحقاف:13)، وقال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾ (الجن: 16)

وأمر تعالى بالدعوة إليها، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت:6)، وقد لبى رسول الله ﷺ هذا الأمر الإلهي، عن سفيان بن عبدالله قال: قلت:(يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك)

---

1) مدارج السالكين: 2/310.

قال:(قل آمنت بالله ثم استقم)(1)، وعن ثوبان عن النبي ﷺ قال:(استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن)(2)

وقد فسرها في قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود: 1121)، فبين أن الاستقامة ضد الطغيان وهو مجاوزة الحدود فى كل شىء.

والاستقامة ـ كما عرفها العماء ــ هي الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين ولا جهة الشمال؛ ولا جهة الإفراط ولا جهة التفريط.

وهذا هو مصدر صعوبة تحقيقها، لأن الوسط الحقيقي الذي لا ينحرف إلى أي جهة من الجهات صعب تحقيقه في الحس، فكيف بتحقيقه في المعنى، قال الغزالي:(ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض، بل هو أدق من الشعر وأحدّ من السيف فلا جرم ومن استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة، وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم ـ أعني الوسط ــ حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه متعلقاً بالجانب الذي مال إليه. ولذلك لا ينفك عن عذاب ما، واجتياز على النار وإن كان مثل البرق قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾ (مريم: 71)، أي الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه. ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة:6) إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة)(3)

---

1) رواه مسلم.

2) رواه مسلم.

3) إحياء علوم الدين: 3/63.

ولهذا ذكر أن أمره تعالى بتحقيق غاية الاستقامة الوارد في سورة هود هو الذي شيب رسول الله ﷺ (1)، فقد روى عن أبي عبدالرحمن السلمي قال سمعت أبا علي السري يقول: رأيت النبي ﷺفي المنام فقلت: يا رسول الله! روي عنك أنك قلت:(شيبتني هود) فقال:(نعم) فقلت له: ما الذي شيبك منها؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم! فقال:(لا، ولكن قوله: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾(هود:1121).

وقد ذكر الغزالي أصلا سلوكيا مهما في التربية على الاستقامة الممثلة لحقيقة الأوامر الإلهية، فقال (إن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجبه الخلق المحذور، فإن كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل، فإن صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك، فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتسيير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه، بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج، ولا يترجح عندك البذل على الإمساك)(2)

وهو أصل سلوكي مهم، ولكنه مع ذلك فيه من الصعوبة ما فيه، لأن الاطلاع على حقيقة ما تستلذه النفس وما يخف عليها يكاد يكون مستحيلا، فللنفس من التقلبات ما يعجز معه التعرف على حقيقة مطالبها وأذواقها عرفانا كاملا.

ولهذا أذن الشرع في المقاربة، وهي درجة أدنى من الاستقامة، كما نص على ذلك قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا

---

1) قال ابن عباس :(ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه، [يقصد قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾(هود:112)] ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب! فقال:(شيبتني هود وأخواتها)

2) إحياء علوم الدين: 3/63.

اسْـتَطَعْتُمْ (التغـابن:16)، فقـد أمـر بـالتقوى في حـدود الاستطاعة، وهي نوع من المقاربة.

ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى: يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلا تَمُـوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْـلِمُونَ (آل عمران:102) حتى يزعم النسخ، لأن القرآن الكريم كله محكم، وإنما لكل آية مجالها.

ومجرد التأمل في سياق الآيتين يكفي للدلالـة على مجـال كل منهما:

فالآية المرخصة في المقاربة وردت أثناء قوله تعالى: يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْـذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ إِنَّمَـا أَمْـوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْـرٌ عَظِيمٌ فَـاتَّقُوا اللَّهَ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُـوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (التغابن: 14 ـ 16)

فهي تـرخص في المقاربـة في الأمـور الـتي يصـعب فيهـا الضـبط، بـل قـد يسـتحيل، وذلـك في علاقـة الرجـل مـع أهلـه وأولاده، ونحو ذلك كمـا قـال تعـالى في صـعوبة تحقيـق العـدل الكامل بين الزوجـات: وَلَنْ تَسْـتَطِيعُوا أَنْ تَعْـدِلُوا بَيْنَ النِّسَـاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْـلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (النساء:129)

ولهذا ورد التيسير وسرعة المغفرة في الأخطـاء المتعلقـة بهذا الجانب، مادام من وقع فيها يتحرى الاستقامة ما اسـتطاع، فعن حذيفة قال: كنا جلوسا عند عمر فقال: أيكم يحفظ حـديث رسول الله ﷺ في الفتنة كما قال؟ قال فقلت: أنا، قال: فقـال: إنك لجريء! وكيف؟ قال: قلت: سمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول: فتنـة الرجـل في أهلـه ومالـه ونفسـه وجـاره يكفرهـا الصـلاة والصـيام والصـدقة والأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكـر) الحديث[1].

1) رواه مسلم وغيره.

بل ورد في حديث ضعيف أن ما يحصل للإنسان بسبب همومه في طلب المعيشة يكفر الذنوب، فقال ﷺ:(إن من الذنوب ذنوبا لا تكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة، تكفرها الهموم في طلب المعيشة)(1)

وفي هذا وأمثاله ورد قوله ﷺ:(ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)(2)

أما الآية المشددة الآمرة بلزوم تقوى الله حق تقاته، أو الآمرة بلزوم الاستقامة في قمة درجاتها، فقد وردت في سياق قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(آل عمران:100 ـ 103)

وهو سياق المفاصلة بين الإيمان والكفر، بإخلاص الوجه لله والتبرؤ المطلق من الكفر، وهو أمر مستطاع من جهة، ويستدعي الحسم من جهة أخرى، ولهذا قال تعالى في هذا النوع من التقوى مبينا موقف إبراهيم عليه السلام من أبيه: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة:114)

ويدل لهذا قول ابن عباس ـ وهو ترجمان القرآن ـ بعدم نسخها، فقد روي أنه قال:(إنها لم تنسخ، ولكن حق تقاته أن يجاهد لله حق جهاده، ولا يأخذه في الله لومة لائم، ويقوموا لله

---

1) رواه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر، وقال: غريب جدا.

2) رواه مسلم وغيره.

بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم)، وهو نفس ما ذكرنا مما يدل عليه السياق.

أما ما أورده المفسرون من قوله ﷺ:(حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر)(1)، وهو أمر يكاد يكون مستحيلا، فليس هو من هذا الباب، بل مراده ﷺ ـ والله أعلم بمراد رسوله ـ أن التقوى الكاملة هي هذه التقوى، لا أنها هي التقوى المأمور بها، لأن التقوى المأمور بها نوعان:

نوع شديد: وهو تحقيق كل الطاعات بأعلى قممها مع البراءة من جميع المعاصي إيمانا وسلوكا، وهذا لا يتحقق في منتهى كماله بهذه الصفة إلا في حق المعصومين ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، وإنما ذكر وأمر به حتى يشعر كل شخص بتقصيره في حق الله مهما اجتهد في ذلك الحق.

نوع مستطاع: وهو إخلاص الوجه لله والبراءة من الكفر، وهو أصل أصول الدين الذي لا مندوحة في تركه.

وقد ورد في السنة ما يؤيد أن المطلوب هو بذل الجهد المستطاع للوصول إلى قمة الاستقامة، لا الأمر بالاستقامة ذاتها، بل الاستقامة غاية شريفة تتفاوت النفوس الفاضلة في الدنو منها، ومع ذلك لا تكف عن طلبها لذلك الدنو وشوقها له، قال ﷺ:(لن يدخل أحدا عمله الجنة)، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل رحمته، فسددوا وقاربوا، ولا يتمن أحدكم الموت، إما محسن فلعله يزداد خيرا، وإما مسيء فلعله أن يستعتب)(2)

وعلى ما ذكرناه من الاكتفاء بالمقاربة مع الشوق للاستقامة هو ما نص عليه علماء السلوك المسلمين، قال الغزالي:(فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض، ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها. فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل

---

1) رواه البخاري.

2) رواه البخاري ومسلم .

الصالح، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه، وليعدّدها وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب)(1)

انطلاقا من هذا يذكر السلف أصلين يكثرون الوصية بهما من تحقق بهما قرب من الاستقامة ــ التي هي قمة قمم الأخلاق الفاضلة ــ قربا عظيما، هما (الاقتصاد في الأعمال والاعتصام بالسنة)(2)

قال بعض السلف:(ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط وإما إلى مجاوزة، وهي الإفراط ولا يبالي بأيهما ظفر، زيادة أو نقصان)،

وقال النبي ﷺ لعبدالله بن عمرو:(يا عبد الله بن عمرو إن لكل عامل شرة ولكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى سنة أفلح ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر)(3)، وقد قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل.

يقول ابن القيم معلقا على أهمية هذه الوصايا، ووجه الاكتفاء بها في حصول الاستقامة:(إن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره، فإن رأى فيه داعية للبدعة وإعراضا عن كمال الانقياد للسنة أخرجه عن الاعتصام بها، وإن رأى فيه حرصا على السنة وشدة طلب لها لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها فأمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاوزة حد الاقتصاد فيها قائلا له: إن هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها أكمل، فلا تفتر مع أهل الفتور ولا تنم مع أهل النوم، فلا يزال يحثه ويحرضه حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها، فيخرج عن حدها كما أن الأول خارج عن هذا الحد فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر)(4)

---

1) إحياء علوم الدين:3/64.

2) مدارج السالكين:2/107.

3) رواه الترمذي برقم (2455) وقال: هذا حديث صحيح غريب.

4) مدارج السالكين:2/107.

2 ـ طريق التخلق

قبل الحديث عن المنهج الإسلامي للتخلق نردد ما ذكرنا سابقا من أن كل الأدلة الشرعية والعقلية والعادية تدل على أن الأخلاق من الأمور القابلة للتغيير، وهذ هو الأساس الأول للاهتمام بالمناهج المثلى التي تحقق التخلق.

لأن القول بعدم إمكانية تغيير الأخلاق، أو أن الطبع يغلب التطبع، أو ما يشاع من الأمثال الشعبية الكثيرة التي تجعل كل إنسان قالبا معينا يستحيل تحريفه لأي جهة يحيل البحث عن المناهج، لأن البحث عنها أو تنفيذها يصبح تعبا لا طائل وراءه.

ولكن مع ذلك، فإن النفوس مختلفة في قدرتها على تغيير أخلاقها، انطلاقا من أسباب كثيرة، لها أهميتها الكبرى في هذا الباب، وقد عد الغزالي من هذه الأسباب على سبيل الحصر:

1 ـ قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداده مدّة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمراً وأعصاها على التغيير قوة الشهوة، فإنها أقدم وجوداً، إذ الصبي في مبدإ الفطرة تخلق له الشهوة، ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب، وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز.

2 ـ أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسناً ومرضياً والناس فيه[1].

وانطلاقا من هذا قسم أصناف الخلق من حيث القدرة على تغيير أخلاقهم إلى أربع مراتب، لها أهميتها الكبرى في التعامل التربوي مع مختلف الأصناف:

الأولى: وهي مرتبة من لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح، بل بقي كما فطر عليه خالياً عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضاً باتباع اللذات، وقد سماه الغزالي (الإنسان المغفل)، وذكر انه أسرع الناس للعلاج، فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باعث من نفسه يحمله على

1) إحياء علوم الدين:3/63.

المجاهـدة فيحسـن خلقـه في أقـرب زمـان، وسـبب ذلـك أن انحرافه كان بسبب جهله فقط.

الثانية: وهي مرتبة من عرف قبح القبـيح، ولكنه لم يتعوّد العمل الصالح، بل زين له سوء عمله فتعاطـاه انقيـاداً لشـهواته وإعراضـاً عن صـواب رأيـه لاسـتيلاء الشـهوة عليـه، ولكن علم تقصيره في عمله، والغزالي يعتبره جاهلا وضالا.

وهو ـ في نظر الغزالي ــ محـل قابـل للرياضـة، إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم، ولكن مـع ذلـك، فـإن أمـره أصـعب من الأول، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه؛ إذ عليه قلـع مـا رسـخ في نفسه أوّلاً من كثرة الاعتياد للفساد، ثم يغرس في نفسـه صـفة الاعتياد للصلاح.

الثالثة: وهي مرتبـة من يعتقـد في الأخلاق القبــيحة أنهـا الواجبة المستحسنة، وأنها حق وجميل وتـربى عليهـا، والغـزالي يعتــبره جــاهلا وضــالا وفاســقا، ويــرى أن علاجــه يكــاد يكــون مستحيلا، بسبب تضاعف أسباب الضلال.

الرابعة: وهي مرتبــة من يكــون مــع نشــئه على الــرأي الفاسد وتربـيته على العمل به يـرى الفضـيلة في كـثرة الشـر، واسـتهلاك النفـوس ويبـاهي بــه ويظن أن ذلـك يرفـع قـدره، والغزالي يعتبره جاهلا وضالا وفاسقا وشريرا.

وهو يرى الصعوبة الشديدة لعلاج من هذا حالـه، ويـرى أن ما ذكر من استحالة تعيير الأخلاق قد ينطبـق عليـه، قـال:(وهـذا هو أصعب المراتب. وفي مثله قيل: ومن العنـاء رياضـة الهـرم، ومن التعذيب تهذيب الذيب)[1]

انطلاقـا من هـذا، فقـد ذكـر علمـاء السـلوك المسـلمين طريقين مهمين للتخلق، يختلف الجهـد المبـذول فيهمـا بحسـب طبيعة النفـوس ومرتبتهـا في سـرعة الانقيـاد أو بطئـه، وهـذان الطريقان هما:

مجاهدة النفس

---

1) إحياء علوم الدين:3/56.

كما أن كل كمال في الإنسان لا يتحقق إلا بجهد عظيم يبذله لتحقيقه، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد:4)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ (الانشقاق:6)، فإن الهيئة النفسية للإنسان، والتي تصدر عنها الأخلاق تحتاج هي الأخرى ــ إذا ما أراد صاحبها تعديلها ـ إلى جهد عظيم ورياضة شديدة، خاصة إذا انحرفت انحرافا خطيرا عن الجبلة التي خلقت عليها.

ويشير إلى هذا الطريق قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات:40 ـ 41)، وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:69)

بل يشير إلى هذا كل النصوص التي تدل على اختلاف مراتب النفوس، لأن الانتقال من مرتبة إلى مرتبة يحتاج إلى مجاهدة عظيمة، قال تعالى عن أخطر مراتب النفس: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (يوسف:53)، وقال عن النفس المجاهدة: ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة:2)، وقال عن النفس التي بلغت مرادها: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (الفجر:27)

وتنطلق المجاهدة من مسلمة هي (أن إعطاء النفس مناها، وتبليغها ما تريده من شهواتها هو سبب انتكاستها عن حقيقتها)، فلذلك كانت المجاهدة هي رد النفس إلى جادة الصواب بالتشدد عليها والتضييق على مراداتها حتى تستقيم على الحق.

وقد يشير إلى هذا قول طالوت لجنوده: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ (البقرة:249)، فقد كان هذا نوعا من الابتلاء، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء علم أنه مطيع فيما عدا ذلك، ومن غلبته شهوته في الماء وعصى الأمر فهو في العصيان في الشدائد أحرى.

فالماء مباح لا حرمة فيه بدليل أنه أجاز الاغتراف منه، ولكنه أمرهم بمجاهدة النفس في تركه، ليظهر مدى تحكمهم في أنفسهم وشهواتهم، لأن أساس الفساد هو تحكم النفس في الإنسان، لا تحكم الإنسان في النفس.

ولهذا وردت العقوبة الشديدة لمن أفطر متعمدا في رمضان، وذلك لتعود لإنسان سيطرته على نفسه، فلا تهلكه في الهالكين.

وفي الدلالة على هذا تروى الآثار الكثيرة التي تكاد تجعل هذه المسألة إجماعا، كما قال جعفر بن حميد:(أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم)

ومن الآثار المروية عن الأنبياء ــ صلوات الله وسلامه عليهم ـ في ذلك ما يروى أن الله تعالى أوحى إلى داود ﵇:(يا داود حذر وانذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة)، وقال عيسى ﵇:(طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره)، ويروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف ﵇، بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفاً من عظماء مملكته:(سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له. إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيداً وذلك جزاء المفسدين، وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكاً)، فقال يوسف ﵇، كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:90)

وهكذا الآثار الواردة عن السلف، فعن الإمام علي قال: (من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا)، وعن سفيان الثوري قال: ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نفسي مرة لي ومرة عليَّ، وكان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه: يا نفس لا في الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين ولا في طلب الآخرة مع العباد تجتهدين كأني بك بين الجنة والنار تحبسين، يا نفس ألا تستحين وقال الحسن: ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : متى

أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت الصمت، قال: متى أصمت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام، وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فإذا رأى الشيء يشتهيه قال لنفسه: اصبري فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك عليَّ.

ووصف يحيى بن معاذ الرازي طريقا كاملا من طرق السلوك الأخلاقي، فقال:(جاهد نفسك بأسياف الرياضة. والرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأنام، فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات، ومن قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات، وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى، وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت عليها سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام، وضربتها بأيدي الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها؛ فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجول في ميدان الخيرات وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفارة في الميدان وكالملك المتنزه في البستان)

وقد يقال هنا: لقد وردت النصوص الكثيرة بإباحة الطيبات، والشهوات، فكيف يقال بتركها ومجاهدة النفس في مخالفتها، وما علاقة ذلك بالسلوك الأخلاقي؟

والجواب عن هذا: أن الطيبات تظل مباحة لا يحرمها أحد، وكيف يجسر أحد على تحريم ما أحل الله ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (لأعراف:32)

ولكن الذي أباح هذه الطيبات هو الذي نهى عن الانشغال بها عن الله، وعن تكميل النفس، وقد قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ

وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَـةَ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَلا تُطِـعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَـانَ أَمْـرُهُ فُرُطـاً (الكهـف: 28)، وقال تعالى: الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (الكهف: 46)

زيادة على ذلك، فإن من لم يجرب نفسه في إمساكها عن المباح، ما الذي يضمن له قوته على إمساك نفسه عن الحـرام، ولأجل هذا شرع الصـوم، حـتى تـترك النفس شـهواتها المباحـة بمحض إرادتها، ولهذا قال تعالى عقب الأمر بالصـوم: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَـا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (البقرة:183)

فتقــوى اللــه تحتــاج إلى التــورع عن بعض الحلال لتجنب الوقوع في الحرام، قال الغزالي:(لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح، فــإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات)(1)

وضرب الأمثال على ذلك، فقال:(من أراد حفظ لسـانه من الغيبة والفضول فحقه أن يلزمه السكوت؛ إلا عن ذكر اللــه وإلا عن المهمات في الدين، حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق فيكـون سـكوته عبـادة وكلامـه عبـادة. ومهمـا اعتـادت العين رمي البصر إلى كل شيء جميل لم تتحفظ عن النظـر إلا ما لا يحل، وكذلك سائر الشهوات، لأن الذي يشـتهي بـه الحلال هو بعينه الذي يشتهي الحرام، فالشهوة واحـدة وقـد وجب على العبـد منعهـا من الحـرام فـإن لم يعوّدهـا الاقتصـار على قـدر الضرورة من الشهوات غلبته. فهذه إحدى آفات المباحات)

وزيـادة على هـذا، فـإن التنعم المبـالغ فيـه بالـدنيا، بحجـة إباحتها يجعل النفس (ثملة كالسكران الذي لا يفيق من سـكره. وذلك الفرح بالـدنيا سـم قاتـل يسـري في العـروق فيخـرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يـوم القيامـة، وهـذا هو موت القلب)

ولهـذا ورد في القــرآن الكــريم النهي عن الركــون للــدنيا،

---

1) إحياء علوم الدين:3/67.

والاطمئنان إليها، قال تعالى: ﴿ أولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقـرة:86)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعـام:32)، وقـال تعـالى: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ (الأنعـام: 70)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (يونس:7)

انطلاقا من هذا، فإن المجاهدة الصحيحة المضبوطة بالضوابط الشرعية، هي المجاهدة التي يكون لها برنامج خاص هادف ينطلق من معرفة صفات النفس، وأمراضها، ثم كيفية علاجها، وقد وضع الغزالي في كتاب (التفكر) برنامجا لذلك يمكن الاستفادة منه في هذا المجال، وقد فصلنا هذا البرنامج في رسالة خاصة من رسائل السلام سميناها (مرابطات النفس اللوامة)

ولذلك سنكتفي هنا بذكر موضوع المجاهدة، وكيفية استثمارها في تنمية الاستقامة كما أردتها الشريعة، فالمجاهدة تستلزم ركنين أساسيين:

المراغمة:

وذلك بحمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب من سلوك، فيتصرف بفعله، وإن خلا من ذلك قلبه وهيئته النفسية، وذلك لأن لافعال الجوارح آثارها ـ لا محالة ـ على القلب والهيئة النفسية، كما أن للهيئة النفسية تأثيرها على الجوارح.

وقد ضرب الغزالي لهذا أمثلة ونماذج يمكن الاستفادة منها في التربية عل سائر الأخلاق، قال:(فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً ويتيسر عليه فيصير به جواداً، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة

وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاَ له وطبعاً فيتيسّر عليه)[(1)]

ثم قال معمما ذلك على سائر الأخلاق:(وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً فالسخي هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة، والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس، ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة، وما لم تواظب عليه مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها، كما قال: (وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ)، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به)

المواظبة:

انطلاقا من الركن الأول، فإن حمل النفس على خلق من الأخلاق لن يؤتي ثماره بترسيخ الخلق في النفس إلا بالمواظبة والتكرار، فللتكرار أثره العظيم في ترسيخ الخلق، كما أن للتكرار أثره في ترسيخ أي شيء من الأشياء في الذاكرة، قال الغزالي:(وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح ــ أعني النفس والبدن ــ فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب، والأمر فيه دور)[(2)]

ويضرب لذلك مثالا بمن أراد أن يصير الحذق في الكتابة له صفة نفسية ـ حتى يصير كاتباً بالطبع ــ فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن، فإن فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفاً، ثم لا يزال يواظب عليه حتى

---

1) إحياء علوم الدين:3/58.

2) إحياء علوم الدين:3/67.

يصير صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً، فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً، ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع.

ويطبق هذ المثل على التربية الأخلاقية، فيقول:(وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء، وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس. وكذلك من أراد أن يصير سخياً عفيف النفس حليماً متواضعاً فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفاً حتى يصير ذلك طبعاً له، فلا علاج له إلا ذلك، وكما أن طالب فقه النفس لا ييأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكرار ليلة، فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم)[1]

ولهذا كانت العبادات حميعا تستدعي التكرار وتتطلبه لتؤتي ثمارها التي أرادها الشرع، ولذلك قال تعالى في الصلاة: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج:23)، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام:92)

وقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(أحب الأعمال إلى اللّه أدومها وإن قلّ)[2]، وقالت عائشة :(وكان رسول اللّه ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه)، وقال لابن عمرو :(يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل، فترك قيام الليل)[3]

ولهذا ذكرنا في المبحث السابق أن المواظبة على الصغائر قد تكون أخطر من فعل كبيرة واحدة من غير تكرار

---

1) إحياء علوم الدين:3/67.

2) رواه البيهقي.

3) رواه البخاري.

ولا عودة.

ومما يدل على تأثير المواظبة على الفعل في ترسيخه في النفس أن النفس إذا أدمنت شيئا صعب إقلاعها عنه، بل قد يصبح خروج الروح أهون عليها من الإقلاع، يقول الغزالي في رد استغراب تأثير المواظبة في ترسيخ الأخلاق والعبادات والتلذذ بها:(لا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرة العين، ومصير العبادات لذيذة فإن العادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك؛ فإنا قد نرى الملوك والمنعمين في أحزان دائمة، ونرى المقامر قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار، مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به، وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه إليه مدة. وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار في حر الشمس قائماً على رجليه وهو لا يحسّ بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليقها في جو السماء، بل نرى الفاجر العيار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على السياط، وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوّته في الصبر على ذلك، حتى يرى ذلك فخراً لنفسه، ويقطع الواحد منهم إرباً إرباً على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصر على الإنكار ولا يبالي بالعقوبات فرحاً بما يعتقده كمالاً وشجاعة ورجولية، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسبب افتخاره، بل لا حالة أخس وأقبح من حال المخنث في تشبهه بالإناث في نتف الشعر ووشم الوجه ومخالطة النساء فترى المخنث في فرح بحاله وافتخار بكماله في تخنثه يتباهى به مع المخنثين، حتى يجري بين الحجامين والكناسين التفاخر والمباهاة كما يجرى بين الملوك والعلماء. فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف)(1)

فإذا كانت هذه السلوكيات مع انحرافها وخروجها عن الفطرة والطبيعة الإنسانية قد رسخت في قلوب أصحابها هذا الرسوخ فكيف لا يرسخ الحق والخير والجمال، وهو من

1) إحياء علوم الدين: 3/59.

مقتضيات الجبلة وطبيعتها؟

ولعله لأجل هذا قال تعالى في تأثير الصلاة بالمداومة عليها: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:45)

فقد أخبر بأن الصلاة بذاتها بشرط القيام بها ــ وهو يعني أول ما يعني المحافظة عليها ـ سيكون له تأثيره لا محالة في نهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر.

سياسة النفس

وهي الركن الثاني من أركان التخلق، وقد يحسبه البعض توجها من التوجهات، أو مدرسة من مدارس السلوك ــ كما سنذكر عن ابن القيم ـ ولكنه في الحقيقة لا يغني الركن الأول عن الثاني، ولا الثاني عن الأول، وإن كان قد أسيء فهم الركن الأول بسبب عدم ضبطه بالضوابط الشرعية.

ولشرح هذا الركن وكيفيته نذكر مقالة ابن القيم وتعظيمه لهذا الركن، فقال مقدما لحديثه عن هذا الركن:(فصل نافع جدا عظيم النفع للسالك يوصله عن قريب ويسيره بأخلاقه التي لا يمكنه إزالتها، فإن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها)[1]

وهو يرد على من اجتهد في الرياضات الصعبة من غير الحصول على طائل، فيقول:(وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها، لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز كسر جيوش الرياضة وشتتها واستولى على مملكة الطبع)

بينما هذا الطريق الذي ذكره ــ وهو ما سميناه بسياسة النفس ـ (يصل به السالك مع تلك الأخلاق ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها ويكون سيره أقوى وأجل وأسرع من سير العامل على

1) مدارج السالكين: 2/311.

إزالتها)

وقد ذكر مثالا قدم به ـ وهو مهم جدا في تصوير قيمة هـذا الـركن ــ، وهـو المواقـف المحتملـة من نهـر جـار في صـببه ومنحدره يريد تغريق أرض وعمران ودور وأصحابها يعلمون أنـه لا ينتهي حـتى يخـرب دورهم ويتلـف أراضـيهم وأمـوالهم، وهـذا النهر الجاري يشبه في الحقيقة مـا أمـدت بـه النفس من قـوى يمكنها إن جرت بحسب الهوى تخريب جميع حقيقة الإنسان.

فالمواقف حول هذا النهر لها ثلاث احتمالات لا تعدوها:

1 ـ فإما أن تنصرف القوى إلى سكره وحبسه وإيقافه، فلا تصنع هذه الفرقة كبـير أمـر، لأنـه يوشـك أن يجتمـع، ثم يحمـل على السكر، فيكون إفساده وتخريبه أعظم.

2 ـ وإما أن تروم إغلاقه من منبعه، ولكنه يأبى عليهـا غايـة الإباء، لأن الطبيعة النهرية لا تستسلم بسهولة لهذا، فلـذلك (هم دائما في قطع الينبوع، وكلما سدوه من موضع نبـع من موضـع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار)[1]

3 ــ وإمـا أن تصـرف ذلـك النهـر عن مجـراه المنتهي إلى العمـران إلى موضـع ينتفعـون بوصـوله إليـه ولا يتضـررون بـه، (فصـرفوه إلى أرض قابلـة للنبـات وسـقوها بـه فـأنبتت أنـواع العشب والكلإ والثمار المختلفة الأصناف)

وهذا الاحتمال الأخير هو خير الاحتمالات وأحسنها واصوبها، وهكذا تكون سايسة النفس مع قواها الجارفة، يقول ابن القيم: (فإذا تبين هذا المثل فالله تعـالى قـد اقتضـت حكمتـه أن ركب الإنسان بـل وسـائر الحيـوان على طبيعـة محمولـة على قـوتين غضبية وشهوانية و، هي الإرادية، وهاتان القوتان هما الحاملتـان لأخلاق النفس وصفاتها، وهما مركوزتان في جبلـة كـل حيـوان، فبقوة الشهوة والإرادة يجذب المنافع إلى نفسه، وبقوة الغضب يدفع المضار عنها، فـإذا اسـتعمل الشـهوة في طلب مـا يحتـاج

---

1) مدارج السالكين: 2/311.

إليه تولد منها الحرص، وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه تولد منه القوة والغيرة، فإذا عجز عن ذلك الضار أورثه قوة الحقد، وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه ورأى غيره مستبدا به أورثه الحسد، فإن ظفر به أورثته شدة شهوته وإرادته خلق البخل والشح، وإن اشتد حرصه وشهوته على الشيء ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية فاستعملها فيه أورثه ذلك العدوان والبغي والظلم، ومنه يتولد الكبروالفخر والخيلاء فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب وتزوج أحدهما بصاحبه)[1]

وهكذا لو تركت هذه القوى النفسية تفعل فعلها، فإنها لا بد أن تنتهي بصاحبها إلى هذه الأنواع الخطيرة من الانحراف، وهي بمثابة تهديم عمران النفس، وتنكيس حقيقتها، وهذا ما فعلته النفوس الجاهلة، يقول ابن القيم:(فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه، فخرب ديار الإيمان وقلع آثاره وهدم عمرانه وأنبت موضعها كل شجرة خبيثة من حنظل وضريع وشوك وزقوم، وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد)

وبخلاف النفوس الزكية الفاضلة، فإنها أدركت خطورة جريان هذا النهر على حقيقة االإنسان، فراحت تبحث عن مخرج يقيها طغيان هذا النهر، فافترقت إلى ثلاث فرق:

أما الفرقة الأولى، وهم أصحاب الرياضات والمجاهدات والخلوات والتمرينات، فقد راموا قطعه من ينبوعه، فأبت عليهم ذلك حكمة الله تعالى، وما طبع عليه الجبلة البشرية ولم تنقد له الطبيعة، فاشتد القتال ودام الحرب وحمى الوطيس وصارت الحرب دولا وسجالا، وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات.

أما الفرقة الثانية، فقد أعرضوا عن جريان النهر، وراحوا يحصنون العمران، ويحكمون بناءه وأساسه، لاعتقادهم أن ذلك النهر لابد أن يصل إليه، فإذا وصل وصل إلى بناء محكم، فلم يهدمه بل أخذ عنه يمينا وشمالا، فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم

1) مدارج السالكين: 2/312.

وإرادتهم في العمارة، وإحكام البناء وأولئك صرفوها في قطع المادة الفاسدة من أصلها خوفا من هدم البناء.

أما الفرقة الثالثة، وهي أحكم الفرق وأعدلها، فـ (رأت أن هذه الصفات ما خلقت سدى ولا عبثا وأنها بمنزلة ماء يسقى به الورد والشوك والثمار والحطب، وأنها صوان وأصداف لجواهر منطوية عليها، وأن ما خاف منه أولئك هو نفس سبب الفلاح الظفر، فرأوا أن الكبر نهر يسقي به العلو والفخر والبطر والظلم والعدوان، ويسقي به علو الهمة والأنفة والحمية والمراغمة لأعداء الله وقهرهم والعلو عليهم، وهذه درة في صدفة فصرفوا مجراه إلى هذا الغراس، واستخرجوا هذه الدرة من صدفته وأبقوه على حاله في نفوسهم لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع)[1]

وهذه الفرقة هي التي استثمرت صفات النفس، بل حولت مجرى نهرها لتسقي بها الخلال الرفيعة والأخلاق النبيلة.

ويشير إلى ما فعلته هذه الفرقة من النصوص قوله ﷺ لأبي دجانة، وقد رآه يتبختر بين الصفين:(إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموضع)، يقول ابن القيم معلقا على هذا الحديث:(فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية، وكيف استحال القاطع موصلا)[2]

بينما تظل الفرقتان اللتان خافتا من النهر ولم تستسخراه بمنأى عن ما يحمله النهر من صدف وجواهر، بل قد يوقعه ذلك في الخلط والشبه بقدر مبالغاتهم في رياضاتهم، وبعدهم عن ما أرشدت إليه الرسل من سبل الإصلاح، قال ابن القيم: (صاحب الرياضات والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات والخلوات هيهات هيهات إنما يوقعه ذلك في الآفات والشبهات والضلالات فإن تزكية النفوس مسلم إلى الرسل وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها وجعلها على أيديهم دعوة وتعليما وبيانا وإرشادا لا خلقا ولا إلهاما فهم المبعوثون لعلاج نفوس

---

1) مدارج السالكين: 2/314.

2) مدارج السالكين: 2/314.

الأمم، قال الله تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (الجمعة:2))

ويشبه ابن القيم من اقتصر في تطهير نفسه من غير رجوع لما جاء في الشريعة بالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، (أين يقع رأيه من معرفة الطبيب، فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم وبمحض الانقياد والتسليم لهم)

وقد يحسب بعض المغرمين بالخلاف أن هذا خلاف بين ابن القيم والغزالي، وأن الغزالي يرى قمع صفات النفس، بينما ابن القيم يرى سياستها، وهذا خطأ كبير، فإن سياسة النفس لا تتم إلا بمجاهدتها.

أما قمع النفس، فإن الغزالي لم يقل به، بل رد عليه أبلغ الرد، قال في رده على من قال باستحالة تغيير الأخلاق:(وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به: وهو قولهم إن الآدمي ما دام حياً فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك. ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال) (1)

ولهذا، فإن المطلوب ــ كما يرى الغزالي ــ ليس إماطة ذلك بالكلية، (بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط. والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهوّر وعن الجبن جميعاً. وبالجملة أن يكون في نفسه قوياً ومع قوته منقاداً للعقل. ولذلك قال الله تعالى: أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ (الفتح:29)

---

1) إحياء علوم الدين:3/58.

وصـفهم بالشـدة وإنمـا تصـدر الشـدة عن الغضـب ولـو بطـل الغضب لبطل الجهاد، وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبـياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك)

واستدل الغزالي لهذ بقوله تعـالى: ﴿ وَالْكَـاظِمِينَ الْغَيْـظ﴾ (آل عمران:134)، فلم يقل تعالى:(والفاقدين الغيـظ)، بـل (رد الغضب والشهوة إلى حـدّ الاعتـدال بحيث لا يقهـر واحـد منهمـا العقل ولا يغلبـه، بـل يكـون العقـل هـو الضـابط لهمـا والغـالب عليهما ممكن، وهـو المـراد بتغيــير الخلـق فإنـه ربمـا تسـتولي الشهوة على الإنسـان بحيث لا يقـوى عقلـه على دفعهـا فيقـدم على الانبساط إلى الفواحش. وبالرياضة تعود إلى حدّ الاعتــدال فدل أن ذلك ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلـك دلالـة لا شك فيها)[1]

---

1) إحياء علوم الدين:3/58.

الفصل الرابع

البعد الاجتماعي في تربية الأولاد

وهو البعد الذي يبحث في علاقة الإنسان بـالمجتمع، أو هـو البعد الذي يهيء الفرد المسلم للتعايش الإيجابي مع المجتمع.

وهـذا التعـايش يقتضـي أمـرين، أو يتأسـس على أمـرين، بكليهما وردت الأحكام الشرعية مجملة ومفصلة، وهما:

1. السلوك الأمثـل الـذي يجعـل الفـرد إلفـا مألوفـا، محبـا محبوبا، وهو ما أطلقنا عليه هنا (آداب العلاقات الاجتماعية)

2. التأثير الإيجابي في المجتمع بخدمته وإفادتـه، ومحاولـة الاستغناء عنه، وهو ما أطلقنا عليه هنـا (المسـاهمة في التنميـة الاجتماعية)

وعلى هـذين الأمـرين تتأسـس مبـاحث هـذا الفصـل، وقـد حاولنا أن نركـز على الجـوانب العمليـة ــ باعتبـار الفقـه خاصـا بالمسائل العملية ـ كعادتنا في هذه السلسلة.

أولا ـ آداب العلاقات الاجتماعية

الآداب التي تظهر في سلوك المسلم مع علاقاته المختلفة هي مظهـر من مظـاهر الخلـق الرفيـع، والسـلوك النبيـل، لأن الخلق الباطن لا يدل عليه إلا الأدب الظاهر.

زيـادة على أن هـذه الآداب هي الـتي تجعـل للمتـأدب بهـا مكانته الاجتماعية التي تخوله الاسـتفادة من المجتمـع وإفادتـه، لأن الجلف الغليظ إما نافر من المجتمع أو المجتمـع نـافر عنـه، وقد قـال ﷺ:(المـؤمن يـألف ويؤلـف ولا خـير فيمن لا يـألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس)[1]

ولهذا اهتم القرآن الكريم بالآداب الاجتماعية، وقد ورد في

---

[1] رواه الدارقطني في الأفراد والضياء، وفي حديث آخر:(المؤمن يألف ويؤلـف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف) رواه أحمد والطبراني في الكبير.

موعظــة لقمــان ﷺ: ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان:18)

وورد في القرآن الكريم التنبيه إلى كثير من أصـول الآداب الاجتماعية، كآداب الاستئذان، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور:59)

أو آداب الزيارة كما في قوله تعـالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (النور:61)

أو آداب المجالس، كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: 11)

أو آداب الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: 19)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات:2)

أو آداب التحية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ (النساء:86)

أو آداب المشي، كما وقد ورد في موعظة لقمان ﷺ: ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان:18)، وقال تعالى: ﴿ وَلا تَمْشِ

فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (الاسراء:37)

أو آداب التعامل مع مختلف أصناف الناس بما يناسبهم، كما في قوله تعالى: ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ (النور:63)

وقد كان ﷺ يعلم الصحابة أصول هذه الآداب وفروعها، وقد قال لهم مرة:(إنكم قادمون على إخوانكم، فأحسِنوا لباسَكم، وأصلحوا رِحالكم، حتى تكون كأنكم شامَةٌ في الناس، فإنَّ الله لا يُحبُّ الفُحشَ ولا التَفَحُّشَ)[1]، والنصوص والأمثلة على ذلك كثيرة تفيض بها كتب السنة.

ولهذا نجد المؤلفات الكثيرة المرتبطة بهذا النوع من التربية، فكتبوا في كل نوع من أنواع الآداب دقيقه وجليله إما مخصوصا بمصنفات خاصة، أو مجموعا مع غيره من فروع العلم، يستوي في ذلك كتب الحديث أو الفقه أو المواعظ أو التفسير وغيرها من الفنون الشرعية.

وبما أن هذا الفرع من فروع التربية هو من أهم ما يربط المسلم بدينه أولا، ثم بمجتمعه ثانيا، فسنحاول أن نجمع في هذا المبحث أكبر قدر من الآداب التي لها علاقة بالمجتمع، مصنفا بحسب ما ذكر في القرآن الكريم من أنواع الآداب، باعتباره الأصل الذي يرجع إليه في ذلك.

وهي ـ كما رأينا ـ تشمل ما يلي:

أولا ـ آداب الاستئذان

ثانيا ـ آداب التحية

ثالثا ـ آداب الزيارة والضيافة

رابعا ـ آداب المجالس

خامسا ـ آداب الكلام

---

1) رواه أبو داود وأحمد والحاكم في (المستدرك)

سادسا ـ آداب المشي

سابعا ـ آداب المعاشرة مع أصناف الناس

1 ـ آداب الاستئذان

وهو من أهم الآداب التي تدل على اعتبار المسلم لغيره واحترامه له، فلذلك لا يتصرف أي تصرف لا يخصه أو لا يملكه إلا بعد استئذان صاحبه.

وهو من الأحكام التي خصت بالتفصيل في القرآن الكريم لأهميتها، ولعلاقة حرمة المؤمن بها، ولكونها من السلوك الحضاري الرفيع الذي جاء الإسلام ليغرسه في نفوس المؤمنين به.

فقد كانوا في الجاهلية ـ فيما يتعلق بالاستئذان لدخول البيوت مثلا ـ يهجمون هجوما، فيدخل الزائر البيت، ثم يقول:لقد دخلت، وكان يقع أن يكون صاحب الدار مع أهله في الحالة التي لا يجوز أن يراهما عليها أحد.

وكل ذلك كان يؤذي النفوس، ويجرح كرامتها، ويحرم البيوت أمنها وسكينتها ؛ كما يعرض النفوس من هنا ومن هناك للفتنة، حين تقع العين على ما يثير.

يقول سيد قطب مبينا سر اهتمام القرآن الكريم بهذه الناحية:(إن هذه التفاصيل الدقيقة في آداب الاستئذان تؤكد فيما تؤكد حرمة البيوت، ولزوم حفظ أهلها من حرج المفاجآت، وضيق المباغتات، والمحافظة على ستر العورات. عورات كثيرة تعني كل ما لا يُرغب الاطلاع عليه من أحوال البدن، وصنوف الطعام واللباس وسائر المتاع، بل حتى عورات المشاعر والحالات النفسية، حالات الخلاف الأسري، حالات البكاء والغضب والتوجع والأنين. كل ذلك مما لا يرغب الاطلاع عليه لا من الغريب ولا من القريب، إنها دقائق يحفظها ويسترها أدب الاستئذان)[1]

---

1) في ظلال القرآن: 2508.

ولكنه مع هذا الاهتمام القرآني الشديد بهذه الناحية، ومع تبيين السنة لتفصيل آدابها ــ كما سنرى ــ نلاحظ تقصير المسلمين فيها تقصيرا شديدا بعد بهم عن هدي القرآن الكريم.

وقد بدأ هذا التقصير من لدن السلف الأول من بعض الأجلاف الغلاظ، فلذلك جاء إنكار الصالحين من السلف على هذا التقصير، فقد روي عن ابن عباس :(أن الاستئذان ترك العمل به الناس)، وروى قتادة عن يحيى بن يعمر قال:(ثلاث محكمات تركهن الناس قوله تعالى: وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (النساء:8)، وآية الاستئذان: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ (النور:58)، وقوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا (الحجرات: 13)

أما في عصرنا، فالأمر أشد وأخطر، حيث نجد عودة خطيرة إلى البداوة الجاهلية التي لا تعرف حرمة، ولا تتقي عورة، يقول سيد قطب:(ونحن اليوم مسلمون، ولكن حساسيتنا بمثل هذه الدقائق قد تبلدت وغلظت)[1]

وقد يستغرب هذا، فقد يقول البعض:(كيف لا نستأذن، ونحن ندق الأبواب قبل ولوجها؟)

وهذا من سوء الفهم لحقيقة الاستئذان في مراده الشرعي، وقد ذكر سيد بعض الأمثلة عن تقصير واقعنا في أحكام الاستئذان، فقال:(وإن الرجل ليهجم على أخيه في بيته، في أية لحظة من لحظات الليل والنهار، يطرقه ويطرقه ويطرقه فلا ينصرف أبدا حتى يزعج أهل البيت فيفتحوا له. وقد يكون في البيت هاتف يملك أن يستأذن عن طريقه، قبل أن يجيء، ليؤذن له أو يعلم أن الموعد لا يناسب ؛ ولكنه يهمل هذا الطريق ليهجم في غير أوان، وعلى غير موعد، ثم لا يقبل العرف أن يرد عن البيت - وقد جاء - مهما كره أهل البيت تلك المفاجأة بلا إخطار ولا انتظار! ونحن اليوم مسلمون، ولكننا

1) في ظلال القرآن: 2510.

نطرق إخواننا في أية لحظة في موعد الطعام. فإن لم يقدم لنا الطعام وجدنا في أنفسنا من ذلك شيئا! ونطرقهم في الليل المتأخر، فإن لم يدعونا إلى المبيت عندهم وجدنا في أنفسنا من ذلك شيئا! دون أن نقدر أعذارهم في هذا وذاك، ذلك أننا لا نتأدب بأدب الإسلام ؛ ولا نجعل هوانا تبعا لما جاء به رسول الله ﷺ إنما نحن عبيد لعرف خاطىء، ما أنزل الله به من سلطان)[1]

انطلاقا من هذه الأهمية الشديدة التي أولاها الشرع للاستئذان، سنحاول في هذا المطلب أن نذكر كيفية الاستئذان وأحكامها بحسب ورودها في القرآن الكريم، وبحسب القسمة العقلية، والتي لا يخفى وجه الحصر فيها.

أ ـ الاستئذان لدخول البيوت

ويشير إليه مبينا آدابه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور:27)، ففي هذه الآية الكريمة نهي صريح عن اقتحام البيوت من غير استئذان ولا استئناس، ثم بيان لآداب ذلك.

والخطاب في الآية شامل لجميع المؤمنين، فلذلك نص الفقهاء على أن الاستئذان حقٌّ على كل داخل من قريب وبعيد من الرجل والمرأة، ومن الأعمى والبصير، ومن الصغير والكبير.

وقد روي في السنة ما يدل على ذلك، فعن عطاء بن يسار أن رسول الله سأله رجل فقال: يا رسول الله، أستأذن على أمي؟ فقال: نعم، قال الرجل: إني معها في البيت؟ فقال رسول الله ﷺ:(استأذن عليها)، فقال الرجل: إني خادمها. فقال له رسول الله ﷺ:(استأذن عليها، أتحب أن تراها عريانة؟)، قال: لا. قال:(فاستأذن عليها)[2]

---

1) في ظلال القرآن: 2510.

2) رواه مالك بإسناد جيد.

أما الأعمى فإنه يستأذن كالبصير، لأنه لربما يدرك بسمعه ما لا يدركه البصير ببصره، وقد قال ﷺ:(من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه، صُبَّ في أذنه الآنك(1) يوم القيامة)(2)

أما الصغير، فإنه يستأذن كما يستأذن الكبير، وقد كان أنس بن مالك دون البلوغ يستأذن على رسول الله ﷺ، وكذلك الصحابة مع أبنائهم وغلمانهم .

وسر هذا الاهتمام بالاستئذان وشموله كل أصناف المكلفين أن الله تعالى جعل البيوت سكنا، (يفيء إليها الناس ؛ فتسكن أرواحهم؛ وتطمئن نفوسهم ؛ ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم، ويلقون أعباء الحذر والحرص المرهقة للأعصاب)(3)

ولا تكون البيوت كذلك إلا إذا كانت حرما آمنا لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم، وفي الوقت الذي يريدون، وعلى الحالة التي يحبون أن يلقوا عليها الناس.

ولهذا وردت النصوص محذرة من اقتحام هذه الحرمة أوانتهاكها، فحرمة البيوت من حرمة الإنسان، قال ﷺ:(من اطلع في بيت قوم من غير إذنهم حل لهم أن يفقؤوا عينه)(4)، وعن سهل بن سعد أن رجلا اطلع في جحر في باب رسول الله ﷺ ومع رسول الله ﷺ مدرى يرجل به رأسه؛ فقال له رسول الله ﷺ:(لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينك إنما جعل الله الإذن من أجل البصر)(5)، وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال:(لو أن رجلا اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان

1) الآنك: هو الرصاص المذاب.

2) رواه البخاري.

3) في ظلال القرآن: 2510.

4) رواه مسلم.

5) رواه مسلم.

عليك من جناح)(6)

انطلاقا من هذا سنتحدث هنا عن فـرعين كلاهمـا ممـا ورد النص عليه تصريحا أو إشارة:

ما لا يحتاج إلى استئذان:

نص الفقهاء على أن الأحكام السابقة خاصة بـالبيوت الـتي لها أهلها المالكين لها، وفي الظروف العادية، أما إن لم يكن لها سـاكن، أو حصـلت ضـرورة من الضـرورات تسـتدعي اقتحـام البيوت، فإن ذلك جائز، كما سنفصله فيما يلي:

البيوت العامة:

وإليها الإشارة بقولـه تعـالى بعـد آيـات الاسـتئذان: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْـكُونَةٍ فِيهَـا مَتَـاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (النور:29)

والتعبـير بقولـه تعـالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَـاحٌ ﴾ دليـل على الورع الشديد الذي تلقى بـه الصـحابة المنتجبـون هـذه الأوامـر الإلهية، وقد روي في سبب نزول هذه الآية أن بعض الناس لمـا نزلت آية الاستئذان تعمق في الأمر، فكان لا يأتي موضعا خربـا ولا مسكونا إلا سلم واستأذن؛ فنزلت هذه الآية، أباح الله تعالى فيها رفع الاسـتئذان في كـل بيت لا يسـكنه أحـد لأن العلـة في الاسـتئذان إنمـا هي لأجـل خـوف الكشـفة على الحرمـات فـإذا زالت العلة زال الحكم.

وقد اختلف الفقهاء في تحديد هـذه الـبيوت على الأقـوال التالية:

القول الأول: إنهـا الـبيوت الـتي تبـنى على الطرقـات، يأوي إليها المسافرون، ومثلها الخانات، وهو قول قتادة ومجاهد والضحاك ومحمد بن الحنفية.

القول الثاني: إنهـا الـدكاكين الـتي في الأسـواق، وهـو قول الحسن البصـري وإبـراهيم النخعي والشـعبي، ومن الأدلـة

---

6) رواه مسلم .

على ذلك:

1. أن علي بن أبي طـالب اسـتظل في خيمـة فارسـي بالسوق من المطر دون إذن منه.

2. أن ما روي عن ابن عمر من أنه كان يستأذن في دخول حوانيت السوق كان من ورعه، فقد ذكر ذلك لعكرمة فقال: ومن يطيق ما كان يطيقه ابن عمر؟ قال الجصـاص:(وليس في فعل ابن عمر هذا دلالة على أنه رأى دخولها بغير إذن محظورا، ولكنه احتاط لنفسه، وذلك مباح لكل واحد)

القول الثالث: هي البيوت الخربة التي يدخلها الناس للبول والغائط، وهو قول عطاء.

القول الرابع: أنها بيوت مكة، وقد روي عن محمد بن الحنفية، والأصل في هذا القول ـ كما يذكر الإمام مالك ــ مبني على القول بأن بيوت مكة غير متملكة، وأن الناس فيها شركاء.

القول الخامس: كل مكان فيه انتفاع، وله فيه حاجة، وهو قول جابر بن زيد، فقد قال:(ليس يعني بالمتاع الجهاز، ولكن ما سواه من الحاجة؛ أما منزل ينزله قوم من ليل أو نهار، أو خربة يدخلها لقضاء حاجة، أو دار ينظر إليها فهذا متاع وكل منافع الدنيا متاع)،وقد علق على هذا القول أبو جعفر النحـاس، فقال:(وهذا شرح حسن من قول إمام من أئمة المسلمين، وهو موافق للغة. والمتاع في كلام العرب: المنفعة؛ ومنه أمتع الله بك. ومنه قوله تعالى: فَمَتِّعُوهُنّ (الأحزاب:49))

واختار هذا القول ابن أبو بكر بن العربي، فقال:(أما من فسر المتاع بأنه جميع الانتفاع فقد طبق المفصل وجاء بالفيصل، وبين أن الداخل فيها إنما هو لما له من الانتفاع فالطـالب يـدخل في الخانكـات وهي المـدارس لطلب العلم، والساكن يدخل الخانات وهي الفنادق، أي الفنادق، والزبون يدخل الدكان للابتياع، والحاقن يدخل الخلاء للحاجة؛ وكل يـؤتي على وجهه من بابه)[1]

---

1) أحكام القرآن: 3/376.

وهو قول الحنفية فقد نصوا على أن البيوت إذا لم يكن لها ساكن، وللمرء فيها منفعة، فيجوز له أن يدخلها من غير استئذان، كالخانات والرباطات التي تكون للمارة، والخرابات التي تقضى فيها حاجة البول والغائط.

وقريب منه قول المالكية، فقد نصوا على أن ذلك مبني على العرف، فيباح أن يدخل الإنسان بغير استئذان كل محل مطروق، كالمسجد، والحمام، والفندق، وبيت العالم، والقاضي، والطبيب - وهو المكان الذي يستقبل فيه الناس - لوجود الإذن العام بدخوله.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو القول الخامس، بناء على أن الأصل في هذا النوع من البيوت فتحها لكل منتفع بها، فلا حاجة للاستئذان فيها، بل قد يكون الاستئذان مؤذيا، لأنه سيشغل غيره من المنتفعين بذلك المحل بالمستأذن.

فمن استأذن ــ مثلا ــ للدخول إلى مكتبة عمومية آذى الحاضرين وشغلهم عما هم فيه، ومثل ذلك كل المحال العمومية.

الضرورة:

وهي من أصول الاستثناءات في كل المسائل، فالضرورات تبيح المحظورات، ومن الضرورات التي نص عليها الفقهاء:

1. ما إذا كان في ترك الاستئذان لدخول بيت إحياء لنفس أو مال، حتى لو استأذن وانتظر الإذن تلفت النفس وضاع المال.

2. إذا كان البيت مشرفا على العدو، يقاتل منه العدو، ويوقع به النكاية، يجوز دخوله بغير استئذان ؛ لما في دفع العدو من إحياء نفوس المسلمين وأموالهم.

3. إذا سقط ثوبه في بيت غيره، وخاف لو أعلمه أخذه، جاز له الدخول لأخذه بغير استئذان، مع اشتراط أن يعلم

الصلحاء أنه إنما دخل لذلك.

4. لو نهب منه ثوبا ودخل الناهب داره لا بأس بدخولها ليأخذ حقه.

البيت الذي فيه المنكر:

اختلف الفقهاء في جواز دخول البيت الذي يتعاطى فيه المنكر بغير استئذان، بقصد تغيير المنكر، هل يجوز ذلك أم لا على قولين:

القول الأول: يجوز الدخول عليهم بغير إذنهم، وهو قول الحنفية والمالكية، ومن الأدلة على ذلك:

1. أن الدار لما اتخذت لتعاطي المنكر فقد سقطت حرمتها، وإذا سقطت حرمتها جاز دخولها بغير استئذان.

2. أن تغيير المنكر فرض، فلو شرط الإذن لتعذر التغيير.

القول الثاني: التفريق بين ما يمكن استدراكه بالإذن، وما لا يمكن إدراكه، وهو قول الشافعية، وتفصيل ذلك كما يلي:

1. أن المنكر إن كان مما يفوت استدراكه، جاز له دخوله لمنع ذلك المنكر بغير استئذان، ومثال ذلك ما لو أخبره من يثق بصدقه: أن رجلا خلا برجل ليقتله، أو خلا بامرأة ليزني بها، فيجوز له في مثل هذه الحال أن يتجسس، ويقدم على الكشف والبحث حذرا من فوات ما لا يستدرك، من إزهاق روح معصوم، وانتهاك عرض المحارم، وارتكاب المحظورات.

2. أن ما لم يفت استدراكه، كما إذا دخل معها البيت ليساومها على أجرة الزنا، ثم يخرجان ليزنيا في بيت آخر، أو إذا كان مما يمكن إنكاره ورفعه بغير دخول، لم يحل له الدخول بغير استئذان، كما إذا سمع المحتسب أصوات تلاه منكرة من دار تظاهر أهلها بأصواتهم، أنكرها خارج الدار، ولم يهجم عليها بالدخول ؛ لأن المنكر ظاهر، وليس له أن يكشف عما سواه.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو جواز ذلك مطلقا، بشرط أن يكون ذلك من أهله ممن وكلهم الشرع بهذه المهمة، أو من ينوب عنهم، لأن فتح ذلك من غير تنظيم سيؤدي إلى مفاسد كبيرة.

ويستثنى من ذلك أحوال خاصة تبحث في أبواب الحسبة، لا مجال لتفصيلها هنا.

آداب استئذان الدخول للبيوت

من الآداب التي نص عليها الفقهاء مما يتعلق بآداب الاستئذان داخل البيوت:

صيغة الاستئذان:

ورد في السنة بيان الهيئة المثلى للاستئذان، وهي أن يقول الرجل: السلام عليكم أأدخل؛ فإن أذن له دخل، وإن أمر بالرجوع انصرف، وإن سكت عنه استأذن ثلاثا؛ ثم ينصرف من بعد الثلاث، ويدل على هذه الصيغة ما روي عن ربعي قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت، فقال: ألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه:(أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان)، فقال له:(قل السلام عليكم أأدخل)، فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ فدخل[1]، وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ لأمة له يقال لها روضة:(قولي لهذا يقول السلام عليكم أدخل؟)[2]

ولكن هذ الصيغة لا يقصد منها ألفاظها، فلكل بيئة مصطلحاتها وتعابيرها الخاصة بها، ولكن المراد منها هو تأكيد دلالتها على الإذن، ولهذا نص الفقهاء على جواز الاستئذان بالنداءٍ أو القرع أو النحنحة أو نحو ذلك، وخاصة إن كان ذلك في بيته، قالت زينب امرأة عبد الله بن مسعود :(كان عبد الله إذا دخل تنحنح وصوَّت)، قال الإمام أحمد:(يستحب أن يحرك نعله في استئذانه عند دخوله حتى إلى بيته؛ لئلا يدخل بغتة)،

---

1) رواه أبو داود.

2) رواه الطبري.

وقال مرةً:(إذا دخل يتنحنح)

ومن السنة في الصيغة ــ كذلك ــ أن يذكر المستأذن اسمه، أو يذكر ما يُعرف به، نفيا للغموض واللبس، ولأن في ذكر الاسم إسقاط كلفة السؤال والجواب، وقد روي عن جابر قال: أتيت إلى النبي ﷺ في دين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: من ذا؟، فقلت: أنا، فقال النبي ﷺ: أنا أنا!) كأنه كرهها(1)، وسبب كراهة النبي ﷺ لقول الطارق:(أنا) أنها لاتفيد شيئا.

ولهذا كان الصحابة يسمون أنفسهم إذا قيل لهم (من هذا؟)، فقد روي عن أبي ذر قال: خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله ﷺ يمشي وحده، فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفت فرآني، فقال:(من هذا؟) فقلت:(أبو ذر)(2)

الاستئذان ثلاثا:

إذا استأذن على إنسان، فتحقق أنه لم يسمع الاستئذان، فله أن يكرر الاستئذان حتى يسمعه، أما إذا استأذن عليه فظن أنه لم يسمع، فقد اختلف الفقهاء في تكرار الاستئذان فوق ثلاث على الأقوال التالية:

القول الأول: السنة ألا يكرر الاستئذان أكثر من ثلاث مرات،وهو قول الجمهور، ومن الأدلة على ذلك:

1. قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾ (النور:58)، فقد استدل بها بعضهم على هذا، قال يزيد: ثلاث دفعات. قال: فورد القرآن في المماليك والصبيان، وسنة رسول الله ﷺ في الجميع(3).

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) وقد تعقب على هذا الاستدلال ابن عبدالبر بقوله:(ما قاله من هذا وإن كان له وجه فإنه غير معروف عن العلماء في تفسير الآية التي نزع بها، والذي عليه جمهورهم في قوله: ﴿ ثَلاثَ مَرَّات ﴾ أي في ثلاث أوقات، ويدل على صحة هذا القول ذكره فيها ﴿

2. عن أبي سـعيد الخـدري قـال: كنت في مجلس من مجـالس الأنصـار، إذ جـاء أبـو موسـى الأشـعري، كأنـه مـذعور فقال: استأذنت على عمر ثلاثا، فلم يـأذن لي، فـرجعت، فقـال: ما منعـك؟ قلت: اسـتأذنت ثلاثـا فلم يـؤذن لي فـرجعت، وقـال رسول الله ﷺ:(إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يـؤذن لـه فلـيرجع)، فقال - أي عمر –:(والله لتقيمن عليـه بينـة)، قـال أبـو موسـى: (أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ؟)، قال أبي بن كعب:(فواللـه لا يقوم معك إلا أصـغر القـوم، فكنت أصـغر القـوم، فقمت معـه، فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك)[1]

القـول الثـاني: لـه أن يزيـد على الثلاث، حـتى يتحقـق سماعه، وهو قول مالك، قال ابن وهب قـال مالـك:(الاسـتئذان ثلاث، لا أحب أن يزيد أحد عليها، إلا من علم أنـه لم يسـمع، فلا أرى بأسا أن يزيد إذا استيقن أنه لم يسمع)

القول الثالث: أنه إن كـان بلفـظ السـلام المشـروع لم يعده، وإن كان بغيره أعاده، حكاه النووي، ومن الأدلة على ذلك ما روي عن قيس بن سعد هو ابن عبادة قال:زارنا رسـول اللـه ﷺ في منزلنا فقال: السلام عليكم ورحمـة اللـه فـرد سـعد ردا خفيا. قـال قيس:فقلت:ألا تـأذن لرسـول اللـه ﷺ ؟ فقـال:دعـه يكـثر علينـا من السـلام. فقـال رسـول اللـه ﷺ السـلام عليكم ورحمة الله . فرد سعد ردا خفيا. ثم قال رسول الله ﷺ: السلام عليكم ورحمة الله . ثم رجع رسول الله ﷺ وأتبعه سعد فقال:يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيـا لتكـثر علينا من السلام - فقال:فانصرف معه رسول اللـه ﷺ وأمـر لـه سعد بغسل فاغتسل ؛ ثم ناولـه خميصـة مصـبوغة بزعفـران أو ورس، فاشتمل بها، ثم رفـع رسـول اللـه ﷺ يديـه، وهـو يقـول: اللهم اجعـل صـلاتك ورحمتـك على آل سـعد بن عبـادة) الحديث[2].

مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْـدِ صَـلاةِ الْعِشَـاءِ (النـور: 58)

1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

2) رواه أبو داود والنسائي.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هـو أن الأصـل هـو الـتزام مـا ورد في السنة من الاستئذان ثلاثا، والحكمة من ذلك أن الغالب من الكلام إذا كـرر ثلاثـا سـمع وفهم؛ ولـذلك كـان النـبي ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادهـا ثلاثـا حـتى يفهم عنـه، وإذا سـلم على قـوم سلم عليهم ثلاثا.

ويدل عـدم الإذن بعـد الثلاث على أن صـاحب المـنزل قـد يكون غـير راغب في الإذن، فلـذلك من احترامـه عـدم الإلحـاح عليه بالاستئذان.

ولكنه في الحال التي تنص عليهـا هـذه المسـألة، والـتي لا تكون إلا في البيوت الكبيرة التي يدل ظاهرها على عدم سـماع أهل البيت الاسـتئذان، يجـوز الزيـادة على الثلاث، لأن المقصـد من الثلاث هو تأكيد سماع صاحب الدار.

وقد نص الفقهاء هنا على مدة الانتظار بين كل اسـتئذانين، فنص الحنفية على أنه يمكث بعد كل مرة مقدار ما يفرغ الآكل، والمتوضئ، والمصلي بأربع ركعات، حتى إذا كان أحد على عمل من هذه الأعمال فرغ منـه، وإن لم يكن على عمـل منهـا كـانت عنـده فرصـة يأخـذ فيهـا حـذره، ويصـلح شـأنه قبـل أن يـدخل الداخل.

ولا نرى صحة هذا، ولا أن لذلك حدا معينا، لأن ذلك يحتلف باختلاف المحال، واختلاف القصد، والأصل بقاء المطلق على ما هو عليه تيسيرا لحياة الناس.

موضع الوقوف:

من آداب الاستئذان أن لا يقف المسـتأذن قبالـة البـاب إن كان الباب مفتوحا، ولكنه ينحـرف ذات اليمين أو ذات الشـمال، فقد كان ذلك من هدي رسول الله ﷺ، فعن عبـد اللـه بن بسـر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنـه الأيمن أو الأيسـر، ويقـول:(السـلام

عليكم، السلام عليكم)[1]

وقد كان ﷺ يعلم الصحابة هذا الهدي، فعن هذيل بن شرحبيل قال: جاء رجل فوقف على باب رسول الله ﷺ يستأذن، فقام على الباب - وفي رواية: مستقبل الباب - فقال له النبي ﷺ:(هكذا عنك أو هكذا، فإنما الاستئذان من النظر)

أما إن كان الباب مردودا فله أن يقف حيث شاء ويستأذن، وإن شاء دق الباب، وقد روي عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ كان في حائط بالمدينة على قُف البئر فمد رجليه في البئر فدق الباب أبو بكر فقال له رسول الله ﷺ: (إيذن له وبشره بالجنة)[2]

عدم التطلع للبيت:

فلا يحل للمستأذن النظر في داخل البيت لأن للبيوت حرمتها، وقد قال ﷺ مبينا علة الاستئذان:(إنما الاستئذان من النظر)، وقد روي أن جارا لحذيفة بن اليمان وقف، وجعل ينظر إلى ما في البيت وهو يقول: السلام عليكم أأدخل؟ فقال حذيفة: أما بعينك فقد دخلت، وأما باستك فلم تدخل.

وقد اختلف الفقهاء هنا فيما لو نظر المستأذن إلى داخل البيت فجنى صاحب البيت على عينه فهل يضمن أم لا ــ بناء على اختلافهم في الأحاديث التي سبق ذكرها ـ على قولين:

القول الأول: ليس هذا على ظاهره، فإن فقأ فعليه الضمان، وهو قول الجمهور، وقد أجابوا على النص السابق بالوجوه التالية:

1. أن الخبر منسوخ، وكان قبل نزول قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل:126

2. أن يكون خرج على وجه الوعيد لا على وجه الحتم،

---

1) رواه أبو داود.

2) رواه مسلم.

والخبر إذا كان مخالفا لكتاب الله تعالى لا يجوز العمل به.

3. أن النبي ﷺ كـان يتكلم بـالكلام في الظـاهر وهـو يريـد شيئا آخر؛ كما جاء في الخبر أن عبـاس بن مـرداس لمـا مدحـه قال لبلال:(قم فـاقطع لسـانه)، وإنمـا أراد بـذلك أن يـدفع إليـه شيئا، ولم يرد به القطع في الحقيقة.

4. أن يكـون ذكـر فقء العين والمـراد أن يعمـل بـه عمـل حتى لا ينظر بعد ذلك في بيت غيره.

القول الثاني: لا ضـمان عليـه ولا قصـاص؛ وقـد رجحـه القرطبي، قال:(وهو الصحيح إن شاء الله تعالى) واستدلوا على ذلك بما ذكرنا من الأحاديث.

الاستئناس:

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾(النور:27) وهو تعبير يدل على التلطـف في الاسـتئذان، يقـول سـيد قطب في سر التعبير بهذا اللفظ:(ويعبر عن الاستئذان بالاسـتئناس - وهـو تعبير يوحي بلطف الاستئذان، ولطف الطريقـة الـتي يجيء بهـا الطارق، فتحـدث في نفـوس أهـل الـبيت أنسـا بـه، واسـتعدادا لاسـتقباله، وهي لفتـة دقيقـة لطيفـة، لرعايـة أحـوال النفـوس، ولتقدير ظروف الناس في بيوتهم، وما يلابسها من ضــرورات لا يجوز أن يشقى بها أهلهـا ويحرجـوا أمـام الطـارقين في ليـل أو نهار)(1)

ويعــبر عبــد الفتــاح أبــو غــدة عن بعض مظــاهر تطــبيق الاستئناس، فيقول:(وإذا قرع الباب فليكن برفـق ولين من غـير إزعاج أو إيـذاء ولا ازديـاد في الإصـرار، ولا يفتح البـاب بنفسـه، وإذا أذن لـه في الـدخول فليـتريث، ولا يسـتعجل في الـدخول، ريثما يتمكن صاحب البيت من فسح الطريـق وتمـام التهيـؤ، ولا يرم ببصره هنا وهناك، فما جعل الاستئذان إلا من أجـل النظـر)(2)

---

1) في ظلال القرآن: 2508.

2) من أدب الإسلام ـ عبد الفتاح أبو غدة.

وقد كان الصحابة يقرعون باب رسول الله ﷺ بالأظافر(1)، أدبا منهم مع رسول الله ﷺ.

وذلك لأن الدق العنيف يسيء كثيرا للمستأذن عليه، وقد روي ان امرأة جاءت إلى الإمام أحمد بن حنبل تسأله عن شىء من أمور الدين، ودقت الباب دقا فيه بعض العنف، فخرج وهو يقول: هذا الشرط - جمع شرطي -.

وهذا الدق اللطيف يكون فيمن كان جلوسه قريبا من بابه، وأما من بعد عن الباب، فيقرع عليه قرعا يسمعه في مكانه من غيرعنف.

السلام:

وينص على هذا الأدب قوله تعالى: ﴿ وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ (النور:27)، وقد روي في تطبيق هذا الأمر الإلهي عن كلدة بن حنبل أن صفوان بن أمية بعثه إلى رسول الله ﷺ بلبن وجداية وضغابيس والنبي ﷺ بأعلى مكة، فدخلت ولم أسلم فقال (ارجع فقل السلام عليكم)، وذلك بعدما أسلم صفوان بن أمية(2).

ويستحب السلام مطلقا، ولو دخل بيت نفسه وليس فيه أحد؛ ومن الصيغ الورادة في ذلك ما ذكره القرطبي بقوله:(قال علماؤنا: يقول السلام علينا من ربنا التحيات الطيبات المباركات، لله السلام. رواه ابن وهب عن النبي ﷺ، وسنده ضعيف)(3)

ومنها ما قال قتادة:(إذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ فإنه يؤمر بذلك)،قال: (وذكر لنا أن الملائكة ترد عليهم)

حق صاحب البيت في عدم الإذن:

1) رواه البخاري في الأدب المفرد.

2) رواه أبو داود.

3) القرطبي: 12/219.

وينص على هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (النور:28)

وقد ذكرناه في الآداب لأن العرف يتصور أن رد المستأذن معصية، بل كبيرة من الكبائر،حتى لو كان للمستأذن عليه ظروفه الخاصة الشديدة التي لا تسمح له بالإذن، يقول سيد قطب:(من حق صاحب البيت أن يقول بلا غضاضة للزائر والطارق: ارجع. فللناس أسرارهم وأعذارهم، وهم أدرى بظروفهم، فما كان الاستئذان في البيوت إلا من أجل هذا، وعلى المستأذن أن يرجع من غير حرج، وحسبه أن ينال التزكية القرآنية)[1]

بل كان الصحابة المنتجبون يطلبون هذا الأدب حرصا على هذا الجزاء القرآني، قال بعض المهاجرين:(لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها، لقد طلبت أن أستأذن على بعض إخواني ليقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط. لقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ (النور:28))[2]

ب ـ الإستئذان داخل البيوت

ويشير إليه مبينا آدابه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور:59)

فقد نص العلماء على أن الأحكام الواردة في هاتين الآيتين خاصة بالاستئذان داخل البيوت، كما أن الآية السابقة خاصة بأحكام الاستئذان على البيوت.

---

1) في ظلال القرآن: 2508.

2) رواه الطبري.

والآية الكريمة تنص على أن الخدم من الرقيق، والأطفال المميزين الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان إلا في ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة، فهم يستأذنون فيها، وهذه الأوقات هي:

1 ـ قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس في ثياب النوم عادة، أو أنهم يغيرونها ويلبسون ثياب الخروج.

2 ـ وقت الظهيرة عند القيلولة، حيث يخلعون ملابسهم في العادة ويرتدون ثياب النوم للراحة.

3 ـ بعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك ويرتدون ثياب الليل..

وقد سمى القرآن الكريم هذه الأوقات الثلاثة (عورات) لانكشاف العورات فيها، وهو بذلك يشير إلى ضرورة التوقي في غير هذه الأوقات لئلا يرى الصبية والخدم ما لا ينبغي أن يرى، يقول سيد قطب:(وهو أدب يغفله الكثيرون في حياتهم المنزلية، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة! وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر. بينما يقرر النفسيون اليوم - بعد تقدم العلوم النفسية - أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثر في حياتهم كلها ؛ وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها. والعليم الخبير يؤدب المؤمنين بهذه الآداب ؛ وهو يريد أن يبني أمة سليمة الأعصاب، سليمة الصدور، مهذبة المشاعر، طاهرة القلوب، نظيفة التصورات)[1]

ومع أن هذه الأحكام واضحة في أن القصد منها التوقي عن العورات داخل البيوت، لأن المقصد الأساسي من تشريع الاستئذان هو توقي العورات، فإن البعض قال بنسخها أو حملها محامل تنفي إحكامها أو دلالتها التطبيقية، وذلك غير صحيح.

وقد رد على هذه الأقوال ابن عباس، مبينا العلة فيها، فعن

1) في ظلال القرآن: 2532.

عكرمة أن نفرا من أهل العراق قالوا: يا ابن عباس، كيف ترى في هذه الآية التي أمرنا فيها بما أمرنا ولا يعمل بها أحد، قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ﴾ (النور:58)، فقال ابن عباس :(إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحب الستر، وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجال، فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيمة الرجل والرجل على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله بالستور والخير، فلم أر أحدا يعمل بذلك بعد)

قال القرطبي تعليقا على هذا التفسير:(هذا متن حسن، وهو يرد قول سعيد وابن جبير؛ فإنه ليس فيه دليل على نسخ الآية، ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت، فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان، بل حكمها لليوم ثابت في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحارى ونحوها)[1]

وقد روي عن الشعبي أنه قال في الآية:(ليست بمنسوخة)، فقيل له:(إن الناس لا يعملون بها) ؛ فقال:(الله عز وجل المستعان)

بعد التعرف على العلة الشرعية من هذا النوع من أنواع الاستئذان، فإن في هذا النوع من التساهل ما ليس في النوع السابق، وسنبين التفاصيل المتعلقة بهذ المطلب في المسائل التالية:

الاستئذان على الزوجة:

نص الفقهاء على أنه يجوز للرجل عدم الاستئذان على زوجته إذا كانت في بيته، وليس معها غيرها، لأنه يحل له أن ينظر إلى سائر جسدها، ولكن مع ذلك يندب له الإيذان بدخوله بنحو التنحنح، وطرق النعل، ونحو ذلك ؛ لأنها ربما كانت على حالة لا تريد أن يراها زوجها عليها.

وقد روي في هذا عن جابر أن رسول الله ﷺ (نهى أن

1) القرطبي: 12/303.

يَطْرُق الرجل أهله ليلاً-أي أن ياتيهم ليلاً من سفر أو غـيره على غفلة كأنه-، يتخونهم أو يلتمس عثراتهم)(1)

الاستئذان على المحارم:

اختلف الفقهاء فيما لو كان في بيته أحد محارمـه، كأمـه أو أخته أو نحو ذلك، من رجل أو امرأة، هـل يجب الاسـتئذان أم لا على قولين:

القول الأول: لا يحل له أن يـدخل عليـه بغـير اسـتئذان، وهو قول الحنفية والمالكية، ويكون الاستئذان عنـدهم في هـذه الحالة واجبا لا يجوز تركه، بل قـال المالكيـة: من جحـد وجـوب الاستئذان يكفر، لأنـه ممـا علم من الـدين بالضـرورة، قـال ابن القاسم قال مالك: ويستأذن الرجل على أمـه وأختـه إذا أراد أن يدخل عليهما، ومن الأدلة على ذلك:

1. قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَـا اسْـتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَـذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِـهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور:59)

2. عن عطـاء بن يسـار أن رجلا سـأل رسـول اللـه ﷺ، فقـال: أسـتأذن على أمي؟ فقـال: نعم، فقـال: إنهـا معي في البيت. فقال رسول الله ﷺ:(استأذن عليها)، فقـال الرجـل: إني خادمها، فقال رسـول اللـه ﷺ:(اسـتأذن عليهـا، أتحب أن تراهـا عريانة؟)، قال: لا، قال: فاستأذن عليها)(2)

3. قـال عبـد اللـه بن مسـعود :(عليكم أن تسـتأذنوا على أمهـاتكم وأخـواتكم)(3)، وعن عطـاء قـال: سـألت ابن عبـاس أأستأذن على أختي؟ قال: نعم، قلت: إنهـا معي في الـبيت وأنـا أنفق عليها، قال: استأذن عليها(4)، وعن حذيفة بن اليمـان، أنـه

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه مالك.

3) رواه الطبراني.

4) الجصاص.

سأله رجل فقال: أستأذن على أختي؟ فقال: إن لم تستأذن رأيت ما يسوءك.

4. قال موسى بن طلحة بن عبيد الله ما: دخلت مع أبي على أمي، فدخل واتبعته، فالتفت فدفع في صدري حتى أقعدني على الأرض! وقال: أتدخل بغيرإذن؟!. وقال نافع مولى عبد الله بن عمر ما: كان ابن عمر إذا بلغ بعض ولده الحلم -أي مبلغ الرجال - عزله -أي أفرده عن حجرته -فلم يدخل على ابن عمر إلا بإذن.

5. أنه إذا دخل عليها بغير استئذان، فربما كانت مكشوفة العورة، فيقع بصره على ما لا يحل له النظر إليه منها، ولذلك وجب الاستئذان، سدا للذريعة.

القول الثاني: يجوز للرجل أن يدخل على محارمه الذين يسكنون معه بغير استئذان، ولكن عليه أن يشعرهم بدخوله بنحو تنحنح، وطرق نعل، ونحو ذلك، وهو قول الشافعية، قال قتادة:(إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك، فهم أحق من سلمت عليهم. فإن كان فيه معك أمك أو أختك فقالوا: تنحنح واضرب برجلك حتى ينتبها لدخولك؛ لأن الأهل لا حشمة بينك وبينها. وأما الأم والأخت فقد يكونا على حالة لا تحب أن تراهما فيها)

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو أن الخلاف في هذا ربما يكون خلافا في التعبير عن حكم المسألة، لا خلافا حقيقيا، لأن القول الأول نص على حكم الاستئذان، أما القول الثاني، فنص على كيفيته بالنسبة لمن هم في البيت، فلا خلاف في أصل وجوب الاستئذان، فيما نرى.

وربما يكون في القول الثاني مراعاة للتيسير المراعى في هذه الناحية، لأن الاستئذان في البيت قد يثقل كل حين، فلذلك يتساهل في طريقته، فيكون القصد فيه مجرد الإعلام لا طلب الدخول ونحوه.

وقد روي أن عُبيدة عامر بن عبدالله بن مسعود قال: كان أبي – عبدالله بن مسعود- إذا دخل الدار استأنس-أي أشعر أهلها بما يؤنسهم- وتكلَّم ورفع صوته حتى يستأنسوا.

وقال الإمام أحمد : إذا دخل الرجل بيته، استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه. قال عبد الله ابن الإمام أحمد: كان أبي إذا دخل-أي رجع- من المسجد الى البيت، يَضْرِبُ برجله قبل أن يدخل الدار، حتى يسمع ضرب نعله لدخوله الى الدار، وربما تنحنح، ليعلم من في الدار بدخوله.

ج ـ الاستئذان خارج البيوت

وهو الاستئذان في كل الشؤون، لأنه لا يحق لأحد أن يتصرف في حق غيره إلا بإذنه، ويشير إلى هذا الأدب ما ذكره تعالى في وصف الصحابة : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:62)

ولهذه وردت النصوص بوجوب استئذان كل صاحب حق في استعمال حقه أو الانتفاع له، ومن ذلك ما ورد من أنه على المسلم إذا دخل بيت إنسان ألا يتقدم عليه في الصلاة، ولا يجلس في مكان جلوسه المخصص له إلا بعد استئذانه، قال ﷺ:(لا يؤم الرجل في سلطانه، ولا يجلس على تكرمته في بيته إلا بإذنه)[1]

بل ورد النص على وجوب الاستئذان حتى عند الجلوس بين شخصين، قال ﷺ:(لا يحل للرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما)

ومثل هذا النهي النهي عن النظر في كتاب غيره إلا بعد استئذانه، قال ﷺ:(من نظر في كتاب أخيه بغير إذنه فإنما ينظر

1) رواه الترمذي.

في النار)(1)

انطلاقا من هذا سنذكر ـ هنا ـ بعض النماذج عما ورد في الشرع من مواضع الاستئذان، والتي نرى التقصير فيها أو اعتبارها من الأعراف التي لا علاقة لها بالدين.

استعمال منافع الغير:

اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز للإنسان التصرف في ملك غيره، أو في حق الغير إلا بإذن من الشارع، أو من صاحب الحق(2)، وإلا كان ذلك اعتداء محرما.

ويدل على هذا الحكم قوله ﷺ:(لا يحلبن أحد ماشية غيره إلا بإذنه)(3)، فالنبي ﷺ لم يقصد هنا اللبن بعينه، وإنما قصد كل حق للغير، فلا يجوز أكل طعام الغير إلا بإذن المالك، أو في حالة الضرورة، ولا يجوز سكنى داره إلا بإذنه.

وقد اختلف الفقهاء ـ هنا ـ في وجوب الاستئذان للأكل من ثمر البستان وشرب لبن الماشية على قولين:

القول الأول: لا يجوز لأحد أن يحلب ماشية أحد ولا أن يأكل من ثمر بستانه إلا بإذنه، وهو قول الحنفية والمالكية والشافعية، لما روي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال:(لا يحلبن أحد ماشية امرئ بغير إذنه، أيحب أحدكم أن تؤتى مشربته فتكسر خزانته فينتقل طعامه، فإنما تخزن لهم ضروع مواشيهم أطعماتهم، فلا يحلبن أحد ماشية أحد إلا بإذنه) (4)

---

1) رواه أبو داود.

2) وقد يبذل ذلك الغير الإذن بالتصرف في ملكه، أو في حقه بادئ ذي بدء من غير استئذان، كأن يقول لأجيره: أذنت لك أن تأكل مما تصنعه من مأكولات دون أن تحمل منه شيئا، وعندئذ فلا حاجة للاستئذان لحصول مقصوده، وهو الإذن. وقد لا يبذل الإذن. وعندئذ، يجب على من أراد التصرف في ملك غيره استئذانه في ذلك التصرف.

3) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

4) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

القول الثاني: جواز الأكل من ثمر البستان، وحلب الماشية بغير استئذان، وإن لم يعلم حال صاحبه، وهو قول أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ومن الأدلة على ذلك ما روي عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ قال:(إذا أتى أحدكم على ماشية، فإن كان فيها صاحبها فليستأذنه، فإن أذن له فليحلب وليشرب، إن لم يكن فيها فليصوت ثلاثا، فإن أجاب فليستأذنه، وإلا فليتحلب وليشرب ولا يحمل)[1]

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو القول الأول، وعلى كليهما يدل النصان اللذان استدل بهما الفريقان.

أما النص الأول فهو مبني على الأصل، وهو حرمة استعمال حق الغير أو منفعته من غير إذنه، زيادة على أن اللبن والفواكه ونحوها مال، فأكلها من غير استئذان صاحبها أو من غير تعويضه بعد استئذانه أكل للمال بالباطل.

أما النص الثاني، فهو زيادة على تقريره حق الاستئذان وتأكيده له نص على حالة خاصة تبقى محصورة في حدودها، وهي قد لا تقع إلا في البادية لشخص انقطعت به السبيل، فصار مضطرا، والضرورات تبيح المحظورات[2].

ومع ذلك نص النبي ﷺ على مراعاة الاستئذان، ولو من باب التعبد، حرصا على عدم استحلال حقوق الغير من غير استئذانهم، ففي الحديث تأكيد للاستئذان لا ترخيص في تركه.

استئذان ولي الأمر:

وينص على هذا الآيات الكثيرة التي تحض على وجوب

---

1) رواه أبو داود والترمذي وصححه.

2) من الوجوه التي ذكرها ابن حجر للجمع بين الحديثين:

1. حمل الإذن على ما إذا علم طيب نفس صاحبه، والنهي على ما إذا لم يعلم.

2. تخصيص الإذن بابن السبيل دون غيره، أو بالمطر أو بحال المجاعة مطلقا. انظر: فتح الباري: 5/89.

استئذان رسول الله ﷺ، فرسول الله ﷺ هو ولي أمر المسلمين الأول، ويدخل في طاعته ووجوب استئذانه وجوب استئذان كل ولي أمر للمسلمين في حدود الطاعة الشرعية.

والعلة من ذلك أن لولايات أقيمت رعاية للمصالح وحفاظا عليها، واستئذان من له الولاية في حدود ولايته أمر لا بد منه ؛ لتستقيم الأمور وتحسم الفوضى.

ومن الفروع التي ذكرها الفقهاء لهذا الموضع من مواضع الاستئذان أنه إذا غزا الأمير بالناس، لم يحل لأحد ممن معه أن يخرج من المعسكر ليحضر الزاد والعتاد، ولا أن يبارز أحدا من العدو، ولا أن يحدث حدثا إلا بإذنه ؛ لأن الأمير أعرف بحال الناس، وحال العدو، ومكامنهم ومواضعهم وقربهم وبعدهم، فإذا خرج خارج بغير إذنه لم يأمن أن يصادف كمينا للعدو أو طليعة لهم فيأخذوه، أو يرحل الأمير بالمسلمين ويتركه فيهلك.

ويدخل في هذا استئذان التلميذ من أستاذه، والعامل من رئيسه، وهكذا في كل المصالح.

ولكن هذا مضبوط بما احتمل الاستئذان فيه وجوها يحتاج إلى ترجيح أحدها من ولي الأمر، أما إذا لم يحتمل هذه الوجوه، فإن الاستئذان فيه قد يكون حراما، بل كبيرة من الكبائر.

ولهذا ذم الله تعالى بعض المستأذنين الذين يستأذنون فيما لا ينبغي الاستئذان فيه، قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة: 43)، ثم أخبر أن هذا النوع من الاستئذان لا يطلبه المؤمنون، قال تعالى: ﴿ لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة:44)، وإنما يفعله من خلا قلبه من الإيمان، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (التوبة:45)

ولهذا عوقب هؤلاء بان لا يصحبوا رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ

بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (التوبة:83)

وهذا النوع من الاستئذان يصدق على من يزور لولي الأمر ما لا حقيقة له، من أنواع البهتان ليأخذ بذلك ما لا يحق له أخذه من عطلة أو منفعة ونحوها.

استئذان الأبوين:

وهو يدخل فيما سبق، فالأبوان هما من أولياء أمور الإنسان، فلذلك كان من احترامهما استئذانهما في أي شيء قد يكرهانه، برا بهما، ومراعاة لحقهما.

وبناء على هذا، فإنه لو أراد الولد أن يخرج، لما يخاف عليه الهلاك منه، كخروجه إلى غزو غير مفروض عليه عينا، أو أراد الخروج لما لا يخشى عليه الهلاك منه، ولكن يخشى عليهما الضيعة، كمن أراد الخروج إلى الحج وأبواه معسران ونفقتهما عليه، وليس عنده من المال ما يفي بنفقة الحج - من الزاد والراحلة - ونفقتهما، وكما إذا أراد الخروج لطلب العلم في بلدة أخرى، أو للتجارة، وخاف على والديه الضيعة، فليس له أن يخرج إلا بإذنهما.

ويدل على هذا من النصوص:

1. جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوي يبكيان، فقال ﷺ ارجع فأضحكهما كما أبكيتهما)[1]

2. عن عبد الله بن عمرو : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله أجاهد؟ فقال: ألك أبوان؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد)

أما إن كان العمل لا بد له منه، كافتراضه عليه فرض عين فلا يشترط استئذانهما لعمله، كما في حالة الجهاد، إذا هجم العدو على بلد من بلاد المسلمين، فإنه يخرج لدفعه بغير إذن أبيه.

---

1) رواه أبو داود والنسائي.

2 ـ آداب التحية

تعتبر التحية من أهم ما يوثق المـودة بين أفـراد المجتمـع، فلذلك قال ﷺ:(والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حـتى تؤمنـوا ولا تؤمنــوا حــتى تحــابوا أفلا أدلكم على شــيء إذا فعلتمــوه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)(1)

بل اعتبر ﷺ إفشاء السلام من دلائل خيرية المسـلم، فقـد روي أن رجلا سأل رسول الله ﷺ:أي الإسلام خير؟ قـال:(تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)(2)

وقد نص على هـذا الأدب قولـه تعـالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ (النساء:86)،ـ وقـال تعـالى: ﴿ فَـإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتـاً فَسَـلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ (النور:61)

بل أخبر تعالى بـأن هـذا الأدب العظيم هـو أدب المؤمـنين جميعا، على أحقاب التاريخ، ومهما اختلفت أجناسهم، فقد أخـبر تعالى عن دخول الملائكة على إبـراهيم ﷺ، فقـال تعـالى: ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَـلاماً قَـالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُـونَ﴾ (الحجـر:52)، وقال تعـالى: ﴿ إِذْ دَخَلُـوا عَلَيْـهِ فَقَـالُوا سَـلاماً قَـالَ سَـلامٌ قَـوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ (الذريات:25)

وقبل ذلـك، أخـبر ﷺ عن تحيـة آدم ﷺ والملائكـة ــ عليهم السلام ـ قال ﷺ:(خلق الله آدم طوله ستون ذراعا، فلمـا خلقـه قـال لـه: اذهب فسـلم على أولئـك النفـر من الملائكـة جلـوس فاستمع ما يحيونك به فإنها تحيتك وتحية ذريتـك فقـال: السـلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله فـزادوه ورحمـة اللـه) (3)

وأخبر تعالى عن تحية المؤمنين في الجنة ومـا يحـييهم بـه

---

1) رواه أبو داود.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه البخاري ومسلم.

الله، وما تحييهم به الملائكة، فقال تعالى: ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس:10)، وقال تعالى: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد:24)، وقال تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ (ابراهيم:23)، وقال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ (الأحزاب:44)

انطلاقا من هذه النصوص المبينة لقيمة التحية وأثرها، جاءت النصوص والأحكام الشرعية الكثيرة التي تنفذ هذا الأمر وتحقق مقاصده، وسنتناول هذه الأحكام على طريقة الفقهاء في تناول المسائل الفقهية، فلا فرق بين أحكام العبادات والمعاملات وهذه الأحكام.

أ ـ أحكام التحية

أول التفاصيل التي ينبغي على المسلم تعلمها نحو هذا الأدب هو التعرف على تفاصيل الأحكام المتعلقة بإفشاء السلام، من البدء بالسلام، ورده، ومن يبدأ بالسلام، والسلام عند مفارقة المجلس، كما سنفصله فيما يلي:

حكم البدء بالسلام:

اختلف الفقهاء في حكم البدء بالسلام على قولين:

القول الأول: أن الابتداء بالسلام واجب، وهو قول الحنفية، وهو رواية عن أحمد وقول مقابل للمشهور عند المالكية، ومن الأدلة على ذلك:

1. قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ (النور:61)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ (النساء: 86)

2. قوله ﷺ:(للمسلم على المسلم ست بالمعروف: يسلم عليه إذا لقيه، ويجيبه إذا دعاه، ويشمته إذا عطس، ويعوده إذا

مرض، ويتبع جنازته ويحب له ما يحب لنفسه)[1]

3. عن البراء بن عازب قال: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار القسم)[2]

4. قال رسول الله ﷺ:(لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)[3]

5. قال رسول الله ﷺ يقول:(يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام)[4]

6. قال رسول الله ﷺ:(يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، ويجزئ عن الجلوس أن يرد أحدهم)[5]

القول الثاني: أن السلام سنة مستحبة، وليس بواجب. وهو سنة على الكفاية إن كان المسلمون جماعة بحيث يكفي سلام واحد منهم، ولو سلموا كلهم كان أفضل، وهو قول المالكية والشافعية والحنابلة، ومن الأدلة على ذلك: نفس الأدلة السابقة حملوها على الندب.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو القول الأول بناء عى ظاهر قول البراء بن عازب قال: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر

---

1) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه مسلم.

4) رواه الدارمي والترمذي وقال: حديث صحيح.

5) رواه أبو داود عن علي.

الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار القسم)[6]، لأن الأصل في الأمر حمله على الوجوب.

زيادة على النصوص الدالة على أن هذا من حقوق المسلم على أخيه، زيادة على أن الإيذاء يتحقق إن مر المسلم على أخيه دون أن يلقي عليه السلام.

لكن هذا الأمر ـ فيما نرى ـ خاص بمن يعرفه المؤمن، أو دخوله إلى محل، أو ذهابه إلى جماعة، ونحو ذلك، لا عام لجميع الناس للحرج الشديد بالتكليف بالسلام على كل من يمر به.

ويدل على هذ التفريق بين من يعرف المؤمن أو لا يعرف ما روي عن عبد الله بن عمرو أن رجلا سأل النبي ﷺ:(أي الإسلام خير؟)، قال:(تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف)، فقوله:(أي الإسلام خير؟) دليل على أن هذا من المستحبات لا من الواجبات.

وقد نص الماوردي على أنه إذا مشى في السوق أو الشوارع المطروقة كثيرا ونحو ذلك مما يكثر فيه المتلاقون أن السلام هنا إنما يكون لبعض الناس دون بعض، لأنه لو سلم على كل من لقي لتشاغل به عن كل منهم، ولخرج به عن العرف.

ومن العلل التي قد يعتل بها البعض هنا خشية أن لا يرد عليه لانشغال من ألقي عليهالسلام أو تكبره، وقد رد النووي على هذه العلة بقوله:(إذا مرّ على واحد أو أكثر وغلبَ على ظنه أنه إذا سلَّم لا يردّ عليه، إما لتكبّر الممرور عليه، وإما لإِهماله المارّ أو السلام، وإما لغير ذلك، فينبغي أن يُسلِّم ولا يتركه لهذا الظنّ، فإنّ السلامَ مأمورٌ به، والذي أُمِرَ به المارّ أن يُسلّم ولم يؤمر بأن يحصل الردّ مع أن الممرور عليه قد يُخطىء الظنّ فيه ويردّ)

ورد على من قال بغير ذلك بقوله:(وأما قول مَن لا تحقيق عنده: إن سلامَ المارّ سبب لحصول الإِثم في حقّ الممرور عليه

---

[6] رواه البخاري ومسلم.

فهو جهالة ظاهرة وغباوة بيِّنة، فإن المأمورات الشرعية لا تسقط عن المأمور بها بمثل هذه الخيالات، ولو نظرنا إلى هذا الخيال الفاسد لتركنا إنكار المنكر على مَن فعله جاهلاً كونه منكراً، وغلب على ظننا أنه لا ينزجر بقولنا، فإن إنكارنا عليه وتعريفنا له قبحه يكون سبباً لإِثمه إذا لم يقلع عنه، ولا شكّ في أنَّا لا نترك الإِنكار بمثل هذا، ونظائر هذا كثيرة معروفة)

وهو يرى في نفس الوقت أنه يُستحبّ لمن سلّم على إنسان وأسمعه سلامه وتوجّه عليه الردّ بشروطه فلم يرد؛ أن يحلِّله من ذلك فيقول:(أبرأته من حقّي في ردّ السلام)، أو جعلتُه في حِلٍّ منه ونحو ذلك، ويلفظ بهذا، فإنه يسقط به حقّ هذا الآدمي.

ولسنا ندري ما الذي استدل به على هذا النوع من الاستحلال، لأنه إن كان ترك من ترك الرد بسبب الكبر، فإن الاستحلال لا يجدي معه شيئا، والاثم واقع عليه لا محالة.

وإن كان تركه تشاغلا بأمر مهم شرعي، كما سنرى، أو بسبب عدم سماعه، فلا حاجة للاستحلال كذلك، لأنه لا إثم عليه، حتى يستحل له.

ولا نرى سبا غير هذين السببين.

حكم رد السلام:

اتفق الفقهاء على أن رد السلام واجب، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ (النساء:86)، فقد أمر الله تعالى برد التحية.

واتفقوا على أنه إن كان المسلم عليه واحدا تعين عليه الرد، أما إن كانوا جماعة، فقد اختلفوا في نوع وجوب الرد، هل هو واجب عيني على كل واحد منهم، أو هو فرض كفاية عليهم، على قولين:

القول الأول: هو فرض كفاية عليهم، فإن رد واحد منهم سقط الحرج عن الباقين، وإن تركوه كلهم أثموا كلهم، وإن

ردوا كلهم فهو النهاية في الكمال والفضيلة، فلـو رد غـيرهم لم يسقط الرد عنهم، بل يجب عليهم أن يردوا، فإن اقتصـروا على رد ذلك الأجنبي أثموا، وهو قـول مالـك والشـافعي، ومن الأدلـة على ذلك:

1. أن النبي ﷺ قال:(يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، ويجزئ عن الجلوس أن يرد أحـدهم)(1)، وهـذا نص في موضع الخلاف.

2. أن رسول اللـه ﷺقـال: (يسـلم الـراكب على الماشـي وإذا سلم واحـد من القـوم أجـزأ عنهم)(2)، وهـذا يـدل على أن الواحد يكفي في الرد؛ لأنه لا يقال أجزأ عنهم إلا فيما قد وجب.

3. ما أجمعوا عليه من أن الواحد يسـلم على الجماعـة ولا يحتاج إلى تكريره على عـداد الجماعـة، كـذلك يـرد الواحـد عن الجماعة وينوب عن الباقين كفروض الكفاية.

القول الثاني: رد السـلام من الفـروض المتعينـة، وهـو قـول الكوفـيين، حـتى قـال قتـادة والحسـن: إن المصـلي يـرد السلام كلاما إذا سلم عليه ولا يقطع ذلك عليه صلاته؛ لأنه فعـل مـا أمـر بـه، ومن الأدلـة على ذلـك أن السـلام خلاف الـرد؛ لأن الابتداء به تطوع ورده فريضـة، ولـو رد غـير المسـلم عليهم لم يسقط ذلك عنهم فرض الرد، فدل على أن رد السلام يلزم كـل إنسان بعينه.

الترجيح:

نرى أن الرجح في المسألة هو القول الأول، لا لما ورد فيه من الحـديث، فقـد تكلم فيـه، وإنمـا لتناسـب هـذا مـع مقاصـد الشـرع من رفـع الحـرج في مثـل هـذه الأمـور، زيـادة على أن المسلم يرفع عنه الأذى رد بعض من يسلم عليه.

من يبدأ بالسلام:

---

1) رواه أبو داود.

2) رواه مالك.

اتفـق الفقهـاء على أن الـراكب يسـلم على الماشـي، والماشـي على القاعـد، والقليـل على الكثـير، والصـغير على الكبير.

وذلـك لمـا ورد في الحـديث من قولـه ﷺ:(يسـلم الـراكب على الماشي والماشـي على القاعـد والقليـل على الكثـير)[1]، وفي رواية زيادة (الصغير على الكبير)[2]

ويجوز أن يخـالف ذلـك من غـير كراهـة، فيسـلم الماشـي على الراكب، أو الجالس عليهما، والكثـير على القليـل، والكبـير على الصغير، ابتداء، وذلك لأن من سـن لهمـا البـدء قـد يغفـل، فيسبقه الآخر بالسلام.

وإنمـا ذكـر رسـول اللـه ﷺ مـا ذكـر من بـاب تنظيم آداب العلاقات الاجتماعية، حتى يعرف كل واحد ما ينبغي أن يفعله.

وقد نص الفقهاء على أن هذا خاص فيمـا لـو تلاقى الاثنـان في طريـق، أمـا إذا ورد على قعـود أو قاعـد، فـإن الـوارد يبـدأ بالسلام على كل حال، سواء كان صغيرا أو كـان كبـيرا، قليلا أو كثيرا.

وقد نص الفقهاء على كراهة تخصيص طائفة بالسـلام دون غيرهم؛ لأن القصد من السلام المؤانسة والألفة، وفي تخصـيص البعض إيحاش للباقين، وربما صار سببا للعداوة، وهذه العلة قد لا يكتفى فيها بمجرد الكراهة، فإذية المسـلم حـرام يعرفـه أو لا يعرفه.

السلام عند مفارقة المجلس:

كما يكون السلام في بداية اللقـاء، فإنـه يكـون عنـد إرادة التفرق، قال ﷺ:(إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم، فإن بـدا لــه أن يجلس فليجلس، ثم إذا قــام فليســلم، فليســت الأولى بأحق من الآخرة)[3]

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري.

3) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم .

بل ورد ما هو أكبر من ذلك، فقد قـال ﷺ:(إذا لقي أحـدكم أخاه فليسلم عليه، فإن حالت بينهمـا شـجرة أو جـدار أو حجـر، ثم لقيه، فليسلم عليه)[1]

وقـد كـان هـذا هـدي الصـحابة، قـال أنس :(كـان أصـحاب رسول الله ﷺ يتماشون، فإذا استقبلتهم شجرةٌ أو أكمةٌ، تفرقوا يميناً وشمالاً، وإذا التقوا من ورائهـا، سـلم بعضـهم على بعضٍ)، وعن نـافع قـال: كنت أسـاير رجلا من فقهـاء الشـام يقـال لـه عبدالله بن زكريا فحبستني دابـتي تبـول، ثم أدركتـه ولم أسـلم عليه؛ فقال: ألا تسلم؟ فقلت: إنما كنت معـك آنفـا؛ فقـال: وإن صح؛ لقد كان أصحاب رسـول اللـه ﷺ يتسـايرون فيفـرق بينهم الشجر فإذا التقوا سلم بعضهم على بعض.

ب ـ من يلقى عليه السلام

وهـو الـركن الثـاني من الأركـان الـتي ينبغي تعلمهـا من مسائل التحية، فقد يلقى السـلام في غـير المواضـع الـتي أمـر فيها بالسلام، وقد يكون في ذلك إحراج للمسـلم عليـه، فلـذلك تحتاج هذه المسائل إلى هذا الضبط الشرعي:

السلام على المنشغل:

وهـو من انشـغل بوظيفـة من الوظـائف الـتي تمنعـه من إجابة السلام، أو يكون في إجابته انصراف عما هو بشـأنه، ومن الأمثلة التي ذكرها الفقهاء لهذا:

السـلام على المـؤذن والمقيم: نص أكـثر الفقهـاء على كراهة السلام على المشتغل بالآذان والإقامة، لأن الفصـل بين جمل الأذان مكروهة، ولو كان ذلك الفصل إشارة كما ذهب إلى ذلك المالكية، خلافا للشافعية، فقد نصـوا على أن لـه الـرد بالإشارة.

وذهب الحنابلة إلى أنـه لا يسـن السـلام على من يـؤذن أو يقيم، ولا يجب عليه الرد، بـل يجـوز بـالكلام ولا يبطـل الأذان أو

---

1) رواه أبو داود وابن ماجة والبيهقي .

الإقامة.

ومن هذا الباب نصوا على أنه يكره السلام على الملبي بحج أو عمرة لنفس العلة.

السلام على المصلي ورده السلام: ويختلف حكم ذلك بحسب إلقاء السلام أو رده، كما يلي:

إلقاء السلام على المصلي: اختلف الفقهاء في حكم السلام على المنشغل بالصلاة على قولين:

القول الأول: السلام على المصلي سنة، وهو قول المالكية، بناء على قولهم في حكم السلام.

القول الثاني: السلام على المصلي جائز، وهو قول عند الحنابلة، فقد سئل أحمد عن الرجل يدخل على القوم وهم يصلون أيسلم عليهم؟ قال: نعم.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو أن للمصلي من الشغل بصلاته ما يمنعه من الانشغال بالسلام، فلذلك نرى كراهة السلام عليه، لأنه في أقل أحواله قد يخرجه عما هو فيه من الانشغال بالصلاة.

رد السلام من المصلي: اختلف الفقهاء في حكم رد السلام من المصلي على أقوال مختلفة قد يجمعها هذا القولان:

القول الأول: أن لا يرد السلام بلسانه ؛ لأنه كلام، ولا بيده ؛ لأنه سلام معنى، حتى لو صافح بنية التسليم تفسد صلاته، وهو قول الحنفية، وقد ذكروا أن رد المصلي السلام بالإشارة مكروه وبالمصافحة مفسد[1].

وقريب منه قول الشافعية، فقد قالوا بعدم وجوب الرد

---

1) وقد نصوا على أن المصلي لا يلزمه رد السلام لفظا بعد الفراغ من الصلاة، بل يرد في نفسه في رواية عن أبي حنيفة. في رواية أخرى عنه أنه يرد بعد الفراغ، إلا أن أبا جعفر قال: تأويله إذا لم يعلم أنه في الصلاة. وعند محمد يرد بعد الفراغ، وعن أبي يوسف لا يرد، لا قبل الفراغ ولا بعده في نفسه.

عليه، ومثلهم الحنابلة فقد ذهبوا إلى أن رد المصلي السلام بالكلام عمدا يبطل الصلاة، أما رد المصلي السلام بالإشارة فهو مشروع عندهم.

القول الثاني: أن المصلي لا يرد السلام باللفظ، فإن رد عمدا أو جهلا بطل، ورده باللفظ سهوا يقتضي سجود السهو، بل يجب عليه أن يرد السلام بالإشارة، وهو قول المالكية، بل ذهبوا إلى أنه يجوز ابتداء المصلي السلام على غيره، وهو في الصلاة بالإشارة بيد أو رأس، ولا يلزمه السجود لذلك.

الترجيح:

نرى أن الفقهاء اختلفوا في هذه المسألة بناء على تعارض فرضين: الصلاة والسلام، فذهب بعضهم إلى الجمع بينهما كما نص المالكية، وذهب البعض إلى تقديم فرض الصلاة.

ونرى تقديم فرض الصلاة ــ هنا ــ لأن لكل وقت عبادته الخاصة به، والرد بالإشارة شاغل عن الصلاة، فلذلك نرى الأولى عدم فعله إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطرارا.

السلام على المنشغل بالقراءة والذكر: نص الفقهاء على أن الأولى ترك السلام على المنشغل بقراءة القرآن، فإن سلم كفاه الرد بالإشارة، وإن رد باللفظ استأنف الاستعاذة ثم يقرأ(1).

ومثل ذلك السلام على المنشغل بالذكر من دعاء وتدبر ونحوه، لأنه كالسلام على المنشغل بالقراءة، بل إن الأظهر ـ كما ذكر النووي ـ أنه إن كان مستغرقا بالدعاء مجمع القلب عليه فالسلام عليه مكروه، للمشقة التي تلحقه من الرد، والتي تقطعه عن الاستغراق بالدعاء، وهي أكثر من المشقة التي تلحق الآكل إذا سلم عليه ورد في حال أكله.

أما السلام في حال خطبة الجمعة فيكره الابتداء به لأنهم مأمورون بالإنصات للخطبة، فإن سلم لم يردوا عليه لتقصيره،

---

1) واختار النووي أنه يسلم عليه، ويجب عليه الرد لفظا.

وقيل: إن كان الإنصات واجبا لم يرد عليه، وإن كان سنة رد عليه، ولا يرد عليه أكثر من واحد على كل وجه.

السلام على المنشغل بالأكل: نص الفقهاء على أنه لا يسلم على من كان منشغلا بالأكل واللقمة في فمه، فإن سلم لم يستحق الجواب، أما إذا سلم عليه بعد البلع أو قبل وضع اللقمة في فمه فلا يتوجه المنع ويجب الجواب، ويسلم في حال البيع وسائر المعاملات ويجب الجواب.

السلام على قاضي الحاجة: ومثله من كان مع أهله أو في في الحمام أو والنائم أو والغائب خلف جدار، وقد نص الفقهاء على كراهة التسليم على هؤلاء، فإذا سلم عليهم لم يستحق الجواب، أما حكم الرد منهم فهو الكراهة من قاضي الحاجة والمجامع، وأما من في الحمام فيستحب له الرد.

السلام على الصبي:

اتفق الفقهاء على مشروعية السلام على الصبيان، واختلفوا في مدى هذه المشروعية، فنص الحنفية على أن السلام على الصبي أفضل من تركه، وذهب المالكية إلى أنه مشروع، وذكر الشافعية والحنابلة أنه سنة.

ومما يدل على ذلك من النصوص ما روي عن أنس أنه مر على صبيان، فسلم عليهم، وقال: كان النبي ﷺ يفعله(1).

واتفقوا على أن جواب السلام من الصبي غير واجب ؛ لعدم تكليفه، وقد سبق في مواضع كثيرة ذكر أدلة ذلك.

واختلفوا فيما لو أجاب صبي السلام بدل الجماعة، هل يسقط رد السلام برده عن الباقين أم لا على

القول الأول: يسقط رد السلام برده عن الباقين إن كان عاقلا، وهو قول الحنفية ؛ وهو قول الأجهوري من المالكية والشاشي من الشافعية، ومن الأدلة على ذلك:

1. أنه من أهل الفرض في الجملة، بدليل حل ذبيحته مع

---

1) رواه البخاري ومسلم.

أن التسمية فيها فرض عندهم.

2. القياس على أذانه للرجال.

القـول الثـاني: عـدم سـقوط فـرض رد السـلام عن الجماعـة بـرد الصـبي، وهـو الأصـح عنـد الشـافعية، وبـه قطـع القاضي والمتولي من الشافعية.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو التورع في المسـألة، وإن كان الظاهر هـو صـحة الاكتفـاء بسـلامه خاصـة إن كـان ممـيزا عاقلا،كما ذهب إلى ذلك الحنفية.

أما من حيث الأدلة، فهي متكافئة في هذه المسـألة، ذلـك ما جعل صاحب الفواكه الـدواني من المالكيـة يقـول:(ولنـا فيـه وقفة ؛ لأن الـرد فـرض على البـالغين، ورد الصـبي غـير فـرض عليه فكيـف يكفي عن الفـرض الـواجب على المكلفين؟ فلعـل الأظهر عدم الاكتفاء برده عن البالغين)[1]

السلام على النساء:

اتفق الفقهاء على أن سـلام المـرأة على المـرأة لـه نفس حكم سـلام الرجـل على الرجـل، ورد السـلام من المـرأة على مثلها كالرد من الرجل على سلام الرجل.

أما سلام الرجل على المرأة ؛ فيختلف بحسب علاقتها بها، وكونها محل فتنة أو لا، كما يلي:

1 ـ إن كانت تلـك المـرأة زوجـة أو من المحـارم فسـلامه عليها سنة، ورد السـلام منهـا عليـه واجب، بـل يسـن أن يسـلم الرجل على أهل بيته ومحارمه،

2 ـ إن كانت تلك المرأة أجنبية، فإن كانت عجوزا أو امرأة لا تشتهى، أو أمن الفتنة فالسلام عليها سـنة، ورد السـلام منهـا على من سلم عليها لفظا واجب، ومما يـدل على ذلـك مـا روي

---

1) الفواكه الدواني: 2/323.

عن سهل بن سعد قال:(كانت لنا عجوز ترسل إلي بضاعة نخل بالمدينة فتأخذ من أصول السلق فتطرحه في قدر، وتكركر(1) حبات من شعير، فإذا صلينا الجمعة انصرفنا ونسلم عليها فتقدمه إلينا)(2)

3 ـ ومثل ذلك سلام الرجل على جماعة النساء، بدليل ما روي عن أسماء بنت يزيد قالت:(مر علينا رسول الله ﷺ في نسوة فسلم علينا)(3)

4 ـ أما إن كانت تلك المرأة شابة يخشى الافتتان بها، أو يخشى افتتانها هي أيضا بمن سلم عليها فقد اختلف الفقهاء ف ذلك على قولين:

القول الأول: كراهة السلام عليها وجواب السلام، وهو قول المالكية والشافعية والحنابلة، وقريب منه قول الحنفية، فقد نصوا على أن الرجل يرد على سلام المرأة في نفسه إن سلمت هي عليه، وترد هي أيضا في نفسها إن سلم هو عليها.

القول الثاني: حرمة ردها عليه، وهو قول الشافعية.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو ترك السلام عند خشية الفتنة، ولكنه إذا ما سلمت عليه يرد السلام جهرا، حتى لا يحصل في ذلك أي حرج على من سلمت عليه، خاصة إن كان ممن يقتدى به، لأن تركه الرد قد يكون فيه من الفتنة ما هو أخطر من الفتنة التي خشي منها.

السلام على الفساق:

نص أكثر الفقهاء على كراهة السلام على من يجاهر بالفسق أو البدعة ردعا له وتحذيرا من فسوقه، ومن النصوص

---

1) تكركر أي: تطحن.

2) رواه البخاري.

3) رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن.

الدالة على ذلك ما ورد في قصة كعب بن مالك حين تخلف عن غزوة تبوك هو ورفيقان له فقال: ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، قال: وكنت آتي رسول الله ﷺ، فأسلم عليه فأقول:(هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟)(1)

وروي عن عبد الله بن عمرو قال:(لا تسلموا على شراب الخمر)(2)

ونرى أن هذا الحكم لا ينبغي أن يكون مطلقا، فقد يكون في إلقاء السلام عليه تألفيا لقلبه أو دفعا لشره، وقد روي عن عائشة قالت جاء مخرمة بن نوفل فلما سمع رسول الله ﷺ صوته قال: بئس أخو العشيرة، فلما دخل أدناه وبش به حتى خرج، فلما خرج قلت: يا رسول الله قلت له وهو على الباب: ما قلت فلما دخل بششت به حتى خرج؟ قال: أعهدتني فحاشا؟ إن شر الناس من يتقى شره(3).

وقد نص على هذا الاعتبار النووي، فقال:(فإن اضطر إلى السلام على الظلمة، بأن دخل عليهم وخاف ترتب مفسدة في دينه أو دنياه أو غيرهما إن لم يسلم سلم عليهم)

وذكر عن أبي بكر بن العربي أنه يسلم وينوي أن السلام اسم من أسماء الله تعالى، فيكون المعنى الله عليكم رقيب.

وقال أبو داود: قلت لأحمد: أمر بالقوم يتقاذفون أسلم عليهم؟ قال هؤلاء قوم سفهاء، والسلام اسم من أسماء الله تعالى، قلت لأحمد: أسلم على المخنث؟ قال لا أدري السلام اسم من أسماء الله عز جل.

السلام على الكفار غير المحاربين:

اختلف الفقهاء في حكم السلام على الكفار من غير المحاربين على الأقوال التالية:

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري في الأدب المفرد.

3) رواه ابن عساكر.

القول الأول: كراهة السلام عليهم، وهو مذهب أكثر الفقهاء، على اختلاف منهم في بعض الفروع، فنص الحنفية على أن السلام على أهل الذمة مكروه، ولا بأس أن يسلم على الذمي إن كانت له عنده حاجة ؛ لأن السلام حينئذ لأجل الحاجة لا لتعظيمه، ويجوز أن يقول: السلام على من اتبع الهدى، ونص المالكية على أن ابتداء اليهود والنصارى وسائر فرق الضلال بالسلام مكروه ؛ لأن السلام تحية والكافر ليس من أهلها، ومن الأدلة على ذلك:

1. ما ما ورد من النهي عن تعظيمهم.

2. قوله ﷺ:(لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه)

القول الثاني: يحرم بداءة الذمي بالسلام، وله أن يحييه بغير السلام بأن يقول: هداك الله أو أنعم الله صباحك إن كانت له عنده حاجة، وإلا فلا يبتدئه بشيء من الإكرام أصلا ؛ وهو قول أكثر الشافعية، قال النووي في الأذكار:(اختلف أصحابنا في أهل الذمة، فقطع الأكثرون بأنه لا يجوز ابتداؤهم بالسلام، وقال آخرون ليس هو بحرام بل هو مكروه)

وقريب من هذا قول الحنابلة، فقد نصوا على أن بداءة أهل الذمة بالسلام لا تجوز بلفظ السلام أو بغيره، قال أبو داود: قلت لأبي عبد الله: تكره أن يقول الرجل للذمي كيف أصبحت؟ أو كيف حالك؟ أو كيف أنت؟ أو نحو هذا؟ قال: نعم هذا عندي أكثر من السلام.

واستدلوا على ذلك بأن في ذلك بسط له وإيناس وإظهار ود، وقد قال الله تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (المجادلة:22)

القول الثالث: أنه يجوز ابتداؤه بالسلام، ولكن يقتصر المسلم على قوله: السلام عليك ولا يذكره بلفظ الجمع، وقد حكاه الماوردي وجها لبعض الشافعية، ووصفه النووي بأنه شاذ، وذكر الحنفية أنه لو قال للذمي:(أطال الله بقاءك جاز) إن نوى أنه يطيله ليسلم أو ليؤدي الجزية لأنه دعاء بالإسلام وإلا فلا

يجوز.

الترجيح:

نـرى أن الأرجح في المسـألة هـو تحيتهم بمـا يحيـون بـه أنفسـهم من غـير تحيـة الإسـلام، من بـاب تـأليف قلـوبهم على الإسلام، ويمكن أن يسلم عليهم بالأسلوب الذي سلم به رسول الله ﷺ:(السلام على من اتبع الهدى) إلا إذا كـان في ذلـك إذيـة لهم أو حرجا، فيتركه إلى التحيـات الـتي يتعارفونهـا فيمـا بينهم بشرط أن لا تكون مما يحمل طابعا دينيا يخصهم.

أمـا الحـديث الـذي ذكـره أصـحاب القـول الأول، فلا نـرى عمومـه كـل أهـل الذمـة، بـل قـد يكـون خاصـا بمن يـؤثر في إصلاحهم مثل ذلك الأسلوب.

ويدل على هذا أن أسلوب الرسول ﷺ مع أهل الكتاب، بل مع المشركين أنفسهم، فقد كان يختلف عن هذا اختلافا شديدا، بحيث كان يؤلف قلوبهم بكل أساليب التأليف.

حكم الاستقالة من السلام:

اختلف الفقهاء في حكم الاستقالة، وهي أن يقـول للكـافر الذي سلم عليه:(رد سلامي الذي سلمته عليك ؛ لأني لـو علمت أنك كافر ما سلمت عليك) على قولين:

القول الأول: يسـتحب إن سـلم على من يظنـه مسـلما فبان ذميا أن يستقيله بـأن يقـول لـه: رد سـلامي الـذي سـلمته عليك، وهو قول الشافعية والحنابلة، لما روي عن ابن عمـر أنـه مر على رجل فسلم عليـه فقيـل: إنـه كـافر فقـال: رد علي مـا سلمت عليك فرد عليه، فقال أكثر الله مالك وولـدك، ثم التفت إلى أصحابه فقال: أكثر للجزية.

القول الثاني: لا يستقيله، وهو قول المالكية.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو القول الثاني، أما فعل ابن عمر، فلا يمثل سماحة الشريعة، بل هو يخالف ما أمرنـا بـه من

تأليف قلوب غير المسلمين.

رد السلام على الكفار:

اختلف الفقهاء في حكم رد السلام على الكفار على قولين:

القول الأول: لا بأس به، وهو قول الحنفية، وهو جائز أيضا عند المالكية ولا يجب إلا إذا تحقق المسلم من لفظ السلام من الذمي.

القول الثاني: هو واجب، وهو قول الشافعية والحنابلة، وقد نقل النفراوي عن الأجهوري قوله:(إن تحقق المسلم أن الذمي نطق بالسلام بفتح السين، فالظاهر أنه يجب الرد عليه ؛ لاحتمال أن يقصد به الدعاء)

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو القول الثاني لأمر الله تعالى برد التحية مطلقا، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ (النساء:86)، وقد قال ابن عباس :(من سلّم عليك من خلق اللّه فاردد عليه، وإن كان مجوسياً ذلك بأن اللّه يقول، وذكر الآية السابقة)[1]

كيفية الرد على سلام الكفار:

اختلف الفقهاء في كيفية الرد على من سلم من الكفار على قولين:

القول الأول: يقتصر في الرد على قوله: وعليكم، بالواو والجمع، أو وعليك بالواو دون الجمع، وهو قول الحنفية والشافعية والحنابلة، ومن الأدلة على ذلك:

1. عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:(إذا سلم عليكم أهل

---

[1] رواه ابن ابي حاتم.

الكتاب فقولوا عليكم(2)(3)

2. عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال:(إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليكم فقل وعليك)(3)

القول الثاني: يقول في الرد: عليك، بغير واو بالإفراد أو الجمع، وهو قول المالكية، ومن الأدلة على ذلك ما روي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:(إن اليهود إذا سلموا عليكم يقول أحدهم السام عليكم فقل عليك)، وفي رواية أخرى له قال:(عليكم) بالجمع وبغير واو.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة أن هذا خاص بما لو تحقق من أنهم قالوا هذا الكلام، أما لو سلموا بسلام المسلمين العادي، فإنه يجوز الرد عليهم بما يرد به على المسلمين، وهو اختيار ابن القيم، قال:(هذا كله إذا تحقق أنه قال: السام عليكم، أو شك فيما قال، فلو تحقق السامع أن الذمي قال له: (سلام عليكم) لا شك فيه، فهل له أن يقول: وعليك السلام، أو يقتصر على قوله: وعليك؟ فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يقال له: وعليك السلام، فإن هذا من باب العدل، والله يأمر بالعدل والإحسان، وقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ (النساء:86)) (4)

وقد رد على ما قد يتوهم مع تعارض هذا مع النصوص السابقة، فقال:(فندب إلى الفضل، وأوجب العدل، ولا ينافي هذا شيئا من أحاديث الباب بوجه ما، فإنه ﷺ إنما أمر بالاقتصار

---

2) قال الخطابي: عامة المحدثين يروون هذا الحديث، فقولوا: وعليكم، بإثبات واو العطف، وكان ابن عيينة يرويه بغير واو. وهو الصواب، لأنه إذا حذف الواو صار قولهم الذي قالوه بعينه مردودا عليهم خاصة، وإذا أثبت الواو وقع الاشتراك معهم فيما قالوه؛ لأن الواو تجمع بين الشيئين. النهاية [2/427]

3) رواه ابن حبان.

3) رواه أبو داود والترمذي.

4) أحكام أهل الذمة:426.

على قول الراد (وعليكم)، بناء على السبب المذكور الذي كـانوا يعتمدونه في تحيتهم، وأشار إليـه في حـديث عائشـة،فقـال:(ألا ترينـني قلت: وعليكم، لمـا قـالوا: السـام عليكم)، ثم قـال:(إذا سلم عليكم أهل الكتـاب فقولـوا: وعليكم)، والاعتبـار وإن كـان لعموم اللفـظ فإنمـا يعتـبر عمومـه في نظـير المـذكور لا فيمـا يخالفه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَـا لَمْ يُحَيِّكَ بِـهِ اللَّهُ﴾ (المجادلة:8)، فإذا زال هذا السبب وقال الكتابي:(سـلام عليكم ورحمـة اللـه، فالعـدل في التحيـة يقتضـي أن يـرد عليـه نظـير سلامه)

ج ـ صيغة السلام

اتفق الفقهاء على أن التحية الشرعية التي ورد الأمـر بهـا، وورد الأمر بالرد عليها هي تحية الإسلام التي ورد النص عليها لا تحية أي عرف من الأعراف.

وبنـاء على هـذا اتفقـوا على أن التحيـة بغـير السـلام للمسلم، كنحو: صبحك الله بالخير، أو السعادة، أو طاب حماك، أو قواك الله، من الألفاظ الـتي يسـتعملها النـاس في العـادة لا أصل لها، ولا يجب الرد على قائلها، لكن لو دعا له مقابـل ذلـك كان حسنا.

واتفقوا على أن الرد على من حيا بغير السلام غير واجب، سـواء أكـانت تحيتـه بلفـظ، أم بإشـارة بالإصـبع، أو الكـف أو الرأس، إلا إشارة الأخرس أو الأصـم، فيجب الـرد بالإشـارة مـع اللفظ، ليحصل به الإفهام، لأن إشارته قائمة مقام العبارة.

واتفقوا على أن الرد بغير السلام على من ألقى السـلام لا يجـزئ، ولا يسـقط الـرد الـواجب، لأنـه يجب أن يكـون بالمثـل، لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ (النساء:86)

وهذا لأن الإسلام جـاء بهـذه التحيـة كشـعيرة من شـعائره وعبادة من عباداته، فلا يصح إبدالها بغيرها.

فقد كان من عادة العرب قبل الاسلام أنه إذا لقي بعضـهم

بعضا أن يقولوا:(حياك الله)[1]، فلما جاء الاسلام أبدل ذلك بالسلام، فجعلوا التحية اسما للسلام[2]. قال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَـٰمٌ ﴾(الأحزاب: 44)

وهذا الاختيار الإلهي الذي ميز به المؤمنين هو أرفع الاختيارات وأعلاها وأكملها، فلا يمكن لأي تحية أن تقارن مع تحية الإسلام.

وقد بين الفخر الرازي وجوها من تفضيل السلام الإسلامي على تحية الجاهلية، ومثلها يمكن تطبيقها على التحيات المعاصرة التي تطرح نفسها بدائل عن تحية الإسلام، ومن الوجوه التي ذكرها:

الوجه الأول: أن الحي إذا كان سليما كان حيا لا محالة، وليس إذا كان حياً كان سليما، فقد تكون حياته مقرونة بالآفات والبليات، فثبت أن قوله: السلام عليك أتم وأكمل من قوله: حياك الله.

الوجه الثاني: أن السلام اسم من أسماء الله تعالى، فالابتداء بذكر الله أو بصفة من صفاته الدالة على أنه يريد ابقاء السلامة على عباده أكمل من قوله: حياك الله.

الوجه الثالث: أن قول الانسان لغيره: السلام عليك فيه بشارة بالسلامة، وقوله: حياك الله لا يفيد ذلك، فكان هذا أكمل.

زيادة على هذا، فإن السلام شعار من شعارات هذا الدين، ومقصد كبير من مقاصده، فقد ذكر الله تعالى سلامه على

---

1) واشتقاقه من الحياة كأنه يدعو له بالحياة.

2) اختلف العلماء في معنى السلام على قولين:

القول الأول: هو اسم من أسماء الله تعالى، فقوله السلام عليك، أي اسم السلام عليك، ومعناه اسم الله عليك أي أنت في حفظه كما يقال الله يصحبك والله معك، وهو نص أحمد في رواية أبي داود.

القول الثاني: السلام بمعنى السلامة أي السلامة ملازمة لك، وهو قول الجمهور، وهو الظاهر.

عباده الصالحين في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل:59)، وقال تعالى: ﴿ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات:181)

بل سلم عليهم بأسمائهم، قال تعالى: ﴿ سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (الصافات:79)، وقال تعالى: ﴿ سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات:109)، وقال تعالى: ﴿ سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الصافات:120)، وقال تعالى: ﴿ سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ (الصافات:130)

وقد اعتبر ابن الحاج إبدال السلام من البدع التي انحرف بها المجتمع الإسلامي عما ميز به من لدن سلفه الأول، قال: (وقد ورد في السلام من الفضل والترغيب ما هو مشهور معروف كفى به أنه اسم من أسماء الله تعالى ينطقون به على ألسنتهم على سبيل الامتثال والتشريع فيكون بسببه من الذاكرين، وقد ورد في الحديث الصحيح إخبارا عن رب العزة عز وجل يقول:(من ذكرني ذكرته وأنا جليس من ذكرني) فيحصل لهم هذا الخير العظيم والنعمة الشاملة، والغالب أن السلام المشروع إذ ذاك بيننا متروك، وكذلك المصافحة، فإن وقع منا السلام كان قولنا (صبحك الله بالخير مساك الله بالخير يوم مبارك ليلة مباركة) وذلك كله من البدع والحوادث)[1]

بل إنه أنكر ذلك، واعتبره من البدع حتى لو كان دعاء، قال:(وإن كان دعاء والدعاء كله حسن لكن إذا لم يصادم سنة كان مباحا أو مندوبا بحسب الواقع والنية، وأما إن صادم سنة فلا يختلفون في منعه ؛ لأن علماءنا ــ رحمة الله عليهم ــ قد اختلفوا في البدع هل تمنع مطلقا، وهو مذهب مالك وأكثر أهل العلم أو لا تمنع إلا إذا عارضت السنن، وهو مذهب الشافعي ومن تبعه، وهذا من القسم الذي عارض سنة ؛ لأنه ترك السلام الشرعي بسببه وأحل القيام والدعاء محله، ولا قائل به من المسلمين، فإن قال العالم مثلا أنا أفعل ذلك بعد السلام فجوابه أن العوام يقتدون به في البدع وهم لا يعرفون السنة

1) المدخل: 1/160.

فيظنون أن تلك هي السنة التي ارتكبوها)(1)

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أنه يجوز أن يقول (كيف أمسيت كيف أصبحت؟) بدلا من السلام، واستدل لذلك بما روي أن رسول الله ﷺ قال لأصحاب الصفة:(كيف أصبحتم؟)(2)، وبما روي عن جابر قلت:(كيف أصبحت يا رسول الله؟) قال:(بخير من رجل لم يصبح صائما ولم يعد سقيما)(3)

وقد استدل بعض الحنابلة لهذا بقول الإمام أحمد لصدقة وهم في جنازة:(يا أبا محمد كيف أمسيت؟) فقال له:(مساك الله بالخير)، وبقوله للمروذي وقت السحر:(كيف أصبحت يا أبا بكر؟)، وقال: إن أهل مكة يقولون إذا مضى من الليل يريد بعد النوم كيف أصبحت؟ فقال له المروذي: صبحك الله بخير يا أبا عبد الله، وقد ترجم الخلال لهذا بـ (قوله في السلام كيف أصبحت)

ولا نرى صحة هذا، فليس فيما ذكروا أي دليل على صحة استبدال السلام بأي تحية أخرى، أما ما ذكر عن أحمد، فهو ليس مصدرا من مصادر الشريعة.

أما الأحاديث التي ذكروها فهي مع عدم نهوضها للاستدلال يحتمل أن رسول الله ﷺ قال لهم ذلك بعد أن سلم عليهم، بدليل ما روي من حديث أبي أسيد الساعدي أنه ﷺ دخل على العباس فقال: السلام عليكم قالوا وعليك السلام ورحمة الله وبركاته قال: كيف أصبحتم؟ قالوا بخير نحمد الله، كيف أصبحت بأبينا وأمنا أنت يا رسول الله قال: أصبحت بخير أحمد الله(4).

بعد هذا التنبيه إلى أهمية الاقتصار على ما ورد في الشرع

---

1) المدخل: 1/160.

2) رواه عبد الله بن أحمد عن الحسن مرسلا.

3) رواه ابن ماجة،.

4) رواه ابن ماجه.

من هيئة التحية، وكيفيتها نذكر هنا بعض ما نص عليه الفقهاء من آداب تتعلق بصيغتها:

الرد بأحسن منها:

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أو ردوها﴾ (النساء:86)، أي إذا سلم عليكم أحد فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم، وهذا يدل على أن الزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة.

ومما ورد في صيغة الزيادة وفضلها ما روي عن سلمان الفارسي، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول اللّه، فقال:(وعليك السلام ورحمة اللّه)، ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول اللّه ورحمة اللّه؛ فقال له رسول اللّه ﷺ:(وعليك السلام ورحمة اللّه وبركاته)، ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول اللّه ورحمة اللّه وبركاته، فقال له: (وعليك) فقال له الرجل: يا نبي اللّه بأبي أنت وأمي: أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهم أكثر مما رددت علي؟ فقال: (إنك لم تدع لنا شيئاً، قال اللّه تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ (النساء:86) فرددناها عليك)، قال ابن كثير:(وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة (السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته)، إذا لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول اللّه ﷺ)[1]

مما ورد في فضل الزيادة، ما وري عن عمران بن حصين أن رجلا جاء إلى رسول اللّه ﷺ فقال: السلام عليكم يا رسول اللّه، فرد عليه ثم جلس، فقال:(عشر)، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة اللّه يا رسول اللّه فرد عليه ثم جلس فقال:(عشرون)، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته فرد عليه، ثم جلس فقال:(ثلاثون)[2]

السلام بصيغة الجماعة:

---

1) ابن كثير: 1/532.

2) رواه أحمد، والنسائي.

نص الفقهاء على أنه ينبغي أن يكون السلام كله بلفظ الجماعة، وإن كان المسلم عليه واحدا، وقد علل إبراهيم النخعي ذلك، فقال:(إذا سلمت على الواحد فقل: السلام عليكم، فإن معه الملائكة)

ومثل ذلك في الجواب، فإنه يكون بلفظ الجمع؛ قال ابن أبي زيد:(يقول المسلم: السلام عليكم، ويقول الراد: وعليكم السلام)

تعريف السلام:

ورد اسلام في القرآن الكريم معرفا ومنكرا، فمن التنكير مثلا قوله تعالى عن نوح: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا ﴾ (هود: 48) وقال عن الخليل: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ (مريم: 47) وقال في قصة لوط: ﴿ قَالُواْ سَلَٰماً قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ (هود: 69) وقال عن يحيى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ ﴾ وقال عن محمد ﷺ: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ﴾ (النمل: 59)، وقال عن الملائكة: ﴿ وَالمَلَٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ﴾ (الرعد: 23 ـ 24)،وقال عن رب العزة:﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ (يس: 58) وقال: ﴿ فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾

ومن التعريف قوله تعالى عن موسى ﵇: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ (طـه:47)، وقال عن عيسى ﵇: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ (مريم: 33)

وقد اتفق الفقهاء على أنه لا يصح التحليل من الصلاة إلا معرفا، واختلفوا في سائر المواضع، هل التنكير أفضل أم التعريف؟

القول الأول: التنكير أفضل، وقد ذكره الفخر الرازي، واستدل له بالوجوه التالية:

1. أن لفظ السلام على سبيل التنكير كثير في القرآن

فكان أفضل.

2. أن كل ما ورد من اللـه والملائكـة والمؤمـنين فقـد ورد بلفظ التنكير كما سبق ذكره.

3. أن ما ورد بالألف واللام فانمـا ورد في تسـليم الانسـان على نفسـه، كمـا قـال موسـى ﵇: ﴿ وَٱلسَّلَٰـمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُـدَىٰ ﴾ (طـه: 47) وقـال عيسـى ﵇: ﴿ وَٱلسَّلَٰـمُ عَلَىَّ ﴾ (مريم: 33)

4. أن لفظ السلام بالألف واللام يـدل على أصـل الماهيـة، والتنكير يدل على أصل الماهية مـع وصـف الكمـال، فكـان هـذا أولى.

القول الثاني: التعريف أفضل، وهو قول الجمهور، ومن الأدلة على ذلك: كل ما ورد في النصوص من صيغ السلام، ممـا سبق ذكره.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو القول الثاني بنــاء على أن صـيغة السـلام تعبديـة لا مجـال فيهـا للاجتهـاد، فلـذلك لا يمكن اقتباس مـا ورد فيهـا من القـرآن الكـريم لعـدم النص على أنـه المراد من التحية.

ثم كيف نرجح صيغة من صيغ السلام نرى رسـول اللـه ﷺ يخالفها إلى غيرها، ففهم رسـول اللـه ﷺ أعمـق، وعلمـه بـذلك أعظم.

رفع الصوت به قدر الإبلاغ:

لأن الغرض من التحية سماعها، فلذلك كـان الـواجب فيهـا رفع الصوت بها قدر الإبلاغ سواء إفشاء أو ردا.

وقد ذكر القرطبي في ذلك حديثا، فقال: روي أن النبي ﷺ قـال:(إذا سـلمتم فأسـمعوا، وإذا رددتم فأسـمعوا وإذا قعـدتم

فاقعدوا بالأمانة ولا يرفعن بعضكم حديث بعض)(1)

وروى عن عبدالله بن الحارث قال:(إذا سلم الرجل على القوم كان له فضل درجة، فإن لم يردوا عليه ردت عليه الملائكة ولعنتهم. فإذا رد المسلم عليه أسمع جوابه؛ لأنه إذا لم يسمع المسلم لم يكن جوابا له؛ ألا ترى أن المسلم إذا سلم بسلام لم يسمعه المسلم عليه لم يكن ذلك منه سلاما، فكذلك إذا أجاب بجواب لم يسمع منه فليس بجواب)

ولا يتنافى هذا مع ما ورد من حديث قيس بن سعد بن عبادة، قال: زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا فقال: السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد ردا خفيا. قال قيس:فقلت:ألا تأذن لرسول الله ﷺ ؟ فقال:دعه يكثر علينا من السلام. فقال رسول الله ﷺ السلام عليكم ورحمة الله، فرد سعد ردا خفيا، ثم قال رسول الله ﷺ: السلام عليكم ورحمة الله . ثم رجع رسول الله ﷺ وأتبعه سعد فقال:يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام) الحديث(2) الذي استدل به بعضهم على جواز الإسرار حيث اكتفى ﷺ برد سعد هذا حيث لم يأمره برد يسمعه ولم ينكر عليه هذا الرد(3).

ولكن هذا لا يدل على ذلك، لأنه قد بين غرضه من ذلك، فلذلك استحق دعاء رسول الله ﷺ، أما في الحالة العادية، فلا شك في أن السلام لا يؤدي غرضه إن أسره صاحبه ولم يرفع الصوت به.

وحد رفع الصوت أن يسمع غيره من غير إيذاء، وقد ورد في حديث المقداد: أن النبي ﷺ كان يجيء من الليل فيسلم

---

1) القرطبي: 5/303. ولم أجده في المراجع التي اعتمدت عليها في التخريج.

2) رواه أبو داود والنسائي.

3) واستدل كذلك بما روى أحمد عن حارثة بن النعمان قال: مررت على رسول الله ﷺ ومعه جبريل جالس في المقاعد فسلمت عليه ثم أجزت فلما رجعت وأبصرت النبي ﷺ قال: هل رأيت الذي كان معي قلت نعم قال: فإنه جبريل وقد رد عليك السلام)، ولا دلالة فيه كذلك،لأن رسول الله ﷺ أخبره بجواب جبريل عليه السلام.

تسليما لا يوقظ نائما، ويسمع اليقظان)[1]

وبما أن الغرض من السلام هو إبلاغ الغير لينشر المودة، فإنه يشرع لمن سلم على أصم الجمع بين اللفظ والإشارة، فإن لم يجمع لم يجب الجواب، فإن سلم عليه أصم جمع بين اللفظ والإشارة في الرد والجواب، فأما الأخرس فسلامه بالإشارة وكذلك جواب الأخرس.

وقد قال المروذي عن الإمام أحمد: إن أبا عبد الله لما اشتد به المرض كان ربما أذن للناس فيدخلون عليه أفواجا فيسلمون عليه فيرد عليهم بيده.

3 ـ آداب الزيارة والضيافة

من أهم ما يظهر السلوك الحضاري الرفيع للمسلم هو آدابه الرفيعة التي يظهرها عند زيارته لغيره، أو عند زيارة غير له.

وقد جاءت النصوص الكثيرة تبين آداب هذه الزيارة، لترفع عنها ثقل أخلاق الجاهلية وكثافة طبعها، بل وردت في بعض المواضع بصيغة العتاب المتشدد، لما في الزيارة الثقيلة من أذى شديد يصيب المسلم، يدعوه الحياء لتحمله، فتكفل الله تعالى برحمته برفع مسبب هذا الحياء، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب:53)

فالآية الكريمة تتضمن آدابا لم تكن تعرفها الجاهلية في دخول البيوت، فقد كان الناس يدخلون البيوت بلا إذن من أصحابها - كما ذكرنا لك في الأحكام الخاصة بالاستئذان ـ وكان بعضهم يدخل وحين يرى طعاما يوقد عليه يجلس في انتظار نضج هذا الطعام ليأكل بدون دعوة إلى الطعام، وكان بعضهم

---

1) رواه مسلم.

يجلس بعد الطعام - سواء كان قد دعي إليه أو هجم هو عليه دون دعوة - ويأخذ في الحديث والسمر غير شاعر بما يسببه هذا من إزعاج.

والآية الكريمة تعبر عن تأذي رسول الله ﷺ، ولكنها في الحقيقة ـ ومن باب أولى ـ تعبر عن كل مؤمن، لأن رسول الله ﷺ وهو صاحب الخلق العظيم، يتأذى من مثل هذه التصرفات، فكيف بغيره؟ ولهذا قال وقال حماد بن زيد:(هذه الآية نزلت في الثقلاء)، وقال إسماعيل بن أبي حكيم:(هو أدب أدب الله به الثقلاء)، وقال ابن أبي عائشة:(حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم)

انطلاقا من هذا التأديب الرباني، فإن هناك الكثيرمن الآداب التي حض الشرع على مراعاتها سواء عند الزيارة أو عند الاستضافة، تنفي الثقل، وترفع الأذى، نجمع مجامعها فيما يلي:

مقاصد الزيارة

تنطلق الآداب الشرعية جميعا من تحديد المقاصد والأهداف، لأن أي تصرف يخلو من المقصد تصرف عبثي، لا ينتج عنه أي مصلحة، بل قد تنتج عنه المضرة الشخصية والمتعدية.

ومن تحديد المقصد تتجلى الآداب، لأن لكل مقصده آدابه الخاصة به، قال النووي:(يستحب - للمسلم - استحبابا متاكدا زيارة الصالحين، والإخوان، والجيرا ن، والأصد قاء، وا لأ قا رب، وإكرامهم، وبرهم، وصلتهم، وضبط ذلك يختلف باختلاف أحوالهم ومراتبهم وفراغهم، وينبغي أن تكون زيارته لهم على وجه لا يكرهونه، وفي وقت يرتضونه)

وسنذكر هنا بعض الأمثلة عن مقاصد الزيارة وآدابها لتكون نماذج لغيرها:

زيارة الصالحين:

من الإخوان والعلماء والمربين وغيرهم ممن التزم بالشرع

ودعا له، وهي سنة من السنن العظيمة التي وردت النصوص مخبرة عن عظيم فضلها.

ومن ذلك قوله ﷺ:(أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى فأرصد الله - تعالى - على مدرجته ملكا فلما أتى عليه، قال أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحبه في الله - تعالى - قال: فإني رسول الله إليك بأن الله - تعالى - قد أحبك كما أحببته فيه)(1)، وقال ﷺ:(من عاد مريضا أو زار أخا له في الله - تعالى - ناداه مناديان طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلا)(2)

ويستحب أن يطلب من صاحبه الصالح أن يزوره، وأن يزوره أكثر من زيارته، لحديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام:(ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟)، فنزلت: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ (مريم: 64))(3)

أما مقاصد هذا النوع من الزيارة، فيفصله ابن الحاج بقوله في فصل خصصه لزيارة الأولياء والصالحين:(وينبغي له أن لا يخلي نفسه من زيارة الأولياء، والصالحين الذين برؤيتهم يحيي الله القلوب الميتة كما يحيي الأرض بوابل المطر، فتنشرح بهم الصدور الصلبة، وتهون برؤيتهم الأمور الصعبة إذ هم وقوف على باب الكريم المنان فلا يرد قاصدهم، ولا يخيب مجالسهم، ولا معارفهم، ولا محبهم إذ هم باب الله المفتوح لعباده، ومن كان كذلك فتتعين المبادرة إلى رؤيتهم، واغتنام بركتهم ؛ ولأنه برؤية بعض هؤلاء يحصل له من الفهم، والحفظ، وغيرهما ما قد يعجز الواصف عن وصفه، ولأجل هذا المعنى ترى كثيرا ممن اتصف بما ذكر له البركة العظيمة في علمه، وفي حاله، فلا يخلي نفسه من هذا الخير العظيم)(4)

---

1) رواه مسلم.

2) رواه الترمذي.

3) رواه البخاري.

والأوليـاء الـذين يشـير إليهم ابن الحـاج هنـا هم الأوليـاء الحريصون على الهدي النبوي المتـأدبون بآدابـه، لا من انحـرف عنه، قال مستدركا على كلامه السـابق:(لكن بشـرط أن يكـون محافظا على اتباع السنة في ذلك كله فليحذر أن يزور أحدا من أهـل البـدع، وممن لا خطـر لـه في الـدين إلا بالتمويـه، وبعض الإشارات، والعبارات)

ويــذكرعن بعض الأدعيــاء في عصــره ممن يكــثر النــاس زيارتهم، مع أنه لا حظ لهم من الدين ولا الخلق قال:(مع أنه قد قل في هذا الزمان من يضـطر إلى ذلـك من المـدعين بـل قـد تجد بعض من ينتسب إلى العلم يقعد بين يـدي بعض من يـدعي الفقر والولاية، وهو مكشوف العورة، وقـد تـذهب عليـه أوقـات الصلاة، وهو لم يصل، ويعتـذرون عنـه بأنـه يحـزب على نفسـه. وقد رأيت بعض الفقـراء الصـلحاء رحـل إلى زيـارة شـخص من هذا الجنس نحو ثلاثة أيام، أو أربعة حتى اجتمع به، وهـو عريـان ليس عليه شيء يستره، وبين يديه بعض قضاة البلد، ورؤسائها، وهـذا أمــر شــنيع في الــدين، وقلــة حيــاء من عمــل الــذنوب، وارتكاب مخالفة السـنة، وتـرك الفـرائض إذ أن كشـف العـورة محرم، وكـذلك النظـر إليهـا، وإخـراج الصـلاة عن وقتهـا محـرم اتفاقا فيرتكبون محرمات جمـة، وهـذا إنمـا هـو تمثيـل مـا، وإلا فالمفاسد التي تعتورهم في ذلك أكـثر من أن تحصـر، أو ترجـع إلى قانون معروف في الغالب)(1)

وحكي عن بعض السلف أنه أثني عنـده على شـخص كـان في وقته فخرج هو، ومن أثنى عليه إلى زيارتـه، ودخلا المسـجد الذي كان يصلي فيه فلم يجداه فجلسا ينتظرانـه فلمـا أن جـاء، ودخل المسجد تنخم، وبصق فيه، فخرج هذا السـيد، ولم يسـلم عليه، وخرج معه الشخص الـذي كـان أثـنى عليـه فقـال لـه: لم خرجت، ولم تسلم عليه فقال له: إذا كان إنسان لم يأتمنه اللــه تعالى على أدب من آداب الشريعة فكيف يأتمنـه على سـر من أسراره.

---

4) المدخل: 2/139.

1) المدخل: 2/139.

والأدب في هـذا النـوع من الزيـارات الاسـتفادة من هـذا الصـالح وطلب دعائـه والتمـاس نصـحه وتوجيهـه والأخـذ من سمته.

عيادة المريض:

وهي من حقـوق المسـلم على أخيـه، وقـد وردت الآثـار الكثيرة في فضلها، قال ﷺ:(إن المسلم إذا عـاد أخـاه المسـلم، لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجـع، قيـل يـا رسـول اللـه، ومـا خرفة الجنة؟ قال: جناها)[1]، وقال ﷺ:(من عاد مريضا لم يزلـه يخوض في الرحمة حتى يجلس، فإذا جلس اغتمس فيها)[2]

ومن الآداب التي ذكرها الشيخ عبـد الفتـاح أبـو غـدة لهـذا النوع من الزيارة:

1. أن يكون عائد المريض نقي الثوب، طيب الرائحة طيب نظافة، لتنشرح نفسه وتنتعش صحته، ولا يحسن أن يدخل إليـه بملابس الزينة والأفراح، كما لا يحسـن أن يكـون متطيبـا بطيب شديد الرائحة، فقد يزعج المريض ويؤذيه، لضعف تحملـه ووهن قوته.

2. أن لا يخبر المريض أويتحدث عنده بمـا يغمـه، من خـبر تجارة خسرت له فيها سبب أو صلة، أوذكـر ميت، أوخـبر رديء لمريض، أو نحو ذلك مما يكدر المـريض أو يحزنـه أو يـؤثر على صحته أو شعوره.

3. أن لا يستخبر عن مرض المريض استخبار متقص، فـإن ذلك التقصي من العائـد لاينفـع المـريض إلا أن يكـون طبيبـا لـه اختصاص بمرضه.

4. أن لا يشيرعلى المريض بدواء ولا بغذاء قـد كـان نفعـه هو، أوسمع بأنه نافع، فإن ذلك ربما حمـل المـريض - بجهلـه أو لشدة ما به - أن يستعمله، فيضر به ويفسد على الطبيب عمله،

---

1) رواه مسلم وغيره.

2) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

وربما كان ذلك سببا لهلاك المريض.

5. أن لا يعارض الطبيب بحضرة المـريض، إذا لم يكن من أهـل العلم والاختصـاص، فيوقـع للمـريض الشـك فيمـا وصـفه الطبيب.

6. أن لا يطيــل الجلــوس عنــده، لأن لــه من الحــالات المرضية الخاصة مـا لا يسـمح بإطالـة الجلـوس عنـده، فعيـادة المريض كجلسة الخطيب(1)، وقد قـال ابن عبـد البـر:(ومن زار صـحيحا، أو عـاد مريضـا، فليجلس حيث يـأمره، فـالمرء أعلم بعورة منزلـه. وعيـادة المـريض سـنة مؤكـدة، وأفضـل العيـادة أخفها. ولا يطيل العائذ الجلوس عند العليل، إلا أن يكون صـديقا يأنس به،ويسره ذلك منه)

زيارة الأقارب:

وهي من صلة الرحم التي ورد التشـديد في الحض عليهـا، قـال تعـالى: ﴿ وَاعْبُـدُوا اللَّهَ وَلا تُشْـرِكُوا بِـهِ شَـيْئاً وَبِالْوَالِـدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَـامَى وَالْمَسَـاكِينِ وَالْجَـارِ ذِي الْقُـرْبَى وَالْجَــارِ الْجُنُبِ وَالصَّــاحِبِ بِــالْجَنْبِ وَابْنِ السَّــبِيلِ وَمَــا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ (النساء: 36)

وفي الحديث قال ﷺ:(من كـان يـؤمن باللـه واليـوم الآخـر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)(2)

وفي التشديد في قطع الرحم، قال ﷺ:(إن اللَّه تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائـذ بـك من القطيعـة. قـال: نعم أمـا ترضـين أن أصـل من وصـلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذلك لك)، ثم قال رَسُول اللَّهِ ﷺ:(اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَـوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِـدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَـامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَـمَّهُمْ

1) يعنون جلسة الخطيب يوم الجمعة بين الخطبتين في قصرها وخفتها.

2) رواه البخاري ومسلم.

وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (محمد:22 ـ 23)) [1]

وقد انتشر في واقعنا أن الزيارة بين الأقارب لا تكون إلا بالمكافأة، فمن زير زار، ومن قطع قطع، وقد أرشد ﷺ إلى خلاف هذا، فقال:(ليس الواصل بالمكافيء، ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها)[2]

وجاءه رجل، فقال: يا رَسُول اللَّهِ إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي. فقال:(لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل[3]، ولا يزال معك من اللّه ظهير عليهم ما دمت على ذلك)[4]

آداب الزيارة

تتفق جميع أنواع الزيارات السابقة، وغيرها في هذه الآداب التي سنسوقها هنا باختصار، فمن آداب الزيارة:

تحديد الموعد:

أول الآداب وأهمها هو تحديد موعد الزيارة، حتى لا يفاجأ المزور بالزائر من غير استعداد لذلك، فيحرجه أو يمنعه من عمل يلزمه، وربما لا يصلح هذا الأدب في عصرنا إلا لمن لديه وسائل الاتصال التي يتمكن منها من إخبار المزور بزيارته.

ولكن ما ذكره السلف يشير إلى هذا، فقد اتفقوا على أن للمزور أن يرد زائره إن لم يكن مستعدا لاستقباله، كما قال تعالى: وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (النور:28)

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه أحمد والبخاري وأبو داود.

3) أي كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن إليهم لكن ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه وإدخالهم الأذى عليه.

4) رواه مسلم.

يقـول عبـد الفتـاح أبـو غـدة:(إذا زرت أحـد إخوانـك دون موعد، أوعلى موعد سابق منه، فاعتـذر لـك عن قبـول زيارتـك له، فاعذره، فإنه أدرى بحال بيته وملابسـات شـأنه، فقـد يكـون جد لديه مانع من الموانـع الخاصـة، أوحصـل عنـده من الحـرج: مالايسمح له باستقبالك وقتئذ، فله أن يعتذر لك تحرج)

وممـا يتعلـق بهـذا الأدب مـا نص عليـه بقولـه:(وينبغي أن تتخير الوقت الملائم للزيارة، وأن تجلس المـدة المناسـبة الـتي تتلاقى مع مقامك عنـد المـزور، ومـع الحـال الـتي هوعليهـا، فلا تطـل، ولا تثقـل، ولا تـأت في وقت غـير ملائم لزيارتـه، كـوقت الطعام أوالنوم أوالراحة أو ا لسكون)

ويقول الغـزالي:(أمـا الـدخول فليس من السـنة أن يقصـد قوماً متربصاً لـوقت طعـامهم فيـدخل عليهم وقت الأكـل، فـإن ذلك من المفاجأة، وقد نهي عنه)(1)

ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ (الأحـزاب: 53)ـ أي غير متحينين نضجه واستواءه، أي لا ترقبوا الطعـام إذا طبخ حتى إذا قارب الاستواء تعرضـتم للـدخول، فـإن هـذا ممـا يكرهه اللّه ويذمه.

يقول الغزالي:(ولكن حق الداخل إذا لم يـتربص واتفـق أن صادفهم على طعام أن لا يأكل مـا لم يـؤذن لـه، فـإذا قيـل لـه: كُـلْ. نظــر فــإن علم أنهم يقولونــه على محبــة لمسـاعدته فليساعد، وإن كانوا يقولونـه حيـاء منـه فلا ينبغي أن يأكـل، بـل ينبغي أن يتعلل، أما إذا كان جائعاً فقصـد بعض إخوانـه ليطعمـه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به)(2)

مراعاة النظافة والنظام:

فليس من الأدب أن يــدخل الزائــر بيت المــزور بحــذاء متسخ، أو هيئة رثة، فمن الآداب التي ذكرها الشيخ عبد الفتـاح:

---

1) إحياء علوم الدين:2/9.

2) رواه مسلم.

(عندما تزور بيت أخيك - أو تدخل بيتك – كن لطيفاً في مدخلك ومخرجك، غاضا طرفك وصوتك، واخلع حذاءك في محله، وصف نعليك أثناء خلعهما، ولاتدعهما هكذا وهكذا.. وقبل الدخول إلى بيتك أو بيت أخيك انظر في نعليك، فإذا رأيت فيهما شيئا من آثار الطريق فامطه عنهما، وادلكهما في الأرض لينزاح عنهما ما علق بهما، فإن الإسلام دين النظافة واللطافة)

ومن الأدب المرتبط بهذا أن لا ينازع الزائر مزوره المحل المخصص له، قال ﷺ:(لا يؤمّن الرجل الرجل في سلطانه[1]، ولا يقعد في بيته على تكرمته[2] إلا بإذنه)[3]

ومن العلل في هذا الأدب ما ذكره الشيخ عبد الفتاح بقوله:(لا تنازع مضيفك أو أخاك في المكان الذي يجلسك فيه من منزله، بل لاتجلس إلا حيث يجلسك، فلعلك - إن جلست كما تريد- تجلس إلى مكان فيه إطلال على عورة من عورات الدار، أو فيه إحراج لساكنيها، فعليك بامتثال ما يأمرك به مضيفك، واقبل ما يكرمك به أيضاً)

ومن الآداب التي تحقق هذا المعنى ما ذكره الشيخ بقوله: (إذا دخلت بيت أخيك أو صديقك، وأقعدك فيه، أوأنامك فيه، فلا تتفقده ببصرك تفقد الفاحص الممحص، بل غض بصرك في أثناء قعودك أومنامك فيه، قاصرا نظرك على ما تحتاج إليه فحسب، ولا تفتح مغلقا من خزانة، أو صندوق، أو محفظة، أو صرة ملفوفة، أو شىء مستور، فإن هذا خلاف أدب الإسلام والأمانة التي خولك بها أخو ك أو محبك ذخول بيته والمقام عنده، فاعرف لزيارتك آدابها، واسلك لحسن المعاشرة أبوابها، تزداد عند مضيفك حبا وأدبا، والله تعالى يرعاك ويتولاك)

ومنها ما ذكره الغزالي، وهو يتحدث عن آداب الضيافة، قال:(أدبه أن يدخل الدار ولا يتصدّر فيأخذ أحسن الأماكن بل

---

1) أي منزله ومكان سلطته.

2) التكرمة: الموضع الخاص لجلوس صاحب البيت من فراش أو سرير أو نحوهما.

3) رواه مسلم.

يتواضع ولا يطوّل الانتظار عليهم ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة، بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه البتة فإنه قد يكون رتب في نفسه موضع كل واحد فمخالفته تشوّش عليه، وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراماً فليتواضع، ولا ينبغي أن يجلس في مقابلة باب الحجرة الذي للنساء وسترهم) (1)

خفة الزيارة:

وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في أول هذا المطلب، بل عن كل الآداب تسعى لنفي الثقل عن الزيارة، ونحب أن ننبه هنا مستدكين على ما ذكرنا من أن ذلك ليس على العموم، فإن من الأخوان من لا يستشعر بثقله مهما فعل، وهو ما عبر عنه تعالى بقوله: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ (النور:61)

يقول الغزالي مبينا حدود ذلك:(فإن دخل ولم يجد صاحب الدار وكان واثقاً بصداقته عالماً بفرحه إذا أكل من طعامه فله أن يأكل بغير إذنه، إذ المراد من الإذن الرضا لا سيما في الأطعمة وأمرها على السعة، فرب رجل يصرح بالإذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه، وربّ غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب)(2)

ويروي عن محمد بن واسع وأصحابه أنهم كانوا يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون بغير إذن، وكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسر به ويقول: هكذا كنا.

وروى عن الحسن أنه كان قائماً يأكل من متاع بقال في

---

1) إحياء علوم الدين: 2/15.

2) إحياء علوم الدين: 2/10.

السوق يأخذ من هذه الجونة تينة ومن هذه قسبة، فقال له هشام: ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع تأكل متاع الرجل بغير إذنه؟ فقال: يا لكع اتل عليَّ آية الأكل فتلا إلى قوله تعالى: أَوْ صَدِيقِكُمْ فقال: فمن الصديق يا أبا سعيد؟ قال: من استروحت إليه النفس، واطمأن إليه القلب.

ومشى قوم إلى منزل سفيان الثوري فلم يجدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون، فدخل الثوري وجعل يقول: ذكرتموني أخلاق السلف هكذا كانوا.

وزار قوم بعض التابعين ولم يكن عنده ما يقدمه إليهم، فذهب إلى منزل بعض إخوانه فلم يصادفه في المنزل فدخل فنظر إلى قدر قد طبخها وإلى خبز قد خبزه وغير ذلك فحمله كله فقدمه إلى أصحابه وقال: كلوا فجاء رب المنزل فلم ير شيئاً فقيل له: قد أخذ فلان، فقال: قد أحسن، فلما لقيه قال: يا أخي إن عادوا فعد.

آداب الضيافة

وهي القسم المكمل للزيارة، لأن الشخص إما زائر أو مزور، والمزور هو المضيف، وهو الذي تتعلق به هذه الآداب التي سنذكرها باختصار، لأنها لها محلها الخاص.

إكرام الضيف:

وهو ما يشير إليه قوله تعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ إبراهيم المكرمين (الذريات:24 ـ 27)وقوله تعالى: وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (هود:78)، ففي الآية الأولى دليل على إكرام الضيف، وفي الثانية دليل على حمايته.

وقد ورد في السنة التشديد في وجوب إكرامه(1)، قال

---

1) اختلف الفقهاء في حق الضيف: هل هو واجب أو مستحب على قولين:

ﷺ:(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)(1)، وقال ﷺ:(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته)، قالوا: وما جائزته يا رَسُول اللَّهِ؟ قال:(يومه وليلته. والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه)(2)، وفي رواية:(ولا يحل لمسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه) قالوا: يا رَسُول اللَّهِ

القول الأول: أن الضيافة من مكارم الأخلاق، ومحاسن الدين، وليست واجبة، وهو قول الجمهور، ومن الأدلة على ذلك:

1.قوله ﷺ :(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه جائزته، قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة)، فلفظ (جائزته) المذكور في الحديث يدل على الاستحباب فإن الجائزة هي العطية والصلة التي أصلها على الندب، وقلما يُستعمل هذا اللفظ في الواجب.

2.الأحاديث القاضية بحرمة مال المسلم إلا بطيب نفسه.

3.الأحاديث الدالة على أن ليس في المال حق سوى الزكاة.

4.أما الأحاديث الواردة في حق الضيف، فقد قال الخطابي:(إنما كان يلزم ذلك في زمنه ﷺ حيث لم يكن بيت مال، وأما اليوم فأرزاقهم في بيت المال، لا حق لهم في أموال المسلمين) أو أن هذا كان في أول الإسلام، إذ كانت المواساة واجبة، فلما اتسع الإسلام نُسخِ ذلك.

القول الثاني: وجوب الضيافة، وأنها واجبة ليلة واحدة، وهو قول الليث بن سعد، وهو قول ابن حزم، قال:(الضيافة فرض على الحَضَري والبدوي والفقيه والجاهل، يوم وليلة مبرة وإتحاف، ثم ثلاثة أيام ضيافة، ولا مزيد، فإن زاد على ذلك فليس نراه لازمًا، وإن تمادى على قراه فحسن، فإن منع الضيافة الواجبة فله أخذها مغالبة، وكيف أمكنه، ويُقضى له بذلك)، وقد انتصر له الشوكاني، واستدل له بما يلي، زيادة على ما سبق من الأدلة:

1.إباحة العقوبة بأخذ المال لمن ترك ذلك، وهذا لا يكون في غير واجب.

2.التأكيد البالغ بجعل ذلك فرع الإيمان بالله واليوم الآخر، ويفيد أن فعل خلافه فعل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ومعلوم أن فروع الإيمان مأمور بها. ثم تعليق ذلك بالإكرام وهو أخص من الضيافة، فهو دال على لزومها بالأولى.

3.قوله ﷺ:(فما وراء ذلك فهو صدقة) فهو صريح أن ما قبل ذلك غير صدقة، بل واجب شرعًا.

4.قوله ﷺ:(ليلة الضيف حق واجب) فهذا تصريح بالوجوب، لم يأت ما يدل على تأويله.

5.قوله ﷺ:(فإن نصره حق على كل مسلم) فإن ظاهر هذا وجوب النصرة، وذلك فرع وجوب الضيافة.

وكيف يؤثمه؟ قال:(يقيم عند أخيه ولا شيء يقريه به)(1)

ومما يدل على أن هذه النصوص للوجوب، قوله ﷺ لعبد الله بن عمرو :(إنَّ لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا)(2) وقوله ﷺ: (أيما ضيف نزل بقوم فأصبح الضيف محرومًا فله أن يأخذ بقدر قراه ولا حرج عليه)(3)، بل روي أنه ﷺ قال:(أيما رجل أضاف قومًا فأصبح الضيف محرومًا، فإن نصره حق على كل مسلم حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله)(4)

بل ورد في النصوص ما يبين علو أخلاق الصالحين من تقديمهم الضيف على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ (الانسان: 8)

وقد روي من فعل السلف ما بين كرم أخلاقهم وعظيم إيثارهم، فعن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال النبي ﷺ:(من يضيف هذا الليلة؟) فقال رجل من الأنصار: أنا يا رَسُول اللَّهِ. فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته: أكرمي ضيف رَسُول اللَّهِ ﷺ)، وفي رواية قال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني. قال: علليهم بشيء، وإذا أرادوا العشاء فنوميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل. فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين. فلما أصبح غدا

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري واللفظ له، ومسلم وغيرهما.

3) رواه أحمد ورواته ثقات والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

4) رواه أبو داود والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

على النبي ﷺ فقال:(لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة)(1)

ومن هديه ﷺ في إكرام الضيف ما ورد في خبر إسلام عدي بن حاتم الطائي، فقد روي أنه قدم على النبي ﷺ، فأكرمه بالجلوس على وسادة، وجلس رسول الله ﷺ على الأرض، قال عدي: ثم مضى بي رسول الله ﷺ، حتى إذا دخل بيته، تناول وسادة من أدم محشوة ليفا، فقذفها إلي فقال: اجلس على هذه، قلت: بل أنت فاجلس عليها، قال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض.

احترام الضيف:

وهو أمر زائد على مجرد الإكرام، لأنه يدل على الحفاوة به، وعدم الضيق من وجوده، زيادة على ما يبثه في نفسه من المحبة لمضيفه وهي مقصد جليل من مقاصد الشارع، ولهذا قال ﷺ:(والذي نفس محمد بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)(2)

ومن مظاهر احترام الضيف التي ذكرها العلماء أن يقدّم الطست إليه ليغسل، فقد روي أنه اجتمع أنس بن مالك وثابت البناني على طعام فقدّم أنس الطست إليه فامتنع ثابت فقال أنس:(إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها فإنما يكرم الله عز وجل)

ومنها أن لا يبتدىء بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل إلا أن يكون هو المتبوع والمقتدى به، فحينئذ ينبغي أن لا يطول عليهم الانتظار إذا اشرأبوا للأكل واجتمعوا له.

ومنها أن يدعوه للأكل، من غير إلحاح، قال الغزالي:(فإن قلل رفيقه نشطه ورغبه في الأكل وقال له: (كُلْ) ولا يزيد في

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه أحمد والترمذي والضياء.

قوله: (كُلْ) على ثلاث مرات فإن ذلك إلحاح وإفراط)[3]

واستدل لذلك بأن رسول الله ﷺ كان إذا خوطب في شيء ثلاثاً لم يراجع بعد ثلاث، وكان يكرّر الكلام ثلاثاً، (فليس من الأدب الزيادة عليه)

ومن الإلحاح المنهي عنه الحلف عليه بالأكل، قال الحسن بن علي :(الطعام أهون من أن يحلف عليه)

ومنها أن يقدم له الطعام من غير أن يقول له: هل أقدّم لك طعاماً؟ بل ينبغي أن يقدّم إن كان، قال الثوري:(إذا زارك أخوك فلا تقل له: أتأكل؟ أو أقدّم إليك؟ ولكن قدّم فإن أكل وإلا فارفع)

ومنها أن يتعامل مع كل ضيف بما يتناسب معه، قال بعض الصالحين:(إذا دخل عليكم الفقراء فقدموا إليهم طعاماً، وإذا دخل الفقهاء فسلوهم عن مسألة، فإذا دخل القراء فدلوهم على المحراب)

ومنها أن لا يميز الغني بالإِجابة عن الفقير، فذلك هو التكبر المنهي عنه ولأجل ذلك امتنع بعضهم عن أصل الإِجابة وقال: انتظار المرقة ذل، وقال آخر: إذا وضعت يدي في قصعة غيري فقد ذلت له رقبتي، ومن المتكبرين ممن يجيب الأغنياء دون الفقراء وهو خلاف السنّة.

ومن أهم مظاهر احترام الضيف أن لا يميز بين غني وفقير، لأنه إن ميز بينهما كان احترامه للمال لا للضيف، فقد كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين.

ومر الحسن بن علي بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على قارعة الطريق وقد نشروا كسراً على الأرض في الرمل، وهم يأكلون وهو على بغلته فسلم عليهم فقالوا له: هلم إلى الغداء يا ابن بنت رسول الله ﷺ فقال:(نعم، إن الله لا يحب المستكبرين)، فنزل وقعد معهم على الأرض وأكل، ثم سلم عليهم وركب وقال: قد أجبتكم فأجيبوني، قالوا: نعم،

---

3) إحياء علوم الدين: 2/7.

فوعدهم وقتاً معلوماً فحضروا فقدّم إليهم فاخر الطعام وجلس يأكل معهم.

الخفة وعدم التكلف:

وهي أصل من أصول هذا الباب يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (صّ: 86)، أي وما أريد على ما أرسلني اللّه تعالى به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته، لا أزيد عليه ولا أنقص منه.

وهذا لا يقتصر فقط على هذا الباب، بل يشمل جميع حياة المسلم، قال مسروق: أتينا عبد اللّه بن مسعود فقال:(يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: اللّه أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: اللّه أعلم، فإن اللّه عزَّ وجلَّ قال لنبيكم ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (صّ:86))[1]، وعن ابن عمر قال: خرج رسول الله ﷺفي بعض أسفاره، فسار ليلا فمروا على رجل جالس عند مقراة له، فقال له عمر: يا صاحب المقراة أولغت السباع الليلة في مقراتك؟ فقال له النبي ﷺ:(يا صاحب المقراة لا تخبره هذا متكلف لها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور)[2]

وهكذا في باب الضيافة، فإن التكلف سواء كان من المضيف او الضيف يضاد مقاصد الشيعة منها، فتتحول من وسيلة للتآلف والتراحم والتكافل إلى وسيلة للقطيعة والبغضاء وجميع الأمراض النفسية.

ولهذا سنذكر هنا بعض ما يرتبط بهذا الأدب من مظاهر:

خفة المضيف: ومن أول مظاهرها ـ كما يذكر الغزالي ـ تقديم ما حضر، فإن لم يحضره شيء ولم يملك، فلا يستقرض لأجل ذلك فيشوش على نفسه، وإن حضره ما هو محتاج إليه

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه الدارقطني.

لقوته ولم تسمح نفسه بالتقديم فلا ينبغي أن يقدم[1].

وينقـل عن بعض السـلف قولـه في تفسـير التكلـف:(أن تطعم أخاك ما لا تأكله أنت بـل تقصـد زيـادة عليـه في الجـودة والقيمة)

وسبب هذا أن التكلف هـو الـذي يجعـل الضـيف ثقيلا على المضيف، بخلاف ما لو قدم ما يمكنه، وقد نبه إلى هذا الفضيل، فقال:(إنما تقاطع الناس بالتكلف يدعو أحدهم أخاه فيتكلف لـه فيقطعه عن الرجوع إليـه)، ولهـذا قـال بعضـهم:(مـا أبـالي بمن أتاني من إخواني فإني لا أتكلف لـه إنمـا أقـرب مـا عنـدي ولـو تكلفت له لكـرهت مجيئـه ومللتـه)، وقـال بعضـهم:(كنت أدخـل على أخ لي فيتكلف لي فقلت له: إنك لا تأكل وحدك هذا ولا أنا فما بالنا إذا اجتمعنا أكلناه؟ فإما أن تقطع هذا التكلف أو أقطـع المجيء، فقطع التكلف ودام اجتماعنا بسببه)

ومن مظاهر التكلف ـ كما يذكر الغزالي ـ أن يقـدم جميـع ما عنده فيجحف بعياله ويؤذي قلـوبهم[2]، ويـروي في ذلـك أن رجلاً دعا علياً فقـال علي:(أجيبـك على ثلاث شـرائط: لا تـدخل من السوق شيئاً، ولا تدخر ما في البـيت، ولا تجحـف بعيالـك)، وكـان بعضـهم يقـدم من كـل مـا في البـيت فلا يـترك نوعـاً إلا ويحضر شيئاً منه.

وهذا لا يتنافى مع ما ذكرنا من إكرام الضيف، لأن الإكـرام لا يكون إلا بالمقـدور عليـه، فـالجود لا يكـون إلا بـالموجود كمـا يقال.

ومن مظـاهر التكلـف أن يـدعو من لا يحب إجابتـه، قـال سفيان:(من دعا أحداً إلى طعام وهو يكره الإِجابة فعليه خطيئـة فإن أجاب المدعو فعليه خطيئتان)

خفة الضيف: ومن أول مظاهرها ـ كمـا يـذكر الغـزالي ـ أن لا يقـترح ولا يتحكم بشـيء بعينـه فربمـا يشـق على المـزور

---

1) إحياء علوم الدين: 2/10.

2) إحياء علوم الدين: 2/10.

إحضاره، فإن خيَّره أخوه بين طعامين فليتخير أيسرهما عليه(1).

وهذا هو هدي رسول الله ﷺ، ففي الحديث:(ما خير رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما)(2)

ويروى من ذلك من هدي السلف عن أبي وائل قال: مضيت مع صاحب لي نزور سلمان فقدم إلينا خبز شعير وملحاً جريشاً، فقال صاحبي: لو كان في هذا الملح سعتر كان أطيب، فخرج سلمان فرهن مطهرته وأخذ سعتراً، فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا. فقال سلمان: لو قنعت بما رزقت لم تكن مطهرتي مرهونة.

وهذا إذا توهم تعذر ذلك على أخيه أو كراهته له، أما إن علم أنه يسر باقتراحه ويتيسر عليه، فلا يكره له الاقتراح، وقد روي أن الشافعي كان نازلاً عند الزعفراني ببغداد، وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويسلمها إلى الجارية، فأخذ الشافعي الرقعة في بعض الأيام وألحق بها لوناً آخر بخطه، فلما رأى الزعفراني ذلك اللون أنكر وقال: ما أمرت بهذا؟ فعرضت عليه الرقعة ملحقاً فيها خط الشافعي فلما وقعت عينه على خطه فرح بذلك وأعتق الجارية سروراً باقتراح الشافعي عليه.

ومن مظاهرها أن لا يحوج مضيفه إلى الإلحاح عليه في الأكل، قال جعفر بن محمد :(أحب إخواني إليَّ أكثرهم أكلاً وأعظمهم لقمة وأثقلهم عليَّ من يحوجني إلى تعهده في الأكل)

وينقل الغزالي في ذلك عن بعض الأدباء قوله:(أحسن الآكلين أكلاً من لا يحوج صاحبه إلى أن يتفقده في الأكل وحمل عن أخيه مؤنة القول)

4 ـ آداب المجالس

1) إحياء علوم الدين: 2/11.

2) رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

والمراد من المجالس كل اجتماع للشخص مع غيره، سواء كـان ذلـك في مدرسـة أو مسـجد أو شـارع، وسـواء كـان ذلـك جلوسا أو مشيا، وسواء كان ذلك بقصد أو بغير قصد.

فكـل اجتمـاع كـثر أفـراده أو قلـوا مجلس من المجـالس ينطبق عليه ما نصت عليه الشريعة من آداب.

وقد أشار إلى هذا النوع من الآداب قوله تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَـحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَـعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُـونَ خَبِـيرٌ﴾ (المجادلـة: 11)

وهذه الآداب لها أهميتها الاجتماعيـة الكـبرى، لأنـه لا يمكن أن يسـتفيد أي إنسـان من غـيره، ولا يمكن لـه أن يفيـده إلا إذا كان ذلك تحت ظلال الأدب الرفيع الذي أرشدنا إليه الإسلام.

ويمكن تقسيم هذه الآداب إلى ثلاثة أنواع، هي:

أ ـ اختيار الجليس

وهو أول الآداب وأهمهـا، وإليـه يشـير قولـه تعـالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُـوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِـيَنَّكَ الشَّـيْطَانُ فَلا تَقْعُـدْ بَعْـدَ الـذِّكْرَى مَـعَ الْقَـوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعـام:68)، ففي الآيــة الكريمــة نهي عن القعود مع هذا الصنف من الناس، وفيه دلالة على وجوب اختيار من يجلس معهم.

وإليه الإشارة كذلك بقوله تعـالى على لسـان الظـالم يـوم القيامة: ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾ (الفرقان:28)

وسر هذا النهي هو أن هذا الجلوس قد يكون سببا لأمــرين خطيرين كلاهما له تأثيره النفسي والاجتماعي:

التأثر بالمنكر:

وهو أول اخطار الجلوس مـع الظـالمين، وذلـك لأن الطبـع يسرق من الطبع، كما قال ﷺ:(المـرء على دين خليلـه، فلينظـر

أحـدكم من يخالـل)[1]، وقـال الإمـام علي :(الصـحبة سـارية والطبيعـة سـارقة) ولـذا قـالوا فيمـا نسـب إلى الإمـام جعفـر الصادق:(احذر عدوك مرة، واحذر صديقك ألف مره)، فقد ذكـر من معانيه أنه لا ينبغي أن يتخذ كل أحد صديقا وخليلا، بـل لا بـد أن يكون له نحو حسن الخلق وحسـن السـيرة والصـلاح وعـدم الحرص على الدنيا، وهذا لا يوجد إلا في واحد من ألف.

وقد قيل:(صحبة الأخيار تورث الخير وصحبة الأشرار تورث الشر، كـالريح إذا مـرت على النتن حملت نتنـا، وإذا مـرت على الطيب حملت طيبا)

وإلى هـذا الإشـارة بقولـه تعـالى على لسـان الظـالم يـوم القيامة: ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً ﴾ (الفرقان:28)

وقد قال ﷺ، وهو يبين أهمية الجليس وتـأثيره في جليسـه: (إنمـا مثـل الجليس الصـالح والجليس السـوء كحامـل المسـك ونافخ الكير، فحامل المسك إمـا أن يحـذيك وإمـا أن تبتـاع منـه وإما أن تجد ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابـك وإمـا أن تجد ريحا خبيثة)[2]

وبين ﷺ مـــا يمكن أن يســتفيده المــؤمن من مجالســته للصالحين، فقد ورد في الحـديث عن ابن عبـاس قـال: قيـل يـا رسول الله؛ أي جلسائنا خير؟ قال:(من ذكركم بالله رؤيته، وزاد في علمكم منطقه، وذكركم بالآخرة عمله)[3]

الإقرار على المنكر:

وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَـا فَـأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُـوا فِي حَـدِيثٍ غَيْـرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُـدْ بَعْـدَ الـذِّكْرَى مَـعَ الْقَـوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام:68)، فأمر الله نبيه بالإعراض عن الـذين يخوضـون في

1) رواه أبو داود والترمذي .

2) رواه مسلم.

3) رواه أبو بكر البزار.

آيات الله بالتكذيب وإظهار الاستخفاف إعراضا يقتضي الإنكار عليهم وإظهار الكراهة لما يكون منهم إلا أن يتركوا ذلك ويخوضوا في حديث غيره.

وذلك لأن في مجالستهم مختارا مع ترك النكير دلالة على الرضا بفعلهم، وقد قال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (المائدة:78)، ثم بين سبب هذا اللعن بقوله تعالى: ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (المائدة:79 ـ 80)

وقد أخبر ﷺ عن كيفية حصول ذلك، فقال:(إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل أول ما يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض) ثم قرأ الآيات السابقة، ثم قال:(كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض وليلعننكم كما لعنهم)[1]

وذلك لأن المجالسة نوع من الركون إلى الجليس، وقد نهانا الله تعالى عن الركون إلى الظالمين، قال تعالى: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ (هود:113)

ولكن هذا مقيد بما ذكرنا، أما إن كان قصده الدعوة لله، أو تغيير المنكر، فلا حرج من الجلوس، بل هو واجب، كما حكى تعالى عن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ــ في حوارهم مع أقوامهم، وكما حكى عن الصاحبين في سورة الكهف، وغيرها من مشاهد الحوار في القرآن الكريم.

1) رواه أبو داود.

وهـذا أيضـا مقيـد منضـبط بمـدى اسـتعدادهم للتلقي والاستفادة، فإن كانوا مستعدين للسماع والتأثر، فإنـه يسـتحب الجلوس معهم للتأثير فيهم، وإن لم يكونوا مستعدين لـذلك، فلا حاجـة للجلـوس معهم، قـال تعـالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ (عبس:1 ـ 10)

ب ـ احترام الجليس

وهـو من أهم آداب المجالسـة، لأن الجليس إن شـعر بالمهانة،أو لم يشعر بما يستحقه من احترام قد يصرفه عن جليسه، فلا يفيده ولا يستفيد منه، فتضيع بذلك أهم مقاصد المجالس.

واحترام الجليس سنة رسول الله ﷺ، فقد كان يكرم جلساءه إكراما لا حدود له، وعن ابن عباس قال:(أعز الناس علي جليسي الذي يتخطى الناس إلي، أما والله إن الذباب يقع عليه فيشق علي)، وسئل:(من أكرم الناس عليك؟ قال: جليسي حتى يفارقني)، وروي عنه قوله:(ثلاثة لا أقدر على مكافأتهم ورابع لا يكافئه عني إلا الله تعالى، فأما الذين لا أقدر على مكافأتهم: فرجل أوسع لي في مجلسه، ورجل سقاني على ظمإ، ورجل أغبرت قدماه في الاختلاف إلى بابي، وأما الرابع الذي لا يكافئه عني إلا الله عز وجل فرجل عرضت له حاجة فظل ساهرا متفكرا بمن ينزل حاجته وأصبح فرآني موضعا لحاجته، فهذا لا يكافئه عني إلا الله عز وجل، وإني لأستحي من الرجل أن يطأ بساطي ثلاثا لا يرى عليه أثرا من أثري)

ومن مظاهر احترام الجليس التي وردت بها النصوص:

أن لا يقام من مجلسه:

لأن من جلس في محل صار حرما له، فلا يقام عنه إلا بإذنه، وبطيب نفس منه، قال ﷺ:(لا يقيم الرجل الرجل من

مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا)(1)، فلفظ الخبر في هذا الحديث في معنى النهي، وقد ورد في رواية أخرى:(لا يقيمن)(2) بصيغة النهي مؤكدا.

وظاهر هذا النص يدل على التحريم، فمن سبق إلى موضع مباح من مسجد أو غيره لصلاة أو غيرها من الطاعات فهو أحق به، ويحرم على غيره أن يقيمه منه إلا لسبب من الأسباب، كما ورد في الحديث الآخر قوله ﷺ:(من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به)(3) أي أنه إذا كان قد سبق فيه حق لأحد بقعوده فيه من مصل أو غيره ثم فارقه لأي حاجة ثم عاد وقد قعد فيه أحد أن له أن يقيمه منه.

وقد بين ابن الحاج التفاصيل المرتبطة بهذا الأدب، فقال: (وينبغي له أيضا أن لا يكون في مجلسه مكان مميز لآحاد الناس بل كل من سبق لموضع فهو أولى به كما هو ذلك مشروع في انتظار الصلاة، ولا يقام أحد من موضعه جبرا ويجلس فيه غيره للنهي من صاحب الشريعة ﷺ عن ذلك حتى لو قام غير معرض عنه لضرورة وعاد كان به أحق أيضا اللهم إلا أن يكون الموضع معلوما عند الناس أنه لا يجلس فيه إلا فلان، وهم محتاجون إليه في فتواه وعلمه، فإن جلس في غيره لم يعلم مكانه أو يعلم بمشقة فهذا مستثنى مما نهي عنه، فإن كان المسبوق صاحب علم وفضيلة فحيثما جلس كان صدرا، وليست المواضع بالتي تصدر الناس، ولا ترفعهم وإنما يرفع المرء ما هو حامله من علم وفضيلة ودين وتقوى، وإنما وقع التخصيص لمن ذكر لاحتياجهم إليه في فتواه وعلمه، وإن كان الدليل مقتضاه العموم فالضرورة خصصت الدليل العام، وليس هذا بأول دليل خص وذلك كثير، ولا بأس أن يوسع له في المجلس ما لم يؤد ذلك إلى الضرر لقوله ﷺ:(ولكن تفسحوا وتوسعوا)(4)

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه مسلم.

3) رواه مسلم.

وما ذكره ابن الحاج نراه ــ للأسف ــ في مجتمعاتنا التي أحيت الطبقية الجاهلية، فميزت بين الناس على أسس ليس للشرع فيها نصيب.

وقد ذكر ابن العربي أنواع المجالس، ومن يتصدر فيها، فقال:(الأول مجلس ﷺ يفسح فيه بالهجرة والعلم والسن. الثاني مجلس الجمعات يتقدم فيه بالبكور إلا ما يلي الإمام، فإنه لذوي الأحلام والنهى. الثالث: مجلس الذكر يجلس فيه كل أحد حيث انتهى به المجلس. الرابع مجلس الحرب يتقدم فيه ذوو النجدة والمراس من الناس. الخامس مجلس الرأي والمشاورة يتقدم فيه من له بصر بالشورى)(1)

وما ذكره حسن وقوي، يمكن أن يستشهد له بالشواهد الكثيرة، كقوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة:11) فيرتفع المرء بإيمانه أولا، ثم بعلمه ثانيا.

وقد أرشد القرآن الكريم إلى بديل عن إقامة أي شخص، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (المجادلة:11)، فهذا أمر بتحسين الأدب في مجالسة رسول الله ﷺ، حتى لا يضيقوا عليه المجلس، وأمر المسلمين بالتعاطف والتآلف حتى يفسح بعضهم لبعض، حتى يتمكنوا من الاستماع من رسول الله ﷺ والنظر إليه. قال قتادة ومجاهد:(كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض)

طرح الوسادة للزائر:

ومثل ذلك في عصرنا أن يجلسه كرسيا وثيرا، أو في موضع لائق جميل، وقد كان هذا سنة رسول الله ﷺ، بحسب الإمكانيات المتاحة في ذلك الوقت، عن طارق قال: كنا جلوسا عند الشعبي فجاء جرير بن يزيد، فدعا له الشعبي بوسادة فقلنا

4) المدخل: 1/199.

1) أحكام القرآن: 4/168.

له: يا أبا عمرو، نحن عندك أشياخ، دعوت لهذا الغلام بوسادة؟ فقال:(إن رسول الله ﷺ قال:(إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه)(1)

وعن عاصم قال: طرح أبو قلابة لرجل وسادة فقال أبو قلابة: إنه كان يقال: لا ترد على أخيك كرامته

وعن جعفر عن أبيه قال: دخل علي ورجل، فطرح لهما وسادتين، فجلس علي ولم يجلس الآخر، فقال علي: لا يرد الكرامة إلا حمار.

عدم التفريق بين الجالسين:

فلا يفرق بين اثنين إلا إذا ضاق المكان واحتاج إلى التفريق، فيستأذنهما في ذلك، قال ﷺ:(لا يحل للرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما)(2)

ومن الحكم التي ذكرها العلماء لذلك أنه قد يكون بينهما محبة ومودة، أو حديث سر، وجلوسه بينهما يسوؤهما.

عدم الجلوس في وسط الحلقة:

وقد ورد النهي الشديد عن ذلك حتى عده بعضهم من الكبائر، فعن حذيفة، قال قال رسول الله ﷺ:(لعن الله من جلس وسط الحلقة)(3)

وروي أن رجلا قعد وسط حلقة فقال حذيفة:(ملعون على لسان محمد) أو:(لعن الله على لسان محمد ﷺ من جلس وسط الحلقة)(4)

وقد قيل في علة هذا النهي أنه إذا جلس في وسطها استدبر بعضهم بظهره فيؤذيهم بذلك ويسبونه ويلعنونه، ولذلك

---

1) رواه ابن ماجة والبزار وابن خزيمة، والطبراني في الكبير.

2) رواه أحمد وأبو داود كتاب والترمذي، وقال: حديث حسن.

3) رواه أحمد وأبو داود بإسناد حسن والترمذي والحاكم.

4) رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

قال ﷺ:(لا حمى إلا في ثلاثة)(5)، وذكـر منهـا حلقـة القـوم، أي لهم أن يحموها حتى لا يتخطاهم أحد ولا يجلس وسطها.

ج ـ آداب الحديث في المجالس:

من الآداب التي ذكرها العلماء للحديث في المجالس أن لا يجيب إلا من يسـأل فيهـا، وقـد ذكـروا من ذلـك عن مجاهـد بن جبر، قال: قال لقمان ﵇ لابنه: إياك إذا سـئل غـيرك أن تكـون أنت المجيب، كانك أصـبت غنيمـة، أوظفـرت بعطيـة، فإنـك إن فعلت ذلك، أزريت بالمسؤول، وعنفت السائل، ودللت السفهاء على سفاهة حلمك، وسوء أدبك.

ومنها عدم تخجيل المحدث بإخبارك عن علمك بما يخـبرك به إن كان يظن عدم معرفتك به، ويذكر من ذلك عن عطاء أبي رباح، قال:(إن الشـاب ليحـدثني بحـديث، فأسـتمع لـه كـأني لم أسمعه، ولقد سمعته قبل أن يولد)

وقال عبد الله بن وهب القرشي المصري، صـاحب الإمـام مالك والليث بن سعد والثوري وغيرهم: إني لأسـمع من الرجـل الحديث قد سمعته قبل أن يجتمـع أبـواه، فأنصـت لـه كـأني لم أسمعه.

وقـال إبـراهيم بن الجنيـد: قـال حكيم لابنـه: تعلم حسـن الاستماع، كما تتعلم حسن الكلام، فإن حسن الاسـتماع إمهالـك للمتكلم حتى يفضي إليك بحديثه، وإقبالك بالوجه والنظر عليـه، وترك المشاركة له في حديث أنت تعرفه.

وأنشد الحافظ الخطيب البغدادي في هذا المقام:

ولا تشارك في الحديث أهله وإن عرفت فرعه وأصله

ومنهـا الصـبر على المحـدث إلى أن ينتهي حديثـه وعـدم مقاطعتـه، قـال الهيثم بن عـدي: قـالت الحكمـاء:من الأخلاق السيئة مغالبة الرجل على كلامه، والاعتراض فيه لقطع حديثه.

ومنها عدم الجهر بالكلام أو رفع الصوت به من غير حاجـة،

---

5) رواه البيهقي.

لأن الجهر الزائد عن الحاجة يخل بأدب المتحدث، وقد ورد في وصية لقمان ﵇ لابنه: ﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(لقمان:19) أي اخفض منه ولا ترفعه عاليا إذا حادثت الناس، فإن الجهر الزائد بالصوت منكروقبيح.

د ـ احترام المجلس

لأن كل مجلس له حق على صاحبه، يسأل عنه يوم القيامة، بل هو جزء من عمره، فلذلك كان الاهتمام بما يجري في المجلس من أوكد الآداب وأهمها.

وأول ما يحترم به المجلس أن لا يفارقه الجلوس إلا وقد ضمخوه بطيب ذكر الله، قال ﷺ:(من قعد مقعدا لم يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله ترة، ومن اضطجع مضطجعا لا يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله ترة)(1)، وقال ﷺ:(ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله تعالى فيه ولم يصلوا على نبيهم فيه إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم)(2)

وقد اختلف الفقهاء في حكم الصلاة على رسول الله ﷺ في المجلس على الأقوال التالية:

القول الأول: أنها تجب كلما ذكر اسمه ﷺ ولو اتحد المجلس، وهو قول الطحاوي من الحنفية، والطرطوشي، وابن العربي، والفاكهاني من المالكية، وأبي عبد الله الحليمي وأبي حامد الإسفراييني من الشافعية، وابن بطة من الحنابلة، ومن الأدلة على ذلك قوله ﷺ:(رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي)(3)

القول الثاني: وجوب الصلاة مرة في كل مجلس، وهو ما صححه النسفي قال:(وهو كمن سمع اسمه مرارا، لم تلزمه

---

1) رواه أبو داود بإسناد حسن.

2) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

3) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب، والحاكم.

الصلاة إلا مرة، في الصحيح، لأن تكرار اسمه ﷺ لحفظ سنته التي بها قوام الشريعة، فلو وجبت الصلاة بكل مرة لأفضى إلى الحرج)،وهو قول أبي عبد الله الحليمي إن كان السامع غافلا فيكفيه مرة في آخر المجلس.

القول الثالث: ندب التكرار في المجلس الواحد، ذكره ابن عابدين في تحصيله لآراء فقهاء الحنفية.

الترجيح:

نرى أن الأرجح في المسألة هو القول الأول بناء على النصوص الواردة في ذلك، زيادة على عدم المشقة في ذلك، فأي مشقة في أن يردد السامع الصلاة على رسول الله ﷺ كلما ذكر اسمه.

ومع ذلك، فإنه يتساهل في الغفلة، فهو واجب مع الذكر والقدرة، ساقط مع العجز والنسيان.

5 ـ آداب الكلام

الكلام هو رسول الإنسان إلى المجتمع، بل هو مظهر حقيقته، والمعبر عن ذاته، فإن حسن كان صاحبه مقربا حسنا، وإن ساء قالته الأنفس، ونبت عنه الأعين.

وإلى هذا الأدب الإشارة بالنصوص الكثيرة من القرآن الكريم، وأولها ما ورد في موعظة لقمان عليه السلام لابنه: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان:19)

ومن أمثال النصوص الكثيرة التي تضم مجامع الآداب وأصولها كقوله تعالى: ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ (النساء:148)،ـ وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام:112)،ـ وقال تعالى: ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ (الحج:

24)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات:2)

وغيرها كثير، والتي يجمع مجامعها ثلاثة أصول كبرى:

1. أن لا يتكلم إلا إذا احتـــــــــــاج إلى الكلام، فلا يتكلم إلا بواجب أو مستحب، أو مباح لا يفرط به في واجب.

2. أن لا يخوض في باطل، ولا منكر من القول أو زورا.

3. أن يختـار في كلامـه مـا نـدب إليـه الشـرع من ألفـاظ، فيبتعد عن كل تعبير مؤذ، ولو كان مباحا في أصله، ويبتعد كذلك في إخراجه الحروف عن كل ما يؤذي الأسماع.

وسنفصل بعض ما يتعلق بهـذه الأصـول في هـذا المطلب، باختصار، لأن لذلك محله الخاص.

أ ـ الكلام عند الحاجة

ويشير إلى هذا الأصل قوله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْـهِ رَقِيبٌ عَتِيـدٌ﴾ (قّ:18)، أي مـا يتكلم بكلمـة إلا ولهـا من يرقبها، معد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة منها(1).

وإلى هذا الإشارة بقوله ﷺ:(إن الرجل ليتكلم بالكلمـة من رضوان اللّه تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب اللّه عزَّ وجـلَّ له بها رضـوانه إلى يـوم يلقـاه، وإن الرجـل ليتكلم بالكلمـة من سخط اللّه تعـالى مـا يظن أن تبلـغ مـا بلغت يكتب اللّـه تعـالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه)(2)، فكان علقمة يقـول:(كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث)

ولهذه الخطورة التي تحملها الكلمة ـ خيرا كانت أو شــرا ـ

1) وقد روي ما يصور هذا من أحاديث الأنبياء ـ صـلوات اللـه وسـلامه عليهم ــ، فقـد روي أنّ سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريته وبعث نفراً ينظرون ما يقول ويخبرونه، فـأخبروه بأنـه مـرَّ في السـوق فرفـع رأسـه إلى السـماء ثم نظـر إلى النـاس وهـز رأسـه فسـأله سليمان عن ذلك فقال: عجبت من الملائكة على رؤوس الناس ما أسرع ما يكتبـون ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون.

2) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة.

كان من مجاهدات الصالحين ما يسمى بمجاهدة (الصمت)، وهم لا يريدون بها الصمت المطلق، وإنما يريدون صمت الحكمة، صمت الذي لا ينطق كثيرا، ولكنه إذا نطلق لا ينطق إلا بخير وفي موضعه المناسب له.

وقد روي في هذا أن عبد الله بن مسعود قال :(والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان)، وقال طاوس:(لساني سبع إن أرسلته أكلني)، وقال الحسن:(ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه)، وقال بعضهم:(الصمت يجمع للرجل فضيلتين؛ السلامة في دينه والفهم عن صاحبه)، وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار:(يا أبا يحيى حفظ اللسان أشدّ على الناس من حفظ الدينار والدرهم)، وقال يونس بن عبيد:(ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله)، وقال إبراهيم التيمي:(إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك، والفاجر إنما لسانه رسلاً رسلاً)، وقال الحسن:(من كثر كلامه كثر كذبه، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه، ومن ساء خلقه عذب نفسه)

وقد يستغرب هذا، فكيف يحتاج اللسان إلى كل هذه التشديدات والعقوبات، وهو طاقة من طاقات الإنسان، وهو في العلاقات الاجتماعية ضرورة لا غنى عنه.

وقد أجاب الغزالي على هذا مبينا الحدود التي يمكن أن يتصرف فيها اللسان، والمخاطر التي تكتنف تلك الحدود، فقال: (ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر، وهو أن الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة، أما الذي هو ضرر محض فلا بدّ من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر، وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران، فلا يبقى إلا القسم الرابع، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجاً يخفى دركه

فيكون الإنسان به مخاطراً)(1)

وكل هذ الأقسام الأربعة التي ذكرها الغـزالي، والـتي تـدل على حاجة السان إلى إلزامه الصـمت في أكـثر الأحيـان وردت به النصوص وتظافرت عليه الأدلة.

بل ورد ما يعتبره من أساسيات الدين وأصـوله، فعن معـاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يومـاً قريبـاً ونحن نسير، فقلت: يا بـني اللّـه أخـبرني بعمـل يـدخلني الجنـة ويباعدني من النار، قال:(لقـد سـألتني عن عظيم! وإنـه ليسـير على من يسره الله عليه، تعبد اللـه ولا تشـرك بـه شـيئا، وتقيم الصلاة المكتوبـة، وتـؤدي الزكـاة المفروضـة، وتصـوم رمضـان، وتحج البيت؛ ألا أدلك على أبواب الخير! الصوم جنـة، والصـدقة تطفيء الخطيئـة كمـا يطفيء المـاء النـار، وصـلاة الرجـل في جـوف الليـل؛ ألا أخـبرك بـرأس الأمـر وعمـوده وذروة سـنامه! رأس الأمـر الإسـلام، من أسـلم سـلم وعمـوده الصـلاة، وذروة سنامه الجهاد؛ ألا أخـبرك بملاك ذلـك كلـه! فقلت: بلى يـا نـبي اللّه، فأخذ بلسانه، ثم قال:(كف عليك هذا)، وأشار إلى لســانه، فقلت: يا رسول اللّه وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، فقال:(ثكلتـك أمـك يـا معـاذ! وهـل يكب النـاس في النـار على وجـوههم إلا حصائد ألسنتهم)(2)

فقـد ذكـر الرسـول ﷺ في هـذا الحـديث أصـول الإسـلام الكبرى، ثم جعل ملاك الأمر كله حفظ اللسان، ثم أكد ذلك بـأن حصائد الألسن هي السبب الأكبر في كب الناس على وجــوههم في النار.

قد يقال: نعم إن الكلام الذي هو ضرر محض حرام، ومثلـه ما اختلط فيه الضرر بـالنفع، لأن سـد المفسـدة اولى من جلب المصلحة، ولكن هناك كلاما كثيرا هو مباح لا يمكن تحريمه، وهو أكثر الكلام، فكف يقال بأفضلية الصمت إلا للحاجة؟

---

1) إحياء علوم الدين: 3/111.

2) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة.

والجواب عن ذلك هو قوله ﷺ:(من حسن الإسلام المرء تركه ما لا يعنيه)(1)، فهذا الحديث الذي هو أصل من أصول الآداب يحجر كثيرا من الكلام الذي قد يتصور إباحته.

يقول الغزالي مبينا أضرار هذ النوع من المباح:(اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلاً إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه، فإنك مضيع به زمانك ومحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير)(2)

ثم يذكر البدائل النافعة بدل ذلك الهذر الفارغ، فيقول: (لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه، ولو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيراً لك فكم من كلمة يبنى بها قصراً في الجنة؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسراً خسراناً مبيناً، وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى، فإنّ المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً)(3)

بل إن ضرر هذا النوع من المباح لا يقتصر على كونه مضيعا لوقت صاحبه فيما لا طائل وراءه، بل إنه يتعدى ذلك إلى ما يحمله الكلام نفسه من مخاطر قد يغفل عنها.

وقد ذكر الغزالي لذلك أمثلة واقعية مهمة يحسن التنبيه إليها، واعتبارها نماذج لغيرها.

أما المثال الأول، فهو أن (أن تجلس مع قوم فتذكر لهم

---

1) رواه الترمذي وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجه.

2) إحياء علوم الدين: 3/112.

3) إحياء علوم الدين: 3/112.

أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك من الوقائع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم. فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر، وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة، ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك ــ وأنّى تسلم من الآفات التي ذكرناها ـ)[1]

ومنها (أن تسأل غيرك عما لا يعنيك فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع، هذا إذا كان الشيء مما لا يتطرّق إلى السؤال عنه آفة، وأكثر الأسئلة فيها آفات. فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلاً فتقول له: هل أنت صائم؟ فإن قال: نعم، كان مظهراً لعبادته فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات، وإن قال: لا، كان كاذباً، وإن سكت كان مستحقراً لك وتأذيت به، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه. فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته، وكذلك سؤالك عن المعاصي وعن كل ما يخفيه ويستحي منه. وسؤالك عما حدّث به غيرك فتقول له: ماذا تقول؟ وفيم أنت؟ وكذلك ترى إنساناً في الطريق فتقول: من أين؟ فربما يمنعه مانع من ذكره، فإن ذكره تأذى به واستحيا، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه... وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والمسؤول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدري، فيجيب عن غير بصيرة)[2]

ب ـ تجنب الكلام المحظور

وهو الأصل الثاني من أصول آداب الكلام، وهو فرع من التفريط في الأصل الأول، لأن من راعى لسانه، فلم يتكلم إلا لحاجة في دينه أو دنياه لم يقع في هذا المحظور، لأن الله

1) إحياء علوم الدين: 3/113.

2) إحياء علوم الدين: 3/113.

تعالى لم يحرم علينا ما نجلب به مصالحنا المشروعة، أو نرد به المفاسد الضارة.

ولهذا قال تعالى: ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ (النساء:148)، فقد أخبر عن بغضه للجهر بالسوء، واستثنى من ظلم إذا اضطر لذلك، وقد قال ابن عباس في تفسيرها:(لا يحب اللّه أن يدعوا أحدا على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له يدعوا على من ظلمه)، وقال عبد الكريم الجزري فيها:(هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه)، ويشير إلى هذه الأقوال قوله ﷺ:(المستبان ما قالا فعلى البادىء منهما ما لم يعتد المظلوم)[1]

وانطلاقا من هذا، فإن كل ما وردت به النصوص من الكلام المحظور لا مصلحة فيه ولا حاجة لا في الدنيا، ولا في الآخرة، بل هو ضرر محض، لا يستثنى منه إلا ما ضطر إليه، فيتناول بقدره، كما يتناول الجائع من الميتة بقدره.

وسنذكر هنا بعض الأمثلة عن الكلام المحظور مع تعريفات مختصرة منقولة من (كتاب آفات اللسان)[2] للغزالي.

الخوض في الباطل:

وهو يدخل في اللغو من جهة كونه فضولا محضا لا منفعة فيه، ويدخل في الحرام من حيث أنه يعبر به عن الحرام، او بالتعبير الحرام، يقول الغزالي في تعريفه:(وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام. وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه. نعم من يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل. وأكثر الناس يتجالسون للتفرج

---

1) رواه أبو داود.

2) انظر: إحياء علوم الدين: 3/107 ـ 3/164.

بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخـوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننهـا، فلـذلك لا مخلص منهـا إلا بالاقتصـار على مـا يعـني من مهمـات الـدين والدنيا)(1)

وإلى هــذا الجنس من المحظــورات الإشــارة بالحــديث السـابق، من قولـه ﷺ:(وإن الرجـل ليتكلم بالكلمـة من سـخط اللّه تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب اللّـه تعـالى عليـه بهـا سخطه إلى يوم يلقاه)(2)

المراء والجدال:

ويـدخل كـذلك في اللغـو، والكلام الـذي لا حاجـة لـه، لأن المجادل لا يكتفي بإبداء رأيـه أو البرهنـة عليـه، بـل يظـل يـردد الكلام ويعيده، محاولا (إفحـام الغـير وتعجـيزه وتنقيصـه بالقـدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه)

فيطعن في كلام الغير في لفظه بإظهار خلل فيه من جهـة النحو أو من جهة اللغة أو من جهـة العربــية أو من جهـة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير من غير حاجة إلى ذلك كله.

أو يطعن في المعـنى: فبـأن يقـول ليس كمـا تقـول؛ وقـد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا.

أو يطعن في قصده، مثل أن يقـول هـذا الكلام حـق ولكن ليس قصدك منه الحق، وإنما أنت فيه صاحب غرض، وما يجري مجراه.

وإلى هــذا النــوع الإشــارة بالنصــوص القرآنيــة والنبويــة الكثيرة، كقولـه تعـالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَـادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَـيْطَانٍ مَرِيـدٍ﴾ (الحج:3)، وقـال تعـالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَـادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَلا هُـدىً وَلا كِتَـابٍ مُنِيرٍ﴾ (الحج:8)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْـرِ

---

1) إحياء علوم الدين: 3/115.

2) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة.

سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (غافر:56)، وقال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (غافر:69)، وقال تعالى: وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (الشورى:35)

أما الأحاديث، فكثيرة منها قوله ﷺ:(ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أتوا الجدل)[1]، وقال ﷺ:(أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء، وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب، وإن كان ما زحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه)[2]

الغيبة:

وهي من أخطر آفات اللسان، وأكثرها انتشارا، وأضرها بالعلاقات الاجتماعية التي جاء الإسلام لتأسيسها والحفاظ على متانتها.

فلذلك كان تحريمها، وتحريم ما تنبع عنه من آفات، وما ينتج عنها من مخاطر أصلا من أصول الإسلام الكبرى التي حفظ بها المجتمع، أفرادا، وجماعات.

ولذلك ورد تحريمها والتشديد على تحريمها في القرآن الكريم، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (الحجرات:12)

ففي هذه الآية الكريمة تحريم للغيبة،وعرض لمشهد ـ يمثل حقيقة الغيبة ـ (تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية، مشهد الأخ يأكل لحم أخيه ميتا.

والقرآن الكريم، قبل تحريم الغيبة يحرم ما تنبع منه، ويبدأ

---

1) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم.

2) رواه أبو داود والضياء.

بالتجسس، والبحث عن عورات الناس، لأنه لولا هذا البحث المرضي ما حصلت الغيبة، وهذا التجسس والبحث عن عورات الناس، أو توهم عورات للناس يحتاج للبحث عنها، تفكير مرضي يحطم المجتمع، ويجعله غير آمن على نفسه ولا عرضه، وهو خلاف ما أراد الله للمجتمع المسلم، يقول سيد قطب:(في المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم، آمنين على أسرارهم، آمنين على عوراتهم. ولا يوجد مبرر - مهما يكن - لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات. حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس. فالناس على ظواهرهم، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم. وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم. وليس لأحد أن يظن أو يتوقع، أو حتى يعرف أنهم يزاولون في الخفاء مخالفة ما، فيتجسس عليهم ليضبطهم! وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها، مع الضمانات الأخرى التي ينص عليها بالنسبة لكل جريمة. والمنبع الثاني هو الظن السيئ، وهو إما أن يكون نتيجة للتجسس، أو نتيجة للنفس المريضة التي تلقي ما بها من أمراض على أعراض المسلمين. ثم يأتي تحريم الغيبة التي هي المظهر الفعلي لهذه الأمراض السابقة، بل هي اخطرها، وأشدها بتلك الصيغة المشددة من صيغ التحريم)[1]

وقد دعا هذا التشديد الصحابة إلى سؤال رسول الله ﷺ عن حد الغيبة وحقيقتها، فعن أبي هريرة قال:قيل:يا رسول الله، ما الغيبة؟ فقال ﷺ:(ذكرك أخاك بما يكره)، قيل:أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ فقال ﷺ:(إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته)[2]

وقد كان ﷺ يتشدد في الغيبة تشددا عظيما، حتى مع أقرب الناس إليه، وفي أبسط ما نتصوره من الغيبة، عن عائشة قالت:قلت للنبي ﷺ:(حسبك من صفية كذا وكذا) ـ قال

---

1) في ظلال القرآن: 3346.

2) رواه الترمذي وصححه.

عن مسدد تعني قصيرة ـ فقال ﷺ:(لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته)، قالت:(وحكيت له إنسانا، فقال ﷺ:(ما أحب أني حكيت إنسانا وأن لي كذا وكذا)[1]

وأخبر ﷺ بما رأى من أحوال المتفكهين بأعراض المسلمين، فقال: (لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم. قلت:من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال:هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم)[2]

وقد ذكر الغزالي بعض مظاهر الغيبة التي قد يغفل عنها، قال في تعريفها:(اعلم أن حدَّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه، حتى في ثوبه وداره ودابته)

أما البدن: فكذكر العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة، وجميع ما يتصوّر أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان، وقد سبق ذكر حديث عائشة في هذا، وقد روي ان ابن سيرين ذكر رجلاً فقال: ذاك الرجل الأسود، ثم قال: أستغفر الله إني أراني قد اغتبته، وذكر إبراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور.

وأما النسب: فبأن تقول أبوه نبطي أو هندي أو فاسق أو خسيس أو إسكاف أو زبال، أو شيء مما يكرهه كيفما كان.

وأما الخلق: فبأن تقول هو سيىء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبال عاجز ضعيف القلب متهوّر وما يجري مجراه.

وأما في أفعاله المتعلقة بالدين: فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات

---

1) رواه أبو داود.

2) رواه أبو داود.

أو ليس بـاراً بوالديـه أو لا يضـع الزكـاة موضـعها أو لا يحسـن قسـمها أو لا يحـرس صـومه عن الـرفث والغيبـة والتعـرض لأعراض الناس.

وأما فعله المتعلق بالدنيا: فكقولك إنه قليل الأدب متهـاون بالناس، أو لا يرى لأحد على نفسـه حقـاً أو يـرى لنفسـه الحـق على الناس، أو أنه كثير الكلام نـؤوم ينـام في غـير وقت النـوم ويجلس في غير موضعه، وأما في ثوبه فكقولك إنه واسـع الكم طويل الذيل وسخ الثياب.

النميمة:

وهي التحريش بين الناس، ونقل الحديث لفساد ذات بينهم وهي الحالقـة، فلـذلك كـانت من أصـول المحرمـات، لأثرهـا الخطير على العلاقات الاجتماعية.

ولذلك ورد ذكرها في مواضـع في القـرآن الكـريم، بـل لم ترد إلا في أوصاف الكفـار والمنـافقين وأشـباههم قـال تعـالى: ﴿ هَمَّازٍ مَشَّـاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ (القلم: 11)، وقـال تعـالى: ﴿ لَـوْ خَرَجُـوا فِيكُمْ مَـا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَـالاً وَلَأَوْضَـعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُـونَكُمُ الْفِتْنَـةَ[1] وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (التوبة:47)، وقـال تعـالى: ﴿وَيْـلٌ لِكُـلِّ هُمَـزَةٍ لُمَـزَةٍ﴾ (الهمـزة:1)، وقـال تعـالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (المسد:4)

وهي أشــد خطــورة من الغيبــة، لأن مقصــد صــاحبها هوالتفريـق بين المؤمـنين، وهـو خلاف مـا قصـده الشـارع من التأليف بينهم.

وقـد أخـبر ﷺ عن خطـر النميمـة، واعتـبر أصـحابها شـرار الناس ن قال ﷺ:(ألا أخبركم بخيـاركم؟)، قـالوا: بلى يـا رسـول اللّـه، قـال:(الـذين إذا رؤوا ذكـر اللّـه عـزَّ وجـلَّ)، ثم قـال:(ألا أخبركم بشراركم؟ المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبـة، الباغون للبرآء العَنَت)[2]

---

1) أي ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة.

2) رواه أحمد وابن ماجة.

وقد مر ﷺ بقبرين فقال:(إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)(1)، وقال ﷺ:(لا يدخل الجنة قتات(2)(3)

وعلى عكس النميمة التي تقصد التفريق بين المؤمنين، ولو باستعمال سلاح الصدق في غير موضعه، ورد في الشرع استحباب الإصلاح بين المؤمنين، ولو باستعمال الكذب المحرم، قال ﷺ:(ليس الكذاب بالذي يصلح بين الناس فينمي خيرا، ويقول خيرا)(4)، وقال ﷺ:(لا يصلح الكذب إلا في ثلاث: يحدث الرجل امراته ليرضيها والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس)(5)

ج ـ التعبير الصحيح واختيار الألفاظ

وهو الأصل الثالث من أصول آداب الكلام، لأن المتكلم قد يخلو كلامه من المحظورات التي ورد التصريح بالنهي عنها، وقد يخلو من آثار تلك المحظورات، ولكن تعبيره يحوي أخطاء قد تكون لها آثارها الخطيرة على الصعد المختلفة.

ولهذا كان من سنة رسول الله ﷺ أن يتخير تعبيره (ويختار لأمته أحسن الألفاظ، وأجملها، وألطفها، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش، فلم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً ولا فظاً)(6)

وترجع أصول هذا الهدي النبوي إلى أصول الآداب التالية:

صدق التعبير:

---

1) رواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة.

2) القتات: النمام.

3) رواه أحمد والترمذي والنسائي وأبو داود.

4) رواه أحمد والبيهقي وأبو داود والترمذي.

5) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

6) زاد المعاد: 1/731.

وهـو أن يوضـع التعبـير في وضـعه المناسـب لـه، وليس المراد به صـدق المعـنى، لأن المعـنى قـد يكـون صـادقا، ولكن التعبير كاذب.

ومن هذا النوع نهيه ﷺ عن استعمال الألفاظ الشـريفة في المواضع التي لا تستحقها، فقد نهى ﷺ أن تسمى شجرة العنب كرماً، فقال ﷺ:(لا تقولوا: الكرم، ولكن قولـوا: العنب والحبلـة)(1)، وقال ﷺ:(لا تسموا العنب الكرم، ولا تقولـوا: خيبـة الـدهر، فإن الله هو الدهر)(2)

ونهى ﷺ أن يقـال للمنـافق(يـا سـيدنا)، فقـال: (إذا قـال الرجل للمنافق يا سيدنا فقد أغضب ربه)(3)

ونهى ﷺ المملـوك أن يقـول لسـيده أو لسـيدته: ربـي وربتي، وللسيد أن يقول لمملوكه: عبـدي، ولكن يقـول المالـك: فتاي وفتاتي، ويقـول المملـوك: سـيدي وسـيدتي، فقـال ﷺ:(لا يقل أحدكم أطعم ربك، وضئ ربك، واسق ربك، ولا يقل أحدكم ربي، وليقـل سـيدي ومـولاي، ولا يقـل أحـدكم، عبـدي وأمـتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي)(4)

وقال ﷺ لمن ادعى أنه طبـيب (أنت رجلٌ رفيقٌ، وطبـيبها الذي خلقها)(5)، وربما أبشع من هذا التعبـير أن نسـميه حكيمـا، قال ابن القيم:(والجاهلون يسمّون الكافر الذي لـه علمٌ بشـيء من الطبـيعة حكيماً، وهو من أسفه الخلق)(6)

ونهى كل ما يوهم الشرك من الألفاظ، فنهى الخطيب عن

---

1) رواه مسلم.

2) رواه البيهقي .

3) رواه الحاكم والبيهقي.

4) رواه أحمد والبيهقي .

5) رواه أبو داود.

6) زاد المعاد: 2/353.

قولـه:(من يطـع اللـه ورسـوله فقـد رشـد، ومن يعصـهما فقـد غوى)، وقال له:(بئس الخطيب أنت)(1)

ونهى عن قول (ما شاء الله وشاء فلان)، وقال:(لا تقولـوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شـاء اللـه، ثم مـا شـاء فلانٌ)، وقال له رجل: (ما شاء الله وشئت، فقـال(أجعلتـني للـه نداً؟ قل: ما شاء الله وحده)(2)

قال ابن القيم:(وفي معنى هذا الشـرك المنهي عنـه قـول من لا يتـوقى الشـرك: أنـا باللـه وبـك، وأنـا في حسـب اللـه وحسبك، ومـالي إلا اللـه وأنت، وأنـا متوكـل على اللـه وعليـك، وهذا من الله ومنك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض، ووالله، وحياتك، وأمثال هذا من الألفاظ التي يجعل فيهـا قائلهـا المخلوق نداً للخالق، وهي أشدّ منعاً وقبحـاً من قولـه: مـا شـاء الله وشئت. فأما إذا قال: أنا باللـه، ثم بـك، ومـا شـاء اللـه، ثم شئت، فلا بأس بذلك، كما في حـديث الثلاثـة: (لا بلاغ لي اليـوم إلا بالله ثم بك)(3)

ومن هذا الباب ــ كـذلك ــ نهى ﷺ أن تطلـق ألفـاظ الـذم على من ليس من أهلها، فقال ﷺ:(لا تقل تعس الشـيطان فإنـه يعظم حتى يصير مثل الـبيت فيقـول بقـوتي صـرعته ولكن قـل بسم الله فإنك إذا قلت ذلك تصاغر الشيطان حـتى يصـير مثـل الذباب)(4)

وعلى قياس هذا قال ابن القيم:(ومثـل هـذا قـول القائـل: أخزى الله الشيطان، وقبح الله الشيطان، فإن ذلك كله يفرحــه ويقول: علم ابن آدم أني قد نلته بقوتي، وذلـك ممـا يعينـه على إغوائـه، ولا يفيـده شـيئاً، فأرشـد النبــيّ من مسـه شــيء من الشيطان أن يذكر الله تعالى، ويذكر اسمه، ويستعيذ بالله منـه،

---

1) رواه البيهقي في الشعب وأحمد.

2) رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

3) زاد المعاد: 1/731.

4) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم.

فإن ذلك أنفع له، وأغيظ للشيطان)(1)

ومن هذا الباب نهيه ﷺ عن سب الدهر، فقال ﷺ:(قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار)(2)، وقال ﷺ:(قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يقول: يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما)(3)

وقد ذكر ابن القيم المفاسد التي يتضمنها سب الدهر، وهي(4):

1. سبّه من ليس بأهلٍ أن يسب، فإن الدهر خلقٌ مسخرٌ من خلق الله، منقادٌ لأمره، مذللٌ لتسخيره، فسابّه أولى بالذم والسب منه.

2. أن سبه متضمن للشرك، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضرّ وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضر من لا يستحق الضرر، وأعطى من لا يستحقّ العطاء، ورفع من لا يستحقّ الرفعة، وحرم من لا يستحق الحرمان، وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة، وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة في سبه كثيرةٌ جداً. وكثيرٌ من الجهال يصرح بلعنه وتقبيحه.

3. أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتبع الحقّ فيها أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، وإذا وقعت أهواؤهم، حمدوا الدهر، وأثنوا عليه. وفي حقيقة الأمر، فربّ الدهر تعالى هو المعطي المانع، الخافض الرافع، المعزّ المذلّ، والدهر ليس له من الأمر شيء، فمسبتهم للدهر مسبة لله عز وجل، ولهذا كانت مؤذيةً للرب تعالى.

التفاؤل والنشاط:

---

1) زاد المعاد: 1/731.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه مسلم .

4) زاد المعاد: 2/355.

لأن للكلام تـأثيره العظيم في بث الأمـل، أو بث اليـأس، ولهذا نهى ﷺ عن كل ما يؤدي إلى التشاؤم والعجـز، ومن ذلـك نهيه عن قول القائل بعد فوات الأمر: (لو أني فعلت كذا وكـذا)، فقال ﷺ: (وإن أصابك شيء فلا تقـل: لـو أني فعلت لكـان كـذا وكذا، ولكن قل قـدر اللـه ومـا شـاء فعـل، فـان لـو تفتح عمـل الشيطان)(1)

وسر هذا النهي أن هذا القول لا يحمل أي فائـدة إلا النـدم على مافـات ممـا لا يمكن تداركـه، وهـو لا يبث في النفس إلا الحزن واليأس، ولا ينشر في الأعضاء إلا العجـز والكسـل، قـال ابن القيم:(وذلك لأن قوله: لو كنت فعلت كـذا وكـذا، لم يفتـني مـا فـاتني، أو لم أقـع فيمـا وقعت فيـه، كلامٌ لا يجـدي عليـه أي فائدة، فإنه غير مستقبل لما استدبر من أمـره، وغـير مسـتقيلٍ عثرته ب(لو)(2)

زيادة على أن في ذلك اتهام للقدر، بـل عـدم معرفـة بـأن اللـه هـو المسـتقل بتقـدير المقـادير، قـال ابن القيم:(وفي ضمن(لو) ادعاء أن الأمر لو كان كما قدره في نفسه، لكان غير ما قضاه الله وقدره وشاءه، فإن ما وقع مما يتمنى خلافـه إنمـا وقع بقضاء الله وقدره ومشيئته، فإذا قـال: لـو أني فعلت كـذا، لكان خلاف ما وقع فهو محال، إذ خلاف المقدر المقضي محال، فقد تضـمن كلامـه كـذباً وجهلاً ومحـالاً، وإن سـلم من التكـذيب بالقدر، لم يسلم من معارضته بقوله: لو أني فعلت كذا، لدفعت ما قدر الله علي)(3)

الفحش وبذاءة اللسان:

والفحش ـ كما عرفـه الغـزالي ــ هـو (التعبـير عن الأمـور المسـتقبحة بالعبـارات الصـريحة)(4)، فيعـبر بـذيء اللسـان

1) رواه أحمد .

2) زاد المعاد: 2/357.

3) زاد المعاد: 2/357.

4) إحياء علوم الدين: 3/122.

بعبارات يستحيي منها ذو الطع السليم.

يقول الغزالي:(هناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أفحش من بعض. وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها)(1)

من ذلك نهيه أن يقول الرجل: (خبثت نفسي، ولكن ليقل: لقست نفسي)(2) ومعناهما واحد، أي: غثت نفسي، وساء خلقها، فكره لهم لفظ الخبث لما فيه من القبح والشناعة، وأرشدهم إلى استعمال الحسن، وهجران القبيح، وإبدال اللفظ المكروه بأحسن منه.

ولهذا قال ابن عباس :(إن الله حيي كريم يعفو ويكنو، كنى باللمس عن الجماع)، فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الجماع وليست بفاحشة.

التفاصح:

وهو المبالغة في الاهتمام بالألفاظ وتزيينها، فينشغل بتزيينها عن المعنى، وهو من التكلف الممقوت المنهي عنه، ولهذا أخبر ﷺ عن بغضه لهذا الصنف من الناس، فقال:(أحبكم وأقربكم مني مجلسا في الجنة أحاسنكم أخلاقا، وأبغضكم إلي الثرثارون المتشدقون المتفيهقون)(3)، واعتبره ﷺ من شرار المؤمنين، فقال:(خياركم أحاسنكم أخلاقا، الموطؤون أكنافا، وشراركم الثرثارون المتفيهقون المتشدقون)(4)

وقد حصل في عهد رسول الله ﷺ أن ضربت ضرة ضرة لها بعمود فسطاط فقتلتها، فقضى رسول الله ﷺ بديتها على

1) إحياء علوم الدين: 3/122.

2) رواه أحمد والبيهقي وأبو داود والنسائي.

3) رواه ابن عساكر.

4) رواه البيهقي.

عصبة القاتلة ولما في بطنها غـرة، فقـال الأعـرابي: يـا رسـول الله! أتغرمني من لا طعم ولا شـرب ولا صـاح فاسـتهل، فمثـل ذلك يطل، فقـال النـبي ﷺ:(أسـجعا كسـجع الأعـراب)(1)، قـال الغزالي في تعليل هذا النهي الذي يتضمنه هذا الحديث:(لأن أثر التكلف والتصنع بـين عليه، بل ينبغي أن يقتصـر في كـل شـيء على مقصوده، ومقصـود الكلام التفهيم للغـرض ومـا وراء ذلـك تصنع مذموم)(2)

التلطف في التعبير:

وهو من الأصـول المهمـة في هـذا البـاب، لأن الصـدق في التعبير قد يحمل ـ أحيانـا ــ آلامـا شـديدة يحتـاج إلى البحث عن الطرق التي تلطفها.

وقد ذكر الشيخ عبد الفتاح أبو غـدة بعض التعـابير المثاليـة في حال اضطرار المسلم للإخبار عن شيء مكروه، ومما ذكره من طرق التلطف:

1 ــ إذا اضـطررت إلى الإخبـار عن أمـر مكـروه، أو وقـوع حادث مفجع، أو وفاة قريب أوعزيز على صاحبك أوقريبك، أوما شابه ذلك، فيحسن بك أن تلطف وقع الخبرعلى من تخبره بــه، وتمهـد لـه تمهيـدا يخفـف نـزول المصـاب عليـه، فتقـول فيمن تخبرعن وفاته مثلا:(بلغني أن فلانا كـان مريضـا مرضـا شـديدا، وزادت حاله شدة، وسمعت أنه توفي رحمه الله تعالى)

2 ـ لا تخبرعن وفاة ميت بنحوما يقوله بعضهم: أتـدري من توفي اليوم؟! أوبقولك: توفي اليـوم فلان...، بـل ينبغي أن تبـدأ باسم الذي تخبرعن وفاته قبل ذكر وفاته، لأن من تخـبره بـذلك حين تسأله أيدري من توفي اليوم؟ أوتقول له: تـوفي اليـوم...، يتبادر فورا إلى ذهنه المروعات الشداد، فيقدر أن الوفاة وقعت بـأقرب النـاس إليـه من مـريض أوكبـير أوشـاب، فيـتروع بهـذه الصيغة منك في السؤال أو الإخبار أشـد الـترويع، ولـوقلت لـه:

1) رواه عبد الرزاق في الجامع.

2) إحياء علوم الدين: 3/121.

فلان... تـوفي اليـوم، فبـدأت باسـم من تخـبرعن وفاتـه، لخـف الوقـع عليـه،! وانتفى الـترويع، وبقي أصـل الخـبر المحـزن أو المكروه.

3 ـ ينبغي أن تراعي صـيغة الإخبـار عن الحريـق أوالغريـق أوالحـادث.. فمهـد لـه بالتمهيـد الـذي يخفـف شـدة وقعـه على النفس، واذكر اسم المصاب به متلطفا، ولا تصك سمع صـاحبك أوقريبك أومجالسيك بـالخبر المفجـع صـكا، فـإن بعض القلـوب يكون تحملهـا ضـعيفا، فربمـا تـأذَّى بـالخبر المفجـع أشـد الأذى، وربما يصعق بعض الأفراد بذلك، أويغمى عليه،أو يصاب بسـمعه أو بصـره، فتلطـف بالإخبـار عن المفجعـات أذا اضـطررت إلى ذلك.

4 ـ تحين الوقت الملائم لإخباره إذا كان هنـاك داع لإخبـار، فلا تخبره بذلك وهو على طعام، أوقبل النوم أو في حالة مرض أو استفزاز، أو نحو ذلك من الأحوال.

6 ـ آداب المشي

وهو من الآداب التي لهـا علاقـة بالعلاقـات الاجتماعيـة من بعض النواحي، وقد أشار إليها في موعظة لقمان ﵇ لابنه قوله تعالى: ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَـالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ (لقمان:18 ـ 19)

وقد جمعت هاتان الآيتان كل ما يتعلـق بالمشـي من آداب، وفيهما دليـل على أن هـذا النـوع من الآداب لـه علاقـة بـالآداب الاجتماعية، يقـول سـيد قطب:(والمشـي في الأرض مرحـا هـو المشي في تخايل ونفخة وقلة مبالاة بالناس، وهي حركة كريهة يمقتهـا اللـه ويمقتهـا الخلـق. وهي تعبـير عن شـعور مـريض بالذات، يتنفس في مشـية الخيلاء! إن اللـه لا يحب كـل مختـال فخور .. ومع النهي عن مشـية المـرح، بيـان للمشـية المعتدلـة القاصدة: واقصد في مشيك.. والقصد هنـا من الاقتصـاد وعـدم الإسراف. وعدم إضاعة الطاقة في التبخـتر والتثـني والاختيـال. ومن القصد كذلك. لأن المشية القاصدة إلى هـدف، لا تتلكـأ ولا

تتخايل ولا تتبختر، إنما تمضي لقصدها في بساطة وانطلاق)[1]

وبما أنا قد تحدثنا عن تعبير المشي ونحوه عن الكبر في موضعه من:(البعد الأخلاقي)، فسنكتفي هنا بذكر ثلاثة آداب لها علاقة بالطريق، والتي هي محل المشي:

حرمة الطريق:

وردت النصوص الكثيرة التي تعتبر الطريق حقا عاما لا يجوز لأحد أن يستأثر به أو يضيق على الناس أو يحد من حريتهم، فقال ﷺ:(من اقتطع من طريق المسلمين وأفنيتهم قيد شبر من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين)[2]

وقد أنكر ابن الحاج استبداد البعض بالطريق واعتبره اغتصابا، فقال:(ومن ذلك الشراء من أصحاب الطبليات والدكك المستديمة في طريق المسلمين ومن يقعد في طريقهم يبيع ويشتري ؛ لأن ذلك غصب لطريق المسلمين وليس لأحد في طريق المسلمين إلا أن يمر في حاجته أو يقف قدر ضرورته ولا يجعله كأنه دكان يبيع فيه ويشتري ؛ لأن في ذلك تضييقا على المسلمين في طرقاتهم ولو كانت متسعة فذلك لا يجوز لا سيما والطرق في هذا الوقت قد ضاقت عن الطريق التي شرعت للناس وذلك على ما قاله العلماء أن يمر جملان معا محملان تبنا في الطريق لا يمس أحدهما الآخر. فانظر رحمنا الله تعالى وإياك إلى حد الطريق المشروع وإلى ما عليه الطريق اليوم فكيف يجوز والحالة هذه شيء مما تقدم ذكره لا سيما إذا انضاف إلى ذلك أن يكون يوم الجمعة أو في وقت منصرف الناس إلى الخمس صلوات أو إلى تفقد أحوالهم في البيع والشراء، وأشد من هذا كله ما يفعله بعضهم من الجلوس بالطبليات على أبواب الجوامع فيضيقون على الناس طريقهم إلى بيت ربهم فهم غاصبون لذلك في وقت الحاجة إليه. وكل من اشترى منهم فقد أعانهم على ما فعلوه من الغصب فهو

---

1) في ظلال القرآن: 2709.

2) نقلا عن: المدخل: 2/79، وقريب منه في الحلية لأبي نعيم وعبد الرزاق.

شريك معهم في الإثم)[1]

وقد أنكر ابن الحاج التعامل مع هؤلاء، بـل اعتـبره حرامـا، فقـال:(وليس ذلـك مخصوصـا بالمقاعـد ليس إلا بـل كـل من غصب شيئا من الأرض فلا ينبغي معاملته إلا من ضـرورة داعيـة إلى ذلك ولم يوجـد منـه بـد كهـذه الـدكاكين الـتي يعملـون بهـا مساطب يقطعونها من طريق المسلمين خارجـة عن حـوانيتهم قد ضاق الطريق بها من الجانبين وسبب هـذا كلـه عـدم النظـر إلى ما كلفه المرء من مراعاة الشرع وغفلة من غفل من بعض العلماء وترك السؤال من العامة كما تقـدم بيانـه غـير مـرة. ألا ترى أن المعنى الذي لأجله منع الشراء من المكاس موجود في الشراء ممن اتصف بشيء مما ذكر إذ أنه لو تحامى المسلمون الشراء منه لأجل ما اتصف به من غصب طريق المسلمين لنزع عن ذلك وإذا كان ذلك كذلك فالشراء منهم إعانـة لهم على مـا يفعلونه، وذلـك لا ينبغي ؛ لأن المشـتري يصـير شـريكا لهم في إثم غصبهم لطريق المسلمين)[2]

وقد نقل من تـورع العلمـاء من ذلـك عن الإمـام أحمـد بن حنبل أنه كان عنـده شـيخ من الصـلحاء يحضـر مجلسـه، وكـان الإمام يعظمه لخيره وبركته، ثم بلغه أن الشيخ ليس جـدار بيتـه بالطين من الخارج، فتركه الإمـام وكـان من عادتـه أنـه إذا جـاء إليه أجلسه إلى جانبه ورحب به، فلما أن بلغـه عنـه ذلـك تركـه ولم يقبل عليه وأعرض عنه، فبقي كـذلك أيامـا، فسـأل الشـيخ أصحاب الإمام عن سبب إعراضه عنه، فـأخبروه أنـه بلغـه أنـك ليست جدار بيتـك بـالطين من خـارج، فجـاء الشـيخ إلى الإمـام فسأله عن موجب هجرانه له، فـأخبره الإمـام بـذلك، فقـال لـه الشيخ:(لي ضرورة في تلييس الجدار، وليس فيه كبـير أمـر في حق المارين)، فقال له الإمام: ذلك غصـب في طـريقهم، فقـال له الشيخ: هو نزر يسير، فقال له الإمام:(اليسير والكثـير سـواء في حق المسلمين)، فقال له: كيـف أفعـل؟، فقـال لـه الإمـام: (أحـد أمـرين: إمـا أن تزيـل التلـييس، وإمـا أن تنقص الجـدار

---

1) المدخل: 2/79.

2) المدخل: 2/79.

وتدخله في ملكك قدر التلبيس، فتبنيه على ذلك ثم تليسه بعد ذلك)، فلم يكلمه الإمام حتى امتثل ما أمره به(1).

وليس هذا خاصا بالمتورعين فقط، بل هو من الأحكام الشرعية التي نص عليها الفقهاء، ولا مجال لطرح مسائلها هنا، ولكنا نكتفي باقتباس هذا النص من المبسوط لنعلم موقف الشريعة من اغتصاب الطريق، بل هواء الطريق، قال السرخسي:(وإذا مال حائط الرجل أو وهي فوقع على الطريق الأعظم فقتل إنسانا فلا ضمان على صاحبه لأنه لم يوجد منه صنع هو تعد فإنه وضع البناء في ملكه فلا يكون متعديا في الوضع ولا صنع له في مثل الحائط، ولكن هذا إذا كان بناء الحائط مستويا، فإن كان بناه في الأصل مائلا إلى الطريق فهو ضامن لمن يسقط عليه، لأنه متعد في شغل هواء الطريق ببنائه، وهواء الطريق كأصل الطريق حق المارة، فمن أحدث فيه شيئا كان متعديا ضامنا، فأما إذا بناه مستويا فإنما شغل ببنائه هواء ملكه وذلك لا يكون تعديا منه)(2)

وقد يقاس على هذا كله اتخاذ الأولاد الطرق ملاعب لهم، بحيث يؤذون المارة، بل قد يؤذون أنفسهم عندما يتعرضون للحوادث بسبب ذلك.

وهذا ما يستدعي تدخل أولي الأمر بوضع محال خاصة للعب تقي الأولاد كما تقي المجتمع من مخاطر اللعب في الطرق، واستغلالها في غير ما وضعت له.

إماطة الأذى عن الطريق:

وردت النصوص الكثيرة التي ترغب في تنظيف الطرق وإماطة الأذى عنها بما يفيد من مجموعها وجوب ذلك، وعلى الأقل وجوب عدم التسبب في اتساخها ومن تلك النصوص قوله ﷺ بصيغة الأمر الذي يفيد الوجوب:(نح الأذى عن طريق المسلمين)(3)، وقال ﷺ:(أمط الأذى عن الطريق فإنه لك

1) المدخل: 2/79.

2) المبسوط: 27/9.

صدقة)(1)، وقال ﷺ:(يا أبا بـرزة أمـط الأذى عن الطريـق فـإن لك بذلك صدقة)(2)

وأخبر ﷺ عن الجزاء العظيم المعـد لمن فعـل هـذا، فقـال ﷺ:(مر رجـل بغصـن شـجرة على ظهـر الطريـق فقـال: واللـه لأنحين هذا عن طريق المسلمين لا يـؤذيهم؛ فأدخـل الجنـة)(3)، وقال ﷺ:(كانت شجرة في طريـق النـاس تـؤذي النـاس فأتاهـا رجل فعزلها عن طريق الناس، قال: فقال رسول الله ﷺ:(فلقد رأيته يتقلب في ظلها في الجنة)(4)

ويدخل في هذا تنظيف جميع المحال العامة، كمـا قـال ﷺ: (عرضـت علي أجـور أمـتي حـتى القـذاة يخرجهـا الرجـل من المسـجد، وعرضـت علي ذنـوب أمـتي فلم أر ذنبـا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها)(5)

ويدخل في هذا الباب مـا ذكرنـاه من التسـبب في حصـول الأذى في الطريـق، وممـا ورد التنصـيص عليـه بالخصـوص، بـل اعتباره من الملاعن قضاء الحاجة في الطريـق، قـال ﷺ:(اتقـوا اللعانين الذي يتخلى في طريق الناس وأفـنيتهم)(6)، وقـال ﷺ: (من سل سخيمته(7) على طريـق عـامر من طـرق المسـلمين فعليه لعنة الله وملائكتـه والنـاس أجمعين)(8)، وقـال ﷺ:(اتقـوا

---

3) رواه ابن حبان .

1) رواه البخاري في الأدب المفرد باب إماطة الأذى رقم (228)

2) رواه الطبراني في الكبير.

3) رواه أحمد ومسلم .

4) رواه أحمد والخرائطي في مكارم الأخلاق.

5) رواه أبو داود والترمذي وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

6) رواه ابن حبان .

7) يعنى الغائط والنجو النهاية [2/351]

8) رواه الطبراني في الأوسط والحاكم .

الملاعن الثلاث: أن يقعد أحـدكم في ظـل يسـتظل فيـه، أو في طريق، أو في نقع ماء)(1)

احترام الطريق:

وهو الأدب الثالث، وهو مكمل للأدب السابقين، لأنه يراعي العـابرين في الطريـق، فلا يـؤذيهم، أو يمسـهم بمـا يحـد من حـريتهم، وقـد أشـار إليـه قولـه ﷺ:(إيـاكم والجلـوس على الطرقات، فإن أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريـق حقهـا: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بـالمعروف، والنهي عن المنكر)(2)

وقـد جمـع الطحـاوي بين الآثـار الناهيـة عن الجلـوس في الطرقـات والآثـار المبحيـة لـذلك، بعـد أن أورد جملـة منهـا بأسانيده، فقـال:(فتأملنـا مـا في هـذه الآثـار فوجـدنا فيهـا نهي رسول اللـه ﷺ عن الجلـوس بالصـعدات، ثم أبـاح بعـد ذلـك مـا أباحه من الجلوس فيها على الشرائط الـتي اشـترطها على من أباحه ذلك منها، فوقفنا بذلك على أن نهيـه كـان على الجلـوس فيها إنمـا كـان على الجلـوس الـذي ليس معـه الشـرائط الـتي اشترطها عند إباحته الجلوس فيها على من آثـر أن يجلس فيهـا وعلى أن إباحته الجلوس فيها مضمن بالشرائط التي اشـترطها في إباحته الجلوس فيها على من أباحه ذلك منها وفي ذلـك مـا قد دل على تباين نهيه ﷺ وتبـاين إباحتـه، وأن كـل واحـد منهمـا لمعنى ليس في الآخر منهما وفي هذه الآثار ما يدل على إباحـة الناس الاستعمال من طرقهم العامة ما لا ضـرر فيـه على أحـد من أهلها)(3)

ولكن هذه الإباحة بهذه الشرائط مقيدة بمـا لا يستضـر بـه الناس، قال الطحاوي معقبا على كلامه السابق:(وإذا كـان ذلـك كذلك كان معقـولا أن الجلـوس فيهـا إن كـان ممـا يضـيق على المارين بها جلوس الجالسين بها إياها غير داخل فيمـا أباحـه ﷺ

1) رواه أحمد.

2) رواه أحمد والبيهقي وأبو داود.

3) مشكل الآثار: 1/154.

منها، وأن ذلك راجع إلى ما في حديث سهل بن معاذ الجهني عن أبيه أن رسول الله ﷺ أمر مناديا في بعض غزواته لما ضيق الناس المنازل وقطعوا الطرقات فنادى :(أن من ضيق منزلا وقطع طريقا فلا جهاد له)(1))(2)

7 ـ آداب المعاشرة مع أصناف الناس

من أصول الآداب التي ينبغي على المربي أن يعلمها من يربيه، ويحرص على ذلك، تعليمه كيفية التعامل مع أصناف الناس بحسب منازلهم ليعامل كل واحد منهم بما تقتضيه منزلته من معاملة، فقد يصلح لصنف من الناس ما لا يصلح مع غيره، بل قد يكون نفس التصرف حسنة مع قوم سيئة مع غيرهم.

كما روي أن فتى جاء إلى سفيان بن عيينة من خلفه فجذبه وقال: يا سفيان حدثني، فالتفت سفيان إليه وقال:(يا بني من جهل أقدار الرجال فهو بنفسه أجهل)، فهذا التصرف الذي فعله هذا الفتى قد يصلح مع أصدقائه، ولكنه لا يصلح بأي حال من الأحوال مع شيخه الذي يريد أن يتلقى عليه العلم.

وقد نبه إلى هذا الاختلاف في التعامل مع الناس قوله تعالى: ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ (النور:63)، فمما قال سعيد بن جبير ومجاهد في تفسيرها: قولوا يا رسول الله، في رفق ولين، ولا تقولوا يا محمد بتجهم، وقال قتادة: أمرهم أن يشرفوه ويفخموه.

وإلى ذلك الإشارة أيضا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الحجرات:3)، فقد أثنى الله تعالى على هؤلاء بهذا السلوك أمام رسول الله ﷺ.

وفي مقابل هؤلاء ورد ذم قوم أساءوا الأدب مع رسول الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ

---

1) رواه أحمد وأبو داود.

2) مشكل الآثار: 1/154.

أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (الحجرات:4)

انطلاقا من هذا تحـدث العلمـاء بتفصـيل شـديد عن كيفيـة التعامل مع كل صنف من الناس.

ومن أحسـن مـا ورد في ذلـك وأشـمله وأدقـه مـا ورد في [رسالة الحقـوق] [1] للإمـام زين العابـدين بن الحسـين، والـتي شملت خمسين حقاً على الإنسان، ابتداءً من حقوق الله تعـالى إلى حق نفسه ومحيطه ومجتمعه ودولته، وحقوق أهـل الأديـان الأخـرى . وتبـدأ بإجمـال كـالفهرس، ثم تفصـل الحقـوق واحـداً واحداً .

وقد استهل الإمام هذه الرسـالة بقولـه: (اعلم أن للـه عـز وجل عليك حقوقاً محيطة بك في كل حركـة تحركتهـا أو سـكنه سكنتها، أو حال حلتها أو منزلـة نزلتهـا أو جارحـة قلبتهـا أو آلـة تصرفت فيها (بعضها أكبر من بعض)، فـأكبر حقـوق اللـه تعـالى عليك ما أوجب عليك لنفسه من حقه الذي هـو أصـل الحقـوق، ثم ما أوجب الله عز وجل عليك لنفسك من قرنـك إلى قـدمك، على اختلاف جوارحـك، فجعـل عـز وجـل للسـانك عليـك حقـاً، ولسمعك عليك حقاً، ولبصـرك عليـك حقـاً، وليـدك عليـك حقـاً، ولرجلك عليك حقاً، ولبطنـك عليـك حقـاً، ولفرجـك عليـك حقـاً، فهذه الجوارح السبع التي بها تكون الأفعال، ثم جعل عــز وجــل لأفعالك عليك حقوقاً، فجعل لصلاتك عليك حقاً، ولصومك عليك حقـاً، ولصـدقتك عليـك حقـاً، ولهـديك عليـك حقـاً . ثم تخـرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوي الحقوق عليـك فأوجبهـا عليـك حقوق أئمتك، ثم حقوق رعيتك، ثم حقوق رحمـك فهـذه حقـوق يتشعب منها حقوق)

وبعد هذا الذكر المجمل لأنواع الحقوق راح يفصـل مجـامع حقوق كل جهة من الجهات، ومن أمثلتها قوله في حـق الأسـتاذ والمعلم: (وحق سائسك بالعلم التعظيم له، والتوقـير لمجلسـه،

---

[1] صحح روايتهـا بعـد بحثـه في أسـانيدها العلامـة الجلالي في كتابـه جهـاد الإمـام السجاد، ص269، وشرحها العلامة السيد حسن القبـانجي باسـم (شـرح رسـالة الحقـوق للإمام علي بن الحسين زين العابدين)، وذكر شروحها وترجماتها صـاحب الذريعـة: 7/42 ومعجم المطبوعات النجفية/220، وموسوعة مؤلفي الإمامية: 1/233.

وحسن الإستماع إليه، والإقبال عليه، (والمعونة لـه على نفسـك فيما لا غنى بك عنه من العلم، بـأن تفـرغ لـه عقلـك، وتحضـره فهمك، وتزكي له قلبك، وتجلي له بصرك، بـترك اللـذات ونقض الشهوات)، وأن لا ترفع عليه صوتك، ولا تجيب أحـداً يسـأله عن شئ، حتى يكون هو الذي يجيب، ولا تحـدِّث في مجلسـه أحـداً، ولا تغتاب عنده أحداً، وأن تدفع عنه إذا ذكـر عنـدك بسـوء، وأن تستر عيوبه وتظهر مناقبه، ولا تجـالس لـه عـدواً ولا تعـادي لـه ولياً، فإذا فعلت ذلك شهد لك ملائكة الله بأنك قصدته، وتعلمت علمه لله جل اسمه لا للناس)

ومن أمثلتها قوله في حق المسـؤول عن أي رعيـة: (وأمـا حق رعيتك بالسـلطان فـأن تعلم أنهم صـاروا رعيتـك لضـعفهم وقوتـك، فيجب أن تعـدل فيهم، وتكـون لهم كالوالـد الـرحيم، وتغفر لهم جهلهم، ولا تعاجلهم بالعقوبة، وتشكر اللـه عـز وجـل على ما آتاك من القوة عليهم)

ومن أمثلتها قوله في حق التلاميذ على الأستاذ: (وأما حـق رعيتك بالعلم فأن تعلم أن الله عز وجـل إنمـا جعلـك قيمـا لهم فيمـا آتـاك من العلم وفتح لـك من خزائنـه، فـإن أحسـنت في تعليم الناس، ولم تخرق بهم، ولم تضـجر عليهم، زادك اللـه من فضله . وإن أنت منعت الناس علمك، أو خرقت بهم عند طلبهم العلم منك، كان حقاً على الله عز وجل أن يسلبك العلم وبهـاءه ويسقط من القلوب محلك)

ومن أمثلتها قوله في حق الزوجة: (وأما حق الزوجـة فـأن تعلم أن الله عـز وجـل جعلهـا لـك سـكناً وأنسـاً فتعلم أن ذلـك نعمة من الله عليك، فتكرمها وترفق بها، وإن كـان حقـك عليهـا أوجب فــإن لهــا عليــك أن ترحمهــا لأنهــا أســيرك، وتطعمهــا وتكسوها، وإذا جهلت عفوت عنها)

ومن أمثلتها قوله في حق الأم: (وأما حـق أمـك فـأن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحداً، ووقتك بجميع جوارحهـا، ولم تبـال أن تجـوع وتطعمــك، وتعطش وتســقيك، وتعــرى وتكســوك، وتضــحى وتظلك، وتهجر النوم لأجلك، ووقَتْـكَ الحـر والـبرد، لتكـون لهـا،

فإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه)

ومن أمثلتها قوله في حق الأب: (وأما حق أبيك فأن تعلم أنه أصلك، وأنه لولاه لم تكن، فمهما رأيت في نفسك مما يعجبك، فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه، فاحمد الله واشكره، على قدر ذلك)

ومن أمثلتها قوله في حق الأولاد: (وأما حق ولدك فأن تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره و شره، وأنك مسؤول عما وليته به من حسن الأدب والدلالة على ربه عز وجل، والمعونة له على طاعته، فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه (فاعمل في أمره عمل المتزين بحسن أثره عليه في عاجل الدنيا المعذر إلى ربه فيما بينك وبينه بحسن القيام عليه، والأخذ له منه)

ومن أمثلتها قوله في حق الأخ: (وأما حق أخيك فتعلم أنه يدك التي تبسطها، وظهرك الذي تلتجي إليه، وعزك الذي تعتمد عليه، وقوتك التي تصول بها، فلا تتخذه سلاحاً على معصية الله، ولا عدة للظلم لخلق الله، ولا تدع نصرته على نفسه، ومعونته على عدوه، والحول بينه وبين شياطينه وتأدية النصيحة إليه، فإن انقاد لربه وأحسن الإجابة له، وإلا فليكن الله آثر عندك وأكرم عليك منه)

ومن أمثلتها قوله في حق صاحب الفضل: (وأما حق ذي المعروف عليك، فأن تشكره وتذكر معروفه، وتكسبه المقالة الحسنة، وتخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله عز وجل، فإذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سراً وعلانية، ثم إن قدرت على مكافأته يوماً كافأته)

ومن أمثلتها قوله في حق الجليس: (وأما حق جليسك فأن تلين له جانبك، وتنصفه في مجاراة اللفظ ولا تقوم من مجلسك إلا بإذنه، ومن يجلس إليك يجوز له القيام عنك بغير إذنه، وتنسى زلاته وتحفظ خيراته، ولا تسمعه إلا خيراً)

ومن أمثلتها قوله في حق الجار: (وأما حق جارك، فحفظه

غائباً، وإكرامه شاهداً، ونصرته إذا كان مظلوماً، ولا تتبع له عورة، فإن علمت عليه سوءا سترته عليه، وإن علمت أنه يقبل نصيحتك نصحته فيما بينك وبينه، ولا تسلمه عند شديدة، وتقيل عثرته، وتغفر ذنبه، (لا تتبع له عورة، ولا تبحث له عن سوءة لتعرفها، فإن عرفتها منه من غير إرادة منك ولا تكلف، كنت لما علمت حصناً حصيناً وستراً ستيراً، لا تستمع عليه من حيث لا يعلم، ولا تسلمه عند شديدة، ولا تحسده عند نعمة، تقيله عثرته، وتغفر زلته، ولا تذخر حلمك عنه إذا جهل عليك، ولا تخرج أن تكون سلماً له، ترد عنه لسان الشتيمة، وتبطل فيه كيد حامل النصيحة، وتعاشره معاشرة كريمة)

ومن أمثلتها قوله في حق الرفيق: (وأما حق الصاحب، فأن تصحبه بالتفضل والإنصاف، وتكرمه كما يكرمك، ولا تدعه يسبق إلى مكرمة، فإن سبق كافأته، وتوده كما يودك، وتزجره عما يهم به من معصية، وكن عليه رحمة ولا تكن عليه عذاباً)

ومن أمثلتها قوله في حق الشريك في العمل: (وأما حق الشريك، فإن غاب كفيته، وإن حضر رعيته، ولا تحكم دون حكمه، ولا تعمل برأيك دون مناظرته، وتحفظ عليه ماله، ولا تخونه فيما عز أو هان من أمره، فإن يد الله تبارك وتعالى على أيدي الشريكين ما لم يتخاونا)

ومن أمثلتها قوله في حق الغريم المطالب بحقه: (وأما حق غريمك الذي يطالبك، فإن كنت موسرا أعطيته (ولم ترده وتمطله، فإن رسول الله ﷺ قال: مطل الغني ظلم)، وإن كنت معسراً أرضيته بحسن القول، (وطلبت إليه طلباً جميلاً)، ورددته عن نفسك رداً لطيفاً، (ولم تجمع عليه ذهاب ماله وسوء معاملته، فإن ذلك لؤم)

ومن أمثلتها قوله في حق من تعيش معه: (وحق الخليط أن لا تغره ولا تغشه ولا تخدعه، وتتقي الله تبارك وتعالى في أمره (ولا تكذبه، ولا تغفله، ولا تخدعه، ولا تعمل في انتقاضه، عمل العدو الذي لا يبقي على صاحبه، وإن اطمأن إليك استقصيت له على نفسك وعلمت أن غبن المسترسل ربا)

ومن أمثلتها قوله في حق الخصم المدعي: (وحق الخصــم المدعي عليك، فإن كان ما يدعي عليك حقــاً كنت شـاهده على نفسك ولم تظلمه، وأوفيته حقه، وإن كان مـا يـدعي بـه بـاطلاً، رفقت به ولم تأت في أمره غير الرفــق، ولم تسـخط ربـك في أمره . (فإن كان ما يدعي عليك حقاً لم تنفسـخ في حجتــه ولم تعمل في إبطال دعوته، وكنت خصم نفسك له، والحاكم عليهــا، والشاهد له بحقه دون شهادة الشهود . وإن كان مايدعيه باطلاً، رفقت به وردعته وناشدته بدينه، وكسرت حدته عنك بذكر الله، وألقيت حشــو الكلام ولفظــة الســوء الــذي لا يــرد عنــك عاديــة عدوك بل تبوء بإثمه، وبه يشحذ عليك سيف عداوته، لأن لفظــة السوء تبعث الشر، والخير مقمعة للشر)

ومن أمثلتها قوله في حق الخصم المدعى عليه: (وحــق خصـمك الـذي تـدعي عليـه، إن كنت محقــاً في دعــواك أجملت مقاولته، ولم تجحد حقه، (فإن كـان مـا تدعيـه حقــاً أجملت في مقاولته بمخرج الدعوى، فإن للدعوى غلظة في سـمع المـدعى عليه، وقصدت قصد حجتك بالرفق، وأمهل المهلة، وأبين البيان، وألطــف اللطــف، ولم تتشــاغل عن حجتــك بمنازعتــه بالقيــل والقال، فتذهب عنك حجتك، ولا يكون لك في ذلــك درَك)، وإن كنت مبطلاً في دعواك اتقيت الله عز وجل، وتبت إليه، وتــركت الدعوى)

ومن أمثلتهــا قولــه في حـــق المستشـــير: (وأمـــا حـــق المستشير، فإن حضرك له وجـه رأي جهـدت لـه في النصـيحة، وأشرت عليه بما تعلم أنك لو كنت مكانه عملت به، وذلك ليكن منـك في رحمـة ولين، فـإن اللين يـونس الوحشـة، وإن الغلـظ يوحش من موضع الأنس . وإن لم يحضرك له رأي وعـرفت لـه من تثق برأيه وترضى بـه لنفسـك، دللتـه عليـه وأرشـدته إليـه، فكنت لم تأله خيراً، ولم تدخره نصحاً).

ومن أمثلتها قوله في حق المستشار: (وحق المشير عليك أن لا تتهمه فيما لا يوافقك من رأيه، وإن وافقك حمدت الله عز وجل . (فإنمـا هي الآراء وتصـرف النـاس فيهـا واختلافهم، فكن عليه في رأيه بالخيار إذا اتهمت رأيه . فأما تهمته فلا تجــوز لــك

إذا كان عندك ممن يستحق المشاورة، ولا تدع شكره على ما بدا لك من إشخاص رأيه، وحسن وجه مشورته، فإذا وافقك حمدت الله وقبلت ذلك من أخيك، بالإرصاد بالمكافأة في مثلها إن فزع إليك)

ومن أمثلتها قوله في حق المستنصح: (وأما حق المستنصح، فإن حقه أن تؤدي إليه النصيحة على الحق الذي ترى له أن يحمل، ويخرج المخرج الذي يلين على مسامعه، وتكلمه من الكلام بما يطيقه عقله، فإن لكل عقل طبقة من الكلام، يعرفه ويجيبه، وليكن مذهبك الرحمة)

ومن أمثلتها قوله في حق الناصح: (وحق الناصح أن تلين له جناحك، وتصغي إليه بسمعك (حتى تفهم عنه نصيحته)، فإن أتى بالصواب حمدت الله عز وجل، (وقبلت منه وعرفت له نصيحته) وإن لم يوافق رحمته ولم تتهمه، (وعلمت أنه لم يألك نصحاً إلا أنه أخطأ)، ولم تؤاخذه بذلك، إلا أن يكون مستحقاً للتهمة، فلا تعبأ بشئ من أمره على حال)

ومن أمثلتها قوله في حق كبار السن: (وحق الكبير توقيره لسنه، وإجلاله لتقدمه في الإسلام قبلك، وترك مقابلته عند الخصام، ولا تسبقه إلى طريق، ولا تتقدمه، ولا تستجهله، وإن جهل عليك احتملته وأكرمته، لحق الإسلام وحرمته)

ومن أمثلتها قوله في حق صغير السن: (وحق الصغير رحمته في تعليمه، والعفو عنه، والستر عليه، والرفق به، والمعونة له . (والستر على جرائر حداثته فإنه سبب للتوبة، والمداراة له وترك مماحكته، فإن ذلك أدنى لرشده)

وغيرها كثير.. انطلاقا من هذا سنذكر هنا بعض التفاصيل المرتبطة ببعض أصناف الناس مما يحتاج الولد إلى تعلمه والاهتمام به:

مع الكبار:

فالكبار ذوو نفسيات خاصة، فلذلك يحتاجون إلى معاملة خاصة، وقد نص على هذه المعاملة الخاصة فوله تعالى: ﴿ إِمَّا

يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (الاسراء:23)، فمع أن الوصية بالوالدين عامة ومطلقة في القرآن الكريم إلا أنه خص الكبر بمزيد الإحسان، وضرورة القول الحسن لما تستلزمه هذه الفترة من ذلك.

وقد رود في السنة الحظ على احترام الكبار، ومعاملتهم بما يليق بهم من معالمة تناسب مع احوالهم النفسية، قال ﷺ: (من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف حق كبيرنا فليس منا)(1)، وقد ورد الحديث بصيغ مختلفة تبين في مجموعها طريقة معاملة الكبير، ومن تلك الصيغ، قوله ﷺ:(ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا)(2)، وقال ﷺ:(ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا)(3)، وقال ﷺ:(ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه)(4)

بل إن رسول الله ﷺ اعتبر إكرام الشيوخ من إجلال الله، فقال ﷺ:(إن من إكرام جلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم والإمام العادل وحامل القرآن لا يغلو فيه ولا يجفو عنه)(5)، وقال ﷺ:(من تعظيم جلال الله عز وجل إكرام ذي الشيبة في الإسلام، وإن من تعظيم جلال الله إكرام الإمام المقسط)(6)

وجاء أخوان إلى رسول الله ﷺ، ليحدثاه بحادثة وقعت لهما، وكان أحدهما أكبر من أخيه، فاراد أن يتكلم الصغير، فقال له النبي ﷺ:(كبر كبر)(7) أي أعط الكبير حقه، ودع لأخيك الأكبر الكلام.

---

1) رواه البخاري في الأدب وأبو داود.

2) رواه الترمذي (راجع أحاديث الترمذي باب ما جاء في رحمة الصبيان كتاب البر رقم (1920، 1921، 1922)، وأحمد عن أبي أمامة (5/257)

3) رواه أحمد والترمذي والحاكم.

4) رواه أحمد والحاكم.

5) رواه ابن عدي والبيهقي والخرائطي في مكارم الأخلاق.

6) رواه ابن الضريس .

مع الأصدقاء:

من أهم ما ينبغي أن يحرص عليه المربي تعليم ابنه أو من تكفل بتربيه حسن العشرة مع أقرانه من إخوانه وأصدقائه، لأن حسن علاقتهم بهم هو الدليل على حسن خلقه وكرم أدبه.

وقد صرحت النصوص الكثيرة بقيمة الصداقة والأخوة، ومالها من حقوق، وأول ما يستشف منه من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ (النور:61) فقد قرن الله تعالى في هذه الآية الصداقة بالقرابة القريبة، وأباح للصديق أن يأكل من بيت صديقه بدون حرج.

بل إن الله تعالى يطلق على الصداقة لقبا عظيما، فيسميها الأخوة، وكأن الأصدقاءِ ذوو أب واحد هو الإيمان والإسلام، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:11)، وقال تعالى: ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ (الأحزاب:5)

بل إن الله تعالى حصر علاقة المؤمنين في الأخوة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات:10)

وورد في السنة النصوص الكثيرة التي تعظم هذه العلاقة، وتبين أصولها وكيفية التعامل معها، وقد ذكر ﷺ الأصل الأكبر لذلك، فقال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (1)

انطلاقا من هذا، ومن أهمية تبيين المربي آداب العلاقات بين من يربيه وأصدقائه وإخوانه، نحاول هنا استعراض ما أمكن

---

7) رواه البخاري ومسلم.

1) رواه البخاري:1/10.

من هـذه الآداب على حسـب مـا ذكـر علمـاء السـلوك من المسلمين، وعلى حسب ما كـانت عليـه هـذه العلاقـة العظيمـة في عهد السلف .

وسنذكر هذه الآداب مفرقة مع شـواهدها، وهي تـدل على الأصول التي تستند إليها هذه العلاقة، ليقاس عليها غيرها(1).

فمن تلك الآداب معرفة أسمائهم وبلدانهم ونحو ذلك، لأن العلاقة تنطلق أصلا من المعرفة، قال ابن عمر :(رآني النبي ﷺ ألتفت فقـال:(إلام تلتفت؟) قلت: إلى أخ لي أنـا في انتظـاره فقـال ﷺ:(إذا أحببت رجلاً فسله عن اسـمه واسـم أبيـه وجـده وعشيرته ومنزله فإن مرض عدته وإن استعان بك أعنته)(2)

ومنهـا الصـفح عن عـثراتهم وتـرك تـأنيبهم عليهـا، قـال الفضيل بن عياض:(الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان)

ومنهـا قلـة الخلاف ولـزوم مـوافقتهم فيمـا يبيحـه العلم والشريعة، قال أبو عثمـان:(موافقـة الإخـوان خـير من الشـفقة عليهم)

ومنهـا أن يحمـدهم على حسـن ثنـائهم وإن لم يسـاعدهم باليد، قال علي :(من لم يحمل أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن)

ومنها ألا يحسدهم على ما يرى عليهم من آثـار نعمـة اللـه بل يفرح بذلك ويحمد الله على ذلك كما يحمده إذا كـانت عليـه فـإن اللـه تعـالى ذم الحاسـدين على ذلـك بقولـه تعـالى: ﴿ أَمْ يَحْسُـدُونَ النَّاسَ عَلَى مَـا آتَـاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْـلِهِ فَقَـدْ آتَيْنَـا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ (النساء: 54)

ومنها سلامة قلبه معهم والنصحية لهم وقبولها منهم لقوله تعـالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَـلِيمٍ﴾ (الشـعراء:89)، وقـال

---

1) انظر تفاصيل هذه الآداب وغيرها في: آداب العشرة وذكر والصحبة والأخوة، لأبي البركات الغزني.

2) قـريب منـه في: الطـبراني في الكبـير عن ابن عمـر، والخـرائطي في مكـارم الأخلاق.

سري السقطي :(من أجل أخلاق الأبرار سلامة الصدر للإخــوان والنصيحة لهم)

ومنها ألا يعدهم ويخالفهم فإنه نفاق، قال الثــوري :(لا تعــد أخاك وتخلفه فتعود المحبة بغضة)

ومنها ملازمة الحياء معهم، قال الإمام علي :(أحيـوا الحيـاء بمجالسة من يستحيا منه)، وقال أحمـد بن حنبـل :(مـا أوقعـني في بلية إلا صحبة من لا أحتشمه)

ومنهـا أن يـراعي في صـحبة أخوانـه صـلاحهم لا مـرادهم ودلالته على رشدهم لا على ما يحبونه، قال أبو صـالح المـزي : (المؤمن من يعاشرك بالمعروف ويدلك على صلاح دينك ودنياك والمنــافق من يعاشــرك بالمماذعــة ويــدلك على مــا تشــتهيه والمعصوم من فرق بين ترك الأذى)

ومنها حمل كلامهم على أحسـن الوجـوه مـا وجـدت لـذلك سـبيلا، قـال سـعيد بن المسـيب :(كتب إلي بعض إخـواني من الصحابة أن ضع أمر أخيك على الأحسن ما لم تغلب)

ومنهـا الإغضـاء عن الصـديق في بعض المكـاره، قـال ابن المبــارك:(من اســتخف بالعلمــاء ذهبت آخرتــه ومن اســتخف بالأمراء ذهبت دنياه ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته)

ومنها ألا تقطع صديقاً بعـد مصـادقته ولا تـرده بعـد قبـول، كمـا قـال حمـدون القصـار:(اقبلـوا إخـوانكم بالإيمـان وردوهم بالكفر فإن الله سبحانه وتعالى أوقع قدسية الصداقة)

ومنها ألا يضيع صـداقة صـديق بعـد ود فإنهـا عزيـزة وكتب عالم إلى من هو مثله:(أن اكتب لي بشيءٍ ينفعني في عمــري) فكتب إليه:(بسم الله الرحمن الرحيم. اســتوحش من لا إخــوان له وفـرط المقصـر في طلبهم وأشـد تفريطـاً من ظفـر بواحـد منهم فضيعه ولوجد أن الكبريت الأحمر أيسـر من وجدانـه وإني أطلبه منذ خمسين سنة ولم أجد إلا نصف صديق) .

ومنها إيثارهم بالكرامة على نفســه، قـال أبـو عثمـان:(من عاشر الناس ولم يكرمهم وتكبر عليهم فذلك لقلة رأيـه وعقلـه

فإنه يعادي صديقه ويكرم عدوه فإن إخوانه في الله أصدقاؤه ونفسه عدوه) ، وقال القاسم بن محمد:(قد جعل الله في الصديق البار عوضاً من الرحم المدبر)

ومنها حفظ أسرارهم، قيل:(أفشى رجل لصديق له سرا من أسراره فلما فرغ قال له: حفظته قال: لا بل نسيته)

ومنها بذل المشورة لهم وقبولها منهم، كما قال الله تعالى: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾(آل عمران:159)

ومنها قلة مخالفتهم في أسباب الدنيا لأنها أقل خطراً من أن يخالف فيها أخ من الأخوان، قال يحيى بن معاذ الرازي: (الدنيا بأجمعها لا تساوي غم ساعة فكيف بغم طول عمرك وقطع إخوانك بسببها مع قلة نصيبك منها)

ومنها ترك المداهنة في الدين، قال سهل بن عبد الله التستري :(لا يشم رائحة الصدق من داهن نفسه أو غيره)

ومنها مجانبة التباغض والتدابر والتحاسد لقوله ﷺ:(إياكم والظن! فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك)(1)

ومنها قبول العذر من فاعله صدق أو كذب لقول رسول الله ﷺ:(من اعتذر إليه أخوه بمعذرة فلم يقبلها كان عليه من الخطيئة مثل صاحب مكس) (2)

ومنها التسارع إلى قضاء حاجة رافعها إليك، لقول الإمام جعفر الصادق:(إني لأسارع إلى قضاء حوائج الإخوان مخافة أن يستغنوا عني بردي إياهم)

---

1) رواه مالك، وأحمد، ومسلم وأبو داود والترمذي .

2) ابن ماجة عن جودان (جودان غير منسوب ويقال ابن جودان سكن الكوفة مختلف في صحبته. تهذيب التهذيب (2/122).

ومنها الصبر على جفاء الإخوان وإسقاط التهمة عنهم بعد صحة الأخوة، قال يحيى بن أكثم: لما حضرت علقمة العطار الوفاة قال لابنه:(يا بني إذا صحبت الرجال فاصحب من إذا أخدمته صانك وإن صحبته زانك وإن تحركت بك مؤنة صانك وإن أمددت بخير مد وإن رأى منك حسنة عدها أو سيئة سترها وإن أمسكت ابتدأك أو نزلت بك نازلةٌ واساك وإن قلت صدقك أو حاولت أمراً أمرك وإذا تنازعتما في حق آثراك)

مع الوالدين:

وهو من أهم الآداب التي ينبغي على المربي أن يلقنها لمربيه، وإليها الإشارة في موعظة لقمان ﵇ في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْأِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان:14) على قول من الأقوال(1).

ونحب أن نشير إلى أن هذه الوصية حملت الإشارة إلى ناحية مهمة في بر الولد لوالديه، وهي أن البر لا يعني تحول الابن إلى نسخة طبقة الأصل لوالديه، بل للولد شخصيته المستقلة، فلذلك عقب الله تعالى الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان:15)

وهذا يعني أن للابن حريته الفكرية والحياتية التي لا تتعارض مع بره لوالديه، لأن الفكر والسلوك لا يمكن أن يورث من الوالدين، بل هو من باب القناعات التي تحصل للإنسان بحسب ما لديه من الطاقات والتوجهات.

وفي غير هذه الحالة وردت النصوص الكثيرة في الحض على بر الوالدين والإحسان إليهما:

فالله تعالى يقرن بر الوالدين في القرآن الكريم بتوحيده وعبادته، قال تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا

(1) سبق أن ذكرنا الخلاف في اعتبار هذا من قول لقمان ﵇.

أفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (الاسراء:23 ـ 24)، ففي هاتين الآيتين الكريمتين نجد التفاصيل الكثيرة المرتبطة ببر الوالدين وخاصة حال حاجتهما الشديدة إل هذا البر عند كبرهما.

ومثل ذلك في السنة نجد التأكيد على وجوب بِرّ الوالدين والترغيب فيه، والترهيب من عقوقهما:

فرسول الله ﷺ يعتبر رضا الوالدين من رضا الله، قال ﷺ: (رضا الرب في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما)(1)

وكان ﷺ يوصي من يأتيه بالاستعداد لأمر قد يشق على والديه ببرهما والإحسان إليهما، واستئذانهما ليخفف عنهما بعض ما قد ينالانه من الجهد بسبب ذلك، فقد جاء رجل إلى رسول الله فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبويّ يبكيان، فقال رسول الله ﷺ:(ارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما)(2)

ومثل ذلك ما يروى عن معاوية بن جاهمة السلمي: أنه استأذن الرسول ﷺ في الجهاد معه، فأمره أن يرجع ويَبرَ أُمَّه، ولما كرر عليه، قال :(ويحك.. الزم رجلها... فثمّ الجنة)(3)

وكان ﷺ يؤكد على حق المستضعف من الوالدين، وهي الأم، لحاجتها الشديدة إلى ولدها، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحقُّ الناس بحسن صحابتي؟ قال:(أمّك)، قال: ثم من؟ قال:(أمّك) قال: ثم من؟ قال:(أمّك)، قال ثم من؟ قال:(أبوك)(4)، فمقتضى هذا الحديث أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر، وذلك لصعوبة الحمل ثم الوضع ثم الرضاع، زيادة على مشاركتها الأب في التربية.

---

1) رواه الطبراني في الكبير.

2) رواه أصحاب السنن إلا الترمذي بسند صحيح.

3) رواه أحمد في المسند وابن ماجة - واللفظ له -.

4) رواه البخاري ومسلم.

وقد جاءت الإشارة إلى هذا الحق الخاص بالأم في قوله تعالى في وصية لقمان ﷺ: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ (لقمان:14)

وفي مقال هذا نجد التحذير الشديد من عقوق الوالدين، قال ﷺ:(ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال، والديوث. وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمنّان بما أعطى)(1)

ويقرن ﷺ بين العقوق والشرك، فيقول موصيا معاذا بن جبل قال:(لا تشرك بالله شيئاً، وإن قتلت وحرّقت، ولا تعقّنَّ والديك، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك) الحديث(2).

وهذا البر هو سنة المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، وقد روي أنه ﷺ لما مرّ على قبر والدته آمنة بنت وهب بالأبواء حيث دفنت - وهو مكان بين مكة والمدينة - ومعه أصحابه وجيشه وعددهم ألف فارس، وذلك عام الحديبية، فتوقف وذهب يزور قبر أمه، فبكى رسول الله ﷺ وأبكى من حوله، وقال:(استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي(3)،

---

1) رواه النسائي وأحمد والحاكم.

2) رواه أحمد بسند حسن.

3) استدل بعض المنحرفين بهذا الحديث على أن أم رسول الله ﷺ في النار، وهذا من سوء الفهم للحديث، لأن الاستغفار لا يكون إلا لمكلف وأم رسول الله ﷺ ليست مكلفة حتى يستغفر لها، فقد كانت من أهل الفترة. ومن الوجوه التي ذكرها العلماء إجابة عن هذا الفهم المنحرف:

1) أن هذا الفهم يعارض معارضة صريحة قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾(الاسراء: 15) مع قوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ (سبأ:44)

2) أن بكاءه ﷺ على أمه لا يدل على أنها من أهل النار بأي وجه من الوجوه بدليل أنه بكى على إبنه إبراهيم كما في الصحيحين إذ قال ﷺ:(تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون)

3) إن الله تعالى أذن له بزيارة قبرها يدل على أنها مؤمنة وليست كافرة من أهل النار وإلا لتعارض صدر الحديث مع عجزه ناهيك أيضا أن الله تعالى قد نهاه أن يقوم على قبور الكفار والمنافقين بقوله تعالى: ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (التوبة:84)

واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تـذكركم الآخرة)[1]

وهكـذا نـرى القـرآن الكـريم يثـني على يحـيى ﷺ، قـال تعالى: ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً﴾ (مريم:14)

ويخبر عن قول المسيح ﷺ،: ﴿ وَبَـرّاً بِوَالِـدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ (مريم: 32)

مع المستضعفين:

والمراد بهم الفقراء والمعاقين ومن وضـعتهم الحاجـة في مواضع قد يستعف عنها عامة الناس.

وقـد وردت الوصـية بتعظيم الأدب مـع هـذا الصـنف، ففي القرآن الكريم تكـرر الأمـر بالإحسـان إلى هـؤلاء، وهـو لا يعـني الإحسان المادي فقط، بل يشمل كل مظاهر الإحسان،

ففي سورة القرة وحدها ـ وهي السورة الخاصـة بالأحكـام الكبرى في الإسلام ـ نجد ثلاثة مواضع توصي بهؤلاء:

ففي الآية الأولى نجد الوصـية بهـؤلاء من ميثـاق اللـه على بني إسـرائيل، قـال تعـالى: ﴿ وَإِذْ أَخَـذْنَا مِيثَـاقَ بَنِي إِسْـرائيلَ لا تَعْبُـدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِـدَيْنِ إِحْسَـاناً وَذِي الْقُـرْبَى وَالْيَتَـامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَـاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (البقرة:83)

وفي الآية الثانية نجد الإحسـان إلى هـؤلاء من أصـول الـبر المقترنـة بأصـول الـدين، قـال تعـالى: ﴿ لَيْسَ الْبِـرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُـوهَكُمْ قِبَـلَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَلَكِنَّ الْبِـرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَـةِ وَالْكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَـالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّـائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَـدُوا وَالصَّـابِرِينَ فِي الْبَأْسَـاءِ وَالضَّـرَّاءِ وَحِينَ الْبَـأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:177)

---

[1] رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

وفي الآية الثالثة نجد الوصية بهؤلاء مقرونة بالوالدين، باعتبارها من الخير العظيم، قال تعالى: ﴿ يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 215)

وهكذا نجد الوصية بهؤلاء في القرآن الكريم في كل المواضع، ففي الاحتضار يقول تعالى مخاطبا المحتضر، وهو يودع آخر ساعاته من الدنيا: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ (النساء:8)

وعند غمرة النصر يخاطب الله المؤمنين الذي بلوا لأجل الحصول على النصر، مذكرا لهم بحق المستضعفين: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر:7)

بل إن الله تعالى يوصي بهؤلاء المستضعفين، ولو كانوا سببا في أذى للمحسن إليهم، قال تعالى: ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:22)

ولهذا كان من سنة رسول الله ﷺ الإحسان العظيم لهؤلاء، بل كان ﷺ يعيش وكأنه واحد منهم، بل كان ﷺ يدعو أن يكون واحدا منهم، قال ﷺ:(اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين)[1]

قال ابن أبي أوفى يصف رسول الله ﷺ: كان رسول الله ﷺ لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي حاجتهما.

---

1) رواه عبد بن حميد، وابن ماجة والطبراني في الكبير، والضياء.

وكـان ﷺ يوصـي بهـؤلاء المستضـعفين، فيقـول:(أحب الأعمال إلى الله من أطعم مسكينا من جوع أو دفع عنه مغرمـا أو كشف عنه كربا)(1)

ويدخل في الباب الأوامـر الخاصـة برعايـة الخـدم وحسـن عشرتهم، باعتبـارهم من المستضـعفين، قـال ﷺ:(هم إخـوانكم جعلهم اللـه تعـالى تحت أيـديكم فـأطعموهم ممـا تـأكلون وأكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما لا يطيقون)(2)

وكـان آخـر كلامـه ﷺ وهـو محتضـر:(الصـلاة ومـا ملكت أيمانكم)

وكان ﷺ نعم القدوة في ذلك، قـال أنس :(خـدمت رسـول الله ﷺ عشر سنين فما قال لشيءٍ فعلته: لم فعلته، ولا لشـيءٍ لم أفعله لم لا فعلته)(3)

ثانيا ـ المساهمة في التنمية الاجتماعية

قد يكون الفرد المسلم ملتزما بكـل مـا تتطلبـه حياتـه في المجتمع من سـلوك وآداب، ولكنـه يظـل فـردا حياديـا، وجـوده كعدمـه إن لم تتشـكل شخصـيته بمـا يجعلهـا فاعلـة لا منفعلـة، ومؤثرة لا متأثرة، وهذا يتطلب تربيتـه على معـان من السـلوك قـد لا يفطن لهـا أو لا يهتم بهـا مـع أن لهـا تأثيرهـا الخطـير في قدرة هذا الفرد على إيصال ما يمكنه من النفع للمجتمع.

وقبـل أن نتحـدث عن الأصـول الجامعـة لهـذا النـوع من التربيـة نحب أن ننبـه إلى حض الشـريعة بمصـادرها المختلفـة على كون المسلم عاملا فاعلا في مجتمعه وأمته لا مجـرد فـرد يعيش لنفسه ويموت لنفسه.

وأول ما نسترشد به في هذا المقام القـرآن الكـريم، فهـو

1) رواه الطبراني في الكبير.

2) رواه عبد الرزاق في المصنف.

3) رواه البخاري ومسلم.

الكتاب الوحيد الذي يشكل الشخصية القوية الفاعلة الحية التي تكون نورا وحياة لنفسها وللمجتمع.

وأول ما يخرجنا به القرآن الكريم من قوقعة الحياد التي يرمينا فيه العجز والكسل هو نهينا عن القعود والتثاقل إلى الأرض:

فيقسم الناس بحسب قعودهم ونشاطهم إلى قسمين، قال تعالى: ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء: 95)

ويخبر عن موقف الكسالى في كل عصر من حنينهم إلى القعود حرصا على أنفسهم وعلى ما يتوهمونه من ممتلكاتهم، قال تعالى عن المنافقين ممن ادعوا صحبة رسول الله ﷺ: ﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة:86)، وفي موقف آخر يرد عليهم بقوله: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة:46)، وقال عن المنافقين من أصحاب موسى عليه السلام: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة:24)

ولهذا يأمر المؤمنين بالنفير مهما كانت أحوالهم، قال تعالى: ﴿ انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:41)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً﴾ (النساء: 71)

ويعاتبهم على تحديث أنفسهم بعدم النفير: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة:38)، بل يتشدد عليهم، فيتوعدهم

بالعذاب الأليم إن لم ينفروا، قال تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التوبة:39)

وهو نفير لا يقتصر على نفيرالجيش فقط، بل هو نفير يشمل الحياة جميعا، فكل في هذه الحياة طاقته التي يخدم الأمة من خلالها، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:122)

والنفير يقتضي السعي والاجتهاد، فلذلك يرد في القرآن الكريم الترغيب في السعي بأجمل صيغ التعبير، قال تعالى عن صاحب موسى ﷺ: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (القصص:20)، وقال تعالى عن صاحب الرسل: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (يّس:20)، وقال تعالى عن صاحب محمد ﷺ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ (عبس:8)

والمؤمن لهذا الاجتهاد والسعي الذي يمشي به في الناس هو في الحقيقة نور يضيء ظلمات المجتمع، قال تعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:122)

ولهذا تضمنت وصية لقمان ﷺ الحض على هذا النوع من التربية، فقال تعالى: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان:17)

انطلاقا من هذه الآيات القرآنية نحاول في هذا المبحث أن نتعرف على الأصول الكبرى لهذا النوع من التربية، وهي فيما نرى ثلاثة أصول: تنمية طاقة التحمل، والاستغناء عن المجتمع، وخدمة المجتمع.

ذلك لأن المجتمع يحتاج أولا إلى أفراد أقوياء لا تؤثر فيهم

البيئة ولا ما يصابون به من أنواع البلاء، ثم هم مستغنون عن مجتمعهم بما لديهم من الطاقات، فليسوا عالة على المجتمع، بل يجتهدون ليجعلوا من مجتمعاتهم عالة عليهم، فخير الناس أنفعهم للناس.

وخير من اتصف بهذه الصفات الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، لأنهم خير من مثل شخصية المسلم في أعلى درجاتها، ولذلك سيكونون مصدرنا الأول في هذا المبحث.

1 ـ تنمية طاقة التحمل

ونريد بها أن يسعى المربي ليرفع ذلك الدلال الذي يسببه الترف في نفس من يربيه، فيتحلى بسببه بالعجز المطلق، أو يجعل كل جهده منصبا على خدمة ما يتطلبه ترفه من خدمات، فيصيرا عبدا لترفه وأهوائه.

وإلى هذا الأصل الإشارة بقوله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران:186)، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:155)، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (محمد:31)

فالله تعالى يحضر الأنفس المؤمنة لاستقبال البلاء بما يخبر به من سننه في خلقه وسننه في المؤمنين، حتى تتأدب الأنفس بأدب الصبر العظيم الذي يجعل لها الطاقة على تحمل البلاء.

وهو يخبر أن المقصد من البلاء، ليس ذات البلاء، وإنما تمحيص الأنفس، وتبيين حقيقتها، والتفريق بين الطيب والخبيث، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:179)

بل إن الله تعالى يجعل لمن نجح في امتحان البلاء الشديد الإمامة في الأرض، والإمام في الاصطلاح القرآني هـو من كـان قائدا للنـاس وقـدوة لهم، قـال تعـالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْـرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُـكَ لِلنَّاسِ إِمَامـاً قَـالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:124)

واللـه تعـالى كمـا يخبرنـا بأنـه هـو المبتلي لعبـاده ليمحص المحق من المبطل، فإنه يدعونا إلى أن نمـارس هـذا الأسـلوب مع أنفسنا ومع من نربيه لتمرن على تحمل البلاء.

فالله تعالى ـ مثلا يأمرنا بابتلاء اليتامى للنظـر في قـدرتهم على التعامل السليم مع المال، قـال تعـالى: ﴿ وَابْتَلُـوا الْيَتَـامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُـوا النِّكَـاحَ فَـإِنْ آنَسْـتُمْ مِنْهُمْ رُشْـداً فَـادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْـوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَـا إِسْـرَافاً وَبِـدَاراً أَنْ يَكْبَـرُوا وَمَنْ كَـانَ غَنِيّـاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَـإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ (النساء:6)

وهـو يخبرنـا عن نمـوذج من نمـاذج البلاء الـذي قـام بـه طـالوت لتميـيز جنـوده، فقـال تعـالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَـلَ طَـالُوتُ بِالْجُنُودِ قَـالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَـرٍ فَمَنْ شَـرِبَ مِنْـهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَـةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِـيرَةً بِـإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَـعَ الصَّـابِرِينَ﴾ (البقرة:249)

انطلاقا من هذا، فإن تنمية طاقة التحمل تستند إلى ركنين أساسـيين لا غـنى عنهمـا، ولا غـنى لأحـدهما عن الآخـر، أولهمـا الصبر على الأذى، والثاني هو القدرة على تحمل المشاق.

فقد يكون الشخص صابرا إن حـل بـه الأذى، ولكن ليسـت له القدرة على المبادرة لتحمل المشاق، فيصـير صـبره سـلبيا، يتحمل ما يفاجئه، لا يبادر ليتحمل ما يمكن أن يحتاج إليه.

الصبر على الأذى:

وهو ما ورد في وصية لقمان بعد ذكره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: 17)

لأن مواجهة الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستدعي مواجهة الناس في العادة لهذا الآمر بأصناف الأذى.

لأن هذا الناصح المحتسب لا يواجه عقول الناس بقدر ما يواجه مواطن الشر فيهم، وهي مواطن تأخذها الحمية ويستفزها الشيطان، فلا تسكت عن هذا الآمر المحتسب.

ولهذا أخبر تعالى عن سنته في المرسلين أنهم يتعرضون لكل أنواع البلاء، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الاسراء: 76)، ثم قال بعدها مبينا أن هذا سنته في من أرسل من خلقه: ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ (الاسراء:77)

وأخبر تعالى أنهم كانوا يقولون لأقوامهم، وهم يواجهونهم بأنواع البلاء: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (ابراهيم:12)

ولهذا لما جاء الصحابة إلى رسول الله ﷺ يستنصرونه دلهم على الصبر والتحمل، قال خباب بن الأرت : شكونا إِلَى رَسُول اللَّهِ ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال:(قد كان مِنْ قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمِنْشار فيوضع عَلَى رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عَنْ دينه! واللَّه ليتمن اللَّه هذا الأمر حتى يسير الراكب مِنْ صنعاء إِلَى حضرموت لا يخاف إلا اللَّه والذئب عَلَى غنمه ولكنكم تستعجلون)[1]، وفي رواية:(وهو متوسد بردة وقد لقينا مِنْ المشركين شدة)

---

1) رواه البخاري.

ولا نريد بالصبر هنا الصبر في مواضع المحن فقط، بل هناك من الصبر في ميادين الحياة والتعمل مع الناس ما يحتاج إلى قوة عظيمة، ونحسب أن ما عانى موسى ﷺ من بلاء مع قومه بعد نجاتهم من فرعون أعظم من صبره على كيد فرعون وزبانيته.

ولهذا كان ﷺ يتمثل ذكراه عندما يصيبه أي بلاء، عن ابن مسعود قال: لما كان يوم حنين آثر رَسُول اللَّهِ ﷺ ناسا في القسمة: فأعطى الأقرع بن حابس مائة مِنْ الإبل، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك، وأعطى ناسا مِنْ أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة. فقال رجل: واللَّه إن هذه قسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه اللَّه. فقلت: واللَّه لأخبرن رَسُول اللَّهِ ﷺ فأتيته فأخبرته بما قال فتغير وجهه حتى كان كالصرف ثم قال:(فمن يعدل إذا لم يعدل اللَّه ورسوله؟)، ثم قال:(يرحم اللَّه موسى قد أوذي بأكثر مِنْ هذا فصبر)، فقلت:(لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثا)(1)

وقد ذكرنا في المباحث السابقة أن الصبر أصل مهم من أصول التربية، بل لا يمكن للتربية أن تنجح إن لم ينجح صاحبها في تعلم خلق الصبر، ولذلك لما سئل سهل عن حسن الخلق قال:(أدناه احتمال الأذى، وترك المكافأة، والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه)، وكلها تحتاج إلى الصبر.

ولهذا كان الصالحون يمرنون أنفسهم على هذا الخلق العظيم، ويجعلون عدتهم لمواجهة الأذى، وهو ما اخبر به تعالى عن عباده الصالحين، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون:3)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص:55)، وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ (الفرقان: 63)

ومن أخبار الصالحين التي تمثل هذا المعنى القرآني خير تمثيل ما روي أن إبراهيم بن أدهم خرج يوماً إلى بعض البراري

(1) رواه البخاري ومسلم.

فاستقبله رجل جندي فقال: أنت عبد؟ قال: نعم، فقال لـه: أين العمـران؟ فأشـار إلى المقـبرة، فقـال الجنـدي: إنمـا أردت العمـران؟ فقـال: هـو المقـبرة، فغاظـه ذلـك فضـرب رأسـه بالسـوط فشـجه ورده إلى البلـد فاسـتقبله أصـحابه فقـالوا مـا الخبر؟ فأخبرهم الجندي ما قال له فقالوا، هذا إبراهيم بن أدهم فنزل الجندي عن فرسه وقبَّل يديه ورجليـه وجعـل يعتـذر إليـه، فقيل بعد ذلك له: لم قلت له أنا عبد؟ فقـال: إنـه لم يسـألني: عبـد من أنت بـل قـال: أنت عبـد؟ فقلت: نعم، لأني عبـد اللـه، فلما ضرب رأسي سألت الله له الجنة قيل كيـف وقـد ظلمـك؟ فقال: علمت أنني أؤجـر على مـا نـالني منـه فلم أرد أن يكـون نصيبـي منه الخير ونصيبه مني الشر.

وقد يحسـب بعض المتنطعين المتكلفين أن هـذا غلـو، ولم يدروا أي خير نما من هذا الموقف الذي وقفه إبراهيم مـع ذلـك الجنـدي أو مـع أولئـك النـاس الحضـور، أو مـع أمم من النـاس جاءت بعد ذلك لتهتدي بهذا الموقف العظيم.

ويروى أن داعيا دعا أبا عثمان الحـيري إلى دعـوة ـــ وكـان الداعي قد أراد تجربته ـ فلما بلغ منزله قال لـه: ليس لـه وجـه، فرجع أبو عثمان، فلما ذهب غير بعيـد دعـاه ثانيـاً فقـال لـه: يـا أستاذ ارجع فرجع أبو عثمان، فقال له مثل مقالته الأولى فرجع، ثم دعاه الثالثة وقال: ارجع على ما يوجب الـوقت فرجـع، فلمـا بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمـان، ثم جـاءه الرابعة فرده حتى عامله بذلك مرات، وأبـو عثمـان لا يتغـير من ذلك، فأكب على رجليه وقال:(يـا أسـتاذ إنمـا أردت أن أختـبرك فما أحسن خلقك)، فقال:(إنّ الذي رأيت مني هـو خلـق الكلب، إن الكلب إذا دعي أجاب وإذا زجر انزجر)

وهو موقف عظيم لو تمثـل في المجتمـع لحفـظ المجتمـع من أكثر أسباب الشقاق التي يسببها التعالي والعزة الكاذبة.

ويـروى عن هــذ الصــالح الــذي ربى نفســه على الصــبر الشديد، أنـه اجتـاز يومـاً في سـكة فطـرحت عليـه إجانـة رمـاد فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر ثم جعل ينفض الرمـاد عن ثيابه ولم يقل شيئاً، فقيـل: ألا زبـرتهم؟ فقـال: إن من اسـتحق

النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب.

ويـروى أن أبـا عبـد اللـه الخيـاط كـان يجلس على دكانـه، وكان له حريف مجوسي يستعمله في الخياطـة فكـان إذا خـاط له شيئاً حمل إليه دراهم زائفة، فكان أبو عبد الله يأخذ منــه ولا يخبره بذلك ولا يردّها عليـه، فـاتفق يومـاً أن أبـا عبـد اللـه قـام لبعض حاجتـه، فـأتى المجوسـي فلم يجـده فـدفع إلى تلميـذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهماً زائفاً، فلما نظر إليــه التلميذ عرف أنه زائف فرده عليه، فلما عاد أبو عبد الله أخــبره بـذلك فقـال: بئس مـا عملت. هـذا المجوسـي يعـاملني بهـذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقيهـا في البئر لئلا يغرّ بها مسلماً.

وقال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال؛ قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وتـرك طلب العـثرات، وتحسـين مـا يبـدو من السـيئات، والتمـاس المعـذرة، واحتمـال الأذى، والرجوع بالملامـة على النفس، والتفـرد بمعرفـة عيـوب نفسـه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبـير، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه.

ويروى أنه قيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم فقال: من قيس بن عاصم، قيل ومـا بلـغ من حلمـه؟ قـال: بــينما هـو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسـقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية فقال لها: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى.

وشتمه رجل وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قــرب من الحي وقـف وقـال: إن كـان قـد بقي في نفسـك شـيء فقلـه كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيؤذوك.

ويروى أن علياً دعا غلاماً فلم يجبه فـدعاه ثانيـاً وثالثـاً فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً فقال: أما تسمع يـا غلام؟ قـال: بلى، قال: فما حملـك على تـرك إجـابتي؟ قـال: أمنت عقوبتـك فتكاسلت، فقال: امض فأنت حر لوجه الله تعالى.

ويـروى ن أويسـاً القـرني كـان إذا رآه الصبـيان يرمونـه

بالحجارة فكان يقول لهم: يا إخوتاه إن كان ولا بد فارموني بالصغار حتى لا تدموا ساقي فتمنعوني عن الصلاة.

وقالت امرأة لمالك بن دينار: يا مرائي، فقال: يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة. وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلام سوء فقيل له: لم تمسكه؟ فقال: لأتعلم الحلم عليه.

قال الغزالي بعد سوقه لهذه القصص وغيرها:(فهذه نفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها، ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق. فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه، فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرنا. فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصديقون)[1]

تحمل المشاق:

ويشير إلى هذا الركن قوله تعالى: ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ (مريم:12) أي بجد وعزم، وقد روى عبد اللّه بن المبارك بعضا من ذلك الجد، فقال: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما لّلعب خلقنا.

ومثل ذلك أمره موسى ﷺ بأخذ الكتاب بقوة، قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف:145)

ولهذا أمر ﷺ في أول الدعوة بأمر (قم)، قال تعالى: ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ (المدثر:2)، وقال تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (المزمل:2)

وكأنه تعالى يقول لرسول الله ﷺ ولأصحابه الذين معه:

[1]) إحياء علوم الدين: 3/72.

قم، فـإن القعـود لا يـأتي بشـيء، (إن الـذي يعيش لنفسـه قـد يعيش مستريحا، ولكنه يعيش صغيرا ويموت صغيرا. فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير.. فماله والنوم؟ ومالـه والراحـة؟ وماله والفراش الدافئ، والعيش الهادئ؟ والمتاع المريح؟!)(1)

وقد كان من حكمة الله أن ربى الصحابة على هـذا الجهـد في أول الـدعوة، لأن الـدعوة لا يقـوم بهـا إلا الرجـال أصـحاب الجد والحزم، عن سعيد بن هشام.. أنـه أتى ابن عبـاس فسـأله عن الوتر فقال: ألا أنبئك بـأعلم أهـل الأرض بـوتر رسـول اللـه ﷺ؟ قال:نعم. قال: ائت عائشة فسـلها، ثم ارجـع إلي فـأخبرني بردها عليك..ثم يقـول سـعيد بن هشـام: قلت: يـا أم المؤمـنين أنبئيني عن خلـق رسـول اللـه ﷺ قـالت: ألسـت تقـرأ القـرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن. فهممت أن أقوم، ثم بدا لي قيام رسـول اللـه ﷺ قلت:يـا أم المؤمـنين، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ قالت:ألست تقرأ هذه السـورة: يا أيها المزمل ؟ قلت:بلى. قالت:فإن اللـه افـترض قيـام الليـل في أول هذه السورة ؛ فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولا حـتى انتفخت أقدامهم. وأمسك الله ختامهـا في السـماء اثـني عشـر شهرا. ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فريضة) الحديث(2)

وهذا الجهد والجد تحتاجه كل دعوة وكـل رسـالة، بـل كـل عمل نبيل، لأن الأعمـال العظيمـة أعمـال جـادة لا يقـوم بهـا إلا الجـادون الـذين قـال تعـالى في صـفتهم: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (لأعـراف: 170)

ففي هذا التعبير ما يبين مبلغ الجد الـذي تحملى بـه هـؤلاء المتمسكون بالكتاب الذي يعني الدين كله، يقول سيد قطب:(ن الصيغة اللفظية: يمسكون تصور مدلولاً يكـاد يحس ويـرى، إنهـا صورة القبض على الكتـاب بقـوة وجـد وصـرامة الصـورة الـتي يحب الله أن يؤخذ بها كتابه ومـا فيـه.. في غـير تعنت ولا تنطـع

1) في ظلال القرآن: 3744.

2) رواه أحمد.

ولا تـزمت.. فالجـد والقـوة والصـرامة شـيء والتعنت والتنطع والتزمت شيء آخر.. إن الجد والقوة والصرامة لا تنافي اليسـر ولكنهـا تنـافي التميـع! ولا تنـافي سـعة الأفـق ولكنهـا تنـافي الاسـتهتار! ولا تنـافي مراعـاة الواقـع ولكنهـا تنـافي أن يكـون الواقـع هـو الحكم في شـريعة اللـه! فهـو الـذي يجب أن يظـل محكوماً بشريعة الله)[1]

وهذا التحمل للمشاق يحتاج إلى تمـرين شـديد على ذلـك، وكما ذكر الله تعالى عن اختبار هذه الأمة في أول أمرهـا بقيـام الليل وغيره من التكاليف الشاقة[2] اختبر بـني إسـرائيل برفـع الطور فوقهم حتى يلتزموا بأخذ الكتاب بقوة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَـذْنَا مِيثَـاقَكُمْ وَرَفَعْنَـا فَـوْقَكُمُ الطُّورَ خُـذُوا مَـا آتَيْنَـاكُمْ بِقُـوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:63)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَـذْنَا مِيثَـاقَكُمْ وَرَفَعْنَـا فَـوْقَكُمُ الطُّورَ خُـذُوا مَـا آتَيْنَـاكُمْ بِقُـوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ (البقرة:93)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَـوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُـوَّةٍ وَاذْكُـرُوا مَـا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (لأعراف:171)

وتنفيذ هذا الركن في الواقع يحتاج إلى وضع برنامج تربوي يتمكن من خلالـه المـربي من تـدريب من يربيـه على تحمـل المشاق مرحلـة مرحلـة حـتى يصـل بـه إلى تحقيـق الشخصـية القوية المستعدة لتحمل الأعباء العظيمة.

2 ـ الاستغناء عن المجتمع

وهـو الأصـل الثـاني من أصـول المسـاهمة في تنميـة المجتمع، وهو أصل من الأصول الكبرى لسببين:

الأول: أن المجتمـع الـذي يكتفي أفـراده بطاقـاتهم ــ فلا

1) في ظلال القرآن: 1388.

2) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَـا النَّبِيُّ حَـرِّضِ الْمُـؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَـالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُـونَ﴾ (لأنفـال:65)، ثم قـال في التخفيـف: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (لأنفال:66)

يلقي بعضهم تبعاته على بعض ـ مجتمع قوي، لأن كل فـرد فيـه أمة بنفسه.

الثاني: أن الفرد والمجتمع الذي يصل إلى درجة الاكتفـاء الذاتي سينصـرف بالضـرورة إلى إكفـاء الغـير وإفادتـه، فتصـبح لهـذا الفـرد كمـا للمجتمـع الإمامـة على غـيره من الأفـراد والمجتمعات، وهو المقصد الأكبر الذي يسعى كل فرد قوي، بل كل مجتمع، بل كل أمة إلى تحقيقه.

كمـا قـال تعـالى عن أفـراد هـذه الأمـة: ﴿ وَجَعَلْنَـاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَـا ﴾ (الانبيـاء:73)،ـ وقـال تعـالى: ﴿ وَنُرِيـدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْـــــــعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص:5)، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة:24)، بل أخـبر أن عباد الـرحمن يطلبـون الإمامـة لا على النـاس فقـط، وإنمـا على المتقين أيضـا، كمـا قـال تعـالى في الإخبـار عن دعـائهم: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَـا هَبْ لَنَـا مِنْ أَزْوَاجِنَـا وَذُرِّيَّاتِنَـا قُـرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ (الفرقان: 74)

وقال تعالى عن الأمة القوية التي تكـون لهـا الإمامـة على الأمم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُـوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: 143)،ـ وقال تعـالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران:110)

وهذان السـببان يسـتدعيان تربيـة الفـرد على أن يسـتغني عن مجتمعه قدر طاقتـه، فلا يكـون عالـة عليـه، ولا ثقلا يكلفـه، وقـــد دعت الشـــريعة إلى هـــذه الاســـتغناء عـــبر التوجيهـــات والتشريعات المختلفة، وسنذكر منهـا هنـا على سـبيل المثـال لا الحصر ما قد يساهم في تنمية هذا الجانب في نفس المتربي.

النهي عن السؤال:

ويدل على كون هذا أصلا من أصول الاستغناء قولـه تعـالى يخـبر عن رسـله الكثـيرين: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَـدَى اللَّهُ فَبِهُـدَاهُمُ اقْتَـدِهْ قُـلْ لا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـراً إِنْ هُـوَ إِلَّا ذِكْـرَى لِلْعَـالَمِينَ﴾ (الأنعام:90)، وقال تعالى: ﴿ يَـا قَـوْمِ لا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـراً إِنْ

أَجْـرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَـرَنِي أَفَلا تَعْقِلُـونَ (هـود:51)، وقـال تعالى: اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَـدُونَ (يّـس:21)، وقال تعالى: وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَـالَمِينَ (الشـعراء:109)، وفي (الشـعراء:127)، وفي (الشـعراء:145)، وفي(الشـعراء:164)، وفي(الشـعراء:180) في مواضع من القرآن الكريم على ألسنة الأنبياء المختلفين.

والقرآن الكريم يخبر عن العلة في هذا الاسـتغناء، فيقـول تعالى: أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (الطور:40)، وفي (القلم:46) في موضـعين من القـرآن الكـريم، وذلـك لأن من يطلب من غيره الأجر يثقل عليـه، بخلاف من يكـون خفيفـا مستغنيا، فإنه يكون موضع محبة للناس.

وإلى هـذا الإشـارة بمـا روي أن رجلا جـاء إلى النـبي ﷺ فقال: يـا رسـول اللـه دلـني على عمـل إذا عملتـه أحبـني اللـه تعالى وأحبني الناس؟ فقال ازهـد في الـدنيا يحبـك اللـه وازهـد فيما في أيدي الناس يحبك الناس)[1]

ولهذا ذم اللـه تعـالى السـؤال ومـدح العفـاف في القـرآن الكريم، فقال تعالى: لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافـاً وَمَـا تُنْفِقُـوا مِنْ خَيْـرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (البقرة:273)، أي لا يلِّحون في المسألة[2]،

---

1) رواه ابن ماجـه مرفوعـا: بإسـناد حسـنه بعضـهم قـال الترمـذي وفيـه بعـد، قـال الحافظ:(وليس في رواية من ترك، لكن على هذا الحديث لامعة من أنوار النبوة ولا يمنع كون راويـه ضـعيفا أن يكـون النـبي ﷺ قالـه، قـال الشـعراني:وهـذا الحـديث من الأربعـة أحاديث التي عليها مدار الإسلام وقد نظمها بعضهم بقوله:

عمدة الدين عندنا كلمات أربع من كلام خير البرية

اتق الشبهات وازهد ودع ما ليس يعنيك واعملن بنيه

2) اختلف العلمـاء في النفي هنـا، هـل هـو متوجـه للإلحـاف أم لأصـل السـؤال على قولين:

القول الأول: أنهم متعففون عن المسألة عفة تامة، وهو قول جمهـور المفسـرين، وبهذا يكون التعفف صفة ثابتة لهم، أي لا يسألون الناس إلحاحا ولا غير إلحاح.

القول الثاني: إن المـراد نفي الإلحـاف، أي أنهم يسـألون غـير إلحـاف، وهـو قـول

ويكلفون الناس مال لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن المسألة فقد ألحف في المسألة.

وقد كان ﷺ يربي الصحابة عل الاستغناء والعفاف وعدم مد اليد للناس، قال ﷺ:(ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف، اقرأوا إن شئتم: يعني قوله تعالى: ﴿ لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ (البقرة:273))[1]

وكان يخبرهم بالوعيد الشديد الذي أعده الله لمن يسأل من غير حاجة، قال ﷺ:(من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر)[2]، وقال ﷺ:(لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم)[3]

وكان ﷺ يحدد لهم مقدار الحاجة حتى لا يدعي كل واحد الحاجة مع أنه ليس من أهلها، قال ﷺ:(من سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو كدوحاً في وجهه)، قالوا: يا رسول اللّه وما غناه؟ قال:(خمسون درهماً أو حسابها من الذهب)[4]

ويروى عن رجل من مزينة، أنه قالت له أمه: ألا تنطلق فتسأل رسول اللّه ﷺ كما يسأله الناس، قال: فانطلقت أسأله فوجدته قائما يخطب، وهو يقول:(ومن استعف أعفه اللّه، ومن استغنى أغناه اللّه، ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سال الناس إلحافاً)، فقلت بيني وبين نفسي: لنا ناقة لهي خير

بعض المفسرين منهم الطبري والزجاج، وفي هذا تنبيه على سوء حالة من يسأل الناس إلحافا.

ويدل لهذا القول الأخير قوله ﷺ:(لا تلحفوا في المسألة فوالله لا يسألني أحد منكم شيئا فتخرج له مسألته مني شيئا وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته) رواه الجماعة.

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه مسلم.

3) رواه مسلم.

4) رواه أحمد وأصحاب السنن.

من خمس أواق، ولغلامه ناقة أخرى فهي خـير من خمس أواق، فرجعت ولم أسال)[1]

وعن عطاء بن يسار عن رجل من بني أسد أنه قال: نزلت أنا وأهلي ببقيع الغرقد فقـال لي أهلي: اذهب إلى رسـول اللـه ﷺ فاسأله لنا شيئاً نأكله، وجعلوا يذكرون من حـاجتهم، فـذهبت إلى رسول الله ﷺ فوجدت عنـده رجلا يسـأله ورسـول اللـه ﷺ يقول:(لا أجد ما أعطيك)، فتولى الرجل عنه وهـو مغضـب وهـو يقول: لعمري إنك لتعطي من شئت! فقال رسول اللـه ﷺ:(إنـه يغضـب علي ألا أجـد مـا أعطيـه من سـأل منكم ولـه أوقيـة أو عدلها فقد سأل إلحافا)، قال الأسدي: فقلت للقحة لنا خـير من أوقية[2] قال: فرجعت ولم أسـأله، فقـدم على رسـول اللـه ﷺ بعد ذلك بشعير وزبيب فقسم لنا منه حتى أغنانا الله)[3]، وهـذا الحديث يدل على أن السؤال مكروه لمن لـه أوقيـة من فضـة، فمن سأل وله هذا الحد والعدد والقـدر من الفضـة أو مـا يقـوم مقامها ويكون عدلا منها فهو ملحف، وقـد نقـل القرطـبي عـدم الخلاف في هذا، فقال:(وما علمت أحدا من أهـل العلم إلا وهـو يكـره السـؤال لمن لـه هـذا المقـدار من الفضـة أو عـدلها من الذهب على ظاهر هذا الحديث)[4]

بل ورد ما هو أقل من ذلك، فقـد روي عن علي عن النـبي ﷺ أنه قـال:(من سـأل مسـألة عن ظهـر غـنى اسـتكثر بهـا من رضف جهنم)، قـالوا: يـا رسـول اللـه، ومـا ظهـر الغـنى؟ قـال:(عشاء ليلة)[5]

وروي عن سهل بن الحنظلية عنه ﷺ قال:(من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النـار)، فقـالوا: يـا رسـول اللـه ومـا

---

1) رواه أحمد.

2) رواه قال مالك: والأوقية أربعون درهما.

3) رواه مالك في الموطأ.

4) القرطبي: 3/343.

5) رواه الدارقطني.

يغنيه؟ ـ وفي رواية: وما الغنى الذي لا تنبغي معه المسـألة؟ ـــ، فقال ﷺ:(قدر ما يغديه ويعشيه ـ وفي رواية ـ أن يكون له شـبع يوم وليلة أو ليلة ويوم ـ)[1]

وهذا هو الذي أخذ به أهل الورع ـ وهو الدرجة المثلى التي يسعى المربون لتحقيقها ـ، وقد سـئل الإمـام أحمـد بن حنبـل ـ وهو إمام من أئمة الورع ـ عن المسألة متى تحل، فقال:(إذا لم يكن ما يغذيـه ويعشـيه على حـديث سـهل بن الحنظليـة)، قيـل لأبي عبدالله: فإن اضطر إلى المسألة؟ قال: هي مباحـة لـه إذا اضطر. قيل له: فإن تعفف؟ قال: ذلك خير له. ثم قال: ما أظن أحـدا يمـوت من الجـوع، اللـه يأتيـه برزقـه)، وقـال إبـراهيم بن أدهم:(سؤال الحاجات من النـاس هي الحجـاب بينـك وبين اللـه تعالى، فأنزل حاجتك بمن يملـك الضـر والنفـع، وليكن مفزعـك إلى الله تعالى يكفيك الله ما سواه وتعيش مسرورا)

وقد أرشد هؤلاء إلى البديل الشرعي الصـحيح، والـذي هـو منزلة أهل الكمال، وهو الالتجاء لله وحد، وهـو مـا عـبر عنـه ﷺ بقوله:(من نزلت به فاقة فأنزلهـا بالنـاس لم تسـد فاقتـه، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله تعالى له برزق عاجل أو آجل)[2]، وفي رواية:(أرسل الله له بالغنى، إما بموت عاجـل أو غنى آجل)[3]، وقـال ﷺ:(من جـاع أو احتـاج فكتمـه عن النـاس وأفضى به إلى الله كان حقـا على اللـه أن يفتح لـه قـوت سـنة من حلال)[4]

وهـذا لا يختص بمـا يتعلـق بحاجـات المعيشـة فقـط ــ بـل يشمل كل شيء إلا السؤال المرتبط بالعلم ـ فقد كان ﷺ يبـايع الناس على أن لا يسألوا شـيئا، فعن عـوف بن مالـك قـال: كنـا عند رسول الله ﷺ سبعة أو ثمانيـة أو تسـعة فقـال: ألا تبـايعون

---

1) رواه أبو داود.

2) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

3) رواه الحاكم.

4) رواه الطبراني.

رسول الله ﷺ وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك حتى قالها ثلاثا؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه، فقال قائل: يا رسول الله! إنا قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك؟ قال:(أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية - قال: لا تسألوا الناس شيئا) قال: ولقد كان بعضد، أولئك النفر يسقط - سوطه فما يسأل أحدا أن يناوله إياه(1).

وقد روي من تطبيق هذا عن بعض المتأخرين، وهو أبو حمزة الخراساني، وهو من كبار العباد أنه سمع أن أناسا بايعوا رسول الله ﷺ ألا يسألوا أحدا شيئا، فقال أبو حمزة: رب! إن هؤلاء عاهدوا نبيك إذ رأوه، وأنا أعاهدك ألا أسأل أحدا شيئا؛ قال: فخرج حاجا من الشام يريد مكة فبينما هو يمشي في الطريق من الليل إذ بقي عن أصحابه لعذر ثم أتبعهم، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق؛ فلما حل في قعره قال: استغيث لعل أحدا يسمعني. ثم قال: إن الذي عاهدته يراني ويسمعني، والله! لا تكلمت بحرف للبشر، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مر بذلك البئر نفر، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا: إنه لينبغي سد هذا البئر؛ ثم قطعوا خشبا ونصبوها على فم البئر وغطوها بالتراب؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال: هذه مهلكة، ثم أراد أن يستغيث بهم، ثم قال: والله! لا أخرج منها أبدا؛ ثم رجع إلى نفسه فقال: أليس قد عاهدت من يراك؟ فسكت وتوكل، ثم استند في قعر البئر مفكرا في أمره، فإذا بالتراب يقع عليه؛ والخشب يرفع عنه، وسمع في أثناء ذلك من يقول: هات يدك! قال: فأعطيته يدي فأقلني في مرة واحدة إلى فم البئر؛ فخرجت فلم أر أحدا؛ فسمعت هاتفا يقول: كيف رأيت ثمرة التوكل؛ وأنشد:

نهاني حيائي منك أن	فأغنيتني بالعلم منك
تلطفت في أمري	إلى غائبي واللطف
تراءيت لي بالعلم حتى	تخبرني بالغيب أنك في
أراني وبي من هيبتي لك	فتؤنسني باللطف منك

---

1) رواه أبو داود وغيره.

وتحيي محبا أنت في وذا عجب كيف الحياة

فهذا التصرف، وإن كنا نـرى عـدم جـوازه شـرعا[1] إلا أن فيه فائدة، وهي ان الله تعالى يمن على من اكتفى به واستغنى به عن أي حاجة لخلقه، وهذه الكفاية قـد تكـون بالأسـباب على ما تتطلبه الحكمة، وقد تكون من عـالم القـدرة المجـردة، قـال ابن العربي تعليقا على الموقف السابق: هـذا رجـل عاهـد اللـه فوجـد الوفـاء على التمـام والكمـال، فاقتـدوا بـه إن شـاء اللـه تهتدوا[2].

الحض على العمل والتكسب:

وهو الأصل الثاني من أصول الاستغناء عن المجتمـع، وقـد يكون فرعا عما قبله أو نتيجـة لـه، لأن من اسـتغنى عن سـؤال الناس لا بد أن يضطر للعمل والتكسب حتى يستغني بعمله عن سؤال الناس.

ولهذا دل ﷺ السائل الذي جاء يسأله الصـدقة على العمـل والكسب، فقـد روي أن رجلا من الأنصـار أتى النـبي ﷺ فسـأله فقال: أما في بيتك شيء؟ فقال بلى حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه المـاء فقـال: ائتـني بهمـا، فأتـاه بهمـا، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده فقـال: من يشـتري هـذين؟ فقـال رجل: أنا آخذهما بدرهم، فقـال رسـول اللـه ﷺ:(من يزيـد على درهم مـرتين أو ثلاثـا؟)، فقـال رجـل: أنـا أخـذهما بـدرهمين، فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال: اشـتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فائتني بـه، فلما أتاه به شد فيه رسول الله ﷺ عـودا بيـده، ثم قـال:(اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوما)، ففعل وجاء فأصـاب عشـرة دراهم، فاشـترى ببعضـها ثوبـا وببعضـها طعامـا، فقـال

---

1) وقد أنكر أبو الفرج الجوزي هذا التصرف غاية الإنكار، فقال: سـكوت هـذا الرجـل في هذا المقـام على التوكـل بزعمـه إعانـة على نفسـه، وذلـك لا يحـل؛ ولـو فهم معـنى التوكـل لعلم أنـه لا ينـافي اسـتغاثته في تلـك الحالـة؛ كمـا لم يخـرج رسـول اللـه ﷺ من التوكل بإخفائه الخروج من مكة، واستئجاره دليلا، واسـتكتامه ذلـك الأمـر، واسـتتاره في الغار، وقوله لسراقة: (اخف عنا). فالتوكل الممدوح لا ينال بفعل محظور؛ وسـكوت هـذا الواقع في البئر محظور عليه. انظر: تلبيس إبليس، نقلا عن: القرطبي: 9/308.

2) القرطبي: 9/308.

رسول الله ﷺ:(هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تحل إلا لثلاث: لذي فقر مدقع(1)، ولذي غرم(2) مفظع(3)، ولذي دم موجع(4))(5)

ويدل لهذا الأصل الأدلة الكثيرة المستفيضة من القرآن الكريم:

فالله تعالى يقرن الضرب في الأرض للعمل والتكسب بالجهاد في سبيل الله، بل يقدمه عليه، قال تعالى: ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ (المزمل:20)، قال القرطبي:(سوى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على نفسه وعياله، والإحسان والإفضال، فكان هذا دليلا على أن كسب المال بمنزلة الجهاد؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله)(6)

وقد وردت النصوص الكثيرة الدالة على اعتبار العمل والكسب نوعا من الجهاد في سبيل الله، فقد روي أنه ﷺ قال: (أبشر، فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله، والمحتكر في سوقنا كالملحد في كتاب الله)(7)

ورأى بعض الصحابة شاباً قوياً يسرع إلى عمله، فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله! فرد رسول الله ﷺ عليهم بقوله: (لا

---

1) المدقع هو الشديد الملصق صاحبه بالدقعاء يعني الأرض التي لا نبات بها.

2) الغرم هو الذي يلزم صاحبه أداؤه يتكلف فيه لا في مقابلة عوض.

3) المفظع هو الشديد الشنيع.

4) هو الذي يتحمل عن قريبه أو حميمه أو نسيبه دية إذا قتل نفسا ليدفعها إلى أولياء المقتول. ولو لم يفعل قتل قريبه أو حميمه الذي يتوجع لقتله.

5) رواه أبو داود والترمذي.

6) القرطبي: 19/55.

7) رواه الحاكم.

تقولوا هذا ؛ فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفُّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان)[1]

ويقرن القرآن الكريم العمل والتكسب بالصلاة، التي هي عمود الدين، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة:10)

ويقرنهما بالحج، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ (البقرة:198)، فمن الأقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُم﴾ (الحج:28) أن المنافع (الأجر في الآخرة والتجارة في الدنيا)

انطلاقا من هذا، فقد اتفق الفقهاء على وجوب العمل والكسب، بل اتفقوا على وجوب استغناء المجتمع الإسلامي بما لديه من الطاقات عن سائر المجتمعات، وقد ذكر السرخسي في كتاب الكسب[2] الأدلة الكثيرة على فرضية العمل والتكسب، ومما ساقه من الأدلة:

1. النصوص القرآنية والنبوية الكثيرة، قال في وجه الاستدلال بها:(وفي هذا بيان أن المرء باكتساب ما لا بد له منه ينال من الدرجات أعلاها، وإنما ينال ذلك بإقامة الفريضة)[3]

---

1) رواه الطبراني في الكبير.

2) وهو من رواية محمد بن سماعة عن محمد بن الحسن ،قال السرخسي في التنويه بكتاب الكسب وفضله:(وفيه من العلوم ما لا يسع جهلها، ولا التخلف عن عملها، ولو لم يكن فيها إلا حث المفلسين على مشاركة المكتسبين في الكسب لأنفسهم والتناول من كد يدهم لكان يحق على كل واحد إظهار هذا النوع من العلماء) انظر: كتاب الكسب: 32

3) الكسب: 32.

2. أنه لا يتوصل إلى إقامة الفرض إلا به فحينئذ كان فرضا بمنزلة الطهارة لأداء الصلاة وذلك لأنه لا يمكنه من أداء الفرائض بقوة بدنه، وإنما يحصل له ذلك بالقوت عادة، ولتحصيل القوت طرق الاكتساب أو التغالب بالانتهاب والانتهاب يستوجب العقاب، وفي التغالب فساد والله تعالى لا يحب الفساد فعين جهة الاكتساب لتحصيل القوت، وإنما لا يتوصل إلى ذلك إلا بالكسب، كما لا يتوصل إلى أداء الصلاة إلا بالطهارة.

3. أن الكسب طريق المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، وقد أمرنا بالتمسك بهداهم قال الله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام:90)، فقد كان أول من اكتسب أبونا آدم ﷺ قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طه: 117)، أي تتعب في طلب الرزق، وقد كان نوح ﷺ نجارا يأكل من كسبه، وإدريس ﷺ كان خياطا، وإبراهيم ﷺ كان بزارا، وداود ﷺ كان يأكل من كسبه، وغيرهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ

وقد رد على بعض الجهال الذين ذهبوا إلى حرمة التكسب، قال:(وقال قوم من جهال أهل التقشف وحماقى أهل التصوف: إن الكسب حرام لا يحل إلا عند الضرورة بمنزلة تناول الميتة وقالوا: إن الكسب ينفي التوكل على الله تعالى أو ينقص منه) (1)

ولهذا الرد(2) أهميته في الرد على من يقتدي بهم من

---

1) الكسب: 37.

2) وقد ذكر من أدلتهم:

1.أنا أمرنا بالتوكل، فما يتضمن نفي ما أمرنا به من التوكل يكون حراما، واستدلوا لذلك بقوله ﷺ:(لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقتم، كما يرزق الطير يغدو خماصا ويروح بطانا)، وقوله تعالى: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذريات:22)، وفي هذا حث على ترك الاشتغال بالكسب وبيان أن ما قدر له من الموعود يأتيه لا محالة.

2.قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه:132)، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فالمراد أمته، فقد أمروا بالصبر

البطالين، وإن لم يقل بقولهم، ولن نسوق ذلك الرد هنا، ففي ما سبق من الأدلة ما يكفي للرد على ذلك.

بل يكفي أن نسمع للرد على ذلك النصوص الكثيرة الداعية إلى إحياء الأرض وعمارتها واستنباط ما فيها من خير، وكأن ذلك هدف بحد ذاته بغض النظر عما يأتي به ذلك التكسب من رزق، قال ﷺ:(إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة(1)، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها)(2)

بل أخبر ﷺ أن كل منتفع بذلك العمل يصب في أجر صاحب العمل، فقال ﷺ في إحياء الأرض:(ما من امرئ يحي أرضا فتشرب منها كبد حرى أو تصيب منها عافية إلا كتب الله تعالى له به جرا)(3)، وقال ﷺ:(من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر، وما أكلت العافية منها فهو له صدقة)(4)

وقال ﷺ في غرس الغرس:(ما من مسلم يزرع زرعا أو يغرس غرسا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كانت له به

والصلاة وترك الاشتغال بالكسب لطلب الرزق لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذريات:56)، وفي الاشتغال بالكسب ترك ما خلق المرء لأجله وأمر به من عبادة ربه.

3.ما رووه عن رسول الله ﷺ من الكذب الموضوع:(ما أوحي إلي أن أجمع المال وأكون من المتاجرين، وإنما أوحي إلي ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (الحجر:98)

4.أن ما في القرآن من ذكر البيع والشراء في بعض الآيات ليس المراد به التصرف في المال والكسب بل المراد تجارة العبد مع ربه تعالى ببذل النفس في طاعته والاشتغال بعبادته فذلك يسمى تجارة.

5.أن الصحابة لم يشتغلوا بالكسب فالقول مع أصحاب الصفة م كانوا يلزمون المسجد فلا يشتغلون بالكسب ومدحوا على ذلك، وكذلك الخلفاء الراشدون وغيرهم من أعلى الصحابة لم يشتغلوا بالكسب وهم الأئمة السادة والقدوة القادة.

1) الفسيل: صغار النخل وهي الودي والجمع فسلان مثل رغيف ورغفان الواحدة فسيلة وهي التي تقطع من الأم أو تقلع من الأرض فتغرس. المصباح 2/647.

2) رواه أحمد وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب وابن منيع.

3) رواه الطبراني في الكبير.

4) رواه أحمد والترمذي وابن حبان، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

صدقة)(1)، وقال ﷺ:(ما من رجل يغرس غرسا إلا كتب الله له من الأجر قدر ما يخرج من ثمر ذلك الغرس)(2)، وقال ﷺ:(ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه صدقة، وما أكل السبع فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه(3) أحد إلا كان له صدقة)(4)

النهي عن الترف:

وهو الأصل الثالث من أصول الاستغناء عن الناس، لأن الشخص قد يعمل ويتكسب، ولكن مبالغته في الترف، وفي إرضاء ما تتطلبه نفسه من شهواته قد يجعله فقيرا لغيره، مستعبدا لشهواته، عالة على المجتمع.

وقد اهتم علماء السلوك من المسلمين بهذا الأصل في التربية، وقد ذكره الغزالي في مواضع عند بيانه لكيفية تربية الأولاد، قال عند ذكر أصول وقايته:(وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد)(5)

وقال عند ذكره لآداب الأكل:(وأن يعوّد الخبز القفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتماً، ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أي طعام كان)(6)

---

1) رواه أحمد والترمذي.

2) رواه أحمد.

3) ولا يرزؤه: أي لا ينقصه ويأخذ منه.

4) رواه مسلم.

5) إحياء علوم الدين:3/73.

6) إحياء علوم الدين:3/74.

وقال عند ذكر آداب اللباس:(وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم ويقرّر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وأن الرجال يستنكفون منه ويكرّر ذلك عليه، ومهما رأى على صبي ثوباً من إبريسم أو ملون فينبغي أن يستنكره ويذمه، ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة، وعن مخالفة كل من يسمعه ما يرغبه فيه، فإن الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً نماماً لحوحاً ذا فضول وضحك وكياد ومجانة، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب)(1)

وقال ملخصا أسس ما ذكر من آداب:(وبالجملة؛ يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب، فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكابر أيضاً)(2)

وقال ابن القيم:(وينبغي لوليه أن يجنبه الكسل والبطالة والدعة والراحة، بل يأخذه بأضدادها، ولا يريحه إلا بما يُجم ّنفسه نفسه وبدنه للشغل، فإن الكسل والبطالة عَواقِبُ سوء ومَغَبةُ نَدَم، وللجد والتعب عواقب حميدة، أما في الدنيا وإما في الآخرة، وإما فيهما، فأروح الناس أتعب الناس،واتعب الناس أروح الناس، فالسيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة)(3)

وقد اشار إلى هذا الأصل الآيات القرآنية الكثيرة، فقد ورد ذكر الترف في القرآن الكريم في ثمانية مواضع كلها في موضع الذم له والتحذير منه:

فالقرآن الكريم يعتبر الترف من أسباب هلاك القرى والمجتمعات، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا

1) إحياء علوم الدين:3/74.

2) إحياء علوم الدين:3/74.

3) تحفة المودود: 241.

مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (الاسراء:16)

ولفظ (الأمر) الذي ورد في الآية يحتمل معاني كثيرة، وقع بسببه الخلاف بين المفسرين، ونرى أن معنيين من المعاني له علاقة بسنة الله في إهلاك المجتمعات المترفة:

الأول: معنى (أمرنا) أكثرنا(1)، أي أكثرنا المترفين، بحيث يصبح غالبا على القرى، أو يصبح هو الأصل في المجتمع،فذلك مؤذن بهلاكها.

الثاني: معنى (أمرنا) أمَّرنا، قال ابن جرير (يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء)، وهذا يستقيم على قراءة من قرأ أمَّرنا مترفيها ، وقد يدل لهذا القول قول ابن عباس في الآية:(سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم اللّه بالعذاب، ويدل لهذا قوله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (الأنعام:123)

وتأمل ما حصل في تاريخ الإسلام من سقوط الدول المختلفة يبين أن للترف الاجتماعي، أو ترف المسؤولين سببا كبيرا مباشرا، ولا يتسع المقام لذكر الشواهد هنا.

والقرآن الكريم يعتبر المترفين أكبر عقبة في طريق كل إصلاح، بل هم أول من يقف في وجه الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، قال تعالى: فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (هود:

1) وهو قول قتادة والحسن، قال ابن مسعود: كنا نقول في الجاهلية للحي إذا كثروا: أمر أمر بني فلان؛ قال لبيد:

كل بني حرة مصيرهم   قل وإن أكثرت من العدد

إن يغبطوا يهبطوا وإن أمروا   يوما يصيروا للهلك والنكد

وفي حديث هرقل الحديث الصحيح:(لقد أَمِر أَمْرُ ابن أبي كبشة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر) أي كثر.

وقد أنكر هذ التفسير الكسائي وقال: لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد.

وأخـبر عن أسـلوب المـترفين في الـرد على المرسـلين، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَكَـذَّبُوا بِلِقَـاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَـذَا إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُـلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (المؤمنون:33)،ـ وقـال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَـا إِنَّا بِمَـا أُرْسِلْتُمْ بِـهِ كَـافِرُونَ﴾ (سـبأ:34)،ـ وقـال تعـالى: ﴿ وَكَـذَلِكَ مَـا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَـذِيرٍ إِلَّا قَـالَ مُتْرَفُوهَـا إِنَّا وَجَـدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف:23)

والقرآن الكريم في الأخير يـذكر المصـير الـذي يئـول إليـه المـترفون فيقـول: ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَـذْنَا مُتْـرَفِيهِمْ بِالْعَـذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ (المؤمنون:64)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِـكَ مُتْرَفِينَ﴾ (الواقعة:45)، وقال تعالى: ﴿)لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ (الانبياء:13)

ولهذه الخطورة التي تكمن في الـترف على حيـاة الأفـراد والمجتمعات كان ﷺ يخشى على أمته عواقب الـترف، قـال ﷺ: (أخوف ما أخاف عليكم مـا يخـرج اللـه لكم من زهـرة الـدنيا)، قالوا: وما زهرة الدنيا؟ قال:(بركات الأرض) وذكر الحديث(1).

وعنـدما قـدم أبـو عبيـدة بن الجـراح بمـال من البحـرين، وسمعت الأنصار بقدومه وافوا صلاة الفجر مـع رَسُـول اللَّهِ ﷺ، فلما صلى رَسُول اللَّهِ ﷺ انصرفوا فتعرضوا لـه فتبسـم رَسُـول اللَّهِ ﷺ حين رآهم ثم قـال:(أظنكم سـمعتم أن أبـا عبيـدة قـدم بشـيء من البحـرين؟) فقـالوا: أجـل يـا رَسُـول اللَّهِ. فقـال ﷺ: (أبشِـرُوا وأمِّلُـوا مـا يَسُـرُّكم، فوالله مـا الفقـر أخشـى عليكم ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم)(2)

وقال أبو سعيد الخدري : جلس رَسُول اللَّهِ ﷺ على المنبر

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

وجلسنا حوله فقال:(إن مما أخاف عليكم بعـدي مـا يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها)(1)

وقال ﷺ:(الدنيا حلوة خضـرة، وإن اللَّه تعـالى مسـتخلفكم فيها فينظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء)(2)، وقال ﷺ:(إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال)(3)

وكان ﷺ نموذج الزاهد في الـدنيا الـراغب فيمـا عنـد اللـه، وكـان يقـول:(اللهم لا عيش إلا عيش الآخـرة)(4)، وعن أبي ذر قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة المدينـة فاسـتقبلنا أحـد فقال:(يا أبا ذر) قلت: لبيك يا رَسُول اللَّهِ. قـال:(مـا يسـرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً تمضي علي ثلاثة أيام وعندي منه دينـار إلا شيء أرصده لدين إلا أن أقول به في عباد اللَّه هكـذا وهكـذا وهكذا) عن يمينـه وعن شـماله ومن خلفـه. ثم سـار فقـال:(إن الأكـثرين هم الأقلـون يـوم القيامـة إلا من قـال هكـذا وهكـذا وهكـذا) عن يمينــه وعن شــماله وعن خلفــه (وقليــل مــا هم) الحديث(5)

أما حياته ﷺ فيصـفها عمـر، فيقـول، وقـد ذكـر مـا أصـاب الناس من الدنيا:(لقد رأيت رَسُول اللَّهِ ﷺ يظل اليوم يلتوي، ما يجد من الدقل(6) ما يملأ به بطنه)(7)

ويصف تركته عمرو بن الحارث أخـو جويريـة بنت الحـارث أم المؤمنين فيقول:(ما ترك رَسُـول اللَّهِ ﷺ عنـد موتـه دينـاراً،

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه مسلم.

3) رواه التِّرمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح.

4) رواه البخاري ومسلم.

5) رواه البخاري ومسلم.

6) رديء التمر.

7) رواه مُسلِمٌ.

ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة)[1]

وتصف عائشة حياتها معه ﷺ، وكيف كانوا يعيشون، فتقول:(توفي رَسُول اللَّهِ ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير[2] في رف لي فأكلت منه حتى طال علي فكلته ففني) [3]، وقالت:(ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض) [4]، وفي رواية:(ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض)، وكانت تقول لابن أختها عروة:(والله يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال: ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رَسُول اللَّهِ ﷺ نار)، قال: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت:(الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرَسُول اللَّهِ ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح وكانوا يرسلون إلى رَسُول اللَّهِ ﷺ من ألبانها فيسقينا)[5]

ويتأثر الصحابة لحاله، فيطلبون إصلاحها، فيقول ــ كما يروي عبد اللَّه ابن مسعود، قال: نام رَسُول اللَّهِ ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه. قلنا: يا رَسُول اللَّهِ لو اتخذنا لك وطاء، فقال:(ما لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)[6]

وكان ﷺ يزهد أصحابه في الدنيا مذكرا لهم بمصيرها، وبحقيقة ما يظفر به الإنسان منها، قال ﷺ:(يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله؛ فيرجع اثنان ويبقى واحد: يرجع أهله وماله،

---

1) رواه البُخَارِيُّ.

2) أي شيء من شعير. كذا فسره الترمذي.

3) رواه البخاري ومسلم.

4) رواه البخاري ومسلم.

5) رواه البخاري ومسلم.

6) رواه التِّرمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح.

ويبقى عمله)[1]، وقال ﷺ:(يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النـار يوم القيامـة فيصـبغ في النـار صـبغة، ثم يقـال: يـا ابن آدم هـل رأيت خيراً قط، هل مر بك نعيم قط؟ فيقـول: لا واللـه يـا رب! ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الـدنيا من أهـل الجنـة فيصـبغ في الجنة فيقال له: يـا ابن آدم هـل رأيت بؤسـاً قـط، هـل مـر بـك شدة قط؟ فيقول: لا والله ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شـدة قط)[2]

ويقارن لهم زهرة الدنيا وترفها بالآخرة، فيقـول:(مـا الـدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحـدكم أصـبعه في اليم فلينظـر بم يرجع)[3]

ويمر ﷺ بالسوق والناس كَنَفَتَيْـهِ[4]، فمـر بِجَـدْيٍ أَسَـكَّ[5] مَيِّتٍ، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال:(أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟) فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع بـه؟ قـال:(أتحبـون أنـه لكم؟) قالوا: والله لو كان حياً كان عيبـاً أنـه أَسَـكّ فكيـف وهـو ميت! فقال:(فوالله للدنيا أهون على اللَّه من هذا عليكم)

وقد اعتبر ﷺ المـترف عبـدا لترفـه، فقـال ﷺ :(تعس عبـد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة! إن أعطي رضـي، وإن لم يعط لم يرض)[6]

وكان ﷺ يحدد لهم مواضـع الحاجـات حـتى لا تمتـد أعينهم إلى مـا زاد عليهـا من أنـواع الـترف، فيقـول ﷺ:(ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يـواري عورتـه،

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه مُسلِمٌ.

3) رواه مُسلِمٌ.

4) أي عن جانبيه.

5) الصغير الأذن.

6) رواه البُخَارِيُّ.

وجلف الخبز والماء)(1)

وفسر ﷺ: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (التكاثر:1)، فقال:(يقـول ابن آدم: مـالي مـالي! وهـل لـك يـا ابن آدم من مالـك إلا مـا أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟)(2)

فهـذه النصـوص الكثـيرة تـبين عـواقب الـترف وخطورتـه، وكمالات القناعة والزهد، لأن الأعمـال العظيمـة لا يقـوم بهـا إلا من تخلص من عبوديته للدينار والدرهم والخميصة.

3 ـ خدمة المجتمع

وهي الأصــل الثــالث من أصــول المســاهمة في تنميــة المجتمع، وهي الناحية الإيجابية من تلك الأصـول، لأن مـا سـبق من الأصول تقتصر علاقته بالفرد من حيث وقايته المجتمـع ممـا قد يصدر عنه من أذى.

أما هذا الأصل، فهو ينظر إلى ما يقدم هذا الفـرد للمجتمـع من خدمات، فيقاس كماله بعظم الخدمات التي يقدمها.

وإلى هـذا الأصـل الإشـارة بقولـه تعـالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَـاءَ مَـــدْيَنَ وَجَـــدَ عَلَيْـــهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْــقُونَ وَوَجَـــدَ مِنْ دُونِهِمُ امْـرَأَتَيْنِ تَـذُودَانِ قَـالَ مَـا خَطْبُكُمَـا قَالَتَـا لا نَسْـقِي حَتَّى يُصْـدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَـقَى لَهُمَـا ثُمَّ تَـوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَـالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص:23 ـ 24)

فهذا موقف بسـيط، ولكنـه يـدل على نفس طيبـة صـاحبة مروءة عالية، لقد انتهى بموسى ﵇ السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين. (وصل إليه وهو مجهود مكـدود، وإذا هـو يطلـع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المـروءة، السـليمة الفطـرة، كنفس موسى ﵇ وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشـرب من الماء ؛ ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهمـا عن ورود المـاء. والأولى عنــد ذوي المــروءة والفطــرة الســليمة، أن تســقي

---

1) رواه التِّرمِذِيُّ وقال: حديث صحيح.

2) رواه مُسلِمٌ.

المرأتـان وتصـدرا بأغنامهمـا أولا، وأن يفسـح لهمـا الرجـال ويعينوهما.

ولم يقعـد موسـى الهـارب المطـارد، المسـافر المكـدود، ليستريح، وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف. بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب: قال:ما خطبكما؟ . قالتا:لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ..

فأطلعتاه على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود. إنه الضـعف، فهمـا امرأتـان وهـؤلاء الرعـاة رجـال. وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال! وثـارت نخـوة موسـى ﵇ وفطرتـه السـليمة. فتقـدم لإقـرار الأمـر في نصابه. تقدم ليسقي للمرأتين أولا، كما ينبغي أن يفعـل الرجـال ذوو الشهامة. وهو غريب في أرض لا يعرفها، ولا سـند لـه فيهـا ولا ظهير. وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد. وهو مطارد، من خلفه اعداء لا يرحمون. ولكن هذا كلـه لا يقعـد به عن تلبية دواعي المروءة والنجدة والمعروف، وإقـرار الحـق الطبيعي الذي تعرفه النفوس)[1]

وإلى هذا الأصل الإشارة ـ كذلك ـ بقوله تعـالى في وصـف نبينـا محمـد ﷺ: ﴿ وَدَاعِيـاً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِـهِ وَسِـرَاجاً مُنِـيراً﴾ (الأحزاب:46)، فقد اعتبر تعالى محمدا ﷺ سراجا منيرا للخلق، فهو شمس أرواح الخلائق، ونور قلـوبهم، وأي خدمـة أعظم من هذه.

وهي خدمة أو خدمات تنطلق من رحمة عظيمة يمتلئ بهـا قلبه ﷺ لأمته، قال تعـالى: ﴿ لَقَـدْ جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ عَزِيـزٌ عَلَيْـهِ مَـا عَنِتُّمْ حَـرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِـالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:128)

بل كان ﷺ في حرصه على حصول الخير للخلـق أنـه يكـاد يقتل نفسه حزنا على إعراضهم عن الله، قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُـكَ الَّذِي يَقُولُـونَ فَـإِنَّهُمْ لا يُكَـذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعـام:33)، وقـال تعـالى: ﴿ فَلا تَـذْهَبْ

1) في ظلال القرآن: 2686.

نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (فاطر:8)، وقال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ (الكهف:6)، وقال تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:3)

وإليه الإشارة ـ كذلك ـ بقوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة:71) أي يتناصرون ويتعاضدون ويخدم بعضهم بعضا.

وقال تعالى واصفا من استحق معية رسول الله ﷺ: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾(الفتح:29)

أما من السنة، فقد قال ﷺ:(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)(1)، وقال ﷺ:(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) وشبك بين أصابعه(2)، وقال ﷺ:(والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه)(3).

وقد ظهر في المجتمعات الإسلامية من يهتم بهذا الجانب، ويوليه العناية الخاصة، كما ظهر من يهتم بكل جانب من جوانب الدين ويختص فيه.

وقد أطلق على هؤلاء المهتمين بهذا الجانب لقب (الفتيان)، وأطلق على سلوكهم (الفتوة)، ولعل هذا الاصطلاح ناشئ من أن أكثر من يتخصص في هذا الجانب يكون من الفتيان والشباب(4)، كما نجد في وقتنا أكثر من ينتسب

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه مسلم.

4) اتفق المتحدثون على الفتوة على أن أصلها من الفتى، وهو الشاب الحديث السن، قال الله تعالى عن أهل الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً ﴾ (الكهف: 13)، وقال عن قوم إبراهيم ﷺ إنهم قالوا: ﴿ سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾

للكشافة من الشباب والأحداث.

وقد عـرف ابن القيم (الفتـوة) باعتبارهـا مـنزلا من منـازل السائرين، فقال:(حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى الناس، وكف الأذى عنهم، واحتمال أذاهم، فهي استعمال حسن الخلق معهم، فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله)(1)

وعرفها السبكي، فقال:(والفتـوة من أعظم خصـال الخـير جامعـة كمـال المـروءة وحسـن الخلـق والإيثـار على النفس واحتمال الأذى وبـذل النـدى وطلاقـة الوجـه والقـوة على ذلـك، حتى تكون فتوته على ذلك فتوة الفتيـان والصـفح عن العـثرات ويكون خصما لربه على نفسه وينصف من نفسه ولا ينتصف ولا ينازع فقيرا ولا غنيا ويستوي عنده المدح والذم والدعاء والطـرد ولا يحتجب ولا يـدخر ولا يعتـذر ويظهـر النعمـة ويحقـق المحبـة سرا وعلنا فإذا قوي على ذلك فهو الفتى وإذا اجتمـع قـوم على ذلك وتعاهدوا عليه فنعم ما هو)(2)

وهي قريبـة من المـروءة، وإن كـان (المـروءة) أعم منهـا، لأنها ـ كما يعرفها ابن القيم ـ (استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد أو متعد إلى غيره، وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضا به أو متعلق بغيره)(3)

و (الفتوة) بهذا الاسم لم يـرد ذكرهـا في القـرآن الكـريم، ولا في السـنة المطهـرة، ولا حـرج في ذلـك، فكثـير من المصـطلحات حـدثت في الأمـة بعـد عصـر الرسـالة، قـال ابن القيم:(وهذه منزلة شريفة لم تعبر عنها الشريعة باسم الفتـوة، بل عـبرت عنهـا باسـم مكـارم الأخلاق..فاسـم الفـتى لا يشـعر بمـدح ولا ذم كاسـم الشـاب والحـدث، ولـذلك لم يجىء اسـم الفتوة في القـرآن ولا في السـنة ولا في لسـان السـلف وإنمـا

(الانبياء:60)، وقال تعالى عن يوسف ﷺ: ﴿ وَدَخَـلَ مَعَـهُ السِّـجْنَ فَتَيَـانِ﴾ (يوسـف:36)، وقال: ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ (يوسف:62)

1) مدارج السالكين:2/340.

2) فتاوى السبكي: 2/548.

3) مدارج السالكين:2/340.

استعمله من بعدهم في مكارم الأخلاق.. وأصلها عندهم أن يكون العبد أبدا في أمر غيره)(1)

ولا ضير في كل هذا، لأن الشرع لا ينهى عما يتعارف عليه الناس من صيغ التعبير، وإنما ينهى عن إدخال ما ليس من الدين في الدين، ولعل هؤلاء اضطروا إلى هذا الاصطلاح، لعدم ورود ما يدل عليه منفصلا عن غيره، لأن مكارم الأخلاق شاملة، لا تختص بخدمة الغير فقط.

وقد ذكر ابن القيم أن أقدم من تكلم في الفتوة الإمام جعفر الصادق، ثم الفضيل بن عياض والإمام أحمد وسهل بن عبدالله والجنيد ثم الطائفة، فذكر عن الإمام جعفر الصادق أنه سئل عن الفتوة فقال للسائل:(ما تقول أنت؟) فقال:(إن أعطيت شكرت وإن منعت صبرت)، فقال:(الكلاب عندنا كذلك)، فقال السائل:(يا ابن رسول الله ﷺ فما الفتوة عندكم؟)، فقال:(إن أعطينا آثرنا، وإن منعنا شكرنا)

وقال الفضيل بن عياض :(الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان)، وقال الإمام أحمد، وقد سئل عن الفتوة:(ترك ما تهوى لما تخشى)، وسئل الجنيد عن الفتوة فقال:(لا تنافر فقيرا ولا تعارض غنيا)، وقال الحارث المحاسبي:(الفتوة أن تنصف ولا تنتصف)، وقال عمر بن عثمان المكي:(الفتوة حسن الخلق)

ويعبر الدقاق عن كمال الفتوة، فيقول:(هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ، فإن كل أحد يقول يوم القيامة نفسي نفسي، وهو يقول أمتي أمتي)(2)

وعرف صاحب المنازل منبع الفتوة وأصلها، فقال:(أن لا تشهد لك فضلا، ولا ترى لك حقا)، وقد شرحه ابن القيم بقوله: (قلب الفتوة وإنسان عينها أن تفنى بشهادة نقصك وعيبك عن فضلك وتغيب بشهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك

---

1) مدارج السالكين:2/340.

2) مدارج السالكين:2/342.

عليهم)[1]

والحكايات والقصص الورادة عن هؤلاء الفتيان تـبرز ناحيـة مهمــة، وهي التنــافس على الأخلاق العاليــة النبيلــة، ووجــود التنافس على الخير في المجتمع يرفع المجتمع إلى آفاق عاليــة من التحضر، ولهذا مـر المجتمـع الإسـلامي بفـترات يكـاد يعـدم فيها الفقر لكثرة من يتنافس على الرحمة بالفقراء وخدمتهم.

ومن تلك الحكايات، وهي متعلقة بجـانب من الفتـوة، وهـو التغافل عن عيوب الغير وأخطـائهم، أن رجلا من الفتيـان تـزوج امرأة، فلما دخلت عليه رأى بها الجدري، فقال: اشتكيت عيني، ثم قال: عميت، فبعد عشرين سنة مـاتت، ولم تعلم أنـه بصـير، فقيل له في ذلـك، فقـال:(كـرهت أن يحزنهـا رؤيـتي لمـا بهـا)، فقيل له:(سبقت الفتيان)

ومثل ذلك أن امرأة سألت حاتمـا عن مسـألة، فـاتفق أنـه خرج منها صوت في تلك الحالـة، فخجلت، فقـال حـاتم:(ارفعي صوتك)، فأوهمها أنه أصم، فسرت المرأة بذلك، وقالت:(إنه لم يسمع الصوت) فلقب بحاتم الأصم.

واستضـاف رجــل جماعــة من الفتيــان، فلمــا فرغــوا من الطعام خرجت جارية تصب المـاء على أيـديهم، فـانقبض واحـد منهم، وقــال:(ليس من الفتــوة أن تصــب النســوان المــاء على أيدي الرجال) فقال آخر منهم:(أنـا منـذ سـنين أدخـل إلى هـذه الدار، ولم أعلم أن امرأة تصب الماء على أيدينا أو رجلا)

وقدم جماعة فتيان لزيارة فتى، فقال الرجل:(يا غلام قـدم السفرة)، فلم يقدم، فقالها ثانياوثالثا فلم يقدم، فنظـر بعضـهم إلى بعض، وقــالوا:(ليس من الفتــوة أن يســتخدم الرجــل من يتعاصى عليه في تقـديم السـفرة كـل هـذا)، فقـال الرجـل:(لم أبطأت بالسفرة)، فقـال الغلام:(كـان عليهـا نمـل، فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلى الفتيان مع النمل، ولم يكن من الفتوة إلقاء النمل وطردهم عن الزاد، فلبثت حتى دب النمل)، فقالوا: (يا غلام مثلك يخدم الفتيان)

---

1) مدارج السالكين:2/343.

قال ابن القيم:(ومن الفتوة التي لا تلحق ما يــذكر أن رجلا نام من الحاج في المدينة، ففقد هميانا فيه ألف دينار، فقام فزعا فوجد جعفر بن محمد، فعلق به وقال:(أخذت همياني)، فقال:(أي شيء كان فيه؟)، قال:(ألف دينار)، فأدخله داره، ووزن له ألف دينار، ثم إن الرجل وجد هميانه، فجاء إلى جعفر معتذرا بالمال، فأبى أن يقبله منه، وقال:(شيء أخرجته من يدي لا أسترده أبدا)، فقال الرجل للناس:(من هذا؟)، فقالوا: (هذا جعفر بن محمد)[2]

انطلاقا من هذا، فإن النصوص الكثيرة تدل على أن هذا الأصل يقوم على ثلاثة أركان لا غنى لأحدها عن الآخر، هي: التكافل، والتناصح، والتناصر.

ووجه الحصر فيها: أن المؤمن إما أن يكون محتاجا، فيعان، أو جاهلا أو منحرفا، فيعلم وينصح، أومظلوما، فينصر.

وكل ما عدا هذه الثلاثة يدخل فيها بوجه من الوجوه، ولذلك سنتحدث عنها هنا باختصار مشيرين إلى اهتمام الشرع بها، أما كيفيات تنفيذها، فلها محالها الخاصة بها.

وقد يشير إلى هذه الأركان الثلاثة مجتمعة قوله تعالى: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد:11ـ 17)

فقوله تعالى: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ يشير إلى النصرة، لأن أعظم نصر للمؤمن لأخيه أن يفك رقبته من قيد من استعبده.

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ يشير إلى ركن التكافل الاجتماعي.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ يشير إلى الركن الثالث، ركن التناصح بين المؤمنين.

---

2) مدارج السالكين:2/343.

وهذه بعض التفاصيل المرتبطة بهذه الأركان الثلاثة:

التكافل:

وهـو إعانـة المسـلم لأخيـه إعانـة تخرجـه من العـوز إلى الغنى، ويشير إلى هذ من القرآن الكريم قوله تعـالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَـوَّأُوا الـدَّارَ وَالْأِيمَـانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَـاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ﴾ (الحشر:9)

ففي هذه الآية إخبار عن الإيثار الذي تحلى به الأنصـار لمـا قدم المهـاجرون إليهم، بعـد أن تركـوا في بلادهم كـل مـا يلـزم لنفقتهم، فوجـدوا لهم إخوانـا لهم اقتسـموا معهم زادهم، بـل آثروهم على أنفسهم.

وقـد سـبق ذكـر الآيـة السـابقة قولـه تعـالى: ﴿ لِلْفُقَـرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْـوَاناً وَيَنْصُـرُونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّـادِقُونَ﴾ (الحشر:8)، فأخبر بفضل المهاجرين الذي آثـرهم الأنصـار على أنفسهم ليبين أن ذلك الإيثار وتلك النفقات لم تـذهب عبثـا، بـل وقعت في موقعها الصحيح، لأن الإنسان قد ينفق، ويـؤثر ولكنـه لا يسـد خللا، لا يحقـق مقصـدا، لأنـه رمى بنفقتـه في غـير مواضعها، فعبثت بها الرياح.

وقد حفظت لنـا كتب الحـديث بعض مـا فعلـه الأنصـار مـع المهاجرين، فعن أنَس قال: قال المهاجرون:(يا رسـول اللّـه مـا رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنـأ، حـتى لقـد خشـينا أن يـذهبوا بـالأجر كلـه)، فقـال ﷺ:(لا، مـا أثـنيتم عليهم ودعوتم اللّه لهم)[1]

وظلـوا هكـذا حـتى بعـد أن فتح اللـه على المؤمـنين، وقـد روي أن النبي ﷺ دعا الأنصار أن يقطع لهم البحرين، فقالوا:(لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها)، قال:(إما لا، فاصبروا

[1] رواه أحمد.

حتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثرة)(1)

بـل روي أكـثر من ذلـك، فعن أبي هريـرة قـال: قـالت الأنصار:(اقسم بيننـا وبين إخواننـا النخيـل)، فقـال:(لا)، فقـالوا:(أتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة؟) قـالوا:(سـمعنا وأطعنـا)(2)

بل روي أكثر من ذلك، فقد كان الأنصار من حرصـهم على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين أنه ما نزل مهـاجري على أنصـاري إلا بقرعة.

وكان المهـاجرون في قمـة الاسـتغناء، كمـا كـان إخـوانهم الأنصـار فيقم البـذل، فقـد روي أنهم لمـا قـدموا المدينـة آخى رسـول اللـه ﷺ بين عبـد الـرحمن بن عـوف وسـعد بن الربيـع، فقال سعد لعبد الرحمن:(إني أكثر الأنصار مـالا، فأقسـم مـالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك، فسـمِّها لي أطلقهـا، فإذا انقضت عدتها فتزوجها)، فقال عبد الرحمن:(بارك الله لـك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟؟)

فدلوه على سوق بني قينقـاع، فمـا انقلب إلا ومعـه فضـل من أقط وسمن، ثم تابع الغـدُوَ..ثم جـاء يومـاً وبـه أثـر صـفرة، فقال النبي ﷺ:(مَهْيَمْ؟)، قال:(تزوجتُ)، قال:(كم سقتَ إليهــا)، قال:(نواة من ذهب!)(3)

ويعلق الشيخ محمد الغزالي على هذين الموقفين، فيقول:(وإعجاب المـرء بسـماحة سـعد لا يعدلـه إلا إعجابـه بنبـل عبـد الــرحمن، هــذا الــذي زاحم اليهــود في ســوقهم، وبــزَّهم في ميـدانهم، واسـتطاع-بعـد أيـام-أن يكسـب مـا يعـف بـه نفسـه ويحصن به فرجه، إن علو الهمة من خلائـق الإيمـان؛ وقبح اللـه وجوه أقوام انتسبوا للإسـلام فـأكلوه، وأكلـوا بـه حـتى أضـاعوا

---

1) رواه البخاري.

2) رواه البخاري.

3) رواه البخاري.

كرامة الحق في هذا العالم)[1]

وقد عبر القـرآن الكـريم عن هـذا التكافـل بصـورة أخـرى جميلـة، فقـال تعـالى: ﴿ وَيُطْعِمُـونَ الطَّعَـامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْـكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِـيراً إِنَّمَـا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْـهِ اللَّهِ لا نُرِيـدُ مِنْكُمْ جَـزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ (الانسان: 8 ـ 9)

ففي هاتين الكريمتين إخبار عن إيثـار هـؤلاء المحـاويج من المؤمنين غيرهم بالطعام مع حبهم لـه وحـاجتهم إليـه، ثم هم لا يطلبون على ذلك جزاء ولا شكورا.

وهو موقف يشبه كثـيرا موقـف موسـى ﷺ عنـدما سـقى للفتاتين، ثم أوى إلى الظل من غـير أن يشـعر نفسـه أو يشـعر غيره أنه فعل شيئا، قـال تعـالى: ﴿ فَسَـقَى لَهُمَـا ثُمَّ تَـوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْـرٍ فَقِـيرٌ﴾ (القصـص: 24)

وهذه المواقف ـ في حقيقتها، وفي حقيقة الإسلام ـ ليست شـيئا ثانويـا مسـتحبا، وإنمـا هي واجب من واجب من واجبـات الدين، فقد قال ﷺ:(ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهـو يعلم بـه)[2]، وقـال ﷺ:(أيمـا أهـل عرصـة بـات فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله)[3]

بل نص القرآن الكريم على هذا في مواضع مختلفـة بصـيغ مشددة تدل على أن الأمر ليس موكـولا لرغبـات النـاس، وإنمـا هو واجب من واجبات الدين، فلا يصـح أن يمـوت النـاس جوعـا في نفس الوقت الـذي تمتلئ يـه خـزائن الكثـيرين، ولـو دفعـوا الزكاة.

فالواجب هو إغناء المحتاجين بأدنى مـا يجب إغنـاؤهم بـه، وما الزكاة إلا وسيلة لـذلك، إن كفت فبهـا، وإن لم تكـف وجب

---

1) فقه السيرة.

2) رواه البزار، والطبراني في الكبير.

3) رواه مسلم.

في أموال الجميع ما يكفيهم.

والقرآن الكريم يحض على هذا ويصرح به ويشير إليه، قال تعـالى: ﴿ كُـلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَـبَتْ رَهِينَـةٌ إِلَّا أَصْـحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَـا سَـلَكَكُمْ فِي سَـقَرَ قَـالُوا لَمْ نَـكُ مِنَ الْمُصَـلِّينَ وَلَمْ نَـكُ نُطْعِمُ الْمِسْـكِينَ وَكُنَّا نَخُـوضُ مَـعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَـوْمِ الـدِّينِ حَتَّى أَتَانَـا الْيَقِينُ فَمَـا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر:38 ـ 48)

فقد اعتبر تعالى عدم إطعام المساكين من الجـرائم الـتي تسبب الدخول في جهنم، بل تقرن هذه الجريمة بـترك الصـلاة، ثم تقدم على التكذيب بالدين، ثم يتوعدون بعدم نفع الشـافعين فيهم.

بل لم يعف القرآن الكـريم من هـذا الـواجب حـتى العامـة من الناس الذين لا يملكون مـا يطعمـون غـيرهم، لأنـه لم يـأمر بالإطعام فقط، بل أمر بالحض على الإطعام، ليشمل هذا الأمـر الجميع، قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَـامِ الْمِسْـكِينِ وَتَـأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّـاً وَتُحِبُّونَ الْمَـالَ حُبّـاً جَمّاً﴾ (الفجر: 17 ـ 20)

وقال تعالى وهو يذكر موقفا من مواقف القيامة الشديدة: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَـا سَـبْعُونَ ذِرَاعـاً فَاسْـلُكُوهُ إِنَّهُ كَـانَ لَا يُـؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْـكِينِ فَلَيْسَ لَـهُ الْيَـوْمَ هَاهُنَـا حَمِيمٌ وَلَا طَعَـامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة:30 ـ 37)

بل نجد هذا في سورة كاملة تكاد تكون خاصة بهذا الجانب يعتـبر من لا يحض على طعـام المسـكين مكـذبا بالـدين، قـال تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَـذِّبُ بِالـدِّينِ فَـذَلِكَ الَّذِي يَـدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَـامِ الْمِسْـكِينِ فَوَيْـلٌ لِّلْمُصَـلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَـلَاتِهِمْ سَـاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُـرَاؤُونَ وَيَمْنَعُـونَ الْمَـاعُونَ ﴾ (الماعون:1 ـ 7)

يقول سيد قطب في تقديمـه لهـذه السـورة:(ولقـد يقـول الإنسان بلسانه:إنه مسلم وإنه مصدق بهذا الدين وقضاياه. وقد

يصلي، وقد يؤدي شعائر أخرى غير الصلاة ولكن حقيقة الإيمـان وحقيقة التصديق بالدين تظل بعيدة عنه ويظل بعيـدا عنهـا، لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها. ومـا لم توجـد هذه العلامات فلا إيمان ولا تصديق مهمـا قـال اللسـان، ومهمـا تعبد الإنسان. إن حقيقة الإيمان حين تسـتقر في القلب تتحـرك من فورها لكي تحقق ذاتها في عمل صالح، فـإذا لم تتخـذ هـذه الحركة فهذا دليل على عدم وجودها أصلا وهذا مـا تقـرره هـذه السورة نصا)(1)

ويعلق على قوله تعالى: فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ، فيقول:(إنها تبدأ بهـذا الاسـتفهام الـذي يوجه كل من تتأتى منه الرؤية ليرى: أرأيت الذي يكذب بالدين؟ وينتظر من يسمع هـذا الاسـتفهام لـيرى إلى أين تتجـه الإشـارة وإلى من تتجه؟ ومن هو هذا الذي يكـذب بالـدين، والـذي يقـرر القرآن أنه يكذب بالدين.. وإذا الجواب: فذلك الذي يـدع اليـتيم ولا يحض على طعام المسكين)

فـالقرآن الكـريم يعـرف الـدين في هـذه السـورة تعريفـا يختلـف عمـا عهـده النـاس من تعـاريف، فهـو ينقـل الـدين من المعابـد الـتي تصـورها النـاس إلى معابـد جديـدة غفلت عنهـا الديان، يقول سيد:(وقد تكون هذه مفاجأة بالقياس إلى تعريـف الإيمان التقليدي.. ولكن هذا هو لباب الأمر وحقيقتـه.. إن الـذي يكذب بالدين هو الذي يدفع اليـتيم دفعـا بعنـف - أي الـذي يهين اليتيم ويؤذيه. والـذي لا يحض على طعـام المسـكين ولا يوصـي برعايته. فلو صدق بالدين حقا، ولـو اسـتقرت حقيقـة التصـديق في قلبه ما كـان ليـدع اليـتيم، ومـا كـان ليقعـد عن الحض على طعام المسكين. إن حقيقة التصديق بالدين ليسـت كلمـة تقـال باللسـان ؛ إنمـا هي تحـول في القلب يدفعـه إلى الخـير والـبر بإخوانه في البشرية، المحتاجين إلى الرعاية والحمايـة. واللـه لا يريد من الناس كلمات. إنما يريد منهم معها أعمالا تصدقها، وإلا فهي هباء، لا وزن لها عنده ولا اعتبار)(2)

1) في ظلال القرآن:3985.

2) في ظلال القرآن:3985.

وقد ذكر الغزالي درجات المؤمنين في قيامهم بما يتطلبه هذا الركن من البذل، وهي ثلاث درجات:

الأولى: وهي أدناها أن تنزله منزلة عبدك أو خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم تحوجه إلى السؤال فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة.

الثانية: أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال قال الحسن: كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه.

الثالثة: وهي العليا أن تؤثره على نفسك وتقدّم حاجته على حاجتك وهذه رتبة الصدّيقين ومنتهى درجات المتحابين.

قال الغزالي تعقيبا على هذه الدرجات:(فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد في الباطن وإنما الجاري بينكما مخالطة رسمية لا وقع لها في العقل والدين، فقد قال ميمون بن مهران: من رضي من الإخوان بترك الإفضال فليؤاخ أهل القبور)[1]

التناصر:

وهو نصرة المسلم لأخيه في مواقف الشدة والحاجة، لأن الأمن ركن أساسي في الحياة لا يقل عن ركن الغذاء، ولذلك جمع الله تعالى بينهما في قوله: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: 112)، وقال تعالى في ذكر نعمه على قريش: ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش:4)

لأن أسباب الهلاك لا تصيب الإنسان من جهة الجوع وحده، بل تصيبه أيضا من الأعداء الذين يتربصون به، بل إن هذا الجانب أكثر ضررا بالإنسان من جانب الجوع.

وقد أشار إلى هذا الركن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

---

1) إحياء علوم الدين: 2/256.

وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (لأنفال:72)

ففي هذه الآية الكريمة حض على نصر المؤمنين بعضهم بعضا، فلا يصح أن ينعم المسلم بالأمن في الوقت الذي يصاب إخوانه بكل أنواع البلاء.

وقد قال ﷺ وهو يحض على رعاية هذا الركن:(المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله)، وقال ﷺ:(انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، قيل: يا رسول الله! أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالما؟)، قال:(تمنعه من الظلم؛ فذلك نصرك إياه)[1]

ولأجل تحقيق هذا الركن شرع الشارع الجهاد في سبيل الله، قال تعالى في تبرير الأمر بالجهاد مع كونه إزهاقا للأرواح التي جاءت الشريعة لحفظها: وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً (النساء: 75)

وقد ورد هذا التبرير في مواضع مختلفة، وكلها تنطلق من أن الغرض من القتال في الإسلام ليس المقصود منه التوسع ولا الاستعمار والسيطرة، وإنما المقصد منه نصرة المستضعفين، قال تعالى: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (الحج:39)، وقال تعالى: وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (البقرة:190)، وقال تعالى: يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ

1) رواه البخاري وأحمد.

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة:217)

وتحقيق هذا الركن يستدعي بذل الجهد في تحصيل القـوة بأنواعها المختلفة، كما قال تعـالى: وَأَعِـدُّوا لَهُمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ قُـوَّةٍ وَمِنْ رِبَـاطِ الْخَيْـلِ تُرْهِبُـونَ بِـهِ عَـدُوَّ اللَّهِ وَعَـدُوَّكُمْ (لأنفال:60)، وقال ذاما من لم يعد للأمر عدته، واعتبه كـاذا في دعـواه: وَلَـوْ أَرَادُوا الْخُـرُوجَ لَأَعَـدُّوا لَـهُ عُـدَّةً وَلَكِنْ كَـرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (التوبة:46)

وما ذكرناه هنا هو مظهر من مظـاهر النصـرة، لأن مـا قـد يتعـرض لـه أي مسـلم أعم من ذلـك، وقـد قـال الغـزالي يـذكر نصـرة المسـلم أخـاه في عرضـه:(وأعظم من ذلـك تـأثيراً في جلب المحبة الذب عنه في غيبتـه مهمـا قصـد بسـوء أو تعـرض لعرضــه بكلام صــريح أو تعــريض فحــق الأخــوة التشــمير في الحمايــة والنصــرة وتبكيت المتعنت وتغليــظ القــول عليــه، والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير في حـق الأخوة.. فأخسس بأخ يـراك والكلاب تفترسـك وتمـزق لحومـك وهـو سـاكت لا تحركـه الشـفقة والحميـة للـدفع عنـك وتمزيـق الأعراض أشد على النفـوس من تمزيـق اللحـوم ولـذلك شـبهه الله تعالى بأكل لحـوم الميتـة فقـال: أَيُحِبُّ أَحَـدُكُمْ أَنْ يَأْكُـلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً (الحجرات: 12)) [1]

وهذا الركن يستدعي ما سبق ذكره من تحمل القدرة على تحمـل المشـاق والصـبر والعزيمـة، وهي أركـان أساسـية في التربية لا غنى عنها.

التناصح:

وهو الركن الثالث من أركان خدمة المجتمع، وهو أساسـي من حيث أن الإنسـان ليس جسـدا فقـط يحتـاج إلى غـذاء قـد يكفي أمره التكافل، أو حماية قـد يكفي أمرهـا التناصـر، ولكنـه روح وعقل يحتـاج إلى تعليم وتوجيـه وتربيـة ونصـح، وكـل ذلـك يستدعي وجود هذا الركن.

يقول الغزالي في بيان الحاجة إلى هذا الـركن:(ومن ذلـك

1) إحياء علوم الدين: 2/181.

التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، فإن كنت غنياً بالعلم فعليك مؤاساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة)(1)

وقال ذو النون:(لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة)

وقد رد الغزالي على من اعتبر هذا سببا للوحشة بين المؤمنين، فقال:(اعلم أن الإِيحاش: إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه فأما تنبيهه على ما لا يعلمه فهو عين الشفقة وهو استمالة القلوب، أعني قلوب العقلاء، وأما الحمقى فلا يلتفت إليهم فإن من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها كان كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذيلك وقد همت بإهلاكك، فإن كنت تكره ذلك فما أشد حمقك والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكات فإنها تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد وهي مخلوقة من نار الله الموقدة)(2)

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الركن في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد:17)، وقال تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:3)

وإلى هذا الركن الإشارة بقول لقمان عليه السلام في وصيته لابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان:17)

وقد اعتبر القرآن الكريم هذا الركن خاصة من خصائص هذه الأمة، فقال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

---

1) إحياء علوم الدين: 2/182.

2) إحياء علوم الدين: 2/183.

بِـالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَتُؤْمِنُـونَ بِاللّهِ (آل عمــران: 110)

واعتبر أداء هـذا الـركن من علامـات المؤمـنين الصـادقين، فقال تعالى: يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِـرِ وَيَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـــوْنَ عَنِ الْمُنْكَـــرِ وَيُسَـــارِعُونَ فِي الْخَيْـــرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّـالِحِينَ (آل عمــران:114)، وقــال تعــالى: وَالْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَيُطِيعُـونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبـة:71)، وقــال تعــالى: التَّائِبُونَ الْعَابِـدُونَ الْحَامِـدُونَ السَّـائِحُونَ الرَّاكِعُــونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (التوبة:112)

بل اعتبره من صفات الرسول ﷺ الأساسية، قال تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبـاً عِنْـدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيـلِ يَـأْمُرُهُمْ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـاهُمْ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْـرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَـانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُـوا بِـهِ وَعَـزَّرُوهُ وَنَصَـرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْـزِلَ مَعَـهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ (لأعــراف: 157)

واعتبره بعـد ذلـك من علامـات صـحة التمكين في الأرض، قال تعالى: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّـلاةَ وَآتَـوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَـرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَـةُ الْأُمُـورِ (الحج:41)

وقد اعتبر ﷺ هذا التناصح ركنا من أركان الدين، فقــال ﷺ: (الدين النصيحة) ثلاثـا، قلنـا لمن؟ قـال:(للـه ولكتابـه ولرسـوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[1]، فقد اعتبر ﷺ الدين نصــيحة، ثم عد من النصيحة النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم.

ولكن هذا الركن يحتاج آدابا كثيرة ليس هذا محل تفصيلها، ولعل أهمها ـ كما يذكر الغزالي ـ أن يكون ذلك في سر لا يطلع

1) رواه مسلم.

عليه أحد، لأن ما كان على الملأ فهو توبــيخ وفضـيحة ومـا كـان في السر فهو شفقة ونصيحة، قال الشـافعي :(من وعـظ أخـاه سراً فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانيـة فقـد فضـحه وشـانه)، وقيل لمسعر: أتحب من يخبرك بعيوبك؟ فقال: إن نصحني فيما بـيني وبـينه فنعم وإن قرّ عني بـين الملأ فلا.

قال الغـزالي:(فـالفرق بــين التوبــيخ والنصـيحة بالإِسـرار والإِعلان كما أن الفرق بـين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإِغضاء. فإن أغضيت لسلامة دينـك ولمـا تـرى من إصـلاح أخيك بالإِغضاء فأنت مـدار وإن أغضـيت لحـظ نفسـك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن)[1]

وتحقيق هذا الركن في الواقع يحتاج إلى بذل الجهد لطلب العلم الصحيح ــ كمـا سنوضـحه في البعـد المعـرفي ــ لأن هـذا الركن يقوم أساسا على العلم.

---

1) إحياء علوم الدين: 2/182.

الفصل الخامس

البعد المعرفي في تربية الأولاد

من الأركان الأساسية التي تتكـون منهـا شخصـية المسـلم الصالح، بل لا يمكن أن تتكون بدونها: (العلم والمعرفة)، فلذلك كان البعد المعرفي بعدا أساسيا من أبعاد التربية الإسلامية.

وقد دل على هذا البعد النصوص الكثـيرة الـتي تجعـل منـه أول ركن من الأركـان الـتي يقـوم عليهـا الـدين، فلا يتحقـق للمسلم أي إسلام بدون العلم.

فالتعرف على الله الـذي هـو جـوهر الـدين وأصـله وغايتـه وموضوعه يحتاج إلى العلم، قال الله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾(محمد:19)

ولهذا كان أول أمر من أوامر هذا الـدين هـو قولـه تعـالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:1)، ثم كرر هذا الأمـر في قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (العلق:3)

بل جعل الله تعالى وظيفة الرسل ـ صـلوات اللـه وسـلامه عليهم ـ هي وظيفة المعلمين، قال تعالى ممتنا على هذه الأمة: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْ أَنْفُسِـهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كَـانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران:164)

وأخبر أن كل الأنبياء جاءوا أقوامهم بالبينـات، وهي العلـوم الواضحات التي قويت أدلتها، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَـأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْـدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْـدِيَهُمْ فِي أَفْـوَاهِهِمْ وَقَـالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَـدْعُونَنَا إِلَيْـهِ مُـرِيبٍ﴾ (ابراهيم:9)

بل إن القرآن الكريم فوق ذلك كله أخبر عن مزية الإنسان التي أهلته للخلافة في الأرض، وأهلتـه للتكـريم الربـاني، فقـال

تعالى وهو يقص قصة بداية خلق الإنسان: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة:31 ـ 33)

انطلاقا من هذا وردت السنة بالحض على العلم والترغيب فيه ورفع مكانة أهله، وسنسوق من النصوص هنا ما يبين المكانة الرفيعة لطلب العلم، بل جعله من أهم ما يتقرب به العبد إلى ربه.

فقد أخبر ﷺ بأن العلم نوع من أنواع العبادة، بل هو من أفضلها، قال ﷺ:(أفضل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع)[1]، وصرح بذلك فقال ﷺ:(فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع)[2]، وقال ﷺ:(قليل العلم خير من كثير العبادة، وكفىٰ بالمرء فقها إذا عبد الله، وكفىٰ بالمرء جهلا إذا أعجب برأيه)[3]، وقال ﷺ:(ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد وعماد هٰذا الدين الفقه)[4]

وقايس ﷺ بين بعض النوافل وبين طلب العلم، فقال لأبي ذر، وقد رأى حرصه على النوافل:(يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة)[5]

---

1) رواه الطبراني في معاجيمه الثلاثة.

2) رواه الطبراني في الأوسط، والبزار بإسناد حسن.

3) رواه الطبراني في الأوسط قال البيهقي: ورويناه صحيحاً من قول مطرف بن عبد اللّه بن الشخير ثم ذكره.

4) رواه الدارقطني والبيهقي.

5) رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

وأخبر ﷺ أن تعليم العلم لا يختلف عن الصدقات، فقال: (أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم)(1)

ويروى أنه ذكر لرسول الله رجلان: أحدهما عابد والآخر عالم، فقال ﷺ:(فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)، ثم قال رسول الله:(إن الله وملائكته، وأهل السمٰوات والأرض حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير)(2)

وطلب العلم لذلك دليل على خيرية العبد الطالب للعلم، بل دليل على اجتباء الله له، قال ﷺ:(من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)(3)، وقال ﷺ:(يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، و﴿ إنما يخشىٰ الله من عباده العلماء﴾ (فاطر: 82))(4)

وهذا الاجتباء هو الذي يؤهله للجنة ولهذا التكريم الذي أخبر ﷺ عنه، قال ﷺ وهو يعدد فضل طالب العلم:(من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السمٰوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)(5)

وقال ﷺ:(ما من رجل تعلم كلمة، أو كلمتين، أو ثلاثا، أو أربعا، أو خمسا مما فرض الله عز وجل فيتعلمهن ويعلمهن إلا

---

1) رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

2) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

3) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه.

4) رواه الطبراني في الكبير.

5) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي.

دخل الجنة) (1)

ويخبر ﷺ عن بعض صور التكريم التي يقابل بها الملأ الأعلى أهل العلم، فعن صفوان بن عسال المرادي قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد متكىء على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله إني جئت أطلب العلم، فقال: (مرحبا بطالب العلم إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب)(2)

بل إنه ﷺ يرفع درجة أهل إلى درجة الأنبياء، فيقول ﷺ: (من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة)(3)

أما الأجور المعدة لأهل العلم، فإنها أضعاف مضاعفة، قال ﷺ:(من طلب علما فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب علما فلم يدركه كتب الله له كفلا من الأجر)(4)

ومن أجور العلم أنه يكفر الذنوب، مر رجلان على رسول الله ﷺ، وهو يذكر فقال: (اجلسا فإنكما على خير)، فلما قام رسول الله، وتفرق عنه أصحابه قاما فقالا: يا رسول الله إنك قلت لنا اجلسا فإنكما على خير، ألنا خاصة أم للناس عامة، قال: (ما من عبد يطلب العلم إلا كان كفارة ما تقدم)(5)

ومن أكبر ميزات أجر العلم أن أجره غير منقطع، قال ﷺ: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو

---

1) رواه أبو نعيم.

2) رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وروى ابن ماجه نحوه باختصار.

3) رواه الطبراني في الأوسط.

4) رواه الطبراني في الكبير.

5) رواه البزار والطبراني في الأوسط.

علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)(1)

وفي حديث آخر مفصل، قال رسول الله ﷺ:(إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما علمه ونشره وولدا صالحا تركه أو مصحفا ورثه، أو مسجدا بناه أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته)(2)

ونختم هذه النصوص بقوله ﷺ:(تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة لانه معالم الحلال والحرام ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة قائمة تقتص آثارهم ويقتدىٰ بفعالهم، وينتهىٰ إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بٱلعلم منازل الأخيار والدرجات العلىٰ في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء)(3).

انطلاقا من هذه الأهمية التي أولاها الشرع لهذا البعد، سنتناول في هذا الفصل مبحثين:

1. أنواع المعارف ومراتب تعلمها.
2. مواصفات طالب العلم.

---

1) رواه مسلم وغيره.

2) رواه ابن ماجه بإسناد حسن والبيهقي، ورواه ابن خزيمة في صحيحه.

3) رواه ابن عبد البر في كتاب العلم.

وكلا الأمرين من أساسيات هذا البعد، فالأول يبحث في المعارف التي تختلف باختلافها شخصية المعرف، والثاني يبحث في تحقيق المتلقي ما يؤهله للتلقي.

وكلاهما أيضا مما له علاقة بالجانب العملي، وهو الميدان الأول للفقه.

أولا ـ أنواع المعرفة ومراتب تعلمها

إن العلم، وإن كان محمودا لذاته، فإن العمر أقصر من أن يفي بحقه، فلذلك كان من أولى أولويات المربي والمتلقي على حد سواء تحديد ما يمكن أن يقضى العمر في تعلمه، سواء كان من فروض العين أو فروض الكفاية، أو كان مما نص على استحبابه ولم يرق إلى حد الفرضية.

وذلك لأن اشتغال الطالب بغير ما يفيده أو يفيد مجتمعه ـ وإن كان علما مفيدا ـ مضر بعلوم أخرى لها أولويتها وتقدمها على غيرها، ومثل ذلك ابتداؤه بالمهم وتقديمه على الأهم، فإنه سيضر لا محالة بمنهج حياته جميعا.

وسنكتفي هنا بذكر ثلاثة أمثلة قرآنية تشير إلى هذه الحقيقة العظيمة التي غفل عنها الإنسان الغربي غفلة مطلقة، فاستغل العلم للفتك بالبشرية وتدمير الإنسان، وغفل عنها الإنسان المسلم غفلة جزئية فسقط في مهاو خطيرة لا يخرجه منها إلا رجوعه لسواء السبيل.

أما المثال الأول، فهو قوله تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (لأعراف: 175 ـ 176)، فهو مثال على من تبحر في علوم كثيرة، ربما نال منها ثمرات غيرت مسار حياته المادية، ولكنه لم يلتفت إلى حقيقته التي تحولت كلبا إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، انسلخ من إنسانيته لأنه انسلخ قبل ذلك من آيات ربه.

ومثل هذا المثل ما ورد في قوله تعالى عن بني إسـرائيل: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَـارِ يَحْمِـلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَـاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعـة:5)، فبنـو إسـرائيل حملـوا كتبهم وعرفوا ما فيها، ولكنهم نسوا ما فيهـا من الهـدي، ولم يشـتغلوا بما يخرج حقيقتهم عن البهيمية التي أوقعتها فيها شهواتهم.

أما المثـال الثـاني، فهـو قولـه تعـالى عن فرعـون وعلـوم مصر التي بلغ منها العجب في عصرنا مبلغه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَـا هَامَـانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَـى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص:38)، ففرعون يسعى ليرقى الفضـاء لا ليتعرف على ملكوت الله ليجعله سبيله إلى اللـه، وإنمـا يسـعى من رقيه إلى تحدي الله، وسبب ذلك هـو أن فرعـون غفـل عن أهم العلوم، وهي العلوم التي تعرفه حقيقتـه وحقيقـة مـا حولـه حتى أنه في الوقت الذي يعرفـه موسـى باللـه مسـتدلا لـه بمـا يعجز العقل عن تصوره لم يلتفت إلى ذلك، لأن زهوه بما عنـده من العلم جعله يغفل عن العلم الذي يملكه غيره.

ومثل هذا المثل ينطبـق على عصـرنا، العصـر الـذي تـوهم فيـه الإنسـان أنـه حقـق حلم فرعـون، فـرقى إلى القمـر، وقـد يرقى إلى غيره من الكواكب، ولكنه لم يرقه إنسانا، وإنمـا رقى بهيمة أو سبعا، رقاه لا ليقول: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـذَا بَـاطِلاً ﴾ (آل عمران:191)، وإنما رقاه لينصب علم بلده الـذي يمثـل حقيقـة عنصريته وأنانيته وجبروته.

ومثل هؤلاء قوم سيأتون بعدنا، سيبلغون في العلم مـراتب تجعلهم يكتسحون الأرض جميعا، وينهبون مـا فيهـا من خـيرات، ثم تسـول لهم أنفسـهم، أو يسـول لهم طغيـانهم فيفكـروا في (غزو الفضاء) كما فكـروا في غـزو الأرض، قـال ﷺ متحـدثا عن هؤلاء القوم:(حتى يأتوا بيت المقدس فيقولـون: قـد قتلنـا أهـل الدنيا فقاتلوا من في السـماء، فـيرمون بالنشـاب إلى السـماء، فـيرجع نشـابهم مخضـبة بالـدم، فيقولـون: قـد قتلنـا من في

السماء)(1)

أما المثال الثالث، فهو مثال قارون الـذي اشـتغل بـالعلوم التي تنمي ثروته، سواء كانت علوما اقتصـادية أو تقنيـة، ونسـي أن يعرف حقيقته وحقيقة وجوده، فخسف به وبما يملكـه، قـال تعالى: قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي (القصص:78)

ومثل هؤلاء أقوام قـال عنهم اللـه تعـالى: فَلَمَّا جَـاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَـانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (غافر:83)

وهذا الذي نصت عليـه هـذه الآيـة هـو مـا وقعت فيـه هـذه الأمة، سواء أمة الإجابة أو أمـة الـدعوة، حيث انشـغلت بـالفرح بما عندها أو بما عند غيرها من تطور، وغفلت عن علوم تخرجها عن بهيميتها أو سبعيتها إلى حقيقة الإنسان المكرم.

وانطلاقا من هـذه المقدمـة الضـرورية سـنتحدث في هـذا المبحث عن أنواع العلوم والمعارف التي ينبغي تلقينها للنشـء، والاهتمام بها، لتصلح الحيـاة بمفهومهـا الشـرعي، الحيـاة الـدنيا والحياة الآخرة، قال تعالى عن قوم نفى عنهم العلم، أو رمـاهم بالجهل، ثم قال مستدركا: يَعْلَمُـونَ ظَـاهِراً مِنَ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (الروم:7)

فـالعلوم بحسـب هـذه الآيـة تنقسـم إلى قسـمين: علـوم تتعلق بظاهر الحياة الدنيا، وعلوم تتعلق بالآخرة:

أما العلوم المتعلقـة بالـدنيا، فهي العلـوم المنظمـة لحيـاة الإنسان في الـدنيا، أو الميسـرة للإنسـان أسـباب العيش فيهـا، وهي علوم مهمـة، لأن وظـائف الإنسـان لا يمكن أداؤهـا إلا في جو صالح لـذلك الأداء، وغايـة هـذه العلـوم إمـا سياسـة الأفـراد والمجتمعـات، أو الحصـول على تقنيـات تيسـر مرافـق الحيـاة، فهي علـوم سياسـية صـناعية، أوهي سياسـات وصـناعات، لهـا حظها من العلم بقدر نجاحها في تحصيل هاتين الغايتين.

أما العلوم الثانية، فهي العلوم الحقيقية، لأنها تعنى بالهدف

1) هذا حديث يأجوج ومأجوج، رواه ابن جرير، عن حذيفة بن اليمان.

الذي من أجله وجد الإنسان واستخلف، والغفلة عنها أو وضعها في مرتبة تلي مرتبة العلوم الأولى تحرف حقيقة وظيفة الإنسان على الأرض، لأنها تجعل وظيفته قاصرة على أن يؤمن في وجوده على الأرض ما يتصوره من وسائل السعادة، من غير أن يتطلع إلى ما بعدها، وكأنه وجد ليأكل ويلبس ويركب ويسكن، ثم يموت من غير أن يحمل شيئا مما أفنى عمره من أجله.

1 ـ المعارف والحقائق

نقصد بالمعارف والحقائق العلوم التي لا يسع الإنسان جهلها، لارتباطها بحقيقته ووظيفته في هذا الوجود، فلذلك كانت لها الرتبة الأولى، والأهمية القصوى التي لا تدانيها أهمية أي علم أو معرفة.

وسميناها بالحقائق، لأنها حقائق نهائية، لا مجال فيها للاحتمالات ولا التطور الذي يسري للصناعات والسياسات، وذلك لأن دور العقل فيها هو الاستنباط والفهم والاعتبار لا الاختراع ولا الابتداع.

وسميناها بالمعارف انطلاقا من تفريق قديم بين العلم والمعرفة، يجعل العلم عاما ينتهي عند التصديق بالمعلوم أو معرفة بعض صفاته التي تميزه عن غيره من غير اشتراط سريان ذلك في السلوك والحياة(1).

---

1) هناك اختلاف كبير في الفرق بين العلم والمعرفة، اشار الفخر الرازي إلى مجامعه، فذكر الأقوال التالية:

1. المعرفة إدراك الجزئيات والعلم إدراك الكليات.

2. المعرفة التصور والعلم هو التصديق وهؤلاء جعلوا العرفان أعظم درجة من العلم قالوا لأن تصديقنا باستناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود أمر معلوم بالضرورة فأما تصور حقيقته فأمر فوق الطاقة البشرية ولأن الشيء ما لم يعرف وجوده فلا تطلب ماهيته فعلى هذا الطريق كل عارف عالم وليس كل عالم عارفاً ولذلك فإن الرجل لا يسمى بالعارف إلا إذا توغل في ميادين العلم وترقى من مطالعها إلى مقاطعها ومن مباديها إلى غاياتها بحسب الطاقة البشرية وفي الحقيقة فإن أحداً من البشر لا يعرف الله تعالى لأن الاطلاع على كنه هويته وسر ألوهيته محال.

3. من أدرك شيئاً وانحفظ أثره في نفسه ثم أدرك ذلك الشيء ثانياً وعرف أن هذا المدرك الذي أدركه ثانياً هو الذي أدركه أولاً فهذا هو المعرفة فيقال: عرفت هذا الرجل

بخلاف المعرفة التي تجعل صاحبها يبحث عما يريد معرفته بكل كيانه، ثم يتفاعل معه بكل طاقاته، فالعالم من لـه القـدرة على الحفظ او التحليل، ثم يحضره حفظـه وتحليلـه كلمـا حتـاج إليه، بينما العارف ـ عنـد من فرقـوا بين العلم والمعرفـة ــ هـو (من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وافعاله، ثم صدق اللـه في معاملتـه، ثم أخلص لـه في قصـوده ونياتـه، ثم انسـلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم تطهر من أوساخه وأدرانه ومخالفاتـه، ثم صـبر على أحكـام اللـه في نعمـه وبلياتـه، ثم دعـا إليـه على بصـيرة بدينـه وآياتـه، ثم جـرد الـدعوة إليـه وحـده بمـا جـاء بـه رســـوله ولم يشـــبها بـــآراء الرجـــال وأذواقهم ومواجيـــدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم، ولم يزن بها ما جاء بـه الرسـول عليـه من الله أفضل صلواته)[1]

وإن شئنا أن نترك اسم العلم على هذا النـوع، انطلاقـا من المحافظة على ما ورد في النصـوص من فضـل العلم، فلنضـف إليه وصف (النافع)[2]، لأن الإطلاق قد يفيـد مـع أهـل التحقيـق بينما أكثر الناس ينظرون إلى لفـظ العلم المجـرد، ثم ينظـرون في استعماله العرفي، ثم يتصورون قصور مصطلح العلم عليه.

وهـذا هـو الحاصـل، فـالعلم في عصـرنا كـاد ينحصـر فيمـا سميناه (سياسات وصناعات)، أما المعارف الدينيـة الـتي تمثـل الحقائق الكبرى، فلها أهميتها الثانوية، بدليل أن الطالب يـدرس أي فرع من تلك الصناعات الساعات الكثيرة منذ نشوئه، ثم إذا جاء إلى علوم الدين أو السلوك لم يكد يدرس شيئا.

انطلاقا من هذا، فإن العلوم المرتبطة بهـذا النـوع تنقسـم على قسمين، نص عليهما جميعا قوله تعـالى في بيـان وظـائف الرسول ﷺ: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْهُمْ يَتْلُـو عَلَيْهِمْ آيَاتِـكَ

وهو فلان الذي كنت رأيته وقت كذا. انظر: الفخر الرازي: 3/396.

1) مدراج السالكين: 3/337.

2) كما قال ﷺ:(سلوا الله علما نافعـا، وتعـوذوا باللـه من علم لا ينفـع)، (ابن ماجـة والـبيهقي عن جـابر)، وكـان ﷺ يقـول في دعائـه:(اللهم إني أسـألك علمـا نافعـا وعملا متقبلا) الطبراني في الأوسط عن جابر، وكان يقول:(اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني) الطبراني في الأوسط عن أنس.

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (البقرة:129)، وقال تعالى: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (آل عمران:164)، وقال تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (الجمعة:2)

ففي هذه المواضع الثلاث نجد القرآن الكريم نص على أن وظيفة الرسول تنحصر في هذه الوظائف الثلاث:

1. تلاوة آيات الله.

2. تعليم الكتاب والحكمة.

3. التزكية.

والقرآن الكريم لم يذكر هذه الوظائف، لتبقى منحصرة في رسول الله ﷺ، وبالتالي يبقى تأثيرها منحصرا فيمن تربى على يد رسول الله ﷺ، وإنما ذكرها لتبقى سارية في الأمة ما دامت مرتبطة بنبيها وبدينها.

وبذلك، فإن وجود هذه الوظائف في الأمة من الفروض التي لا يبقى للأمة قائمة بدونها.

ولا يشترط أن تجتمع في شخص واحد، بل قد تتفرق على جماعات شتى لتسد كل جماعة ثغرة من ثغراتها.

وسنفصل ما يرتبط بكل قسم من تلك الأقسام فيما يلي:

أ ـ تلاوة الآيات

والمقصود منها ما يرتبط بالقرآن الكريم من قراءة وحفظ، وقد قدم الله تعالى ذكرها في الآيات السابقة لأهميتها، وباعتبارها الأصل الذي ينطلق منه تعليم الكتاب والحكمة، وتنطلق منه التزكية.

ولهذا ورد في النصوص الدعوة الدائمة لقراءة القرآن

الكريم، باعتباره الكتاب الوحيد الذي يشمل الحقائق الكبرى للوجود، بالإضافة إلى كونه الكتاب الذي ينظم الحياة جميعا حياة الإنسان وحياة المجتمع، وحياة العقل وحياة السلوك.

ولهذا كان مجرد تشهير القرآن الكريم ونشره وبث تلاوته والاهتمام بحفظه كافيا في تذليل كل العقبات التي تقف في وجه المربي والداعية، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ (الفرقان: 52)، قال ابن عباس: بالقرآن.

ولهذا أمر الله تعالى بإجارة المشرك إن استجار بالمؤمن، ثم استغلال هذه الحاجة في إسماعه كلام الله، وكأنه يأمرنا بدعوته إلى الله بإبلاغه رسالة الله[1]، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:6)

وقد كان هذا هو أسلوب رسول الله ﷺ في الدعوة، كما كان أسلوبه في التربية:

وقد روت لنا كتب السيرة أنه اجتمعت قريش يوماً، فقالوا:(انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه) وبعد تشاور استقر رأيهم على عتبة بن ربيعة.

فأتى عتبة رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أنت خير أم عبد اللّه؟ فسكت رسول اللّه ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول اللّه ﷺ، فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى يسمع قولك، إنا واللّه ما رأينا سِخَلَةً قط أشأم على قومك منك، فرّقت جماعتنا وشتّت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا

---

[1]) ونحن نعجب أن يرد الخلاف في هذه المسألة مع صراحة الأدلة فيها، وقد ذكر النووي الخلاف فيها، فقال:(ويمتنع من كان لا يرجى إسلامه لم يجز تعليمه القرآن؟ قال أصحابنا إن كان لا يرجى إسلامه لم يجز تعليمه، وإن رجي إسلامة فوجهان: أصحهما يجوز رجاء إسلامه، والثاني لا يجوز كما لا يجوز بيع المصحف منه وان رجي إسلامه، وأما إذا رأيناه يتعلم فهل يمنع؟ فيه وجهان)

في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، واللّه ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف، حتى نتفانى، أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة، جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً)

ولما انتهى عتبة من هذه الخطبة الطويلة، والتي تحتاج كل كلمة منها إلى فصول طويلة للرد عليها، توجه إليه رسول الله ﷺ بهدوء قائلا:(فرغت؟)، قال:(نعم)، فأخذ رسول الله ﷺ سورة فصلت من أولها إلى أن بلغ قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت:13)، فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش، واحتبس عنهم، وكاد يسلم لولا حرصه على مصالحه مع قومه.

ورسول الله ﷺ يشير بهذا الموقف إلى أسلوب دعوي وتربوي له قيمته العظمى، وهو (المجاهدة بالقرآن) المجاهدة الشاملة للأهواء والشبهات والانحرافات، فهو كتاب علم وتربية وهداية.

ومثل ذلك ما فعله رسول الله ﷺ عندما أرسل الرسل إلى ملوك العالم يدعوهم، فقد اقتصرت رسالته إلى هرقل على هذه الجمل المضمخة بعطر القرآن الكريم (بسم اللّه الرحمن الرحيم. من محمد رسول اللّه إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين، و﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:64))[1]

ولهذا كان أشد شيء على الكفار والمنافقين ودعاة السوء المجاهدة بالقرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ

1) رواه البخاري.

يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (الحج:72)

لأن كلام البشر يحمل من الثغرات ما يمكن التسرب إليه من خلالها، بخلاف كلام الله فإنه لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (فصلت:42)

ولهذا كان من الأخطاء الكبرى التي وقعت فيها بعض المجتمعات الإسلامية الانصراف عن القرآن الكريم إلى الجدل والكلام الذي لا طائل وراءه، كما ذكرنا ذلك سابقا.

وقد نص على أن هذا الانحراف كان أسلوبا من أساليب الكفار الذين أعجزهم هدي القرآن الكريم، فراحوا يلغون بأي كلام، أو بأي أصوات ليسدوا منافذ آذانهم عن سماع القرآن الكريم، قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (فصلت:26)، قال مجاهد في تفسير اللغو هنا:(يعني بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول اللّه ﷺ إذا قرأ القرآن)، وقد كانت قريش تفعله.

هذا في جانب الدعوة، أما جانب التربية، وهو ـ كما ذكرنا ـ لا ينفصل عن العلم، ومن أخطر الأخطار فصله عنه، فقد كان ﷺ يقتصر في تربيته على منبع القرآن الكريم.

يقول سيد قطب في المعالم:(كان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل هو القرآن. القرآن وحده. فما كان حديث رسول الله ﷺ وهديه إلا أثرًا من آثار ذلك النبع. فعندما سُئلت عائشة ا - عن خُلق رسول الله - ﷺ قالت:(كان خُلقه القرآن)[1]

ويرد على من يتصور أن سبب ذلك هو أنه لم تكن للبشرية في ذلك الحين حضارة أو ثقافة، فقال:(كان القرآن وحده إذن هو النبع الذي يستقون منه، ويتكيفون به، ويتخرجون عليه، ولم يكن ذلك كذلك لأنه لم يكن للبشرية يومها حضارة، ولا ثقافة، ولا علم، ولا مؤلفات، ولا دراسات..كلا! فقد كانت

1) رواه النسائي.

هناك حضارة الرومان وثقافتها وكتبها وقانونها الذي ما تزال أوروبا تعيش عليه، أو على امتداده، وكانت هناك مخلفات الحضارة الإغريقية ومنطقها وفلسفتها وفنها، وهو ما يزال ينبوع التفكير الغربي حتى اليوم. وكانت هناك حضارة الفرس وفنها وشعرها وأساطيرها وعقائدها ونظم حكمها كذلك. وحضارات أخرى قاصية ودانية: حضارة الهند وحضارة الصين إلخ. وكانت الحضارتان الرومانية والفارسية تحفان بالجزيرة العربية من شمالها ومن جنوبها، كما كانت اليهودية والنصرانية تعيشان في قلب الجزيرة.. فلم يكن إذن عن فقر في الحضارات العالمية والثقافات العالمية يقصر ذلك الجيل على كتاب الله وحده.. في فترة تكونه.. وإنما كان ذلك عن تصميم مرسوم، ونهج مقصود)(1)

ويدل لهذا غضب رسول الله ﷺ عندما رأى في يد عمر صحيفة من التوراة، وقال:(إنه والله لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني)(2)

ولهذا ورد الثناء في النصوص على تلاوة القرآن الكريم، واعتبار ذلك من أعظم العبادات، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ (فاطر:29)، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة:121)، وقال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران:113)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ (فاطر:29)

ولهذا كان خير المؤمنين من تعلم القرآن أو علمه، قال ﷺ: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)(3)، وكان أولى الناس بالإمامة

---

1) معالم في الطريق:

2) رواه أبو يعلى.

3) رواه البخاري.

قارئ القرآن، قال ﷺ:(يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله تعالى)(1)، وكان القراء هم أصحاب الشورى دون غيرهم، عن ابن عباس قال:(كان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولا وشبابا)(2)، بل كان ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد ثم يقول أيهما أكثر أخذا للقرآن فإن أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد(3).

ووعد بالأجر العظيم على تلاوته، بل تلاوة حروفه، قال ﷺ:(من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألام حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف)(4)، وقال ﷺ:(الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مر السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن وهو يتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران)(5)

ووعد قارئه المنشغل به بإعطائه فوق ما يطلب من حظوظ، قال ﷺ:(يقول الله سبحانه وتعالى: من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله سبحانه وتعالى على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه)(6)

بل إن أجره لا يتوقف عليه، فهو يشمل والديه الأيضا، قال ﷺ:(من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس الله والديه تاجا يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا فما ظنكم بالذي عمل بهذا)(7)

---

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري.

3) رواه البخاري.

4) رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

5) رواه البخاري ومسلم.

6) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

7) رواه أبو داود.

انطلاقا من هذه الأهمية الـتي جعلهـا اللـه في تلاوة كتابـه، اهتمت المجتمعات الإسلامية بـالتلاوة، وبحفـظ القـرآن الكـريم ومدارسـته، فكـان التعليم ينطلـق من أول النشـوء من القـرآن الكريم، لتنتشر بركاته على العمر جميعا.

وقد ذكر ابن خلدون اهتمـام المجتمعـات الإسـلامية بتعليم القرآن الكريم من الصغر، وأهميـة ذلـك، فقـال:(اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليـه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلـوب من رسـوخ الإيمـان وعقائده من آيات القرآن، وبعض متون الاحاديث وصـار القـرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوخا وهو أصل لمـا بعـده لأن السـابق الأول للقلـوب كالأسـاس للملكـات وعلى حسـب الأساس، وأساليبه يكون حال من ينبني عليه)[1]

وقد كانت هنـاك طـرق مختلفـة لهـذا التعليم، لا بـأس من سوقها هنا، كما ساقها ابن خلدون[2]، قبل أن نسوق ما نقترحه من طرق لتحقيق هذا الركن الأساسي من أركان العلم.

أما أهل المغرب، فقد كـان مـذهبهم يعتمـد على الاقتصـار على تعليم القـرآن فقـط، (وأخـذهم أثنـاء المدارسـة بالرسـم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيـه، لا يخلطـون ذلـك بسـواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شـعر ولا من كلام العـرب إلى أن يحـذق فيـه أو ينقطـع دونـه، فيكـون انقطاعـه في الغـالب انقطاعـاً عن العلم بالجملـة، ويسترم هذا الأسلوب إلى أن يجاوزوا حـد البلـوغ إلى الشـبيبة، ومثـل ذلـك الكبـير إذا راجـع مدارسـة القـرآن بعـد طائفـة من عمره)

أمـا أهـل الأنـدلس، فقـد كـان مـذهبهم يعتمـد على (تعليم القـرآن والكتـاب من حيث هـو، وهـذا هـو الـذي يراعونـه في التعليم، إلا أنه لما كان القـرآن أصـل ذلـك وأسـه ومنبـع الـدين

---

1) المقدمة: 1/546.

2) المقدمة: 1/546.

والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقـط بـل يخلطـون في تعليمهم للولـدان روايـة الشـعر في الغـالب والترسـل وأخـذ هم بقـوانين العربيـة وحفظهـا وتجويـد الخـط والكتاب.

ولا تختص عنـايتهم في التعليم بـالقرآن دون هـذه بـل عنايتهم فيـه بالخـط أكـثر من جميعهـا إلى أن يخـرج الولـد من عمر البلـوغ إلى الشـبيبة، وقـد شـدا بعض الشـيء في العربيـة والشعر والبصـر بهمـا وبـرز في الخـط والكتـاب وتعلـق بأذيـال العلم على الجملـة لـو كـان فيهـا سـند لتعليم العلـوم ولكنهم ينقطعون عند ذلك فانقطاع سند التعليم في آفاقهم، ولا يحصل بأيـديهم إلا مـا حصـل من ذلـك التعليم الأول وفيـه كفايـة لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد المعلم)

وأما أهل تونس، فقـد كـان مـذهبهم يعتمـد على (تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارسـة قـوانين العلـوم وتلقين بعض مسائلها، إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياتـه وقراءاتـه أكـثر ممـا سـواه، وعنـايتهم بالخـط تبـع لـذلك. وبالجملـة فطـريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس، لأن سند طـريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عنـد تغلب النصـارى على شرق الأندلس، واستقروا بتونس وعنهم أخذ ولـدانهم بعـد ذلك)

وأما أهل المشرق، فقد كان مـذهبهم يعتمـد على (دراسـة القرآن وصحف العلم وقوانينـه في زمن الشـبيبة، ولا يخلطـون بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمـون لـه على انفـراده كمـا تتعلم سـائر الصـنائع ولا يتـداولونها في مكـاتب الصبيان. وإذا كتبوا لهم الألواح فبخـط قاصـر عن الإجـادة. ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعـد ذلـك من الهمـة في طلبه ويبتغيه من أهل صنعته)

وقد ذكر ابن خلدون الآثار الإيجابية والسـلبية لكـل طريقـة من الطـرق السـابقة، فقـال:(فأمـا أهـل إفريقيـة والمغـرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملـة،

وذلك أن القرآن لا ينشا عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها، وليس لهم ملكة في غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام.

وربما كان أهل إفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه، فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما أن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتي في موضعه.

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها، فكانوا لذلك أهل حظ وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا)

وذكر عن أبي بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم تقوم على تقديم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس، قال:(لأن الشعر ديوان العرب. ويدعو إلى تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة)، ثم قال:(ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره يقرأ مالا يفهم وينصب في أمر غيره أهم عليه)

وقد عقب ابن خلدون على هذه الطريقة بقوله:(هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله وهو لعمري مذهب حسن، إلا أن العوائد لا تساعد عليه وهي أملك بالأحوال، ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إيثاراً للتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات

والقواطع عن العلم فيفوته القرآن، فإنه ما دام في الحجر منقاد للحكم، فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة، فيغتنمون في زمان الحجر وربقه الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلواً منه.

ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى مما أخذ به أهل المغرب والمشرق، ولكن الله تعالى يحكم ما يشار لا معقب لحكمه، وهو أحكم الحاكمين)[1]

هذه هي الطرق التي مارستها المجتمعات الإسلامية في تعليمها، وهي طرق لا تزال بعض آثارها في المجتمعات المحافظة من المجتمع الإسلامي.

ونلاحظ عليها الاهتمام بالقرآن الكريم كمصدر من مصادر الثقافة والتعليم، أو كمصدر لتحصيل الملكات الأساسية للعلم كالخط، واللغة، وغيرها.

وهذه الطريقة من الاستفادة من القرآن الكريم كان لها آثارها السلبية على الصعد التربوية، وإن كان لها آثارها الإيجابية على تحصيل تلك الملكات.

وذلك لأن القرآن الكريم يعطي كل شخص بحسب همته ومقصده، كما قال ﷺ:(إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين)[2]

فلذلك كان استغلال القرآن الكريم لهذه الأمور له آثاره الإيجابية، ولكن له آثاره السلبية الخطيرة من حيث اعتباره وسيلة للتعليم، لا مقصدا له.

وقد اعتبر سيد قطب في تحليله لأسباب استفادة الجيل الفريد الذي رباه رسول الله ﷺ من القرآن الكريم مع قصور الأجيال التالية عن ذلك الشأو الذي بلغه السابقون، فقال:(هناك

---

1) المقدمة: 1/546.

2) رواه مسلم وابن ماجة.

عامل أساسي آخر غير اختلاف طبيعة النبع. ذلك هو اختلاف منهج التلقي عما كان عليه في ذلك الجيل الفريد.. إنهم - في الجيل الأول - لم يكونوا يقرؤون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التشوق والمتاع. لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته. إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه، كما يتلقى الجندي في الميدان:(الأمر اليومي) لا ليعمل به فور تلقيه! ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة، لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود)

والتلقي بهذه الصورة، كما يذكر سيد قطب، لا يمنع من الاستفادة العلمية، بل إنه على عكس ذلك يعمقها ويرسخها زيادة على ما يفيده من تربية وسلوك، يقول:(هذا الشعور.. شعور التلقي للتنفيذ.. كان يفتح لهم من القرآن آفاقًا من المتاع وآفاقًا من المعرفة، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع، وكان ييسر لهم العمل، ويخفف عنهم ثقل التكاليف، ويخلط القرآن بذواتهم، ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون الصحائف، إنّما تتحول آثارًا وأحداثًا تحوِّل خط سير الحياة)

وسبب ذلك أن أول خاصية للقرآن الكريم، وهي الهدف من نزوله هو أنه كتاب هداية لا كتاب ثقافة ولا كتاب خط، يقول سيد:(إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يُقبل عليه بهذه الروح: روح المعرفة المنشئة للعمل. إنه لم يجئ ليكون كتاب متاع عقلي،ولا كتاب أدب وفن. ولا كتاب قصة وتاريخ - وإن كان هذا كله من محتوياته - إنما جاء ليكون منهاح حياة. منهاجًا إلهيًّا خالصًا)

وهو لذلك ينتقد من تخلف من الأجيال عن ذلك الجيل، بسبب خطأ الهدف، وقصور الهمة، يقول:(إن منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول. ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرَّج الأجيال التي تليه. وما من شك أن هذا العامل الثاني كان عاملاً أساسيًا كذلك في اختلاف الأجيال كلها عن ذلك الجيل المميز الفريد)

ولذلك، فإن الطريقة المثلى لتعليم القرآن الكريم، هو أن تهتم المدارس ـ أو مؤسسات خاصة ـ على القرآن الكريم أولا وقبل كل شيء، فتجعله المادة الأساسية للتعليم، بل المنبع الأساسي للتعليم، فيبدأ التلميذ ــ من أول نشوئه ــ حياته على حفظ القرآن الكريم مع تعميق معانيه في النفس، مع التركيز على معانيه التربوية والإيمانية قبل كل شيء.

ولن يأخذ ذلك وقتا طويلا إن تعاونت فيه جميع المؤسسات التربوية من المسجد والمدرسة والبيت، وغيرها من المؤسسات.

فإن استكمل الولد حفظه للقرآن الكريم، كان ذلك مؤهلا له لدخول المدارس التي تلقنه ما يريد التخصص فيه من العلوم الشرعية أو من العلوم المرتبطة بالسياسات والصنائع.

فيدخلها، وقد اكتسى من أنوار القرآن الكريم، وتحلى بحليته ما يؤهله للاستفادة منها في أقصر الأوقات، وبأكمل استفادة.

وقد يتصور أن هذا من الغلو، فكيف يقتصر على القرآن الكريم، وهناك الكثير مما يحتاج الصبي إلى تعلمه من الرياضيات واللغات الأجنبية وعلوم الطبيعة والحياة وغيرها من العلوم الكثيرة؟

والجواب على ذلك: أن كل ما ذكر من العلوم وغيرها مما تمارسه المدارس، وتبالغ في ممارسته لم ينجح في تكوين الجيل الصالح المتعلم الذي يفيد نفسه، ويفيد مجتمعه، وذلك لأن الانطلاقة كانت خاطئة.

ومثال ذلك مثال من وضع في مستشفى، ولفترة محدودة، فانشغل الأطباء ـ بدل علاجه، وتأهيله للحياة خارج المستشـفى ـ بتعليمه الحساب والجبر والعلوم، فيخرج بمرضه كما دخل، لم ينتفع بما تعلمه، ولا يستطيع أن ينفـع لأن مـا بـه من أمـراض لا زال يجعل بينه وبين ذلك الحوائل.

ومثـل ذلـك مثـل الصـبي في أول نشـوئه، فهـو في وضـع يمكن أن يشـكل منـه أي قـالب، لتبـنى حياتـه بعـد ذلـك على أسـاس ذلـك القـالب، فـإن فـرط في تلـك الفـترة، وانشـغل المعلمون والمؤسسات التربوية بالحشو الخالي من التربية كان لذلك أثره السلبي الخطير.

ثم إنه لن يعجز من حفظ القـرآن الكـريم وتعمقت معانيـه في نفسـه من أن يحصـل كـل مـا يتصـور أنـه فاتـه، في أقصـر الآماد، لأن الملكات التي استفادها أثناء حفظه للقـرآن الكـريم، وأثناء تعميقه لمعانيه ستكون أسسا صحيحة قوية لذلك، ولأكـبر منه.

زيادة على ذلك فإن المدارس والجامعات تشكو الانحـراف الخطير الذي يقـع فيـه المتعلمـون، وهـو مـا يحـول بينهم، وبين الاسـتفادة، وسـر ذلـك هـو مـا بـدأوا بـه حيـاتهم من الانشـغال بالجمع لا بالتحقيق، وبصورة العلم لا بحقيقة العلم.

لكن هذا الحلم الـذي نقترحـه، لن يجـد في الواقـع صـداه، لأن المـدارس الآن موحـدة المنـاهج في العـالم أجمـع، أو تكـاد تكون موحدة المناهج، ومن المسـتحيل أن تنفصـل المجتمعـات الإسلامية عن هذا التوحد.

فلذلك نرى بديلا سـهلا قـد يحقـق بعض غايـات هـذا، وهـو الاهتمام بإشاعة القرآن الكريم، وتشجيع حفظه، والحرص على تلقين معانيه بكل الطرق.

ويبـدأ كـل ذلـك بحفظـه، فـإن للتكـرار دورا كبـيرا، لا في الحفظ وحده، وإنما في تقريـر المعـاني المحفوظـة في النفس شعر صاحبها أو لم يشعر، ولذلك كان من سنة النـبي ﷺ ترديـد الآية الواحدة، أو الآيات المتعددة ليساعد ذلك على التدبر، فقـد

روي عن أبي ذر قال:(قام النبي ﷺ بآية يرددها حتى أصبح والآية: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة:118))[1]

وعن تميم الداري أنه كرر هذه الآية حتى أصبح: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية: 21)

وردد ابن مسعود : ﴿ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (طه:114)، وردد سعيد بن جبير: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:281)، وغير ذلك مما تواترت روايته عن السلف، ومن بعدهم.

ولكن هذه الإشاعة قد تصطدم بأكثر الأقوال الفقهية شهرة، بل نرى أن هناك من يستغل الفقه، وآراء الفقهاء ليحرم المجتمع من إشاعة القرآن الكريم، فيبقى محصورا في دائرة ضيقة، وفي أوقات محدودة.

وسنذكر أمثلة هنا على ذلك، والرد عليها:

الاجتماع على القرآن الكريم:

أو ما يسمى بالقرءة الجماعية للقرآن الكريم، فهي مع وضوح أدلتها، نجدها محل نكار كبير ممن يرمون بسهام البدعة كل ما يرونه من مظاهر المحافظة على المجتمعات الإسلامية.

ولسنا ندري ما استدلوا به إلا أنهم لم يستدلوا بطلاقة النصوص التي لم تحددطريقة معينة في القرءة.

ولم يستدلوا بقوله ﷺ:(ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)[2]

---

1) رواه النسائي وابن ماجه.

2) رواه مسلم.

ولم يستدلوا بفعل السلف، قال النووي:(وروى ابن أبي داود: أن أبا الدرداء كان يدرس القرآن معه نفر يقرءون جميعا، وروى ابن أبي داود فعل الدراسة مجتمعين عن جماعات من أفاضل السلف والخلف وقضاة المتقدمين)(1)

وإن كانوا مقلدين، فإنهم لم يستدلوا على أن هذا هو قول جماهير الفقهاء، قال النووي:(أعلم أن قراءة الجماعة مجتمعين مستحبة بالدلائل الظاهرة وأفعال السلف والخلف المتظاهر)(2)

ولم يخالف في ذلك إلا ما روي عن الضحاك ومالك، مع أن أصحاب مالك يتأولون قوله.

وإنما ذكرنا هذه المسألة هنا لما نراه من أهمية عقد الحلق الجماعية للقرآن الكريم في المساجد والبيوت وغيرها، لمساهمتها في تصحيح قراءة القرآن الكريم، وتيسير حفظه ومراجعته والالتزام بذلك كله.

وقد كانت هذه الحلق القرآنية سنة حسنة في المجتمعات الإسلامية، وقد ذكر النووي عن حيان بن عطية والأوزاعي أنهما قالا:(أول من أحدث الدراسة في مسجد دمشق هشام بن اسمعيل في قدمته على عبد الملك)(3)

فهي سنة قديمة حصلت في عهد السلف الأول يمكن

---

1) أما ما روى ابن أبي داود عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب: أنه أنكر هذه الدراسة، وقال ما رأيت ولا سمعت، وقد أدركت أصحاب رسول الله ﷺ، يعني ما رأيت أحداً فعلها.

ومثل ذلك ما روي عن وهب قال: قلت لمالك أرأيت القوم يجتمعون فيقرءون جميعا سورة واحدة حتى يختموها؟ فأنكر ذلك وعابه، وقال: ليس هكذا تضيع الناس إنما كان يقرأ الرجل على الآخر يعرضة.

فقد رد النووي على ذلك، فقال:(فهذا الانكار منهما مخالف لما عليه السلف والخلف، ولما يقتضية الدليل، فهو متروك، والاعتماد على ما تقدم من استحابها) التبيان في آداب حملة القرآن: 52.

2) التبيان في آداب حملة القرآن: 52.

3) التبيان في آداب حملة القرآن: 52.

إحياؤها، وتنظيمها، مع مراعاة الآداب التي نرى الإخلال بالكثير منها في القراءات الجماعية الموجودة في مجتمعنا.

القراءة على كل حال:

وهذا من الأمور المهمة، لأن الإنسان قد ينشط في وقت من الأوقات لقراءة القرآن الكريم، وفإذا ما ذهب ليقرأ وجد الشروط الكثيرة التي يجد في عزمه القصور عن الوفاء بها.

فلذلك كان من الفقه المقاصدي عدم اعتبار تلك الشروط ما وجد لذلك سبيلا، وسنذكر هنا بعض تلك الشروط لا على الطريقة التي اعتدنا عليها، فلذلك محله الخاص، وإنما سننتقي من أقوال الفقهاء، وأدلتهم ما يرفع تلك الشروط وآثارها.

فمنها **اشتراط الطهارة لقراءة القرآن الكريم** سواء الطهارة الصغرى أو الطهارة الكبرى، وهو قول جماهير الفقهاء، ولكن الأدلة الصريحة الظاهرة على خلافه.

ولذلك ذهب الظاهرية إلى خلاف هذا القول، قال ابن حزم:(وقراءة القرآن والسجود فيه ومس المصحف وذكر الله تعالى جائز، كل ذلك بوضوء وبغير وضوء وللجنب والحائض)، قال:(وهو قول داود وجميع أصحابنا)[1]

ثم روى هذا عن عن ربيعة قال: لا بأس أن يقرأ الجنب القرآن، وروى عن حماد قال سألت سعيد بن المسيب عن الجنب هل يقرأ القرآن؟ فقال: وكيف لا يقرؤه وهو في جوفه، وروى عن نصر الباهلي. قال: كان ابن عباس يقرأ البقرة وهو جنب.

واستدل لهذا بأصل مهم ينبغي مراعاته في فقه العبادات، وهو (أن قراءة القرآن والسجود فيه ومس المصحف وذكر الله تعالى أفعال خير مندوب إليها مأجور فاعلها، فمن ادعى المنع فيها في بعض الأحوال كلف أن يأتي بالبرهان)

أما ما وري عن عبد الله بن سلمة عن علي بن أبي طالب

---

1) المحلى: 1/83.

أن رسـول اللـه ﷺ لم يكن يحجـزه عن القـرآن شـيء ليس الجنابة(1)، فقد قال فيه ابن حزم:(وهذا لا حجة لهم فيـه ؛ لأنـه ليس فيه نهي عن أن يقرأ الجنب القرآن، وإنما هو فعل منه ﷺ لا يلزم، ولا بين ﷺ أنـه إنمـا يمتنـع من قـراءة القـرآن من أجـل الجنابة. وقد يتفق له ﷺ ترك القـراءة في تلـك الحـال ليس من أجل الجنابة، وهو ﷺ لم يصم قط شهرا كاملا غير رمضـان، ولم يزد قط في قيامه على ثلاث عشـرة ركعـة، ولا أكـل قـط على خوان، ولا أكل متكئا، أفيحرم أن يصام شهر كامل غـير رمضـان أو أن يتهجد المرء بأكثر من ثلاث عشرة ركعة، أو أن يأكل على خوان، أو أن يأكل متكئا؟ هذا لا يقولونه، ومثل هذا كثير جدا)(2)

أما ما ورد من الآثـار القوليـة الـتي تنهي الجنب ومن ليس على طهر عن أن يقرأ شيئا من القـرآن(3)، فقـد قـال فيهـا ابن حزم:(لا يصـح منهـا شـيء، وقـد بينـا ضـعف أسـانيدها في غـير موضع، ولو صحت لكـانت حجـة على من يـبيح لـه قـراءة الآيـة التامة أو بعض الآية ؛ لأنهـا كلهـا نهي عن قـراءة القـرآن للجنب جملة)

ومنهـا **اشـتراط الطهـارة لمس المصـحف**، وهـو مـا يحول بين الإنسان وحمل المصـحف معـه أو في جيبـه ليسـتغل وقت فراغه في قراءة القرآن الكريم، فلذلك كـان من التيسـير ومن إشاعة القرآن الكريم عدم اشتراط هـذا الشـرط(4)، قـال ابن حزم:(وأما مس المصحف فإن الآثـار الـتي احتج بهـا من لم

1) رواه أبو داود، والنسائي، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

2) المحلى: 1/83.

3) من ذلك ما روي عن ابن عمر، أن النبي ﷺ قال:(لا تقرأ الحائض ولا الجنب شـيئا من القرآن) رواه أبو داود، والترمذي. وقال: يرويه إسـماعيل بن عيـاش عن نـافع، وقـد ضعف، البخاري روايته عن أهل الحجاز، وقال: إنما روايته عن أهل الشام.

4) اختلـف العلمـاء في مس المصـحف على غـير وضـوء، فـالجمهور على المنـع من مسه لحديث عمرو بن حزم. وهو مذهب علي وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسـعيد بن زيـد وعطـاء والزهـري والنخعي والحكم وحمـاد، وجماعـة من الفقهـاء منهم مالـك والشافعي. واختلفت الرواية عن أبي حنيفة، فروي عنه أنه يمسه المحدث، وقد روي هذا عن جماعة من السلف منهم ابن عباس والشعبي وغيرهما. وروي عنه أنـه يمس ظـاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه، وأما الكتاب فلا يمسه إلا طاهر.

يجز للجنب مسه فإنه لا يصح منها شيء ؛ لأنها إما مرسلة وإما صحيفة لا تسند وإما عن مجهول وإما عن ضعيف)[1]

واستدل لذلك بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به رسول الله ﷺ إلى هرقل، فقد كان فيه بية قرآنية، هي قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:64)، قال ابن حزم:(فهذا رسول الله ﷺ قد بعث كتابا وفيه هذه الآية إلى النصارى وقد أيقن أنهم يمسون ذلك الكتاب)

وقد رد على الشبهة التي يوردها المخالفون من أن رسول الله ﷺ إنما بعث إلى هرقل آية واحدة بقوله:(ولم يمنع ﷺ من غيرها وأنتم أهل قياس فإن لم تقيسوا على الآية ما هو أكثر منها فلا تقيسوا على هذه الآية غيرها)

أما قوله تعالى: ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة:78 ـ 79) الذي استدل به المخالفون فلا دلالة فيه على ذلك، قال ابن حزم:(فهذا لا حجة لهم فيه لأنه ليس أمرا وإنما هو خبر. والله تعالى لا يقول إلا حقا. ولا يجوز أن يصرف لفظ الخبر إلى معنى الأمر إلا بنص جلي أو إجماع متيقن. فلما رأينا المصحف يمسه الطاهر وغير الطاهر علمنا أنه عز وجل لم يعن المصحف وإنما عنى كتابا آخر)[2]

وعلى اعتباره مصحفا، فقد ذكر المفسرون أقوالا كثيرة في تفسير ﴿ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ تجعل الاستدلال بالآية غير صحيح.

فقد قال أنس وسعيد وابن جبير: لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة، وقال أبو العالية وابن زيد: إنهم الذين طهروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بني آدم، فجبريل النازل به مطهر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مطهرون، وقال الكلبي: هم السفرة الكرام

---

1) المحلى: 1/81.

2) المحلى: 1/83.

البررة، وهو نحو ما اختاره مالك حيث قال: أحسن ما سمعت في قوله تعالى: ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة:79) أنها بمنزلة الآية التي في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (عبس:1): ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (عبس:12) إلى قوله تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس:16)) يريد أن المطهرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة في سورة عبس.

وعن علقمة قال: أتينا سلمان الفارسي فخرج علينا من كنيف له فقلنا له: لو توضأت يا أبا عبد الله ثم قرأت علينا سورة كذا؟ فقال سلمان: إنما قال الله تعالى: ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة:78 ـ 79) وهو الذكر الذي في السماء لا يمسه إلا الملائكة.

وعن علقمة بن قيس: إنه كان إذا أراد أن يتخذ مصحفا أمر نصرانيا فنسخه له.

وقد لاحظ المالكية بعض الفقه المقاصدي في هذه المسألة، فأجازوا مس المصحف للعالم والمتعلم.

ومنها **منع الحائض من قراءة القرآن الكريم** أو مس المصحف، وهذا يمنع النساء من حفظ القرآن الكريم، لأن حفظه يتطلب المداومة المستمرة والتعهد، فإذا بقيت المرأة طيلة فترة حيضها ونفاسها بعيدة عنه، لن تستطيع حفظه ولا الاستمرار على ذلك.

وقد ذهب مالك إلى جواز قراءة الحائض للقرآن الكريم، اعتبارا لهذه العلة، وقد تعجب ابن حزم من هذا، فقال:(وكذلك تفريقهم بين الحائض والجنب بأن أمد الحائض يطول، فهو محال، لأنه إن كانت قراءتها للقرآن حراما فلا يبيحه لها طول أمدها، وإن كان ذلك لها حلالا فلا معنى للاحتجاج بطول أمدها) [1]

إشاعة التلاوة في كل المحال:

وذلك مما منعت منه كثير من الشروط والتشديدات التي

---

1) المحلى: 1/79.

ذهب إليها بعض الفقهاء، بحجة حرمة القـرآن الكـريم وطهارتـه غـافلين عن أن حرمـة القـرآن الكـريم ذاتيـه، لا تـؤثر فيهـا المؤثرات، بل القرآن الكريم كالماء الطهور دوره الأساسي هـو تطهير غيره والحفاظ على طهارته.

وتلك التشـديدات تصـب في مصـب واحـد، هـو أن لا يقـرأ القـرآن الكـريم إلا في حالـة واحـدة، وهي أن يقـرأ في محـل طاهر كالمسجد ونحوه، وأن لا يكون هناك رفـع للأصـوات، وأن يكون هناك حضور واستماع للحاضرين، وأن يكون هناك...

شـروط كثـيرة تحـد من إشـاعة القـرآن الكـريم، بحيث لا يسمعه إلا ثلـة مخصوصـة، قـد تكـون مهتديـة أصـلا بهديـه، أمـا غيرهـا ممن يحتـاج إلى هدايتـه، فيظـل محجوبـا إل أن يهتـدي، ولسنا ندري كيف يهتدي، ومنبع الهداية محجوب عنه.

ولذلك نرى أن يقال بإشاعة قراءة القرآن الكريم في كـل المحال، سواء ارتفعت الأصوات عليه أو لم ترتفع، وسـواء كـان ذلك في قنـوات ومحـال ملتزمـة أو غـير ملتزمـة، وسـواء كـان الحضور محترمين للقرآن الكريم أو مستهزئين به.

فالقرآن الكريم كالسـيف الـذي يجاهـد بـه، ولا حـرج على السيف أن تصيبه الـدماء، فهـو أصـلا موضـوع لـذلك، وقـد قـال تعالى في القـرآن الكـريم: ﴿ فَلا تُطِـعِ الْكَـافِرِينَ وَجَاهِـدْهُمْ بِـهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ (الفرقان: 52)

ولهذا كان رسول الله ﷺ يشيع قـراءة القـرآن الكـريم في كل المحال، وأمام لغط ولغو اللاغين.

وفي القرآن الكريم الأدلة الكثيرة على ذلـك، فاللـه تعـالى يخبر عن مواقف الكافرين والجاحدين من القرآن الكـريم، وهـو يتلى عليهم، ولا يكـون ذلـك إلا بعـد سـماعهم لـه، قـال تعـالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَـا بَيِّنَـاتٍ قَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِلْحَـقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الاحقاف:7)، وقـال تعـالى: ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْـهِ آيَاتُنَـا قَـالَ أَسَـاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (القلم:15)، وقـال تعـالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَـالَ الَّذِينَ لا يَرْجُـونَ لِقَاءَنَـا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْـرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْـهُ قُـلْ مَـا يَكُـونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَـهُ مِنْ تِلْقَـاءِ

نَفْسِـي إِنْ أَتَّبِـعُ إِلَّا مَـا يُـوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَـافُ إِنْ عَصَـيْتُ رَبِّي عَــذَابَ يَـوْمٍ عَظِيمٍ (يــونس: 15)، وقــال تعــالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَـاتٍ قَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِلَّذِينَ آمَنُـوا أَيُّ الْفَـرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً (مريم: 73)، وقال تعــالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَـرَ يَكَـادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُـلْ أَفَـأُنَبِّئُكُمْ بِشَـرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (الحج:72)

والله تعالى يخبر باحتجاجه على الكفار بكون الآيات كـانت تتلى عليهم في الدنيا، كما قال تعالى: وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَــاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْــتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمــاً مُجْــرِمِينَ (الجاثـية:31)، وقال تعالى: قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُـونَ (المؤمنـون:66)، وقـال تعـالى: أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (المؤمنون:105)

بل إن القرآن الكريم ـ منعا لكل تأويل ـ يصـرح بسـماعهم للقرآن الكـريم مـع كفـرهم وعنـادهم، قـال تعـالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَـا مِثْـلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (لأنفـال:31)، وقـال تعـالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْـهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْـراً فَبَشِّـرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (لقمان: 7)، وقال تعالى: يَسْـمَعُ آيَـاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْـتَكْبِراً كَـأَنْ لَمْ يَسْـمَعْهَا فَبَشِّـرْهُ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ (الجاثـية:8)

ثم كيـف لا ينشــر القـرآن الكـريم، ويشـاع لكـل طوائـف الناس، وفيه من الخطاب للناس جميعا ما لا يسعهم تركه وعدم الاستماع إليه، فالقرآن الكريم كما يخاطب الذين آمنوا يخـاطب الناس بطوائفهم، كما يخطاب الكفار بمللهم ونحلهم؟

ثم كيف يسمع الناس كـل النـاس قولـه تعـالى: يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ اعْبُــــــــدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (البقرة:21)أو قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّبــاً وَلا تَتَّبِعُـوا خُطُـوَاتِ الشَّـيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ (البقرة:168)، أو قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَـانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَـا إِلَيْكُمْ نُـوراً مُبِينـاً (النسـاء: 174)، أو

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (فاطر:5)

أو قوله وهو يأمرهم بالاستماع: ﴿ا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج:73)

أو قوله مخاطبا الذين كفروا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التحريم:7)

أو قوله مخاطبا الإنسان مجردا من كل دين: ﴿ يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الانفطار: 6)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ (الانشقاق:6)

والنظر المقاصدي الذي نراه من خلال هذه الإشاعة هو أن أي شخص مهما كان منحرفا قد يصادف غفلة من شهواته، أو صدودا من شيطانه، أو رقة في قلبه، فيصادف آية تخرجه من أوهامه لتضعه بين يدي ربه، فلماذا نمنع هذه الآية من الوصول إلى آذانه أو آذان قلبه.

وقد روي عن الفضيل بن عياض أن سبب توبته كان (أنه عشق جارية فواعدته ليلا، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع قارئا يقرأ: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (الحديد:16)، فرجع القهقرى وهو يقول: بلى والله قد آن فآواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة، وبعضهم يقول لبعض: إن فضيلا يقطع الطريق. فقال الفضيل: أواه! أراني بالليل أسعى في معاصي الله، قوم من المسلمين يخافونني! اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام.

بل روي عن الصحابة أنهم كانوا يتحرون إسماع المشركين، بل وتحمل الأذى في سبيل ذلك، فعن عروة بن الزبير قال: أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي ﷺ ابن مسعود؛ وذلك أن الصحابة قالوا: ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال ابن مسعود: أنا،

فقالوا: إنا نخشى عليك، وإنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه، فأبى ثم قام عند المقام فقال: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم. الرحمن عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن:1 ـ 2)، ثم تمادى رافعا بها صوته وقريش في أنديتها، فتأملوا وقالوا: ما يقول ابن أم عبد؟ قالوا: هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه، ثم ضربوه حتى أثروا في وجهه.

فإذا أتيح لنا اليوم أن ننشر القرآن الكريم بالطرق المختلفة، فما الذي يمنع من ذلك.

بل نرى رأيا لا نجد المقام للاستدلال عليه هنا، وهو أن تسجل التلاوات للقرآن المترجم باللغات المختلفة، مرتلة بالأصوات الرخيمة الجذابة المؤثرة، على أن تكون الترجمة نفسها في قمة البلاغة الممكنة، ثم تشاع في البلاد التي لا تعرف العربية، ليكون ذلك طريقا من طرق إيصال هداية الله إليها.

ولا مانع من ذلك، فيما نرى، إلا أعراف تعارفناها جعلتنا نحتكر القرآن الكريم مع كونه كلام الله تعالى الموجه للبشرية جميعا، فصرنا نتصور أن حرمته تكون بكتابته كتابة مزخرفة، ثم يوضع في لوح مكنون لا يمسه أحد، ولا يسمع به أحد، ليبقى طاهرا مقدسا، غافلين عما أمرنا به من الجهاد بالقرآن الكريم.

وإنما ذكرنا هذا، لأن في الإنسان ميلا إلى الكلام المؤثر سواء في بلاغته أو طريقة أدائه، ولذلك كان القرآن الكريم في قمة البلاغة، وقد أمرنا بتزيين الأصوات به، ومن احتكار القرآن الكريم اعتبار ذلك خاصا بالعربية لا بغيرها من اللغات مع أن أكثر هذه الأمة ـ أمة الإجابة أو أمة الدعوة ـ من غير العرب.

ب ـ علوم الكتاب والحكمة

وهي القسم الثاني من أقسام العلوم التي كلف الرسول ﷺ وكلف أتباعه من بعده بإشاعتها وتعليمها الناس، وقد وردت في القرآن الكريم مرتبة بترتيبين مختلفين:

الأول: تقديمها على التزكية، كما قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا

وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (البقرة:129)، وفي ذلك إشارة إلى دور الكتاب والحكمة في التزكية.

الثاني: تقديم التزكية عليها، كما قال تعالى: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (آل عمران:164)، وقال تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (الجمعة: 2)، وفي ذلك إشارة إلى دور التزكية في الفهم الراقي للكتاب والحكمة، وكون ذلك الفهم مرتبطا بحصول التزكية، فالعلم بالكتاب والحكمة وسيلة من وسائل التزكية، كما أنه ثمرة من ثمراتها.

وبما أن المقصد من هذين العلمين، كما تشير إليه هذه الآيات هذان الأمران:

التزكية: وهي ـ كما سيأتي ـ تربية الإنسان ليصبح أهلا لعبادة الله والتعرف عليه.

الفهم: ليعرف الحقائق الكبرى المتجلية في العلم والحكمة.

فالأول عملي يصب في تربية الإنسان وإصلاحه، والثاني علمي يصب في ترقية الإنسان ورفعه وتمثيل حقيقته.

ولذلك سنتحدث عن مراعاة هذين المقصدين في علوم الكتاب والحكمة:

علوم الكتاب

نقصد بعلوم الكتاب العلوم المرتبطة بالقرآن الكريم، وهي كثيرة جدا لا تكاد تنحصر، ففي القرآن الكريم كل حقائق الوجود، قال تعالى: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ (النحل:89)

ومن مصدرها الأصلي، قال تعالى: ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (النساء: 166)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الفرقان: 6)، وقال تعالى: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سبأ:6)

وذلك لأن كمال الحقائق يكون بتوفر أمرين:

1. شمولها ووحدتها ودقة انتظامها وإجابتها على كل ما يمكن طرحه من إشكالات وتساؤلات.

2. صحة مصدرها ودقته والوثوق به.

وكلا الأمرين لا يصدقان إلا على القرآن الكريم، فهو الكتاب الوحيد الذي يشمل أرقى المعارف، ومن أدق المصادر.

وقد أشار الرسول ﷺ إلى اعتبار القرآن الكريم مصدرا أساسيا للمعارف، وتدبر القرآن الكريم لذلك، فقال ﷺ:(أتاني جبريل فقال:(يا محمد إن الأمة مفتونة بعدك)، قلت له:(فما المخرج يا جبريل؟)، قال:(كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو حبل الله المتين وهو الصراط المستقيم وهو قول فصل ليس بالهزل إن القرآن لا يليه من جبار فيعمل بغيره إلا قصمه الله ولا يبتغي علما سواه إلا أضله الله ولا يخلق عن رده وهو الذي لا تفنى عجائبه من يقل به يصدق ومن يحكم به يعدل ومن يعمل به يؤجر ومن يقسم به يقسط)[1]

ولهذا أخبر السلف عن كثرة علوم القرآن الكريم، وتشعبها، وأن فيها الغنى لمن استغنى بها وعرف كيف يستنبطها، قال ابن مسعود قال:(من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين)، قال البيهقي:(يعني أصول العلم)، وقال الإمام علي : (لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب)

وقد ذكر الغزالي عن بعض العلماء قوله:(لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر)، وذكر عن آخرين قولهم:(القرآن

---

1) رواه أحمد .

يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومـائتي علم إذ كـل كلمـة علم. ثم يتضـاعف ذلـك أربعـة أضـعاف إذ لكـل كلمـة ظـاهر وبـاطن وحـدّ ومطلع)

ولا يبنبغي استغراب هـذا الكلام، فـالقرآن الكـريم كلام اللـه، وكلام الله لا يحاط به، كما أن الله تعالى لا يحاط به.

ولو شئنا مثلا تقريبيا لهـذا، نقـول: إن عـدد حـروف الهجـاء لا يجاوز في كل لغات العالم أعـدادا محـدودة، ولكن مـع ذلـك يمكن تكوين مئات الآلاف من الكلمات من هذه الحروف المعدودة، فـإذا أردنا المعاني، فإن العدد سيتضاعف أضعافا كثيرة جدا، فإذا ضممنا إلى ذلك الجمل والفقرات، فإن التضاعف لا ينحصر أبدا.

وكذلك القـرآن الكـريم، بـل هـو أعظم من ذلـك، ولكن هـذه المعاني لا يفهمها إلا من يحلل أبجدية القرآن الكريم، ويفك ما فيـه من مفايتح العلوم.

ولكنا لا نريد بعلوم الكتاب هذا العدد الضخم من العلوم، إنمـا نريد به علوما محصورة لها أثرها إما في التزكية أو في الفهم.

ويمكن حصـر العلـوم الـتي حـاولت اسـتنباط علـوم القـرآن الكريم إلى قسمين: أحدهما وسيلة للفهم عن الله، والثانيـة ثمـرة لممارسة تلك الوسيلة، أو أن أحدهما علوم وسائل، والثـاني علـوم مقاصد.

علوم وسائل:

وهي العلوم الـتي لا ينبغي لمن يريـد فهم القـرآن الكـريم جهلها، ويمكن تقسيمها إلى نوعين من العلوم:

العلـوم اللغوية: وذلـك لأن القـرآن الكـريم نـزل بلغـة العرب، ولا يمكن فهمه إلا بإتقان ما يحتاج إليه من هـذه اللغـة، قال الغزالي في العلوم الـتي يتضـمنها هـذا النـوع وقـد سـماها (المقدمات):(وهي الـتي تجـري منـه مجـرى الآلات كعلم اللغـة والنحو؛ فإنهما آلة لعلم كتاب اللـه تعـالى وسـنة نبــيه، وليسـت اللغـة والنحـو من العلـوم الشـرعية في أنفسـهما، ولكن يلـزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب

وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة. ومن الآلات علم كتابة الخط إلا أن ذلك ليس ضرورياً إذ كان رسول الله أميّاً. ولو تصور استقلال الحفظ بجميع ما يسمع لاستغنى عن الكتابة، ولكنه صار بحكم العجز في الغالب ضرورياً)[1]

العلوم التفسيرية: وذلك لعدم استقلال اللغة وحدها في فهم القرآن الكريم، فلذلك نحتاج إلى مصادر روائية للدلالة على الكثير من المعاني المرادة، وقد سمى الغزالي هذا النوع (المتممات)، وقسمها إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير؛ وإلى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر[2].

وهذ العلوم بصنفيها لا يشترط المبالغة فيها إلى الدرجة التي تحجب صاحبها عن علوم المقاصد التي هي مقصودة بالأصالة، ولذلك نرى الغزالي ـ مع كونه في عصر لم تيسر فيه أسباب العلم كما يسرت بعد ذلك ـ يدعو إلى الاقتصاد في هذه العلوم، والاقتصار منها على ما تمس إليه الحاجة، لأن كل ما يطلب لغيره لا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه.

فهو يوصي بأن يقتصر من علم اللغة على ما يفهم منه كلام العرب وينطق به،ومن غريبها على غريب القرآن والحديث،دون التعمق في ذلك،ومن النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة،أما التفسير فيكتفى بما يبلغ ضعف القرآن الكريم أو ثلاثة أضعافه، أما ما زاد على ذلك فهو كما يقول الغزالي : (استقصاء مستغنى عنه)[3]،وقد دعا بدل ذلك إلى النظر في مقاصد القرآن الكريم وحقائقه الباطنة باعتبارها الجوهر الذي يغطيه الصدف،أو اللباب الذي يحميه القشر.

وهذه العلوم يمكن تيسيرها ليتلقاها الناشئة بالأساليب

---

1) جواهر القرآن: 36.

2) إحياء علوم الدين: 1/17.

3) إحياء علوم الدين: 1/17.

العصرية في أقل الآماد الممكنة، محفوظة من كل ما يمكن أن يفسد عقيدة أو يؤثر في سلوك.

ولهذا نرى أن لا يوضع بين يدي الناشئة إلا الكتب الممحصة المدققة التي تراعى فيها كل شروط التكوين والتربية، لأن الكثير مما كتبه العلماء قد يكون متوجها للعلماء خاصة، ولطرحه بين العامة خطره العظيم، خاصة فيما اشتد فيه الجدل، لأنه ينقل العامة من التربية والتزكية المطالبين بها إلى الجدل الذي لا يفيدهم تربية ولا علما، بل إنه سيملأ قلوبهم حقدا على بعضهم بعضا.

وفي هذا السبيل نقترح ما يمكن تسميته بـ (تحديث التراث)، وهو نوع جديد من خدمة التراث، فوق التهذيب والتحقيق والاختصار.

وهي خدمة تشمل المعنى وتشمل التعبير والأسلوب وطرق التصنيف ليصبح التراث كغيره وسيلة من وسائل الإصلاح لا شيئا نفخر به من غير أن نستفيد منه.

علوم مقاصد:

وهي العلوم المقصودة بذاتها، لأن الغرض منها فهم مراد الله من كلامه ورسالته لعباده، ومن الخطأ الكبير أن نشتغل بإعراب رسالة الله وتبيين مزاياها البلاغية والإعجازية، ثم نغفل عن المقصود منها.

ولذلك ينتقد الغزالي من اشتغلوا بعلوم الوسائل عن علوم المقاصد، أو انشغلوا بالتلاوة عن المتلو، فقال:(اني أنبهك على رقدتك أيها المسترسل في تلاوتك، المتخذ دراسة القرآن عملا المتلقف من معانيه ظواهر وجملا، الى كم تطوف على ساحل البحر مغمضا عينيك عن غرائبها، أوما كان لك أن تركب متن لجتها لتبصر عجائبها وتسافر الى جزائرها لاجتناء أطايبها وتغوص في عمقها فتستغني بنيل جواهرها أوما تعير نفسك في الحرمان عن دررها وجواهرها بادمان النظر الى سواحلها وظواهرها، أوما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين كما يتشعب عن سواحل البحر

المحيط أنهارها وجداولها، أوما تغبط أقواما خاضوا في غمرة أمواجها فظفروا بالكبريت الأحمر، وغاصوا في أعماقها فاستخرجوا الياقوت الأحمر والدر الأزهر والزبرجد الأخضر، وساحوا في سواحلها فالتقطوا العنبر الأشهب والعود الرطب الأنضر، وتعلقوا الى جزائرها واستدروا من حيواناتها الترياق الأكبر والمسك الأذفر)[1]

ولهذا كان من الآداب الباطنة التي لا يفقه حقائق القرآن الكريم وأسراره إلا من تأدب بها ما سماه الغزالي بـ (التخصيص) وبين طريقته، وهي أن يقدّر التالي أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، باعتبار القرآن الكريم كلام الله الذي يخاطب به كل عبد من عباده[2].

فلذلك إن سمع التالي أمراً أو نهياً قدّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً قدر أنه المقصود بذلك، (وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي وأمته. ولذلك قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود:120) فليقدّر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى)

لكن هذا التخصيص يحتاج إلى علوم خاصة تعرف بمقاصد القرآن الكريم، وتبين الحقائق التي تنطوي عليها، وذلك لأن الحقائق تختلف بحسب مقاصد المتدبرين واهتماماتهم، ولذلك قد توصف بالعمق أحيانا والسطحية أحيانا أخرى.

وقد يغلب عليها الاهتمام بالجانب الثقافي أو الجوانب الأخرى عن الأهداف المقصودة بالأصالة.

فلذلك كان من تعميق الحقائق القرآنية هو ربطها

1) جواهر القرآن: 21.

2) إحياء علوم الدين: 1/251.

بمقاصدها، لأن شتات الفروع تتوحد في نقطة المقصد.

وقد كان الغـزالي من أكـبر من اهتم بهـذا الجـانب، وذلـك أثناء تقسيمه القرآن إلى محـاور أساسـية تـدور عليهـا آياتـه،ثم الحديث عن تلك المحاور كما وردت فيـه، وقـد جمـع في كتابـه (جواهر القـرآن) سـبعمائة وثلاث وسـتين آيـة تتعلـق بالمعرفـة الإلهيـة، وسـبعمائة وإحـدى وأربعين آيـة تتعلـق بالسـلوك للـه تعالى، وقد سـمى النـوع الأول بـالجواهر،وسـمى النـوع الثـاني بالــدرر، و(الأول علمي، والثــاني عملي، وأصــل الإيمــان العلم والعمل)، ثم شرح جمل القسم الثـاني في كتابـه (الأربعين في أصول الـدين)وضـمه إلى كتابـه (جـواهر القـرآن)،وأجـاز كتابتـه مفردا.

و هـو ينطلـق في تحديـده لمحـاور القـرآن ومقاصـده من هدف القرآن الكريم الأساسـي، وهـو (دعـوة العبـاد إلى الجبـار الأعلى رب الآخرة والأولى)، فالقرآن هو المعرف بالله والداعي له،ولذا يحصر مقاصـد القـرآن ــ على أسـاس ذلـك ــ في سـتة أنواع،ثلاثة هي الأصول المهمة، وثلاثة هي التوابع المتمة، وهــذه المقاصد هي[1]:

المقاصد الأصلية: وهي التي تهدف إليهـا آيـات القـرآن الكريم بالدرجة الأولى، وتشمل المعارف الأساسية الدالــة على الحقائق الكلية الكبرى، وهي:

معرفة الله تعالى: فـالقرآن الكـريم هـو الـدليل الأكـبر على الله، والمعرف الأعظم به،وهو كما يقـول جعفـر الصـادق: (واللــه لقــد تجلى اللــه عــز وجــل لخلقــه في كلامــه، ولكنهم لا يبصرون)، والمقاصد القرآنية المتعلقة بالله عند الغزالي هي:

معرفة الذات: وهي أهم المعارف وأعزها وأضيقها مجالا وأعسرها منالا وأعصـاها على الفكـر،ولا يحـوي القـرآن الكـريم منهـا إلا على تلميحـات وإشـارات ترجـع في رأي الغـزالي إلى أمرين:

---

1) جواهر القرآن: 23.

التقديس المطلق: وهو تنزيه الله تعالى عن كل وصف يدركه الحس،أو يتصوره الخيال، أو يسبق إليه الوهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير، ولذلك عرف الله تعالى ذاته لعباده بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى:11)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:1 ـ4)

التعظيم المطلق: وهو امتلاء القلب مهابة لله وشعورا بالعجز والضآلة أمامه، نتيجة لفرط عدم إحاطة العقل بكنه حقيقته،كما قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنعام:100)،ـ وقال تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الانبياء:22)

والتفكر في جلال الله وعظمته بالجمع بين هذين الأمرين هو الذي يثمر المعارف ولأحوال الإيمانية، دون التفكر في المتشابه من الصفات، فإنه لا يثمر عند الجمهور من الناس إلا التشبيه والتمثيل،ولهذا لم يرد في الأذكار الشرعية المسنونة عن رسول الله ﷺ إلا ما يشير إلى ذلك.

وقد أشار الدهلوي إلى ما ذكره الغزالي، وأيده بأن ما ورد من الأذكار عن رسول الله ﷺ لا يشير إلا للتنزيه والتعظيم فيما يتعلق بذات الله تعالى، يقول الدهلوي:(...ومنها ـ أي من الأذكار الشرعية ـ سبحان الله وحقيقته تنزيهه عن الأدناس والعيوب والنقائص، ومنها الحمد لله، وحقيقته إثبات الكمالات والأوصاف التامة له ؛ فإذا اجتمعتا في كلمة واحدة كانت أفصح تعبير عن معرفة الإنسان بربه،لأنه لا يستطيع أن يعرفه إلا من صفات ذات يسلب عنها ما نشاهده فينا من النقائص، ويثبت لها ما نشاهده فينا من كمالات من جهة كونه كمالا)

والغزالي ينتقد بشدة المشبهة الذين ينكرون التنزيه المطلق لله عن كل صفات الحوادث (حتى قال بعض الحمقى من العوام:إن هذا وصف لبطيخ هندي لا وصف إله، لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء)، ويرد سبب ذلك إلى أن الإنسان لا يعرف إلا نفسه ولا يعظم إلا نفسه،وكل ما لا يساويه في صفاته لا يفهم العظمة فيه،(بل لو كان للذباب

عقل، وقيل له:ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولاطيران، لأنكر ذلك وقال: كيف يكون خالقي أنقص مني؟) (1)

معرفة الصفات: وهي المجال الفسيح الذي يمكن الاطلاع عليه، دون إمكانية الإلمام به، ولذلك كثرت الآيات المشتملة على العلم والقدرة والحياة والكلام والسمع والبصر وغيرها، وهي ــ أيضا ــ تستدعي الأمرين السابقين: التنزيه والتعظيم، فإن صفات الله تعالت وتقدست أن تشابه صفاتنا، فلذلك يغلب على هذه المعرفة الإيهام والتشبيه، ولهذا (ينبغي أن تقترن بنفي المشابهة،ونفي أصل المناسبة)

وقد أشار إليه قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (الشورى:11)، ثم عقب ببيان صفتين من صفاته قد توهمان التشبيه هما السمع والبصر،لارتباطهما بالنسبة لنا بالأذن والعين،قال تعالى: وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (الشورى:11)

ويرى الغزالي أنه بقدر معرفة المؤمن لصفات الله تعالى وتنزيهها وتعظيمها تكون معرفته بذاته تعالى، فمعرفة الصفات هي مدد معرفة الذات،ولذلك كثرت الأسماء الحسنى الدالة على عظمة صفات الله تعالى.

معرفة الأفعال: وهي المجال الأفسح والأيسر لمعرفة الله،فمنها يرقى المتفكر لمعرفة الصفات التي هي المعراج لمعرفة الذات، ولذلك حوى القرآن (الكثير من آيات الله وأفعاله كذكر السماوات والكواكب والأرض والجبال والشجر والحيوان والبحار والنبات وإنزال الماء الفرات وسائر أسباب الحياة)، وقد أمر الله تعالى بالتفكر في هذه المخلوقات، قال تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (آل عمران:190)

وهو ينبه إلى دور معرفة أفعال الله تعالى، سواء ما ظهر منها في عالم الشهادة، أو ما بطن في عالم الغيب والملكوت، في التحقق بمعرفة الله تعالى بقوله:(ليس من يعلم أنه تعالى عالم قادر على الجملة كمن شاهد عجائب آياته في ملكوت

---

1) إحياء علوم الدين: 4/434.

السماوات والأرض وخلق الأرواح والأجساد، واطلع على بدائع مملكته وغرائب الصنعة، ممعنا في التفصيل،ومستقصيا دقائق الحكمة، ومستوفيا لطائف التدبير)(1)

السلوك إلى الله تعالى: وهو الطريق الذي يصفه القرآن الكريم للوصول إلى الله تعالى، وإليه الإشارة بالنصوص الكثيرة كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (المزمل:8)

وعمدة السلوك القرآني ــ كما يذكر الغزالي ــ أمران: الملازمة والمخالفة، أما الملازمة فهي الانشغال التام بذكر الله تعالى، وأما المخالفة فهي ترك كل ما يشغل عن الله(2).

وقد جمع الغزالي الآيات المرشدة إلى طريق السلوك في كتابه (جواهر القرآن ودرره)،ثم شرح تفاصيلها في (الأربعين في أصول الدين).

معرفة اليوم الآخر: وهو المصير الذي يلقاه العارفون أو الجاحدون، ويشتمل القرآن منه على ذكر النعيم الذي أعده الله لأوليائه والخزي والعذاب الذي يلقاه المبعدون عنه، وفي هذا القسم ــ كما يرى الغزالي ــ مجال كبير للبحث والنظر باعتباره المصير الذي ينتظر البشرية جميعا، ولذلك أولاه القرآن الكريم العناية الكبرى، ويحصي الغزالي ما ورد فيه من الآيات بأنه ثلث القرآن.

المقاصد الفرعية: وهي التي تتفرع عن المقاصد السابقة وتخدمها، وهي ـ عند الغزالي ـ ثلاثة مقاصد هي:

القصص القرآني: سواء ما تعلق منها بالأنبياء والصالحين، أو ما تعلق بالكفار والمنافقين، وفائدة هذا القسم كما يرى الغزالي هي التشويق والترغيب فيما يتعلق بالمجيبين لدعوة الله السالكين سبيله، والاعتبار والترهيب فيما يتعلق بأحوال الناكلين والناكبين عن الإجابة، وكيفية قمع الله لهم

---

1) إحياء علوم الدين: 4/435.

2) جواهر القرآن: 28.

وتنكيله بهم.

وكـأن الغـزالي يـدعو من خلال هـذا القسـم إلى اسـتنباط سنن الله في المجتمعات كما ينص عليها القرآن،كما رأينا ــ من قبل ـ دعوته إلى النظر في سنن الله الكونيـة، فكلاهمـا ميـدان لمعرفة الله وسلوك سبيله، وكلاهمـا حث القـرآن الكـريم على النظر فيه والاعتبار به.

البراهين القرآنية: وهذا القسم يتعرض لمحاجة الكفـار ومجادلتهم وإيضاح أباطيلهم وكشفها،وقد حوى القـرآن الكـريم كما يرى الغزالي على تفنيد ثلاثة أنـواع من الأباطيـل تعتـبر من أصول الضلال الكبرى، وهي:

1. ذكر الله تعالى بما لا يليق به من أن الملائكة بناتــه وأن له ولدا وشريكا وأنه ثالث ثلاثة.

2. ذكــر رســول اللــه ﷺ بأنــه ســاحر أو كــاذب،وإنكــار نبوته،وأنه بشر كسائر الخلق فلا يستحق أن يتبع.

3. ذكر اليوم الآخر وجحـد البعث والنشـور والجنـة والنـار، وإنكار عاقبة الطاعة والمعصية.

ويرى الغزالي إمكانية الاستغناء ببراهين القــرآن العلميــة ـ إذا ما تحققت آلية التـدبر ــ عن أدلـة المتكلمين وبـراهينهم،بـل يمكن استنباط وجوه الحجج القاطعة التي يمكن الاسـتدلال بهـا فيما لم يذكره القرآن الكريم من شبهات.

الأحكام الفقهيـة: ويشـتمل هـذا القسـم على الحـدود الشـــرعية الـــتي تنظم أمـــر المعـــاش بأســـباب الحفـــظ لوجوده،وأسباب الدفع لمفسداته.

وبالتدبر في هذا القسم يمكن اسـتنباط محاسـن الشـريعة ومصالحها وحكمها مما لا يوجـد مثلـه في كتب الفقهـاء، ويبـدي الغزالي اهتماما كبيرا ـ في هذا الموضع ـ ببيان مقاصد الشريعة وكلياتها، والتي ترجع إلى تنظيم أمر المعاش في الدنيا حتى يتم أمر التبتل والانقطاع إلى الله تعالى الذي هو المقصــد الحقيقي من الوجود الإنساني.

وذلك التنظيم يستدعي أسباب الحفظ لوجود ه،وأسباب الدفع لمفسداته، وكل حدود الشريعة يمكن إرجاعها عند الغزالي إلى هذين القسمين،وهو لهذا يعتبر الفقه من علوم الدنيا فـ (الفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات،فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا)

هذه هي المقاصد الستة التي تدور حولها جميع آيات القرآن الكريم في رأي الغزالي،وهو يدعو من خلال عرضها إلى التفكر فيها واستنباط أصناف العلوم منها، فكل العلوم مغترفة من بحار القرآن الكريم.

ونحن لم نذكر هذه المقاصد هنا بحسب ما ذكرها الغزالي على أنها رأي شخصي للغزالي، وإنما ذكرناها باعتبار الأدلة المتظافرة من النصوص تدل عليها.

ولا نحسب أن هناك خلافا في اعتبارها، فهي من القطعية بحيث لا يختلف فيها، وإنما للغزالي فيها دقة التصنيف، والتنظيم، والتقسيم.

ولذلك نرى الاهتمام بتلقين هذه المقاصد، وتعليمها والتركيز عليها عند تعليم علوم القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم ليس كتاب ثقافة بقدر ما هو كتاب هداية.

علم الحكمة

ربما كان من الصعب تحديد معنى دقيق للحكمة بسبب الخلاف الطويل في معناها، ولكنه مع ذلك لا غنى عن تحديد معناها، فهي وظيفة من وظائف النبوة التي يلزم وجودها واستمرارها لبقاء الهدي النبوي على الأرض.

ولذلك سنحاول هنا معرفة معناها من خلال ما ورد في القرآن الكريم، ومن خلال ما ذكر العلماء في تعريفها محاولين استخراج قول جامع لها، نستطيع بواسطته معرفة العلوم التي تتضمنها الحكمة.

الحكمة في القرآن الكريم: كل المواضع التي وردت فيها الحكمة في القرآن الكريم مواضع ثناء(1)، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة:269)، ولهذا ذكر القرطبي أنه يقال:(إن من أعطي الحكمة والقرآن فقد أعطي أفضل ما أعطي من جمع علم كتب الأولين من الصحف وغيرها، لأنه قال لأولئك: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الاسراء:85)، وسمى هذا خيرا كثيرا، لأن هذا هو جوامع الكلم) (2)

وقد اعتبر القرآن الكريم الحكمة نوعا من أنواع النعم التي من الله بها على عباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:231)

وهو يخبره عن فضله على الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ بإعطائهم الحكمة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ (آل عمران:81)، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ (النساء: 54)، وقال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (البقرة:251)، وقال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ﴾ (آل عمران:48)، وقال تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (صّ:20)، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الزخرف:63)

وهو يمن على رسول الله ﷺ بأن الله أنزل عليه الحكمة، قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ (النساء: 113)، وقال

1) خلافا للعلم، فقد ذكر في مواضع الثناء والذم جميعا، كما سبق ذكره.

2) القرطبي: 3/330.

تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ (الاسراء: 39)

وهو يأمر باستعمال الحكمة وذكرها، قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل:125)، وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ (الأحزاب:34)

وهو يخبر عند ذكره لنموذج تربية الأبناء أن من صفات المربي الصالح (الحكمة)، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (لقمان: 12)

خلاف العلماء في الحكمة: انطلاقا من اختلاف ورودها في القرآن الكريم، فقد وردت مفردة ومقترنة بالكتاب، اختلفت الأقوال فيها بناء على هذين النوعين:

المفردة: كما في قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة:269)، فقد فسرت في هذا الموضع، بتفاسير مختلفة منها: قول السدي: هي النبوة، وقال ابن عباس:(هي المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وغريبه ومقدمه ومؤخره)، وقال قتادة ومجاهد:(الحكمة هي الفقه في القرآن)، وقال مجاهد:(الإصابة في القول والفعل)، وقال ابن زيد:(الحكمة العقل في الدين)، وقال مالك بن أنس:(الحكمة المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتباع له)، وروى عنه ابن القاسم أنه قال:(الحكمة التفكر في أمر الله والاتباع له)، وقال أيضا:(الحكمة طاعة الله والفقه في الدين والعمل به)، وقال الربيع بن أنس:(الحكمة الخشية)، وقال إبراهيم النخعي: (الحكمة الفهم في القرآن)، وقاله زيد بن أسلم، وقال الحسن: (الحكمة الورع) وكأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

ومن الأقوال فيها أنها (معرفة الأشياء بحقائقها)، وفيهذا إشارة إلى أن إدراك الجزئيات لا كمال فيه لأنها إدراكات

متغيرة، فأما إدراك الماهية، فإنه باقٍ مصون عن التغير والتبدل.

ومن الأقوال فيها أنها (الإتيان بالفعل الذي عاقبته محمودة)، وقيل:(هي الاقتداء بالخالق سبحانه وتعالى في السياسة بقدر الطاقة البشرية وذلك بأن يجتهد بأن ينزه علمه عن الجهل وفعله عن الجور وجوده عن البخل وحلمه عن السفه)[1]

وعرفها الفخر الرازي بأنها (اسم لكل علم حسن، وعمل صالح)، قال:(وهو بالعلم العملي أخص منه بالعلم النظري وفي العمل أكثر استعمالاً منه في العلم، ومنها يقال أحكم العمل إحكاماً إذا أتقنه وحكم بكذا حكماً)

قال ابن القيم:(وأحسن ما قيل في الحكمة قول مجاهد ومالك إنها معرفة الحق والعمل به والإصابة في القول والعمل وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان)[2]

وقد عرفها هو بقوله:(الحكمة حكمتان علمية وعملية، فالعلمية الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقا وأمرا قدرا وشرعا، والعلمية هي وضع الشيء في موضعه)

وقال القرطبي معلقا على الأقوال السابقة:(وهذه الأقوال كلها ـ ما عدا السدي والربيع والحسن ـ قريب بعضها من بعض، لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتقان في قول أو فعل، فكل ما ذكر فهو نوع من الحكمة التي هي الجنس، فكتاب الله حكمة، وسنة نبيه حكمة، وكل ما ذكر من التفضيل فهو حكمة، وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه، فقيل للعلم حكمة، لأنه يمتنع به، وبه يعلم الامتناع من السفه وهو كل فعل قبيح، وكذا

---

1) الفخر الرازي: 3/396.

2) مدارج السالكين: 2/478.

القرآن والعقل والفهم)[1]

والحكمة بذلك تعني ـ عنده ـ العلم، وإنما ذكر الحكمة مع كون العلم مغنيا عنها ـ كما يقول القرطبي (اعتناء بها، وتنبيها على شرفها وفضلها)

المقرونة بالكتاب: أكثر الأقوال في الحكمة المقترنة بالكتاب أنها (السنة)، قال الشافعي:(الحكمة سنة رسول الله ﷺ وهو قول قتادة، قال أصحاب الشافعي:(والدليل عليه أنه تعالى ذكر تلاوة الكتاب أولاً وتعليمه ثانياً ثم عطف عليه الحكمة، فوجب أن يكون المراد من الحكمة شيئاً خارجاً عن الكتاب، وليس ذلك إلا سنة الرسول ﷺ)، وقيل هي القضاء بالوحي، قال ابن القيم:(وتفسيرها بالسنة أعم وأشهر)[2]

ولكن هذا قد يعارض بقوله تعالى مثلا في المسيح ﵇: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ﴾ (آل عمران:48)، وبقوله في إبراهيم ﵇: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ (النساء:54)

حقيقة الحكمة والعلوم المتفرعة عنها: انطلاقا مما سبق فإنا نرى أن المراد بالحكمة في أصلها الأول، وغايتها القصوى، هي الفهم عن الله، كما قال تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ (الانبياء:79)

فقد جعل الله تعالى الفهم قرينا للعلم، وأخبر بأنه فهم سليمان ﵇، وأن حكمه كان نتيجة للفهم لا لمجرد العلم.

وقد ضرب مثالا لذلك، فقال تعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (الانبياء:78)،

وقصة ذلك كما أوردها المفسرون[3] أن غنما رجل دخلت

---

1) القرطبي: 3/330.

2) مدارج السالكين: 2/472.

حرث آخر، فعاثت فيه فسادا، فذهبا إلى داود ﵇، فحكم أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فلما خرج الخصمان على سليمان ﵇ وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر فقال: بم قضى بينكما نبي الله داود؟ فقالا: قضى بالغنم لصاحب الحرث، فقال:(لعل الحكم غير هذا، انصرفا معي) فأتى أباه فقال:(يا نبي الله أنك حكمت بكذا وكذا وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع)، قال: وما هو؟ قال:(ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرع إلى حال التي أصابته الغنم في السنة المقبلة، رد كل واحد منهما مال إلى صاحبه)، فقال داود ﵇:(وفقت يا بني لا يقطع الله فهم)، وقضى بما قضى به سليمان ﵇.

وهذا يدل على أن هناك أمران في كل مسألة:

1. الحكم الحرفي للمسألة، وهو ما ينص عليه عادة ظاهر الشريعة أو ظاهر القانون، وهو ما حكم به هنا داود ﵇، حيث عوض صاحب الأرض قيمة ضرره، فكانت قيمتها هي غنم الآخر.

2. الحكم المقاصدي للمسألة، وهو الحكم الذي يراعي مصلحة الجانبين، فلا يتضرر أحدهما لينفع الآخر، وهو ما حاول سليمان ﵇ أن يصل إليه عبر ذلك الحكم، يقول سيد قطب معلقا على الموقفين جميعا:(لقد اتجه داود في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث، وهذا عدل فحسب، ولكن حكم سليمان تضمن مع العدل البناء والتعمير، وجعل العدل دافعا إلى البناء والتعمير، وهذا هو العدل الحي الإيجابي في صورته البانية الدافعة، وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء)(1)

انطلاقا من هذا نرى أن جميع ما أورده العلماء في تعريف الحكمة، وجميع ما وردت به النصوص يصب في هذا القول، زيادة على أن هذا يستلزم أنواعا من الوظائف يجب وجودها

---

3) قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما.

1) في ظلال القرآن: 2390.

في الأمة لا يمكن دخولها إلا من هذا الباب.

وذلك لأن الفهم عن الله يقتضي توفر الأدوات اللازمة لهذا الفهم، وهذه الأدات هي التي تحقق هذه الوظيفة الخطـيرة من وظائف الدين.

وهذه الأدوات حسـبما نـرى ثلاثـة لا غـنى عنهـا هي: العلم بمقاصـد الشـريعة، والعلم بـأدوات فهم النصـوص والاسـتنباط منها، والعلم بالأحكام العقلية، وكيفية تطبيقها.

وذلـك لأن الغـرض من الفهم هـو اسـتثمار العلم وتزكيتـه وتطبيقه واستعماله في الموضـع اللائـق بـه، ولا يكـون ذلـك إلا بتوفر العلوم الثلاثة السابقة.

فالعلم الأول يدلنا على فهم مراد الله، والعلم الثاني يــدلنا على فهم كيفية تطبيق مراد اللـه، والعلم الثـالث، وإن كـان من العلـوم الضـرورية إلا أنـه يقي عقولنـا من الخـروج عن الشـرع الذي شرعه الله لفطرنا التي فطرنا عليها.

وبهذه العلوم الثلاثـة يتـبين لنـا فضـل الحكمـة على العلم، كمـا سـبق إيـراد مـا ذكـر القرطـبي في قولـه تعـالى: يُـؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَـدْ أُوتِيَ خَيْـراً كَثِيراً وَمَـا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (البقرة:269)من أنه يقال:(إن من أعطي الحكمـة والقـرآن فقـد أعطي أفضـل مـا أعطي من جمـع علم كتب الأولين من الصحف وغيرها، لأنه قال لأولئك: وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (الاسراء:85)، وسمى هذا خـيرا كثـيرا، لأن هذا هو جوامع الكلم)

وذلـك لأن العلم محـدود بجملـه وتفاصـيله، ولكن الفهم لا حدود له، لأن تزاوج مفردات العلوم ينتج علومـا جديـدة، وهكـذا تتوالــد العلــوم لمن رزقــه اللــه القــدرة على الفهم والتحليــل والاستنباط.

يقـــول الغـــزالي:(والمعـــارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على تـــرتيب مخصـــوص أثمـــرت معرفـــة أخـــرى، فالمعرفة نتاج المعرفة. فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع

معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر. وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية، وإنما تنسدّ طريق زيادة المعارف بالموت. أو بالعوائق وهذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق التفكير. وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم، كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئاً، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها)[1]

وهذا الانتاج المتزايد المتنامي لثمرات الحكمة، لا يكون في أكمل صوره إلا لمن جمع مع الفهم وآلياته قلبا منورا بنور الذكر، كما قال الحسن:(إنّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة)

وسنشرح هنا بعض ما يحتاج إليه من هذه العلوم باعتبارها من الفروض اللازم وجودها في الأمة، بل من اللازم نشرها بين العامة والخاصة، وتربية أجيال الأمة عليها، لأنه من الأخطاء التي وقعت فيها المجتمعات الإسلامية الغرق فيما يسمى بالجزئية والحرفية نتيجة المبالغة في العلم، مع الابتعاد عن الحكمة التي هي ثمرة العلم وأساسه.

مقاصد الأحكام:

أساس الفهم ومنطلقه هو معرفة المقصد، فمن عرف مقصد المتكلم أو المشرع عرف كيف يقيس ما لم يذكر على ما ذكر، وعرف قبل ذلك كيف يطبق ما أمر به مع مراعاة مقاصده.

ففائدة فهم مقاصد الأحكام لها بذلك مظهران: عملي وعلمي.

---

1) إحياء علوم الدين: 4/426.

مظهر عملي: بسببه كانت الحكمة خلقا من الأخلاق، بل رأسا من رؤوس الأخلاق وأصلا من أصولها، ولهذا يطلق العلماء على هـذا النـوع بــ (الحكمـة العمليـة)، وقـد عرفهـا ابن القيم انطلاقا من كلام الهروي بقوله:(أن تعطي كـل شـيء حقـه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه)(1)

ثم فصل هذا التعريف بقوله:(لما كانت الأشياء لها مــراتب وحقوق تقتضيها شرعا وقدرا، ولها حدود ونهايات تصل إليهـا ولا تتعـداها، ولهـا أوقـات لا تتقـدم عنهـا ولا تتـأخر، كـانت الحكمـة مراعاة هذه الجهات الثلاثـة بـأن تعطي كـل مرتبـة حقهـا الـذي أحقه الله لها بشرعه وقدره ولا تتعدى بها حدها فتكـون متعـديا مخالفا للحكمة، ولا تطلب تعجيلهـا عن وقتهـا فتخـالف الحكمـة ولا تؤخرها عنه فتفوتها)

ثم قال معممـا هـذا المعـنى وممثلا لـه بمـا يقـرب معنـاه: (وهذا حكم عـام لجميـع الأسـباب مـع مسـبباتها شـرعا وقـدرا، فإضاعتها تعطيل للحكمـة بمنزلـة إضـاعة البـذر وسـقي الأرض وتعدي الحق كسـقيها فـوق حاجتهـا بحيث يغـرق البـذر والـزرع ويفسد وتعجيلها عن وقتها كحصاده قبل إدراكه وكماله، وكـذلك تـرك الغـذاء والشـراب واللبـاس إخلال بالحكمـة وتعـدي الحـد المحتاج إليه خروج عنها أيضا وتعجيل ذلك قبل وقتـه إخلال بهـا وتأخيره عن وقته إخلال بها)(2)

وانطلاقا من هذا عرفها تعريفا آخر، قال فيه: (فالحكمة إذا فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي)

وهــذا المظهــر العلمي بهــذه الصــفة لا يمكن تحقيقــه إلا بتحقيق المظهر العملي، فالله لا يعبد بالجهل.

زيادة على هذا، فإن التحقيق العملي للأحكـام الشـرعية لا ينفذه حق التنفيذ إلا من فقه أسـرار ومقاصـد الشـرع من ذلـك الحكم، فمن عرف ـ مثلا ـ أن مقصد الشرع من الصـلاة الـذكر،

---

1) مدارج السالكين: 2/472.

2) مدارج السالكين: 2/472.

والنهي عن الفحشاء والمنكر، كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (العنكبوت:45) أقامها على حقيقتها، ولم يحتل على الله بأداء رسومها والغفلة عن حقيقتها.

ومن عرف أن مقصد الشرع من النهي عن قول أف للوالدين عرف أن المقصد ليس ذات الأف، وإنما كل ما يؤذيهما.

ولهذا، فإن العارف بمقاصد الشريعة المعايش لها تتجلى له من التفاصيل ما لا تتجلى للمستغرق في الحرفيية والرسوم، وهذا مظهر من مظاهر وفرة علم الحكيم، ولهذا عقب تعالى التفاصيل التي وردت في الوصايا الواردة في سورة الإسراء من قوله تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴾ (الاسراء:23) بقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً ﴾ (الاسراء: 39)

وسر ذلك، والله أعلم، أن تلك التفاصيل الواردة في تلك الوصايا من الحكمة ومن وجوه الاستنباط المقاصدي، فبر الوالدين ـ مثلا ـ ورد في القرآن الكريم مجملا، ولم يفصل بتلك التفاصيل إلا في ذلك الموضع، فقد ذكر جميع الأحوال المرتبطة بهما.

ومثل ذلك في الأمر بالإنفاق، فقد ورد في أكثر القرآن الكريم مطلقا، ولكنه في ذلك الموضع ورد مقيدا، قال تعالى: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾ (الاسراء: 29)

ومثل ذلك ما ورد من التفاصيل بعد ذكر إيتاء لقمان (عليه السلام) الحكمة، فقد ذكر فيها من التفاصيل في كل موضع من المواضع ما يدل على مبلغ علم الحكيم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (لقمان: 12)

ففي هذه الآية وحدها تفاصيل حقيقة الشكر ومقصده وعلاقته بالله، وعلاقته بالعبد...

مظهر علمي: وهذا المظهر لا يعرف إلا من كليات الشريعة والنصوص، فمن عرفها عرف مقصد الشارع من التشريعات المختلفة، كما ذكرنا سابقا في مقاصد القرآن الكريم.

زيادة على ذلك، فإن النصوص الشرعية المعصومة من القرآن الكريم والسنة المطهرة نصت على أكثر المقاصد، بل لا تعرف المقاصد إلا منها.

ففي القرآن الكريم مثلا الإخبار بالمقصد الأصلي من خلق العباد، وهو أصل المقاصد، ومنه تتشعب جميع الأحكام، فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذريات:56)، وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون:115)

وفي القرآن الكريم إخبار بمقصد إنزال القرآن الكريم حتى لا تتخذ دراسته عملا، وأحكامه ثقافة وقصصه سمرا، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ (الاسراء:9)، وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: 2)، وكما دلت على هذا أوصافه الكثيرة على من أنه نور وهدى، ومبارك، ومبين، وبشرى، وبشير ونذير، وغيرها.

وفي القرآن الكريم إخبار بمقاصد كثير من الأحكام، بل لا يكاد يذكر حكم إلا مختوما أو مسبوقا بالدلالة على مقاصده، فقد ذكر حكمة اعتزال النساء في المحيض وأنها دفع الأذى، وحكمة تشريع الحج وأنها تحصيل المنافع وذكر الله، وحكمة تشريع الزواج وأنها السكن والمودة والرحمة وإعمار الكون، وحكمة تشريع الصوم وأنها تحصيل التقوى، وحكمة منع الاقتراب من الزنا، وأنها فحشه وسوء سبيله ومفاسد مآله، وحكمة وجوب القتال وأنها دفع الظلم عن المسلمين والذب عن دينهم واستقلالهم ومنعتهم وغير ذلك.

ومن القرآن الكريم استنبط الفقهاء القواعد الفقهية المختلفة التي تصب في مقاصد الشرعية، مثل (المشقة تجلب التيسير)، و(الضرورات تبيح المحظورات)، و(الضرورة تقدر بقدرها) و(العادة محكمة)

ومثل ذلك السنة التي هي بيان للقرآن الكريم، فقد احتوت على التفاصيل الكثيرة المبينة لمراعاة الشارع للمقاصد، ودور السنة هنا هو التفصيل والتنفيذ، لأن أصول المقاصد منصوص عليها في القرآن الكريم، وهذا ما نبه إليه الشاطبي بقوله:(وذلك أن القرآن الكريم أتى بالتعريف بمصالح الدارين جلبا لها، والتعريف بمفاسدها دفعا لها... وإذا نظرنا إلى السنة وجدناها لا تزيد على تقرير هذه الأمور، فالكتاب أتى بها أصولا يرجع إليها، والسنة أتت بها تفريعا على الكتاب وبيانا لما فيه منها)

أدوات الاستنباط:

ونريد بها العلوم الآلية التي تمكن من فهم مراد الله، لأنه بدون الفهم لا يمكن التحقيق، ولا العمل.

وربما أقرب العلوم اهتماما بتحقيق هذا النوع من أنواع علوم الحكمة، هو علم أصول الفقه، فهو العلم الذي تخصص في البحث عن آليات التعامل مع النصوص والأحكام.

فلذلك كان وجوده فرضا لازما في الأمة، وكان من تعليم الحكمة تعليم هذا العلم للخاصة بتفاصيله الدقيقة، وللعامة بما يبصرهم من أن كل الأحكام، ولو تصوروا بعدها عن النصوص هي فرع من فروع النصوص.

وبسبب الجهل بهذا العلم تصور الكثير من العامة من أدعياء العلم أن الفقهاء خرجوا في أحكامهم وفتاواهم عن الكتاب والسنة، وأن آراءهم مجرد آراء لا علاقة لها بالشريعة، ولا يحل هذا الجهل المركب غير العلم بهذا العلم.

أحكام العقل:

ونريد بها العلوم الآلية التي تمكن من الاستنتاج والعبور

من القضية إلى جميع ما يترتب عليها، ويتولد عنهـا، لأن المتكلم أو المشرع لا يستطيع أن يفي في كلامه بكـل التفاصـيل، فيـدع للعقل ميدانه للعبور من المذكور إلى غير المذكور.

وهذا النوع من العلم ضروري لا غـنى عنـه، وإليـه الإشـارة بكل الآيـات القرآنيـة الداعيـة إلى إعمـال العقـل، والناهيـة عن مجـاوزة أحكامـه، وكـل الآيـات المرغبـة في الفكـر، والتـدبر، والتذكر، ونحوها.

فالله تعالى يمـدح العـارفين بـه من أولي الألبـاب، ويصـف موقفهم من الكـون فيقـول:(الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامـاً وَقُعُـوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (آل عمران:191)

والقـرآن الكـريم يحثنـا على تأمـل المعـاني الـواردة في القصص حتى لا نخرج من مواضـع العـبرة إلى مواضـع السـمر، فقال تعـالى: وَلَـوْ شِـئْنَا لَرَفَعْنَـاهُ بِهَـا وَلَكِنَّهُ أَخْلَـدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْـهُ يَلْهَثْ ذَلِـكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآياتِنَـا فَاقْصُـصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (لأعراف:176)

ويحثنا إلى النظر في الأمثال بعين الاعتبار، فيقـول تعـالى: لَوْ أَنْزَلْنَا هَـذَا الْقُـرْآنَ عَلَى جَبَـلٍ لَرَأَيْتَـهُ خَاشِـعاً مُتَصَـدِّعاً مِنْ خَشْـيَةِ اللَّهِ وَتِلْـكَ الْأَمْثَـالُ نَضْـرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (الحشر:21)

والقرآن الكريم يدعونا إلى تأمل مـا نشـاهده من تغـيرات الطبيعة لنستدل بها على المصير، قال تعالى: إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَـامُ حَتَّى إِذَا أَخَـذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَـا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَـأَنْ لَمْ تَغْنَ بِـالْأَمْسِ كَـذَلِكَ نُفَصِّـلُ الْآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (يونس:24)

وكل هذه الأنظار تستدعي آليات معينة تنقـل الإنسـان من القضـية أو المسـألة أو محـل النظـر إلى مـا ينطـوي تحتـه من

معان.

وقد عرف الغزالي الفكر، ومثل له بما يوضح معناه وما يحتاجه من آليات، فقال:(اعلم أنّ معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة. ومثاله: أنّ من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أنّ الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان:

أحدهما: أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا، فيقلده ويصدّقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجّرد قوله، وهذا ما يسمى تقليداً ولا يسمى معرفة.

الثاني: أن يعرف أنّ الأبقى أولى بالإيثار، ثم يعرف أنّ الآخرة أبقى. فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار، ولا يمكن تحقق المعرفة بأنّ الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين.

فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكراً واعتباراً وتذكراً ونظراً وتأملاً وتدبراً)(1)

ثم بين وجه التغاير بين هذه المصطلحات، فقال:(أما التدبر والتأمل والتفكر: فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة. وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر: فمختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحد؛ كما أنّ اسم: الصارم، والمهند، والسيف؛ يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة.. فكذلك الاعتبار: ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم: التذكر، لا اسم: الاعتبار. وأما النظر والتفكر؛ فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظراً، فكل متفكر فهو متذكر، وليس كل متذكر متفكراً. وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب

1) إحياء علوم الدين: 4/426.

لترسـخ ولا تنمحي عن القلب. وفائـدة التفكـر: تكثـير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة. فهذا هـو الفـرق بـين التـذكر والتفكر)(1)

ومع صراحة الأدلة على ضرورة استعمال العقـل واعتبـاره الوسيلة الأساسية للاسـتنباط نـرى من لم يقـدر للعقـل قـدره، فيتصوره مناهضا للنصوص أو مناقضا لها.

مع أن القرآن الكريم يكـاد يصـرح بـأن أحكـام العقـل دين كأحكام الشرع، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْـرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم:30)،يقول الغـزالي معقبـا على هذه الآية: (فسمى العقل دينا)

ولكون أحكام العقل المجرد دينا، فإن التناقض بين أحكـام العقل وأحكام الشرع مسـتحيل، بـل إن أسـاس الشـرع العقـل (فهو كالأس والشـرع كالبنـاء، ولن يغـني أ س مـا لم يكن بنـاء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أ س)

والغـزالي يسـمي الشـرع ــ بسـبب مراعاتـه الضـرورية للأحكام العقلية ـ عقلا، فالشرع عقل من الخارج، والعقل شـرع من داخل،وهما متعاضدان بل متحدان.

و بسبب هذا الاتحاد بين أحكام العقل وأحكام الشـرع،فـإن تمجيد العقل تمجيد للشرع، وإعماله أعمال للشـرع، ونبـذه نبـذ للشرع،لأن كليهما من وضع الله ﷻ.

ولا يهمنا بعد هذا، اسم الآلية التي نعرف بها أحكام العقل، ولا واضعها، كمـا لا يهمنـا أن نعـرف مصـدر الـدواء الشـافي ولا واضعه، إذا تحقق المقصد منه.

ولهذا، فإن العلم الذي عنى بأحكام العقل، وهـو المنطـق ـ مع قصوره عن بلوغ المراد منه ـ لا حرج في الاستفادة منه، بل نـرى رجلا كـالغزالي ينتصـر للمنطـق، ويعتـبره غـير غـريب عن الإسلام أو الفكر الإسلامي، وليس دخيلا مع الفلسفة كما يتصور

---

1) إحياء علوم الدين: 4/426.

البعض، يقول الغزالي:(ولكن المنطـق ليس مخصوصـا بهم [أي بالفلاسفة]،وإنما هو الأصل الذي نسـميه في فن الكلام (كتـاب النظر)،وقد نسميه (كتاب الجدل)، وقد نسميه(مدارك العقول)؛ فإذا سمع المتكايس المستضعف اسـم (المنطـق) ظن أنـه فن غريب لا يعرفه المتكلمون، ولا يطلع عليه إلا الفلاسفة)

ولهذا فإن الغزالي ألف في المنطق مجموعة كتب، وأدخل المنطق كتمهيدات لبعض العلوم كعلم الأصول،فقـد كـان يقـدم له قبل الغزالي بمقدمات كلامية كتأسيس فكري لقضايا أصـول الفقه وربطهـا بأصـول الـدين،فـرأى الغـزالي أن الأولى ربطهـا بالمنطق لحاجة علم الأصول لقضايا المنطق،يقول الغـزالي عن مقدمــة المستصـفى: (وليســت هــذه المقدمــة من جملـة علم الأصـول ولا من مقدماتـه الخاصـة بـه،بـل هي مقدمـة العلـوم كلهـا،ومن لا يحيـط بهـا،فلا ثقـة بعلومـه أصـلا)،وقـد بـدأ بهـذا الاهتمـــام بـــالمنطق عنـــد الغـــزالي عهـــد جديـــد للثقافـــة الإسلامية،امتزجت فيه بقضايا وأساليب المناطقة.

ولا نريد هنا أن نقحم المنطق في العلوم الشـرعية، ولكنـا نريد ان ندعو إلى أسلمة هـذه العلم، وإفـادة الأجيـال بـه، فهـو علم ضروري لا غنى عنه.

وقــد حــاول الغــزالي أن يضــع منطقــا جديــدا في كتابــه (القسطاس المسـتقيم)، ومـع أن تلـك المـوازين الـتي وضـعها الغـزالي مطابقـة للمـوازين المنطقيـة اليونانيـة إلا أن للغـزالي أهـدافا أخـرى وراء تلـك الصـياغة الجديـدة لعلم المنطـق لعـل أهمها تقريب المنطق والاحتجاج له بالأمثلة من القـرآن الكـريم لصنفين من الناس:

1. الـــذين اســـتهوتهم الفلســـفة بمـــا فيهـــا من علـــوم عقلية،فخلطـوا بين حقهـا وباطلهـا،وظنـوا التنـاقض بين العلـوم النقلية والأحكام العقلية.

2. العلماء النصيين الذين رفضوا المنطق باعتباره فلســفة وعلما غريبين عن الدين.

ولا يتصور التغاير في هذا الجانب أيضا بين الحكمة العلمية

والحكمة العملية، فآليات أحكام العقل لا بد أن تهدي من استنار بها إلى طريق الله وسبيله لا محالة.

وقد ذكر الغزالي مثـالا على تـأثير أحكـام العقـل في تغـير الحال، والترقي في مقامات السلوك، فقال:(إن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخـرة، فـإنّ الفكر فيـه يعرّفنـا أنّ الآخـرة أولى بالإيثـار، فـإذا رسـخت هـذه المعرفة يقيناً في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبـة في الآخــرة والزهد في الدنيا. وهذا مـا عنينـاه بالحـال، إذ كـان حـال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها، والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها.

وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته. ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في طراح الدنيا والإقبـال على أعمال الآخرة)[1]

وقد ذكـر لهـذا العبـور من المعرفـة العقليـة المجـردة إلى الحال خمس درجات:

1. التذكر وهو إحضار المعرفتين في القلب.

2. التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما.

3. حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها.

4. تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة.

5. خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدّد له من الحال.

وشبه ذلك بمن (يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضـيء بهـا الموضـع فتصـير العين مبصـرة بعـد أن لم تكن مبصـرة وتنتهض الأعضـاء للعمـل، فكـذلك زنـاد نـور المعرفـة هوالفكر فيجمع بـين المعرفتين كما يجمع بـين الحجر والحديــد، ويؤلف بـينهما تأليفاً مخصوصاً كمـا يضـرب الحجـر على الحديـد ضـرباً مخصوصـاً، فينبعث نــور المعرفــة كمــا تنبعث النــار من الحديد، ويتغير القلب بسبب هذا النـور حـتى يميـل إلى مـا يكن

---

1) إحياء علوم الدين: 4/426.

يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه. ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره)[1]

علوم التزكية

وهي العلوم المرتبطة بالسلوك سواء كان سلوكا ظاهريا، أو سلوكا باطنيا، وهي من العلوم الواجبة، لارتباطها بتطبيق مراد الله من خلقه.

وللتعرف على أنواع العلوم المندرجة في هذا النوع نسوق الخلاف الذي أورده الغزالي حول أنواع العلوم المفروضة، فقد ذكر أن العلماء اختلفوا في ذلك إلى أكثر من عشرين فرقة، (فقال المتكلمون: هو علم الكلام، إذ به يدرك التوحيد ويعلم ذات الله سبحانه وصفاته، وقال الفقهاء: هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل، وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة، وقال المفسرون والمحدّثون: هو علم الكتاب والسنَّة، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها. وقال المتصوّفة: المراد به هذا العلم، فقال بعضهم: هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل. وقال بعضهم: هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان. وقال بعضهم: هو علم الباطن، وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن عمومه. وقال أبو طالب المكي: هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام.. لأن الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجوب)[2]

وهذه العلوم المذكورة لا تعدو ثلاثة علوم:

1. علم التوحيد أو العقيدة أو الإيمان، أو الأحكام العقلية

2. علم الفقه أوالأحكام العملية.

1) إحياء علوم الدين: 4/427.

2) إحياء علوم الدين: 1/14.

3. علم التصوف أو السلوك أو الإحسان، أو الأحكام الوجدانية.

أما ما ذكر المفسرون والمحدثون وغيرهم، فهي مصادر هذه العلوم، لا أنها المقصودة بذاتها.

وقد تحدثنا عما يتعلق بهذه العلوم في المحال المختلفة من هذا الكتاب، ولذلك نكتفي بالتعريف بها هنا، وقد نحتاج إلى التفصيل فيها إذا اقتضت الضرورة ذلك.

2 ـ السياسات والصناعات

ونقصد بهذا النوع من أنواع العلوم العلوم التي تهدف إلى تنظيم حياة الناس على هذه الأرض، وتيسير مرافقها.

وهي بذلك أقرب إلى كونها سياسات وصنائع منها إلى كونها علوما قائمة بذاتها، بحكم التطور الكبير الذي يحصل فيها، والذي يحيل ما قبلها تخلفا أوجهلا.

ولهذا النوع ناحيتان لكل منهما وجهته وضوابطه:

أ ـ الناحية العلمية المحضة:

وهي الناحية التي تتأسس عليها السياسية أو الصناعة، لأن لكل منهما أسسا علمية تقوم عليها، فالطب ـ مثلا ـ يقوم على العلم بمكونات جسم الإنسان ووظائفها والعلل التي تعتريها واسبابها، فكل هذه العلوم علوم محضة، وهي من هذه الناحية تدخل فيما ذكرناه من معرفة أفعال الله، ولهذا ورد ذكر كثير مما يتعلق بهذا في القرآن الكريم كآية من آيات الله، أو كنعم من نعمه.

وقد قال الغزالي في بيان نسبة هذه العلوم للقرآن الكريم:(ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعدها ليست أوائلها خارجة عن القرآن، فان جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد،

فمن أفعال الله تعالى ـ وهو بحر الأفعال ـ مثلا الشفاء والمرض كما قال الله تعالى عن ابراهيم ﷺ: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء:80)، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه الا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب الا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه)[1]

وضرب مثالا آخر عن ذلك بعلم الفلك، وهو ــ فيما نرى ـ علم محض إلا إذا هدف من ورائه إلى تحقيق مصلحة من المصالح، فقال:(ومن افعاله تبارك وتعالى تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان وقد قال الله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن:5)،ـ وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (يونس:5)،ـ وقال تعالى: ﴿)وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ (القيامة:8)، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج:61)، وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يّس: 38)، ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما وولوج الليل في النهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر الا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه)[2]

وضرب مثالا آخر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار:6 ـ 8)، فلا يعرف مراد هذه الآية (إلا من عرف تشريح الأعضاء من الانسان ظاهرا وباطنا وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها، وقد أشار في القرآن في مواضع اليها)

بل إن الغزالي بنور بصيرته الإيمانية يذكر بأن العلوم لا تنحصر في علوم عصره، ويتنبأ بعلوم كثيرة ستظهر للوجود، كلها تغترف من بحار أفعال الله، فيقول:(بل أقول ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها أن في الامكان والقوة

[1]) جواهر القرآن: 45.

[2]) جواهر القرآن: 46.

أصنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجـود، وإن كـان في قـوة الآدمي الوصـول اليهـا، وعلـوم كـانت قـد خـرجت الى الوجـود واندرست الآن فلن يوجد في هذه الأعصـار على بسـيط الأرض من يعرفهـا، وعلـوم أخـر ليس في قـوة البشـر أصـلا ادراكهـا والإحاطة بها)(1)

فالنواحي النظرية لما سميناه بالصناعات يدخل في علـوم الكتاب من هذه الناحية، ولا غرابة في هـذا، بـل إن الكمـال في اعتبارها كذلك.

وهذا الذي ذكرناه يرفع عن هذه الأنواع من العلوم جفافهـا الذي نراه، بل يجيب عن أكثر التساؤات التي تحير العلمـاء، بـل يجعل الكون بصورة أكثر جمالا من الصورة الـتي ترسـمها هـذه العلوم، وهي بعيدة عن الله بعيدة عن هدي الكتاب.

وقد بين النورسي مدى الفوائد التي تجنى من هذه العلـوم إذا ما استنارت بنور الله، وبهدي الإيمان، فيقـول:(العلـوم الـتي تبحث في حقيقـة الموجـودات - كالفيزيـاء والكيميـاء والنبـات والحيوان.. ــ هـذه العلـوم الـتي هي (حكمـة الاشـياء) يمكن ان تكـون حكمـة حقيقيـة بمشـاهدة التجليـات الكـبرى لاسـم اللـه (الحكيم) جـل جلالـه في الاشـياء، وهي تجليـات تـدبير، وتربيـة، ورعايـة. وبرؤيـة هـذه التجليـات في منـافع الاشـياء ومصـالحها تصبح تلك الحكمـة حكمـة حقـاً، أي باسـتنادها الى ذلـك الاسـم (الحكيم) والى ذلـك الظهـير تصـبح حكمـة فعلاً، وإلاّ فإمـا أنهـا تنقلب الى خرافـات وتصـبح عبثـاً لا طائـل من ورائهـا أو تفتح سـبيلاً الى الضـلالة، كمـا هـو الحـال في الفلسـفة الطبيعيـة المادية..)

ويذكر علة مهمة لذلك غابت عن العلوم الحديثة، فأغرقتهـا في الجزئيـة، وأبعـدتها عن جمـال الوحـدة والتناسـق والكمـال، فقال:(إن نظر النبوة والتوحيد والايمـان يـرى الحقـائق في نـور الالوهيـة والآخـرة ووحـدة الكـون لأنـه متوجـه اليهـا، أمـا العلم التجريبي والفلسفة الحديثة فانه يرى الامور من زاوية الاسـباب المادية الكثيرة والطبيعة لأنـه متوجـه اليهـا، فالمسـافة اذن بين

1) جواهر القرآن: 47.

زاويتي النظر بعيدة جداً. فرب غاية عظيمة جليلة لدى اهل الفلسفة تافهة وصغيرة لا تكاد ترى بين مقاصد علماء اصول الدين وعلم الكلام. ولهذا فقد تقدم اهل العلم التجريبي كثيراً في معرفة خواص الموجودات وتفاصيلها واوصافها الدقيقة في حين تخلفوا كثيراً حتى عن ابسط المؤمنين وأقلهم علماً في مجال العلم الحقيقي وهو العلوم الإلهية السامية والمعارف الاخروية)

وانطلاقا من هذا نقترح أسلمة لهذه العلوم، بربطها بمصدرها الأول وحقيقتها الكبرى.

ب ـ الناحية العملية:

وهي الناحية الثانية من نواحي العلوم السياسية والصناعية، وهي أهم الناحيتين بالنسبة لمصالح الإنسان المادية، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الناحية، ولا يستنكرها، بل يعتبرها من تمكين الإنسان في الأرض، قال تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ (الكهف: 84)

زيادة على هذا، فقد نوه القرآن الكريم بأنواع الصناعات، وقد كانت محتقرة في الجاهلية لا يقوم بها إلا العبيد أوعامة الناس وبسطاؤهم:

فذكر صناعة الحديد، ونوه بها، وذكر اشتغال الأنبياء والصالحين بها، فقال تعالى: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ (الكهف: 96)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (سبأ:10)، بل قرن بإنزال الحديد إنزال الكتاب، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:25)

وذكر الصناعات النسيجية وأنواعها وأغراضها، فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا

وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ (النحل:80)

وذكر ما يرتبط بالعمران من أعمال، فقال تعالى: وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (لأعراف:74)

وذكر الصناعات المرتبطة بالنقل، فقال تعالى: وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (النحل: 8)، وقال تعالى: وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (هود:37)، وقال تعالى: وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (المؤمنون:22)، وقال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (الروم:46)، وقال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (لقمان:31)

وذكر الصناعات البحرية، فقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (النحل:14)، وقال تعالى:)رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (الاسراء: 66)

بل إن القرآن الكريم دعانا إلى بذل كل الجهود لتحصيل جميع أنواع القوى، ويدخل فيها هذا النوع من أنواع القوى، قوة الصناعة والسياسة، فقال تعالى: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ (لأنفال: 60)

والقرآن الكريم لا ينهانا عن هذه العلوم بذاتها، وإنما ينهانا على ما تفرزه في الإنسان من قيم الطغيان حين يبتدئ فيها باسم أهوائه لا باسم الله، ولهذا قال تعالى حاكيا قول هود ﵇: وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (هود:52) فهو لم يخبرهم بأن نتيجة إيمانهم بالله زوال قوتهم التي كانوا يحرصون على الظهور بها، بل أخبر عن زيادة قوتهم.

بل أخبر القرآن الكريم أن القـوة الـتي لا تستضـيء بهـدي اللــه مصــيرها الهلاك المحتم، ولــذلك يــدعونا إلى الســير في الأرض للبحث عن مصير الحضارات العظيمة التي لم يبـق منهـا إلا فلول آثار تدل على مدى طغيانها، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَـدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَـا أَكْثَـرَ مِمَّا عَمَرُوهَـا وَجَـاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ فَمَـا كَـانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَـانُوا أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُـونَ﴾ (الـروم:9)، وقـال تعـالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَـانَ اللَّهُ لِيُعْجِـزَهُ مِنْ شَـيْءٍ فِي السَّـمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ (فاطر:44)، وقال تعـالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَـذَهُمُ اللَّهُ بِـذُنُوبِهِمْ وَمَـا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ (غافر:21)، وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِــرَ لَهُمْ﴾ (محمد:13)

وذلك لأن أخطر ما تنفخه الصناعة في عقول أصحابها ذلك الاغترار بالقوة، والذي حجبهم عن الله، قال تعـالى: ﴿ فَأَمَّا عَـادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَـدُّ مِنَّا قُـوَّةً أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُـوَ أَشَـدُّ مِنْهُمْ قُـوَّةً وَكَـانُوا بِآياتِنَـا يَجْحَدُونَ﴾ (فصلت:15)

ثانيا ـ مواصفات طالب العلم

بعـد تعرفنـا على أهميـة العلم وأنـواع العلـوم الـتي تحتـاج الشخصية السوية لتعلمها نحاول في هـذا المبحث أن نبحث عن مواصفات طلب العلم، كما يريدها الإسلام، لا كما يريـد فرضـها المنحلون.

فكما أن للإسـلام نظرتـه الكليـة لمـا ينبغي أن يـدرس من العلم، فـإن لـه كـذلك منهجـه في تحصـيل ذلـك العلم، والآداب التي تحمي ذلك المنهج من أن يخرج به عما أريد منه.

وغرضنا من هذا المبحث أن يزرع المربي فيمن يربيه هـذه

المواصفات، لأنه لا يمكن لطالب العلم أن يحصل العلم أو يستفيد منه أو يفيد إلا بعد تحصيلها.

وأول ما نستشفه من إشارات القرآن الكريم إلى هذا الجانب ما قصه علينا من قصة الخضر مع موسى ﵇، فهي قصة لها دلالاتها الكثيرة على آداب الطلب ومنهجه، ولهذا اهتم بها العلماء اهتماما شديدا، واعتبروها نموذجا عن آداب الطلب.

فقد مثل موسى ﵇ في تلك القصة دور طالب العلم البارع الذي توفرت فيه جميع خصائص الطلب ومواصفاته، فلذلك نال مراده، وحصل ما كان يبغيه، وفهم من حكمة الله في كونه ما زاده طمأنينة ورضا.

ويمكننا من خلال القصة أن نستخلص ثلاث مواصفات كبرى اتصف بها موسى ﵇، وكأن الله تعالى أراد من خلالها أن يجعلها موضع قدوة لنا لتستقى مواصفات طالب العلم من خلالها.

وهذه المواصفات هي:

1 ـ الإخلاص

ويشير إليه من قصة موسى ﵇ مع الخضر كل ما حكاه الله تعالى من القصة من مبتدئها إلى منتهاها، فكلها تشير إلى مدى إخلاص موسى ﵇ وصدقه، حتى إنكاره على الخضر ﵇ لم يكن له من مصدر غير إخلاصه وصدقه.

وقد ورد في السنة ما يبين عمقا آخر من أعماق إخلاصه، وهو غايته التي قصد الخضر ﵇ من أجلها، فقد ورد في الحديث أن موسى ﵇ بينما كان في ملأ من بني إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى ﵇ يخبره عما يعلمه:(لا)، فأوحى الله إلى موسى ﵇:(بلى عبدنا خضر)، فسأل موسى ﵇ السبيل إليه فجعل الله له الحوت آية(1)، فقد كانت رحلته بسبب طلبه علم ما لم يعلمه.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

ولن نتحدث هنا عن أمر الشرع بالإخلاص، فهو من المعلوم بالدين بالضرورة، وإنما نتحدث عن بعض ثمار الإخلاص، والتي تفرق العلم بمفهومه الشرعي عن العلم بمفهومه المادي.

التخلص من طلب العوض:

ونريد به تجرد طالب العلم للعلم، بحيث لا يبتغي من علمه أي عوض من جاه أو مال أو دنيا أو مناصب أو غير ذلك مما قد يستخدم العلم شبكة لتحصيله.

لأن امتلاء قلب طالب العلم بالعوض، وتعلق همته بها يصرفه عن علمه، بل يجعله كالمحتال الذي يتزين بصنوف الحيل ليحقق مراده.

ويشير إلى هذه الثمرة قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (لأعراف:169)، فقد أخبر الله تعالى أن هم هؤلاء الخلف هو هذا العرض الزهيد من عرض الدنيا.

ويشير إليها قوله تعالى وهو يحكي ابتزاز علماء أهل الكتاب لأموال الناس: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾(التوبة:34)

ويشير إليها قوله تعالى، وهو يحكي نبأ الذي انسلخ من آيات الله: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (لأعراف:175 ـ 176)

وأول نتيجة لهذا الركون للدنيا هو بيع آيات الله بأي ثمن،

قال تعالى مخاطبا بني إسرائيل ومن في حكمهم: وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (البقرة:41)

ويخبر عن تحريفهم الكتاب من أجل هذا الثمن القليل، قال تعالى: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (البقرة:79)

ويخبر عن كتمانهم الكتاب ـ وهو وجه من وجوه التحريف ـ من أجل هذا الثمن القليل، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (البقرة:174)، وقال تعالى: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (آل عمران: 187)

ولذلك يذكر الغزالي من أول مواصفات علماء الآخرة، إدراكهم لحقارة الدنيا بجانب ما أوتوا من العلم، يقول الغزالي: (إن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنهما متضادتان، وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر. فإن من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذاتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل. فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك فكيف يكون من العلماء من لا عقل له؟ ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بينهما طمع في غير مطمع؟ فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم، بل هو كافر بالقرآن كله من

أوّله إلى آخره، فكيف يعدّ من زمرة العلماء؟ ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته؟)(1)

وليس في هذا الكلام أي وجه للاعتراض، لأن الدنيا المرادة هنا هي الدنيا التي تكون موضع طموح لصاحبها، بحيث تجعله يغير من ووظيفته التي خلق لها، وهي عبادة الله إلى خدمة وجوده القصير المحدود في هذه الدنيا.

وقد جاء في الحديث قوله ﷺ:(من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة)(2)، وقال ﷺ:(من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار)(3)

وقد ورد في أخبار الأنبياء النهي الشديد عن هذا السلوك:

ففي الحديث عنه ﷺ:(أنزل الله في بعض كتابه وأوحى إلى بعض أنبيائه: قل للذين يتفقهون بغير الدين ويتعلمون لغير العلم ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون لباس مسوك(4) الكباش وقلوبهم قلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر، إياي يخدعون أو بي يستهزؤون فبي حلفت لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران)(5)

وفي أخبار داود عليه السلام أنه مما اوحى الله تعالى إليه:(إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ

1) إحياء علوم الدين: 1/60.

2) رواه أحمد وأبو داود والبيهقي والحاكم وابن ماجة .

3) رواه الطبراني في الأوسط ، والدارقطني في الأفراد، وسعيد بن منصور عن أنس.

4) مسوك: المسك: الجلد، والجمع مسوك مثل فلس وفلوس. المصباح المنير 2/787.

5) أبو سعيد النقاش في معجمه، وابن النجار - عن أبي الدرداء.

مناجاتي، يا داود لا تسأل عني عالماً قد أسكرته الـدنيا فيصـدك عن طريق محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي، يا داود، إذا رأيت لي طالباً فكن لـه خادمـاً؛ يـا داود من رد إليَّ هاربـاً كتبتـه جهبذاً ومن كتبته جهبذاً لم أعذبه أبداً)

ويروى أن رجلاً كان يخدم موسى ﷺ فجعل يقول: حدّثني موسى صفي اللـه، حـدّثني موسـى نجي اللـه، حـدثني موسـى كليم الله، حتى أثرى وكثر ماله، ففقده موسى ﷺ فجعل يسأل عنه ولا يحس له خبراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود، فقال له موسى ﷺ: أتعرف فلاناً؟ قـال: نعم. هو هذا الخنزير، فقال موسى ﷺ: يا رب أسـألك أن تـرده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا؟ فأوحى الله عز وجـل إليـه: لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتـك فيـه، ولكن أخبرك لم صنعت هذا به؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين.

ويروى عن عيسـى ﷺ قولـه:(كيـف يكـون من أهـل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به؟)

وقال مالك بن دينـار: قـرأت في بعض الكتب السـالفة أن الله تعالى يقول:(إن أهون مـا أصـنع بالعـالم إذا أحب الـدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه)

العمل بالعلم:

وهو نتيجة حتمية لما سبق، لأن من فـرغ قلبـه من أهوائـه عمره بما يقتضيه العلم من العمل الصالح.

ويشير إلى هذا الركن من أركـان الإخلاص في طلب العلم النصوص الكثيرة كقوله تعالى مؤنبا بـني إسـرائيل: ﴿ أَتَـأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَـابَ أَفَلا تَعْقِلُـونَ﴾ (البقرة:44)، فقـد عـاتبهم على نسـيانهم لأنفسـهم مـع كـونهم يتلون الكتاب.

بل شبههم في آية أخرى بالحمار الذي يحمل أسفارا، قـال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَـارِ

يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الجمعة:5)

ويعاتب المؤمنين الذي يخالف قولهم فعلهم، فيقول تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (الصف: 2)، ثم يبين لهم عظم عند الله تعالى، فيقول: كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (الصف:3)

وفي السنة نجد الأحاديث الكثيرة على اعتبار العمل الصالح هو أول ثمرة من ثمار العلم النافع:

فقد كان ﷺ يقول في دعائه:(اللهم غني أعوذ بك من نفس لا تشبع ومن علم لا ينفع)(1)

وأخبر ﷺ أنه (يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه(2) فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالخير ولا آتيه وأنهاكم عن الشر وآتيه)(3)، وقال ﷺ:(كل علم وباله على صاحبه إلا من عمل به)(4) وفي رواية مرفوعا:(أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه)

وضرب ﷺ للذي لا يعمل بعلمه مثلا، فقال:(مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل الفتيلة تضيء على الناس وتحرق هي نفسها)(5)

وقد وردت الروايات الكثيرة تحذر مما سيحصل للأمة من انفصال العلم عن العمل، قال حذيفة :(إنكم في زمان من ترك

---

1) مسلم وغيره.

2) أقتابه: الأقتاب: الأمعاء، واحدها: قتب بالكسر، وقيل: هي جمع قتب، وقتب جمع، وهي المعي. النهاية (4/11)

3) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

4) رواه الطبراني.

5) رواه البزار وغيره.

فيه عشر ما يعلم هلك، وسيأتي زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا وذلك لكثرة البطالين)، وقال ابن مسعود :(سيأتي على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذٍ عالمه ولا متعلمه فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة، فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفجور ظاهر في عمله، فما أخصب الألسن يومئذٍ وما أجدب القلوب فوالله الذي لا إلٰه إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالى. وفي التوراة والإنجيل مكتوب: لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم)

الاشتغال بالعلوم النافعة:

وهو الثمرة الثالثة من ثمرات الإخلاص، لأن من حسنت نيته في طلب العلم، وجعل قصده من طلب العلم العمل به ونفع الخلق لم يته في بوادي العلم الذي لا ينفع، ولم يته في مستنقعات الجدل.

وقد اعتبر الغزالي هذا علامة من علامات علماء الآخرة، فقال:(ومنها: أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعات مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدال والقيل والقال)

وضرب مثالا لذلك، فقال:(فمثال من يعرض عن علم الأعمال ويشتغل بالجدال مثل رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيباً حاذقاً في وقت ضيق يخشى فواته فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب وترك مهمه الذي هو مؤاخذ به، وذلك محض السفه)

وفي هذا الموضع يحسن ذكر قصة حاتم الأصم مع شيخه شقيق البلخي ففيها عبر عظيمة في هذا الباب، فقد روي عن حاتم الأصم ـ تلميذ شقيق البلخي ـ أنه قال له شقيق: منذ كم

صحبتني؟ قال حاتم: منذ ثلاث وثلاثين سنة، قال: فما تعلمت مني في هذه المدّة؟ قال: ثماني مسائل، قال شقيق له: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثماني مسائل؟ قال: يا أستاذ لم أتعلم غيرها، وإني لا أحب أن أكذب، فقال:(هات هذه الثماني مسائل حتى أسمعها)

قال حاتم:(نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوباً فهو مع محبوبه إلى القبر، فإذا وصل إلى القبر فارقه فجعلت الحسنات محبوبي، فإذا دخلت القبر دخل محبوبي معي. فقال: أحسنت يا حاتم فما الثانية؟

فقال: نظرت في قول الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات:40 ـ 41)، فعلمت أنّ قوله سبحانه وتعالى هو الحق فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرّت على طاعة الله تعالى.

الثالثة: أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه، ثم نظرت إلى قول الله عز وجل: ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾(النحل:96)، فكلما وقع معي شيء له قيمة ومقدار وجهته إلى الله ليبقى عنده محفوظاً.

الرابعة: أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال وإلى الحسب والشرف والنسب، فنظرت فيها فإذا هي لا شيء ثم نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾(الحجرات:13) فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريماً.

الخامسة: أني نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم في بعض ويلعن بعضهم بعضاً وأصل هذا كله الحسد، ثم نظرت إلى قول الله عز وجل: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾(الزخرف:32) فتركت الحسد واجتنبت الخلق وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالى فتركت عداوة الخلق عني.

السادسة: نظرت إلى هذا الخلـق يبغي بعضـهم على بعض ويقاتل بعضـهم بعضاً فـرجعت إلى قـول اللـه عـز وجـل: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ﴾ (فـاطر:6)، فعاديتـه وحـده واجتهدت في أخذ حذري منه لأن الله تعالى شهد عليه أنه عـدوّ لي فتركت عداوة الخلق غيره.

السابعة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له، ثم نظرت إلى قولـه تعـالى: ﴿ وَمَـا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَـا﴾ (هـود:6)، فعلمت أني واحـد من هـذه الـدواب الـتي على اللـه رزقها، فاشتغلت بما لله تعالى علي وتركت مالي عنده.

الثامنة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق، هذا على ضيعته، وهذا على تجارته، وهذا على صناعته، وهذا على صحة بدنه، وكل مخلـوق متوكـل على مخلـوق مثلـه، فرجعت إلى قوله تعـالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُـوَ حَسْـبُهُ﴾ (الطلاق:3) فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبـي.

قال شقيق:(يا حـاتم وفقـك اللـه تعـالى فـإني نظـرت في علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم فوجدت جميـع أنواع الخير والديانة وهي تـدور على هـذا الثمـان مسـائل، فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة)

ولا ينبغي أن يفهم من هذا النص تحقير العلم، بـل إن فيـه الحظ على العمل، ومن أعظم الأعمال ـ كما ذكرنـا في مقدمـة هذا الفصل ـ طلب العلم.

في مقابل هذه النماذج الطـاهرة من طلبـة العلم نجـد في عصرنا طلبة العلم منشغلين بكثير من الأمـور نـرى أنهـا ــ ولـو كانت مباحة في أصـلها ــ إلا أن وقت طـالب العم أغلى من أن يضيعه فيها.

2 ـ المجاهدة

وهي ذلك العناء الذي يعانيه طـالب العلم، وهـو يجتهـد في التحصـيل والمراجعـة والمـذاكرة، لأنـه بـدون ذلـك لن يحصـل

العلم.

ويشير إليه من قصة موسى مع الخضر ﷺ ما قطعه موسى في الرحلة لطلب الأستاذ، حتى أنه قال: ﴿ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ (الكهف:60) فقد أعلن تصميمه في المضي في رحلة البحث مهما امتد به الزمن.

قال الخطيب البغدادي:(قال بعض أهل العلم، إن فيما عاناه موسى من الدأب والسفر والصبر عليه من التواضع والخضوع للخضر، بعد معاناة قصده، مع محل موسى من الله وموضعه من كرامته وشرف نبوته -دلالة على ارتفاع قدر العلم، وعلو منزلة أهله، وحسن التواضع لمن يُلتمس منه ويؤخذ عنه ولو ارتفع عن التواضع لمخلوق أحد بارتفاع درجة وسمو منزلة - لسبق إلى ذلك موسى، فلما أظهر الجد والاجتهاد والانزعاج عن العطن، والحرص على الاستفادة مع الاعتراف بالحاجة إلى أن يصل من العلم ما هو غائب عنه دل على أنه ليس في الخلق من يعلو على هذه الحال ولا يكبر عنها)(1)

ولهذا اتفق العلماء على أنه لن يبلغ أحد درجات أهل العلم حتى يقطع العلائق الشاغلة والعوائق المانعة، كما قال الشافعي :(لا يطلب أحد العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه ببذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح)، ونقل عن الخطيب البغدادي قوله:(لا ينال هذا العلم إلا من عطل دًكانه، وخَرّب بستانه وهجر إخوانه ومات أقرب أهله فلم يشهد جنازته)، وقد قيل:(العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك)، وعن أبي مطيع معاوية بن يحيى قال:(أوحى الله تعالى إلى داود ﷺ أن اتخذ نعلين من حديد وعصى من حديد واطلب العلم حتى تنكسر العصا وتنخرق النعلان)(2)

وسنكتفي هنا بالحديث على جانبين أساسيين يتحقق بهما صدق المجاهدة في طلب العلم، هما:

---

1) الرحلة، ص107.

2) الرحلة في طلب الحديث: 86.

اغتنام الفرص في طلب العلم:

والفرص هنا تشمل أوقات الفراغ والعطل ونحوها، والتي نرى التهاون في استغلالها بحجة الراحة والاستجمام، وكأن العلم مشقة وتعب يحتاج فيه إلى الراحة.

إذا كان يؤذيك حر المصيف   ويبس الخريف وبرد الشتا

ويلهيك حسن زمان الربيع   فأخذُك للعلم قل لي متى؟

ويدخل في هذا الباب اغتنام فرصة الصغر والشباب باعتبارها فترة الفراغ والنشاط، وقد ورد في الأثر:(مثل الذي يتعلم العلم في صغره كالنقش على الحجر ومثل الذي يتعلم العلم في كبره كالذي يكتب على الماء)

ومع أن الشريعة لم تحدد سِناً معيناً لتلقي العلم، ومثل ذلك لم يحدد المربون المسلمون سنا لبداية التعليم(1)، بل ترك الآباء أحرارا في تعليم أبنائهم، ولم يُقَيَدوا بسنٍ معينة لإرسال أبنائهم إلى الكتاب أو أماكن التعليم، ولم تَفـْرضَ الدولة على الآباء تعليم أبنائهم، ولكن الآباء اهتموا بذلك لأن التعليم فرضا من الفروض التي فرضها الإسلام وحث عليها.

وقد أدرك المربون المسلمون بوضوح أن التبكير في طلب العلم له فائدة كبيرة، وعظيم جدوى لنشاط الجسم وصفاء الذهن ولهذا آثروا أن يكون طالب العلم شابا وأن يكون عازبا، فاستحبوا التغريب عن الأهل والبعد عن الوطن تفرغا لواجبات العلم.

وكان من نتائج إقبال الطلاب على حلقات التعليم وهم في سن مبكرة أن حذقوا قسطا كبيرا من العلوم، ووصلوا إلى مراكز علمية مرموقة، وهم في مطلع الشباب ومقتبل العمر.

ومن الأمثلة التي حفظها التاريخ على ذلك أن تاج الدين الكندي حفظ القراءات العشر وله عشرة أعوام، وحفظ الإمام الشافعي القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ

1) انظر: بحثا مهما بعنوان: المعلم والمتعلم في التربية الإسلامية، إعداد: موجه التربية الإسلامية: عماد صالح إبراهيم محمد، خاص لموقع الدراسات والبحوث.

وهـو ابن إحـدى عشـرة سـنة، وكـان يقـال لـه وهـو ابن خمس عشرة سنة:(افـْتِ يا أبا عبد الله فقد آن لك والله أن تـُفـتي)

ولا يــزال الواقــع الإســلامي يــبرز في كــل حين النمــاذج الكثيرة على نضوج الصـغار، وكـل ذلـك بسـبب اهتمـام الأوليـاء ورعايتهم.

ولكن هذا لا يعني إحجام الكبير عن طلب العلم، بــل العلم عبادة، والعبادة مطلوبـة في الصـغر والكـبر، وقـد قـال تعـالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر:99)

وقد حكي أن بعض الحكماء رأى شـيخا كبـيرا يحب النظـر في العلم ويستحي فقال له:(يا هذا أتستحي أن تكـون في آخـر عمرك أفضل مما كنت في أوله)

وذكر أن إبـراهيم بن المهـدي دخـل على المـأمون وعنـده جماعة يتكلمون في الفقه فقـال: يـا عم مـا عنـدك فيمـا يقـول هؤلاء: فقال: يا أمير المؤمنين شغلونا في الصـغر واشـتغلنا في الكبر. فقال: لم لا نتعلمـه اليـوم؟ قـال: أو يحسـن بمثلي طلب العلم؟ قــال: نعم. واللــه لأن تمــوت طالبــا للعلم خــير من أن تعيش قانعا بالجهـل. قـال: وإلى مـتى يحسـن بي طلب العلم؟ قال: ما حسنت بك الحياة ؛ ولأن الصغير أعـذر وإن لم يكن في الجهل عذر ؛ لأنه لم تطل به مـدة التفريـط ولا اسـتمرت عليـه أيام الإهمال.

وقد قيل في منثور الحكم: جهـل الصـغير معـذور، وعلمـه محقور، فأما الكبير فالجهل به أقبح، ونقصـه عليـه أفضـح ؛ لأن علو السن إذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما وكـانت أيامـه في الجهل ماضية، ومن الفضل خالية، كان الصغير أفضل منه ؛ لأن الرجاء له أكثر، والأمل فيه أظهر، وحسبك نقصا في رجل يكون الصغير المساوي له في الجهل أفضل منه.

الاستمرار في طلب العلم:

وهو المظهر الثاني من مظاهر صـدق المجاهـدة في طلب العلم، لأن من أبرز علامـات الصـدق الاسـتمرار، وقـد قـال ﷺ:

(أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل)[1]

وهذا هو دأب العلماء الفحول، قد روى صالح بن أحمد بن حنبل، قال: رأى رجل مع أبي محبرةً، فقال له: يا أبا عبد الله، أنت قد بلغت هذا المبلغ، وأنت إمام المسلمين؟ يعني: ومعك المحبرة تحملها؟! فقال:(مع المحبرة إلى المقبرة)[2]

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ: كنت في إحدى سفراتي ببغداد، فمر بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو، ونعلاه في يده، فأخذ أبي هكذا بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبد الله، ألا تستحي؟ إلى متى تعدو مع هؤلاء الصبيان؟ قال:(إلى الموت)[3]

ومن أبرز علامات الاستمرار إكمال مراحل التعليم المختلفة، لأنه لا يصدق تحقق العلم إلا بإكمالها.

وتنقسم مراحل التعليم في عصرنا في أغلب الدول إلى أربعة أقسام هي:

1. التعليم الابتدائي.
2. التعليم الثانوي.
3. التعليم الجامعي.
4. البحث والدراسات العليا.

وهذه المراحل نفسها ـ تقريبا ـ هي المراحل التي كان معمولا بها في المنهج التعليمي في المجتمع الإسلامي مع فارق بسيط ومهم، وهو خضوع هذه المراحل في المنهج الإسلامي للطاقات المختلفة لا لما تعرضه المدارس الحديثة من قوانين قد ينصرف الكثير بموجبها في أول مراحل تعليميهم.

يقول الدكتور أحمد شلبي في كتابه (تاريخ التربية

---

1) رواه البيهقي.

2) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي، ص 31.

3) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي، ص 32.

الإسلامية):(ومما يدعو للدهشة أن هذه المراحل الأربعـة كـانت موجودة ومتميزة في العصور الوسطى عند المسلمين)

ويذكر في تأييد ذلك ما كتبه ابن خلـدون في المقدمـة عن ضرورة التـدرج في تلقين العلـوم للمتعلم، حيث أن نظريـة ابن خلدون عن مراحل التعليم عند المسـلمين تقـوم على أن تلقين العلوم إنما يكون مفيدا إذا كان التدرج شـيئا فشـيئا وقليلاً قليلاً، بحيث يلقي عليه المدرس:

أولا: مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ثم يشـــرحها لـــه على ســـبيل الإجمـــال مراعيـــا قـــوة عقلـــه واستعداده.

ثانيا: يرفعـه في التلقين عن تلـك الرتبـة إلى أعلى منهـا ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الإجمال إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود مَـلـَكَتِهِ.

ثالثا: ثم يرجع به وقد شدا فلا يـترك عويصـا ولا مغلقـا إلا وضحه وفتح له مُقفلُه فيصل إلى المرحلة الرابعة وقد اسـتولى على مَلَكَتِهِ في هذا الفن.

على أن المسـلمين عرفـوا في الواقـع مـا يشـبه هـذه المراحـل التعليميـة الثلاث، فقـد وجـد التعليم الابتـدائي في الكتاب، حيث كان التلاميـذ يتلقـون مبـادئ عامـة يسـيرة، وأمـا التعليم الذي يشبه التعليم في المرحلة الجامعيـة فقـد وجـد في دكـاكين الـوراقين ومنـازل العلمـاء والصـالونات الأدبيـة، أمـا المسجد فقد وجدت فيه المرحلتان الثانية والثالثة، إذ كان يعقـد فيه حلقات يختلف مستواها، فمنها ما هو إلى الإجمال والوضوح أمْـيَل وهـذه أقـرب إلى التعليم الثـانوي، ومنهـا مـا هـو أرفـع مستوى وأكثر عمقا وهو ما يشبه التعليم الجامعي.

أما المرحلة الرابعة مرحلة الأبحاث والدراسات العليا فقـد عرفها المسلمون دون شك، ومن أبرز الشواهد عليهـا مـا كـان في بيت الحكمة، حيث كانت مدرسة للبحث التجريبي المسـتند إلى الملاحظة والتجربة، وأنها كـانت مزيجـا (جامعـة، دار كتب،

ومكتب ترجمة)(1)

3 ـ الأدب

وهو الوصف الثالث من أوصاف طالب العلم المسلم، وهو من أهم الأوصاف، فقد اهتم النظام التعليمي الإسلامي بهذه الناحية اهتماما شديدا، فالعلم لا ينال إلا بالأدب.

ونرى في قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ الكثير من مظاهر أدب موسى باعتباره طالب علم مع أستاذه الخضر.

ويكفي في ذلك الأسلوب الذي خاطبه به عندما لقيه، فقال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾(الكهف: 66)، ففيها كثير من وجوه الأدب.

وقد ذكر الفخر الرازي من تحليله للآية، وموقف موسى عليه السلام فيها، كثيرا من الآداب التي ينبغي على طالب العلم الحقيقي أن يراعيها، قال:(اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعاً كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر)، ومما ذكره من الآداب(2):

1. أنه جعل نفسه تبعاً له لأنه قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾

2. أنه استأذن في إثبات هذا التبعية، فإنه قال هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعاً لك، وهذا مبالغة عظيمة في التواضع.

3. أنه قال: ﴿ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ ﴾ وهذا إقرار له على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم.

4. أنه قال: ﴿ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ وصيغة من للتبعيض فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله، وهذا أيضاً مشعر بالتواضع كأنه يقول له لا أطلب منك أن تجعلني مساوياً في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزأً من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزأً من أجزاء ماله.

1) انظر: المعلم والمتعلم في التربية الإسلامية، إعداد: موجه التربية الإسلامية: عماد صالح إبراهيم محمد، خاص لموقع الدراسات والبحوث.

2) تفسير الرازي: 21/485.

5. أن قوله: ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ اعتراف بأن اللـه علمـه ذلـك العلم.

6. أن قولــه: ﴿ رَشَــدًا ﴾ طلب منــه للإرشــاد والهدايــة والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال.

7. أن قوله: ﴿ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله بـه وفيـه إشـعار بأنـه يكـون إنعامـك علي عند هـذا التعليم شـبيهاً بإنعـام اللـه تعـالى عليـك في هـذا التعليم ولهذا المعنى قيل أنا عبد من تعلمت منه حرفاً.

8. أن المتابعة عبـارة عن الإتيـان بمثـل فعـل الغـير لأجـل كونه فعلاً لذلك الغير، فإنا إذا قلنا: لا إله إلا الله فـاليهود الـذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة فلا يجب كوننــا متبعين لهم في ذكر هذه الكلمة، لأنا لا نقول هذه الكلمة لأجل أنهم قالوهــا بل إنما نقولها لقيام الـدليل على أنـه يجب ذكرهـا، أمـا إذا أتينـا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل رسول اللــه ﷺ فإنمـا أتينا بها لأجل أنه ﷺ أتى بها لا جرم كنـا متـابعين في فعـل هـذه الصلوات لرسول الله ﷺ، إذا ثبت هذا فنقول قوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ يدل على أنه يأتي بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد كـون ذلـك الأستاذ آتياً بها. وهـذا يـدل على أن المتعلم يجب عليـه في أول الأمر التسليم وترك المنازعة والاعتراض.

9. أن قوله: ﴿ ٱتَّبَعَكَ ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقـاً في جميع الأمور غير مقيد بشيء دون شيء.

10. أنه ثبت بالإخبـار أن الخضـر عـرف أولاً أنـه نـبي بـني إسرائيل وأنه هو موسى صاحب التوراة وهو الرجل الذي كلمــه اللــه عــز وجـل من غـير واسـطة وخصـه بـالمعجزات القـاهرة الباهرة، ثم إنه ﷺ مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العاليـة الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع وذلـك يـدل على كونه ﷺ آتيـاً في طلب العلم بـأعظم أنـواع المبالغـة وهـذا هـو اللائق به لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمــه بمـا فيهـا من البهجـة والسـعادة أكـثر فكـان طلبـه لهـا أشـد وكـان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد.

11. أنه قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أن ﴾ فأثبت كونه تبعاً له أولاً ثم طلب ثانياً أن يعلمه وهذا منه ابتداء بالخدمة ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم.

12. أنه قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن ﴾ فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئاً كان قال لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه ولا غرض لي إلا طلب العلم.

وقد تحدث علماء التربية الإسلامية عن كثير من آداب أهل العلم، وخصوها بالمصنفات، فذكروا:

1. آداب المتعلم مع نفسه.

2. آدابه مع شيوخه وأساتذته.

3. آدابه مع أقرانه.

4. آدابه في حلقات العلم.

5. آداب المتعلم مع الكتب والمكتبات (أدوات العلم).

ولن نتحدث هنا عن تفاصيل ما ذكر من آداب، ولكنا نشير إشارات عامة إلى بعضها، والتي يمكن استثمار المربي لها ليحقق فيمن يربيه مواصفات طالب العلم المسلم.

فمن آداب طالب العلم أن يحترم معلمه ويعظمه ويتأدب بين يديه، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ:(تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار وتواضعوا لمن تعلمون منه)[1]

ومن آداب طالب العلم (أن لا يدخل على أستاذه في غير المجلس العام بغير إذنه سواء كان الشيخ وحده أو معه غيره، فإن استأذن ولم يؤذن له انصرف، ولا يكرر الاستئذان فإن لم يعلم الأستاذ يكرر الاستئذان ثلاثا أو يطرق الباب طرقا خفيفا ثلاثا بقدر ما يسمع، وأن يجتهد على أن يسبق في الحضور إلى المجلس قبل حضور الشيخ، ولا يتأخر بحيث يجعل الشيخ في انتظاره، وإذا حضر ولم يجد الشيخ انتظره حتى لا يفوت على

---

1) رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي.

نفسه درسه، وإن كان الشيخ نائما صبر حتى يستيقظ)

ومن الآداب (أن لا يسار في مجلسه ولو في مسألة ولا يغمز أحدا ولا يكثر كلامه بغير ضرورة، ولا يحكي ما يُضْحِك أو ما يتضمن سوء أدب، ولا يتكلم بما لم يسأله شيخه عنه، ولا يضحك من دون الشيخ، وإن غلبه الضحك تبسم بغير صوت، ولا يغتاب أحدا في مجلسه، وأن يخص الشيخ بالتحية وإن كانت له حاجة سبق القوم إلى خدمته، ولا يمل من طول صحبته، وإنما هو كالنخلة تنتظر حتى يسقط عليك منها منفعة)

ومن الآداب (أن يُحسن خطابه مع الشيخ بقدر الإمكان ولا يقول له (لِمَ) و(لا) ولا (نُسَلِّم) ولا (من نَقَلَ هذا)..... وإذا سمع الشيخ يذكر حكما في مسألة أو فائدة مستغربة أو يحكي حكاية أو ينشد شعرا وهو يحفظ ذلك أصغى إليه إصغاء مستفيد في الحال متعطشا إليه فرح به وكأنه لم يسمعه قط)، قال عطاء: إني لأسمع الحديث من الرجل،وأنا أعلم به منه، فأريه من نفسي أني لا أحسن منه شيئا، وعنه قال: إن الشاب ليتحدث بحديث فأسمع له كأني لم أسمعه ولقد سمعته قبل أن يولد.

ومن الآداب (أن يتأدب مع حاضري مجلس شيخه فإنه أدب معه وهم رفقاؤه، ولا يجلس في وسط الحلقة ولا قدام أحد إلا لضرورة، ولا يفرق بين اثنين ولا بين متصاحبين إلا بإذنها، وإن أساء بعض الطلبة لا يتدخل ويترك الأمر للشيخ ويقدم النصيحة لهما سراً)

ومن الآداب (أن يحرص على تحصيل الكتب التي يحتاج إليها شراءً أو إجارةً أو إعارة لأنها آلة تحصيل العلم، ولا يجعل تحصيلها وجمعها هدفاً ونصيباً له من الفهم، بل لا بد من الوعي بما فيها)

ومن الآداب أن يكون طالب العلم متوثّباً للأعالي متشوّقاً للمعالي، كلما أدرك منزلة طمح لما بعدها، ولا يردد ما قال الأول:(كم ترك الأول للآخر؟) ولكن بقول ما قال ابن مالك في التسهيل:(وإذا كانت العلوم مِنَحاً إلهية، ومواهب اختصاصية،

فغير مستبعد أن يُدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثـير من المتقدمين. أعاذنا الله من حسد يسد باب الإنصـاف، ويصـد عن جميل الأوصاف)

ومن أهم الآداب وأرفعها ـ وما جعلناه خاتمة لهـذا الجـزء ـ تقديم تقوى اللـه تعـالى والخشـوع بين يديـه، فقـد وصـف اللـه تعـالى أهــل العلم في القــرآن الكــريم بــأنهم يسـجدون للــه ويخشعون ويبكون حين يسمعون آياته، قال تعـالى: ﴿قُـلْ آمِنُـوا بِـهِ أَوْ لا تُؤْمِنُـوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِـهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُـبْحَانَ رَبِّنَـا إن كَـانَ وَعْـدُ رَبِّنَـا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَـانِ يَبْكُـونَ وَيَزِيـدُهُمْ خُشُـوعاً ﴾(الاسـراء: 107 ـ 109)

قـال عبـد الأعلى الـتيمي:(من أوتي من العلم مـا لا يبكيـه لخليــق أن لا يكــون أوتي علمــاً ينفعــه، لأن اللــه تعــالنعت العلماء، ثم قرأ الآيات السابقة)

وقد وصف اللـه تعـالى العلمـاء بـانهم أهـل خشـية، فقـال تعـالى: ﴿ إِنَّمَـا يَخْشَـى اللَّهَ مِنْ عِبَـادِهِ العُلَمَـاءُ إنَّ اللَّهَ عَزِيـزٌ غَفُورٌ ﴾[فاطر: 28].

ووصفهم بأنهم يحذرون عذابه ويرجون رحمته، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَـاجِداً وَقَائِمـاً يَحْـذَرُ الآخِـرَةَ وَيَرْجُـو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُـونَ إنَّمَـا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: 9].

وعن أبي الدرداء قـال: كنـا مـع رسـول اللـه ﷺ، فشـخص ببصره إلى السماء، ثم قال:(هذا أوان يُخْتَلَسُ العلم من الناس، حتى لا يقدروا منه على شيء)، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: يـا رسول الله، وكيف يُخْتَلَسُ منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه ولنقرئـه نسـاءنا وأبناءنـا، فقـال:(ثكلتـك أمـك يـا زيـاد، إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهـود والنصارى فماذا يغني عنهم؟)

قــال جبــير: فلقيت عبــادة بن الصــامت، قــال: قلت: ألا تسمع ما يقول أخوك أبـو الـدرداء، فأخبرتـه بالـذي قـال، قـال:

صدق أبو الدرداء، إن شئت أخبرتك بأول علم يرفع من النـاس: الخشوع، يوشك أن تـدخل مسـجد الجماعـة فلا تـرى فيـه رجلاً خاشعاً)

ولهذا كانوا يقولون:(ليس العلم بكـثرة الروايـة، إنمـا العلم خشية الله)، وكان مالك يقول:(العلم والحكمة نور يهدي به الله من يشـاء، وليس بكـثرة المسـائل)، وقـال:(إن حقّـاً على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعـاً لأثر من مضى قبله)

وقيـل لسـعد بن إبـراهيم: من أفقـه أهـل المدينـة؟ قـال: (أتقاهم لربه)